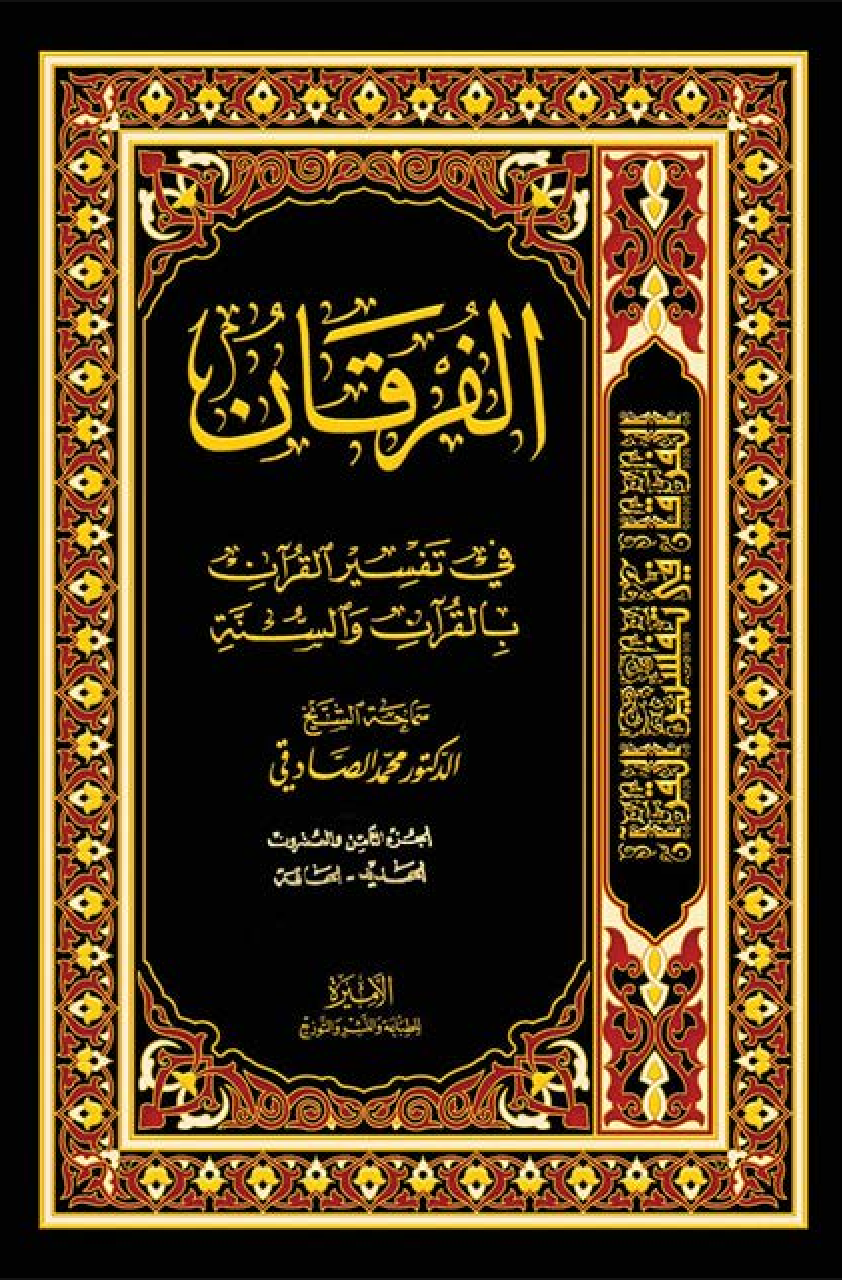

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثامن والعشرون
الحديد - الحاقة
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الثامن والعشرون



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٥٣

سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ
ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ
إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ
أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)
أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ
يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ (٣٧)
أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ
سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ
خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ
أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٖ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ
هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْأٓزِفَةُ (٥٧)
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ (٦٢)﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾:

توحي ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هنا، المفرَّعة - كغاية - على ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي...﴾ أن الجزاء على السيئة والحسنة في العقبى من غايات ونتاجات الملكية المطلقة الإلهية لما في السماوات والأرض، تُرى أن الذي يملك الأولى، ألا يملك الأخرى؟ نعم وبأحرى، كما وأن الجزاء من غايات ونتاجات علمه تعالى بالغيوب كلها: ﴿... عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾[1]. ومن ناحية أخرى إن من الأهداف الرئيسية في خلق السماوات والأرض ومن فيهما أن يُعبد الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ومن ثم الجزاء: السيئة بمثلها والحسنة بالحسنى، فملكية السماوات والأرض في الأولى، دليل على الملك في الأخرى على الجزاء، وعلمه بالأعمال كلها وخلق الخلق، ولكي يُعبد الله، دليل على لزوم تحقيق الجزاء: عدلاً للذين أساؤوا إذ يُجزون بما عملوا، وفضلاً للذين أحسنوا إذ يجزون بالحسنى: وهي الأحسن مما عملوا وأقلها عشر: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2]، وإذا كانت الحسنة كبيرة سلباً أو إيجاباً[3] فهي تكفر السيئات اللّمم، إضافة إلى جزائها بالحسنى، ثم وهناك زيادة على الحسنى المرسومة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4] زيادة على الحسنى

---

(١) سورة سبأ، الآيات: ٣-٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٣) سلباً يعني ترك كبائر السيئات وإيجاباً: فعل كبائر الحسنات.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٦.

التي وعدها كل المحسنين: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١] وترى مَن هم المحسنون؟:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾:

فمن لا يجتنب كبائر الإثم والفواحش، وإن أتى بصغائر الحسنات، أو ترك صغائر من السيئات، وإن ترك بعض الكبائر من الإثم وبعض الفواحش، إنه لا يُعد من المحسنين هنا، فليس جزاؤه الحسنى، اللّهم إلّا الأضعاف العشر، وأما أن تعفى عنه اللمم، أو يكفر عن سيئاته، أو يبدّل سيئاته بحسنات، فلا، فإنها من الحسنى الخاصة بمن يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٢] بعد ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣].

ترى ما هي كبائر الإثم، والفواحش، وما هي اللمم المكفر عنها بتركهما؟.

إن الإثم هو الفعل المبطئ عن الثواب، فمنه صغير، ومنه كبير كالخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[٤] والشرك بالله وهو أكبر الكبائر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٥] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٦] والافتراء على الله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾[٧] ورمي البريء بما فعل الرامي من خطيئة أو إثم وإن كان صغيراً ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٦) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٧) سورة النساء، الآية: ٥٠.

مُّبِينًا﴾[١] وبما لم يفعله الرامي أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢] والقتال في الشهر الحرام عند المسجد الحرام إلّا دفاعاً ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ...﴾[٣] فالصد عن سبيل الله، والفتنة بين المؤمنين وعليهم، وإخراج أهل المسجد الحرام، إنها كذلك من كبائر الإثم.

وبصيغة شاملة «كل شيء وعد الله عليه النار»[٤] كالشرك بالله واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس المحترمة، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزحف، وأكل الربا، والسحر، والزنا، واليمين الغموس، ومنع الزكاة المفروضة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر، وترك الصلاة متعمداً، ونقض العهد، وقطيعة الرحم، والركون إلى الظالمين ومعونتهم، والسرقة، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والبخس في المكيال والميزان وحبس الحقوق من غير عسر، والكذب والكبر والإسراف والتبذير والخيانة والاستخفاف بالحج، والمحاربة لأولياء الله، والإصرار على الذنوب وكتمان ما أنزل الله، وإيذاء رسول الله ﷺ، وأمثال ذلك مما عده الله كبيراً كالمسبقة، أو شدّد عليه النكير وندد بفاعله كثيراً[٥] فإنها من

(١) سورة النساء، الآية: ١١٢. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٤) نور الثقلين (٥ : ١٦٤) عن ثواب الأعمال للصدوق بإسناده إلى عباد بن كثير قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الكبائر فقال: كل شيء وعد الله عليه النار.

(٥) من لا يحضره الفقيه روى عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن أبي جعفر عليه السلام محمد بن علي الرضا عليه السلام عن أبيه قال سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله عليه السلام فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ [النّجم: ٣٢] ثم أمسك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أمسكك؟ فقال: أحب أن أعرف الكبائر=

كبائر الإثم والفواحش، طالما تختلف هذه الكبائر والفواحش في دركاتها وعقوباتها دنيوية وأخروية.

= من كتاب الله عز وجل، فقال: يا عمرو! أكبر الكبائر الشرك بالله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] ويقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وبعده اليأس من روح الله لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ثم الأمن من مكر الله لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ومنها عقوق الوالدين لأن الله عز وجل جعل العاق جباراً شقياً، في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وقذف المحصنات لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]. وأكل مال اليتيم ظلماً لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. والفرار من الزحف لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، وأكل الربا لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، والسحر لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُۥ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]. والزنا لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]. واليمين الغموس (وهي الكاذبة الفاجرة) لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. والغلول (السرقة والخيانة) قال الله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. ومنع الزكاة المفروضة لأن الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥]. وشهادة الزور وكتمان الشهادة لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وشرب الخمر لأن الله عز وجل عدل بها عبادة الأوثان: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾ [المائدة: ٩٠]. . وترك الصلاة متعمداً لأن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله». ونقض العهد وقطيعة الرحم، لأن الله عز وجل يقول: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. قال: فخرج عمرو بن عبيد وله صراخ من بكائه وهو يقول: «هل من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم». =

وأما الفواحش بصورة خاصة فهي المتجاوزة من المعاصي، تجاوزاً إلى غير العاصي، أو تجاوزاً حد العبودية كأنه خارج عنها، ويجمعهما: ما عظم قبحه من الأفعال والأحوال والأقوال، ظاهرة وباطنة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾[1].

والفاحشة المتجاوزة إلى الغير أفحش من غيرها: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[2] فقرن ظلم النفس بفعل الفاحشة يوحي أنها هنا ظلم الغير، فردياً أو جماعياً: كالزنا واللواط اللذين يدنسان المجتمع، ويعملان الفوضى في الأنساب فالزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[3] واللواط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[4].

وفي ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ إيحاء إلى طبيعة الاجتناب، إن المحسنين يعيشونها كأصل في القمة من أصول الحياة فلا ينافيه الانفلات أحياناً إلى شيء من كبائر الإثم والفواحش، ما لم يصبح طبيعة ثانية لهم، فالمؤمن قد تأخذه

= وفي عيون أخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا عليه السلام من محض الإسلام وشرايع الدين قال عليه السلام: (في عد الكبائر)... وزاد «و أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به».

والميسر وهو القمار، والبخس في المكيال، واللواط، ومعونة الظالمين والركون إليهم، وحبس الحقوق من غير عسر، والكذب والكبر والإسراف والتبذير والخيانة والاستخفاف بالحج والمحاربة لأولياء الله والاشتغال بالمناهي والإصرار على الذنوب.

أقول: ومن الكبائر كتمان ما أنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٩] وإيذاء الرسول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبَة: ٦١].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.
(٤) سورة النمل، الآية: ٥٤.

نازلة الفاحشة والكبيرة وجنونهما[١] ولكنه ما يلبث إلا أن يستغفر الله وكما يقول الله في أوصاف المحسنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢] ففعل الفاحشة للمؤمن من اللمم، ومن معانيها النازلة والجنون الغفلة، اللتان قد تنزلان به.

كما وأن قضية الاستثناء هنا ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ الظاهر في الاتصال، أن اللمم، - أو أن منها - كبائر الإثم والفواحش، النازلة به أحياناً بجنون الغفلة وفنون الغفوة، وقد أتته ﷺ امرأة فشكت إليه لمماً بابنتها - وهي طرف من الجنون، وعلى حد المروي عن النبي ﷺ: «اللمم هو الذي يلم بالخطرة من الزنا ثم لا يعود ويلم بالخطرة من شرب الخمر ثم لا يعود ويلم بالسرقة ثم لا يعود»[٣] فاللمم «هو الإلمام بالذنب أحياناً دون أن يكون من سليقته وطبعه[٤] لأن المؤمن مطبوع بترك الكبائر والفواحش.

وإذا كان اقتراف الكبائر دون تكرار من اللمم، فأحرى أن يكون منها اقتراف الصغائر دون إصرار، وأحرى منهما اقتراب أي منهما دون عمل وإقرار، فمن معاني اللمم الاقتراب والمشارفة[٥] والجمع الإصلاح، فمن

(١) اللمم النزول، والملمة النازلة الشديدة، واللمم الطائف من الجن والجنون مساً، فمقارفة الكبيرة للمؤمن حالة من الجنون واللاوعي التي قد تعتريه ثم تزول.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٣) الدر المنثور ٦ : ١٢٨ - أخرج ابن مردويه عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: أتدرون ما اللمم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: هو الذي... وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضاً أن اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه كما في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام بأسانيد عدة.

(٤) رواه القمي في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من ذنب إلا وقد طبع عليه عبد مؤمن يهجره الزمان ثم يلم به وقول الله عز وجل ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] قال: اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أي من طبعه.

(٥) تقول العرب: ما تزورنا إلا لماماً أي أحياناً وضربته ما لمم القتل أي قاربه، وألم يفعل كذا: قارب، ومنذ شهرين أو لممها - مذ شهر أو لممه أي قراب شهر، وفي حديثه ﷺ وإن مما=

يجمع: يعزم - على ذنب، ثم ينصرف، مقارباً له مقارفاً إياه، فقد أخذته اللمم، ومقاربة الذنب هي الدخول في معداته ومقدماته وكما عن النبي ﷺ[١].

إذاً فمقاربة الكبيرة وإن كانت بتكرار، أو مقارفتها دون تكرار، أو الصغيرة دون إصرار، هذه كلها مما تعنيه اللمم المستثناة، معاني تتجاوب مع بعض، كما وتتجاوبه الأدلة: كتاباً وسنة ولغة واعتباراً، فالمسيء هنا هو المدمن للفاحشة والكبيرة، إذا أصبحتا من طبعه وسليقته، وما سوى الإدمان، لمم فمنها اقتراف صغائرها المعدة لها، وقد لا يخلو منها أي عبد وكما يروى عن النبي ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما[٢]

= ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم: يقارب وفي صفة الجنة: فلولا أنه شيء قضاه الله لا لم أن يذهب بصره، وفي حديث الإفك: وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله اللمم، ونخلة ملمة: قاربت الارطاب، وغلام ملم قارب البلوغ والاحتلام (لسان العرب).

(١) الدر المنثور ٦: ١٢٧ عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال ﷺ: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. ويقربه ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود في قوله إلا اللمم قال: زنا العينين النظر وزنا الشفتين التقبيل وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللمم، أقول: نصدق ذلك إلا حصر اللمم في المقدمات، فإن الزنا أحياناً أيضاً من اللمم كما سبق.

(٢) قاله أمية وتمثل بها النبي ﷺ فإنه ما كان ينشد أشعاراً ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وفي الدر المنثور ٦: ١٢٧ أخرجه سعيد بن منصور والترمذي وصححه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: إلا اللمم قال هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها قال قال رسول الله ﷺ: إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألما، أقول وقوله ﷺ هذا لا يدل على أنه من إنشاده لما دل عليه القرآن.

وأخيراً في ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ...﴾ إيحاء واضح بكون اللمم ذنباً - لا اهتمامه فحسب - وإلّا فمم المغفرة؟ فلتكن من اقتراف كبيرة، أو اقترابها بصغيرة، فالذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش كطبيعة لهم إيمانية، إلّا أن يقعوا في شيء منها أو دونها، ثم يعودوا سراعاً دون إصرار ولا تكرار، فـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١): يعلمون أنه فاحشة، ويعلمون: أن يكونوا في حالة عادية ذاكرين عامدين، وأما التكرار والإصرار دون علم بالفاحشة، أو في غفلة وجنون الغفوة فلا يخرجهم عن الإيمان.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾.

﴿هُوَ﴾ الله ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منكم ومن سواكم من العالمين في ملأ العالمين، ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾: بذواتكم وصفاتكم وأفعالكم وطوياتكم وكلِّ كيانكم إسراراً وإعلاناً.

﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ إذ لم تكونوا شيئاً مذكوراً: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ كما أنشأ آدم الأوّل من طين لازب، ثم أنشأ ذريته - كذلك - من أجزاء الأرض إذ خلق منها نطفته، ورباها في الأرحام وقواها بمواد الأرض، و﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ كذلك إذ كنتم شيئاً مذكوراً: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إذ لم تكونوا لتعلموا شيئاً، وإلى أن أخرجكم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(٢).

ترى كيف تصح صفة التفضيل في العلم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ حين إذ لا علم للمفضل عليه: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؟!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

علّه لأن ﴿أَعْلَمُ﴾ لا تختص بالحالتين الجاهلتين، فإنها شاملة للحالات كلها، وإلى أعلى درجات العلم، كما تشمل أدنى دركات الجهل، وقد توحي به «كم» فأحرى أن تشمل حالة الشعور العلم، لكي يصلح للخطاب، وإنما ذكر حالتا الجهل اللّاشعور: ﴿أَنشَأَكُم . . . أَجِنَّةٌ﴾ ذكرتا دون حالة العلم؟ إذ لا مماراة في جهلها المطلق: حين الإنشاء والأجنة، إضافة إلى أنهما تحملان حجة للأفضلية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ فإن المنشِئ للشيءِ لا يعزب عن علمه منه شيء، والجنين المستور عن كل فاعل ومحاول، العاجز عن تدبير أمره، لا يعلم من نفسه وسواه شيئاً، كما لا يعلمون عنه شيئاً، والله المنشئ البارئ للجنين هو الذي يعلم منه كل شيء، فهما إذاً حجتان للأعلمية الشاملة الإلهية بنا(١)، وفيما نعلم الكثير الكثير في زعمنا! ولكن أين علم من علم! علم سابق شامل، وعلم لاحق جاهل، فمهما علمنا أشياء، نجهل آلاف الأضعاف أشياء! علم ذاتي جوهري، وعلم عارضي، علم لا يخالطه جهل، وعلم أكثره جهل، علم حادث يزول، وعلم أزلي لا يزول؛ ما يحق أن يقال: علم مطلق وجاه جهل مطلق! ولكن الله يمن علينا إذ يصفنا بصفة العلم، ثم يفضل نفسه علينا فيه كما في سواه، رغم التباين الكلي بين صفاته وصفاتنا، كما وبين ذاته وذواتنا!

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ توحي أن التقوى هي السبب الوحيد للتزكية الحقيقية، والإنسان المنشأ من الأرض بطبعه يميل ويثّاقل إليها إلّا من هداه الله واهتدى وسلك سبيل التقوى، وجانب وبيل الطغوي فلأنه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بكونكم وكيانكم كما أنتم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: ادعاءً أنني بريءٌ من وصمات الطغوى، ومليء بسمات التقوى.

(١) فـ«إذ» هنا وهناك تحمل معنى الزمان والتعليل، هو أعلم بكم حين أنشأكم و. . ولأنه أنشأكم - فإن المنشئ أعلم من المنشأ وإن كان هو أيضاً عالماً، أفضلية الخالق من المخلوق.

والتزكية، وهي التحرّي عما فيه التطهير عن الأدناس الخُلقية والعقائدية والعملية، إنها كما تنسب إلى العبد، كذلك إلى الله وإلى رسل الله الحاملين رسالات الله ببلاغات التزكية للمرسل إليهم، وسواء في ذلك القول أو العمل والسعي، إن كان في الدنيا أم في الآخرة.

فالتزكية العملية في نطاق التأييد والتوفيق دنياً، وفي التكفير عن السيئات دنيا وعقبى، إنها خاصة بالله تعالى شأنه، وكما أن القولية منها شهادة على النزاهة الصادقة، ولا تعتبر إلّا منه أو بوحي منه، فإن المكلف قد يجهل أخطاءه العامدة منها أو الساهية، فلا يحق له اعتبار نفسه مزكىً إلّا بشهادة الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[1].

والتزكية البلاغية بالوحي قولياً وعملياً خاصة برسل الله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾[2]: وساطةً في بلاغ الوحي دون أن تملك هداية المهتدين: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3].

وتزكية السعي في التزكي خاصةٌ بالمكلفين، وهي لا تكفي في الحصول على النتيجة إلّا بفضل من الله ورحمته تأييداً وتوفيقاً: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

فعلى المكلف السعي الكادح في تزكية نفسه متوكّلاً على الله، بدلالات رسل الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[5] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[6].

وليعرف أن تزكية التوفيق في الدنيا إنما هي بيد الله، كما وهي في تكفير السيئات دنياً وعقبى بيد الله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[7] ولا يزكي هنا

(١) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٤) سورة النور، الآية: ٢١.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٦) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٧) سورة النور، الآية: ٢١.

وهناك إلّا من يتزكى هنا، وأما من لا يتزكى فلا: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[٢].

فتزكياتنا العملية بتوفيق الله ودلالات رسل الله، إنها واجبات محتومات، والقولية منها تنزيهاً لأنفسنا قد تجوز فيما إذا كانت حقاً، وقد تجب إذا كانت في مقام دفع فرية أو تهمة، أو إثبات عدالة أو فضيلة وجاه الناكرين أو الغاصبين حقوق العدل والفضل أو أية ضرورة[٣] كما كان يفعله النبيون وسائر المعصومين والعلماء الربانيون[٤].

ومن التزكيات القولية ما تحرم كالمدّعاة في غير حق، من فضيلة منفية تدعّى، أو متواجدة يدعي واجدها أنها من سعيه متحللاً عن توفيق الله، أو دلالة رسل الله فـ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ تنحو نحو الأولى،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٣) في تفسير العياشي قال سفيان لأبي عبد الله عليه السلام: ما يجوز أن يزكي المرء نفسه؟ قال: نعم إذا اضطر إليه أما سمعت قول يوسف: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم، وقول العبد الصالح: وإني لكم ناصح أمين.

(٤) الاحتجاج للطبرسي عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أتى يهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام بين يديه يحد النظر إليه فقال، يا يهودي، ما حاجتك؟ فقال: أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي الذي كلمه الله عزّ وجلّ وأنزل عليه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظله بالغمام؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنه يكره العبد أن يزكي نفسه ولكني أقول: إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أنه قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفر الله له، وإن نوحاً لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عزّ وجلّ، وإن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما آمنتني قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] يا يهودي! إن موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوتي، ما نفعه ايمانه شيئاً ولا نفعه النبوة، يا يهودي! ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى ابن مريم عليه السلام لنصرته فيقدمه ويصلي خلفه.

و﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾(١) نحو الثانية، كما أن ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٢) تشمل الآخرة والأولى، تزكية التقوى في الأولى، وتزكية عن الطغوى في الأخرى.

ومهما يكن من شيء في التزكية الحقة منا لأنفسنا، فإنها مرجوحة إلّا عند الضرورة، وبسناد الوحي أو شبهه، متنبهاً منبِّهاً أن تزكية المرء لنفسه قبيحة(٣) وكما «يخشى الرسول ﷺ على أمته أن تزكي أنفسها»(٤) «ولا يُزكّى على الله أحد»(٥) إلّا من يزكيه الله، أو يعرف زكاته عند الله، فيما يرضاه الله.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾:

توحي هذه الآيات أن هذا الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى، هو الذي ألقى وزره على وازرة أخرى، كأنها تتحملها عنه، فلذلك ﴿تَوَلَّىٰ﴾ عما يتوجب عليه فعله أو تركه ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾: فيما أعطى، قبل أن يتولى، إذ

---

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٣) في معاني الأخبار للصدوق بإسناده إلى جميل بن دراج قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] قال: قول الناس: صليت البارحة وصمت أمس ونحو هذا، ثم قال: إن قوماً كانوا يصبحون فيقولون: صلينا البارحة وصمنا أمس فقال علي عليه السلام: لكني أنام الليل والنهار ولو أجد بينهما شيئاً لنمته.

وفي احتجاج الطبرسي عن علي عليه السلام: ولولا ما نهى الله عن من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمحها آذان السامعين.

(٤) حم ٤: ١٧١.

(٥) خ أدب ٥٤.

كان ينفق كفارة لسيئاته رجاء أن تعفى، وبعد ما تولى، أعطى لمن يزعمه أنه يزر وزره بعد هذا ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: قطع ما كان ينفقه من ذي قبل.

فالآيات الست الأخيرة تنديدات بهذا المتولى المُكدي، وبكلّ من حذا حذوه، من الذين لا يعملون صالحات، ثم يأملون الثواب من أعمال غيرهم، أو من ادعاءاتهم أنهم يتحملون أوزارهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1] ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2].

يُروى أن المتولي المكدي هنا «هو عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شيء، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وإني أطلب ما أصنع رضى الله وأرجو عفوه، فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن النفقة فنزلت الآيات»[3].

وكما يروى ذلك في غيره أيضاً وعلّها من أشخاص عدّة تنزيل الآيات تنديداً بهم وأمثالهم أياً كانوا.

فهنا الآيات تندد بمن يزعم هكذا، أولاً: أن لا سناد له من علم الغيب، وحملُ أوزار الآخرين لو صح، فهو من غيب الله ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ والغيب الوحيُ خاص برسل الله، وهؤلاء المناكيد هم رسل الشيطان وأولياؤه.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٣) كما حدثه الزمخشري في الكشاف، ورواه ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين.

وأخيراً هنالك إثباتات من كتاب الوحي: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

ففي كتاب موسى (سفر التثنية ٢٤: ١٦): «لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل» كما وفي فرع من فروعه: (حزقيال ١٨: ٥ - ٢٢): «النفس التي تخطئ هي تموت ٥ - والذي سلك في فرائضي وحفظ أحكامي ليعمل بالحق فهو بارٌ حياةً يحيا ٩ - وإن ولد ابناً رأى جميع خطايا أبيه... ولم يفعل مثلها ١٤ - وسلك في فرائضي فإنه لا يموت بإثم أبيه - ١٧ وأما أبوه فهو ذا يموت بإثمه ١٨ - وأنتم تقولون... لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب ١٩ - وأما الابن فقد فعل حقاً وعدلاً حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياةً يحيا ٢٠ - النفس التي تخطئ هي تموت ٢١ - الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن ٢٢ - برّ البار يكون عليه وشر الشرير عليه يكون ٢٣ -».

وإنها حقيقة جارفة أوهام الضالين، تحملها فيما تحمل، هذه الآيات التوراتية وآيات عدة قرآنية[١] تجاوباً مع نداء الفطرة العادلة، مندِّدة بما اختلقته الكنائس: «إن المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» و«إن بني آدم كلهم عصاة في ذواتهم إذ عصى آدم ربه فغوى، فلا بدّ من فاد يفدي بنفسه ليخلصهم من وزر العصيان وهو المسيح الفادي إذ لُعن بصلبه لأجلنا»![٢]

ومن أشمل الآيات الناكرة لها، المندِّدة بها آية الإسراء: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]: إن الهداية والضلالة لا تتعديان بنتائجها إلى غير الساعي لهما ولو كان ذا قربى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا

(١) كما في السور ٦: ١٦٤ و١٧: ١٥ و٣٥: ١٨ و٣٩: ٧.
(٢) راجع (عقائدنا) ص ١٦٠ - ٢١٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

قُرْبَىٰٓ﴾[1] بل الضالون المدعون هكذا حِمل: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[2] ودون أن ينقص من أوزار المضللين شيء.

فهذه بالنسبة للأوزار من أي كانت ولأيٍّ، كما وأن مساعي الخير لا تتعدى أصحابها: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ضابطة عامة لا تُستثنى، شاملة لكل المساعي في الدنيا ولها وللآخرة، طالما المؤمن لا يراها في الأولى إلا قليلاً، ولكنه: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في البرزخ والقيامة، رؤية تبهجه وتبشره ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: فسعيه يوم الدنيا هو هو جزاؤه يوم الآخرة، إذ تظهر حقيقته بعدل الله وفضله.

فهنا في الحياة الدنيا يرى بعض الجزاء لما سعى، ثم في الوسطى: البرزخ، يرى وفياً من الجزاء، وثم في الأخرى يرى جزاءه الأوفى، وهو ظهور ما سعى بكامل حقيقته كما وعد الله الساعين الصالحين، وأوعد الساعين الطالحين:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[3].

حوار حول آيتي الوزر والسعي:

آية الوزر تنفي أن تزر نفس وازرة وزر نفس وازرة أخرى، ولا تنفي ذلك من نفس غير وازرة كالمعصومين الطاهرين عن الأوزار، فلا تنفي إذاً أن تزر نفس المسيح عليه السلام أوزار أمته. أو سواه من المعصومين عن سواهم من الوازرين.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

الجواب: إن الوازرة هنا ليست هي الحاملة لوزرها، بل هي المتحملة ادعاء لوزر وازرة أخرى حاملة لها، و﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تضرب هدفين بسهم واحد: إنها لا تحمل ما تحملته، يوم الحساب - ولو استطاع - ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] إذ هي مثقلة بأوزارها نفسها، فكيف تحمل أوزار غيرها، وهي ترجو أن تُحمل أوزارها لتخف هي عنها، وهي نفس كافرة أو فاسقة لا تستقيم على وعدها يوم الدنيا، فكيف بالأخرى!. وإنها لا يؤذن لها أن تتحمل وزر غيرها ولو صدقت، طالما تتحمل من أوزار من أضلتها دون أن ينقص عن المضلل شيء.

ثم إذا لا يؤذن لنفس خاطئة أن تزر وزر أخرى، رغم استحقاقها العذاب فكيف بأنفس معصومة طاهرة مستحقة لكل تكريم، أن يؤذن لها لتحمل أوزار غيرها فتعذب هي عنها، وترحم صاحبة الوزر، إن هي إلا قسمة ضيزى وفرية على السيد المسيح: أن تحمل بصلبه جميع لعنات الناموس، وازرة معصومة طاهرة، تحمل أوزار أنفس عاصية قذرة! فسلام لك أيها المظلوم المهتوك ممن يذود عنك تلك الوصمات، واللعن على المفترين عليك.

وما شفاعة الشافعين الطاهرين لبعض العاصين حملاً لأوزارهم، إنما هي غض عنها كأن لم تكن شيئاً.

وهكذا نرى في آيات الجزاء - كلمة حتم لا تستثنى -: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3] إنما الخطيئة على أصحابها، دون أن تتخطاها إلى غيرها، مؤمنة أو فاسقة، حكم عادل عاقل لا تخلف فيها ولا استثناء عنها.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وحول آية السعي، كيف يكون للميت عائدة وفائدة عما يسعاه الحي، وما هو بساع لنفسه، ولا ينفعه لو سعى بعد ما قضى نحبه؟ وكذلك حي عن حي أو شفعاء عمن لهم يشفعون فيشفّعون؟

الجواب: إن العائد إلى الميت ليس إلا قليلاً وفي إطارات خاصة، وما عوده إلى الميت إلا عوداً إلى الساعي، فإنه يسعى للميت، فلو لم يعد من سعيه شيء إلى الميت لم يفده سعيه في بغيته، فكما أن للإنسان ما يسعاه لنفسه، كذلك له ما يسعاه لغيره، فما يبغيه لغيره يعتبر بغية له لنفسه، كسائر القربات المهداة إلى المؤمنين أحياء وأمواتاً، سواء أكانت بأجور أم قربة دون مقابل، على أن ذلك ليس فوضى كما يبغيه الساعي، وإنما فيما يؤهل له ومن يؤهل، فهذان سعيان ينتجان عائدة للمهدى إليه وكما يأذن الله، وفي الغائبة من واجبات جزئية قصوراً أو تقصيراً أم ماذا[١].

وأما شفاعة الشفعاء، فهي أيضاً من سعي المشفع لهم بفضل الله، من توبة، واجتناب لكبائر المنهيات، ومن رجاحة للحسنات، ومن أهلية للشفاعات، فكل ذلك مما سعاه المشفع له، وهو من سعي الشافع أيضاً لأهليته لها، كما وأن غيرهما - غير - الآهلين للشفاعة لا يشفَّعون أو يشفع لهم.

ومن هؤلاء من سن سنة حسنة أو سيئة فإن له مثل أجر أو وزر من عمل

(١) أصول الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: سألته عن الرجل يحج فيجعل حجته وعمرته أو بعض طوافه لبعض أهله وهو عنه غائب في بلد آخر، قال: قلت فينتقص ذلك من أجره، قال: هي له ولصاحبه وله أجر سوى ذلك بما وصل، قلت: وهو ميت هل يدخل ذلك عليه؟ قال: نعم، حتى يكون مسخوطاً عليه فيغفر له أو يكون مضيقاً عليه قلت: فيعلم وهو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه؟ قال: نعم، قلت: وإن كان ناصباً ينفعه ذلك؟ قال: نعم يخفف عنه.

أقول: وأما بالنسبة للمشركين فلا نفع ولا تخفيف حيث النهي عن الاستغفار لهم، وفي نيابة العبادات روايات كثيرة.

بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم أو أوزارهم شيء، كما في مستفيض الأحاديث، فإن ذلك كله من سعيه الصالح أو الطالح ولو انقطع عمله، فإن له سعياً في أعمالهم، فله أو عليه ما سعاه كما سعى.

ولقد سبقت آية الإلحاق: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[1] وإن الإلحاق فيها من مساعي الطرفين، اتباع الملحقين بهم، بإيمان، وإيمان الأصول المتبوعين الراجين ذلك الإلحاق، كما فصلناه مسبقاً.

جولة أخرى في آيتي الوزر والسعي

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ رؤية البصيرة والتبصرة والادكار ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن منهج الإيمان، والتعرض لمواضع الغفران ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾: كماً وكيفاً، قدراً وزمناً ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: بلغ كدي العطاء وانقطاعه، فترك القليل أيضاً وضنَّى به ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وحياً كما عند الموحى إليهم «فهو يرى» الغيب: سماعاً له بإذن القلب، ومنه ما ادعى؟! والغيب لله، ثم من يوحي إليه كما يشاء، وهذا المكدي المتولي من رسل الشيطان يوحي إليه ما يشاء ﴿أَمْ﴾ إذ ليس عنده الغيب، فهل ﴿لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾: فإن دين الله في أصوله قديم، موصولة أوائله بأواخره، يصدق بعضه بعضاً عبر الرسالات، دون أن يفصل بعضه عن بعض فواصل الزمان والمكان، ومنه كأصول لكتابات الوحي المفصل «صحف إبراهيم وموسى» فالإنجيل ليس إلا فرعاً لهما، إضافة إلى تحرفه عن هذا الأصل كالكثير من الأصول، وصحف نوح غير متواجدة، ولو كانت فهي بدائية إجمالية دون تفاصيل، ثم القرآن وهو الصحيفة الأصيلة المهيمنة على سائر صحف الوحي يكرر هذا الأصل مرات: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ لا تخفيفاً عنها

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

تثقيلاً لنفسها، ولا لنفس أخرى، ولا تخفيفاً دون أي تثقيل ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ كما ليس لسواه من الساعين ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ لا أقل منه إلا ما أحبطه وأفسده، لا - إلا قدره أو زيادة بفضل الله ومنّه، فليس له في شريعة الله دنياً، وفي جزائه عقبّى ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فلا يحق استثمار مساعي الناس واستغلالها لمن لم يسع أو لم يشارك الساعي، اللهم إلا قدر سعيه فكرياً أو عملياً أم ماذا؟ وبقسطاس الحق والعدل.

ومهما يكن من ظلم وانتقاص في المساعي دنياً، ففي الأخرى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ يراه الساعي وسواه في البرزخ والقيامة رؤية تناسبه ويناسبها، لمساً أو ذوقاً أو سماعاً أو إبصاراً أم ماذا؟ وكما سعى! يراه ويجزاه كجزاء موقت في البرزخ «ثم» في القيامة الكبرى «يجزاه»: سعيه ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ فإنه هو السعي الظاهر بحقيقته في الأخرى.

والأوفى هنا توحي بأن السعي هنا في الصالحات، فغيرها بين مكفرة، أو ناقصة عنها، أو قدرها وهو الوفي، والأوفى تشير إلى زيادة أقلها عشر أمثالها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] فالأوفى في هكذا إطلاق يعني أوفى من سعيه ومن كل جزاء يتصور كضابطة عامة في جزاء الحسنات، بخلاف السيئآت التي يجزاها صاحبها - فيما يجزى - الجزاء الوفي أو دونه، فإن الأوفى فيها ظلم، بخلافه في الحسنات فإنه فضل.

و«ثم» علها إشارة إلى التراخي بين الجزاء في الأخرى، عن البرزخ والأولى، طالما رؤية السعي كذلك من جزائه.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وكما أن منه المبتدأ، فهو المنتهى في المهمات والملمات، وإليه الرجعى في كل القضيات، لا يملك معه أحد شيئاً إلا بإذنه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

كما ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في التفكير والاكتناه، فكل شيء يجوز فيه التفكير علك تعرفه بكنهه، أو قدر ما تحاول، إلا الله، فلا تنفعك عميقات التفكير في ذاته وصفاته(١) إلا حيرة وضلالة وبهوة، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لن تقدروه»(٢) «... فتهلكوا»(٣).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾:

إن هذا النبأ وما قبله وبعده - وهي إحدى عشر نبأ - كلها مما نبئ بها في صحف إبراهيم وموسى، ذات صلة قريبة أم بعيدة بدحض الوهم المسبق ممن يزكي نفسه ويلقي وزره على غيره، ويتولى عما يتوجب عليه.

فالإضحاك والإبكاء هما - مبدئياً - من الله، فقد خلق ما منه يضحك أو يبكي وحالة الضحك وحالة البكاء، مهما كان للإنسان صنع فيهما، فإنهما وإن كانا من سائر الأفعال الاختيارية، لا ينقطعان عن إرادة الله، الذي هو وإليه المنتهى، وأما غير الاختياري منهما فالأمر فيهما واضح.

فالله أنشأ للإنسان دواعي الضحك والبكاء في تركيبات نفسية وعضوية، وظروف خارجية أو داخلية يضحك منها أو يبكي، فهما من أسرار التكوين البشري، كالألوف من أضرابهما.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

فإنه خلق الموت والحياة كسائر الخلق، مهما كان للإنسان حيلة أو

---

(١) التوحيد للصدوق عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن الناس قبلنا قد أكثروا في الصنعة فما تقول؟ فقال: مكروه، أما تسمع الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]،

(٢) الدر المنثور ٦: ١٣٠ أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: ...

(٣) «أخرجه أبو الشيخ عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا» أقول: وفيه أحاديث كثيرة.

محاولة للموت، فلن تكون للحياة!: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١] وأنى للإنسان أن ينشئهما، وهو حتى الآن حائر في حقيقتهما وبواعثهما وأسرارهما، ترى بعد أنه خالق لهما ولا يدري ما هما؟ ومن أين؟ وكيف؟ ومتى؟ ولماذا؟!.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

عدم ذكر الخنثى التي لا هي ذكر ولا أنثى أو يجمعهما، إنه يدلنا هنا في مقام استعراض الخلق، أن الصنفين هما الحاضران لا ثالث لهما، ولا برزخ بينهما، وكما في سائر الآيات المستعرضة لهما، وموقع الزوجين هنا وفي غيرها، دون أزواج ثلاث، يؤكد ذلك الحصر، فالخنثى هي في الواقع إما ذكر أو أنثى وقد تظهر حقيقتها بعملية الجراحة.

ثم النطفة إذا تمنى: تقدر بالقدرة الإلهية، ضمن تقدير المني: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[٢] فالمني هو التقدير، وهو هنا تقدير المني في ذاته وصفاته وأفعاله وانفعالاته، ومنها انبثاقه إلى قعر الرحم، ثم تقدير نطفة من المني لكي يبدأ منها الجنين دون زملائها، فغير المقدَّر من مني أو نطفة لا يصبح جنيناً، ويا لهذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي وملايين أمثالها في نقطة واحدة من مني يمنى، يا لها من أعجوبة في ملايين من عجائب التكوين، أين كانت كامنة بما تملكها من ميزات؟ وأين خصائص الذكورة أو الأنوثة، والوراثة أم ماذا؟![٣].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

النشأة الأخرى هي الإحياء مرة أخرى في الأخرى، وكما أحيا في

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٧.

(٣) راجع الفرقان الجزء الثلاثين.

الأولى.. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] وهي النشأة الأولى، فتلك النشأة كهذه، ليست إلا عليه تعالى لا سواه، فإليه الإياب وعليه الحساب، وهو المالك يوم الدين لا سواه.

فتلكم النشأة عليه واقعاً وفرضاً، واقعاً لأنه الخالق المنشئ للمنشآت، لا خالق سواه، وفرضاً بما وعد ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2] وبما فرض وكتب هو على نفسه من الرحمة عدلاً وفضلاً لا سواه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[3] ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[4] كما وعليها من النشأة الأولى دليل على إمكانيتها وفرضها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[5]. تذكراً بواقعها، لا علماً بحقيقتها: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[6] فإن الإنشاء ولا سيما في الأخرى، هو من ملكوت علم الله.

وترى إذا انحصرت النشأة - وهي مرة منها - في الآخرة والأولى، فأين إذاً النشأة الوسطى: الحياة البرزخية؟

أقول: إنها استمرارية للحياة الدنيا، فليس الموت إلّا انفصال الروح ببدنها البرزخي عن هذا البدن، دون أن تنشأ هناك روح أو يخلق بدن، ثم في الأخرى يخلق البدن مرة أخرى وتنشئ فيه الروح نفخاً، بعد أن أصبح البدن رفاتاً، وأصبحت الروح في القيامة الأولى في صعقة كالموت، إلا من شاء الله:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[7].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٢) سورة يس، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.
(٥) سورة الواقعة، الآية: ٦٢.
(٦) سورة الواقعة، الآية: ٦١.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

والإقناء هو الإرضاء بالقنية الكفاف، فهو الذي أغنى الأغنياء وأقنى الإقناء غنى المال والحال، حالاً في الاولى أو مآلاً في الأخرى، كذلك وقناهما فيهما أو أحدهما، مهما كان للإنسان محاولة فيهما، فهما لا تحصلان إلا بإرادة الله فكم من غني لا يحاول إلا قليلاً وكم من فقير هو في محاولة دائبة إلا قليلاً، ولكي نعلم أن: أزمة الأمور كل بيده والكل مستمدة من مدده، ولا يعني ذلك إبطال المساعي، وإنما بطلان استقلال الساعي.

ولا تعني الآية أنه تعالى أغنى كل فقير، أو اقناهما «وإنما الغني الذي استغنى بالله، بمال أو منال أو حال، أو هو والفقير الذي رضي بما آتاه الله، من قليل أو كثير، فغير الراضي منهما عما أوتي، أو الغني بمكاسب السوء، لم يغنه الله رغم غناه، ولم يقنه لأنه ما قنى».

أو يقال: إن الغنى كلها من الله، وإن كانت من غير حل، إذ لم يمنع عن واقعها، مهما لم يرض بها، فلو أراد الله تعالى تكويناً تحقيق ما أراده تشريعاً لأفقر من يبغي الغنى من غير حله.

وكما أن القنى كلها من الله، سواء الحقيقة منها كما في المخلصين من عباد الله أو النسبية كما في كثير من الناس فقراء أو أغنياء، إذ يقنون بما أوتوا، رغم آمالهم ومحاولاتهم في الاستزادة، وإن حالة القنى: الرضا بما عندنا، من مال أو حال أو منال، إنها لمن أعظم النعم، كما وأن فقدان القنى، سخطاً خالصاً ويأساً بائساً لا رجاء فيه ولا أمل، إنه من أكبر النقم، اللهم اغننا بغناك واقننا بقناك، في الحال والمال بحق محمد والآل عليهم السلام.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

ترى لماذا اختصت الربوبية هنا بالشعرى؟ ألأنها نجم أثقل من شمسنا

بعشرين مرة، ونورها خمسون ضعف نور الشمس، وهي أبعد عنا بمليون ضعف؟! وهناك أنجم أثقل وأضوأ وأبعد منها عنا بملايين الأضعاف!.

الجواب: إن الآية لا توحي باختصاص، وإنما لأن الشعرى كانت معروفة منذ القرون الأولى دون غيرها، وإنها كانت معبودة لأقوام، كخزاعة وحمير، وكانت ترصد كنجم ذي شأن، وإن السورة بدأت بالنجم إذا هوى، لذلك يقول هنا ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ تنديداً بمن يعبدها ويرصدها، انتهاء للجولة بما ابتدأ فيها، رغم اختلافهما، إن ذلك نجم الرسالة والقرآن، وهذا نجم عبدت من دون الله، فالنجم الأول رسول من الله ليزيف مكانه الثاني، تثبيتاً للربوبية المطلقة الإلهية، والشعرى هذه هي اليمانية المضيئة المعبودة، لا الشامية.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

جولة في مصارع أربعة من الغابرين، لتكون ذكرى للحاضرين ومن يتلوهم، فيكفوا عن مظالمهم، فكل غابر ذكرى لكل حاضر تبشيراً وإنذاراً.

فعاد الأولى هم قوم هود عليه السلام وثمود هم قوم صالح، فما أبقى منهم باقية: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[1] اللهم إلّا المؤمنة: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2]. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ﴾ قوم نوح ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من عاد وثمود ومن سواهم منذ وجد الإنسان إلى زمن نزول القرآن. إذ لا يعرف تاريخ الرسالات قوماً يدعوهم نبيهم ألف سنة إلّا

(١) سورة الحاقة، الآية: ٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٨.

خمسين عاماً وهم بعد صامدون في كفرهم، عامدون في ظلمهم، إلّا قليلاً نجاهم الله مع نوح عليه السلام بما نجى[١].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾: الأقوام الفاعلة الإفك: الصارفة الحق عن وجهه، الجاعلة إياه في هوّات جارفة لكي يخيل إلى الجهال أنه باطل، الرافعة أعلام الباطل بمظاهر الحق تمويهاً أنه الحق، فهم - إذاً - سائر الأقوام المكذبة بآيات الله، التي أهواها الله يوم الدنيا، إذ أسقطها في مهاوي ومساقط بمختلف العذاب، فلا تختص إذاً بقوم لوط، المؤتفكة المنقلبَة قراهم، لأنها مفعولة الإفك ﴿وَالْمُؤْتَفَكَةَ﴾ وذلك فاعلته ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ فأولاء هم الذين ائتفكوا لو قلبوا الحق باطلاً، أياً كانوا من كفار التاريخ من الذين أهواهم الله بعذابه يوم الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾[٢] ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾[٣] فإن القرى المؤتفكة ليست بخاطئة!.

وعلّ المؤتفِكة الفاعلة هنا تشمل المنفعلة أيضاً، من ديار الأفاكين الطاغين: ولأنه انفعال يجب كونه فعلاً، بما أن الإفك هو القلب والصرف، إنْ من الآفكين باطلاً، أو من الله حقاً جزاءً لهم وفاقاً، إذ أفك وقلب ديارهم فائتفكت، وأهواها الله تعالى فانجرفت، كما في ديار قوم لوط وعاد وثمود وأضرابهم من السابقين واللاحقين، مثل البصرة على حدّ تعبير أمير المؤمنين عليه السلام: «يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة...»[٤].

---

(١) راجع الجزء الثلاثين.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٩.

(٤) ... يا جند المرأة وأتباع البهيمة، دعا فأجبتم وعقر فانهزمتم، فإنكم زعاق وأديانكم رقاق، وفيكم النفاق، لعنتم على لسان سبعين نبياً، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخبرني أن جبرائيل أخبره أنه طوى له الأرض فرأى البصرة أقرب الأرضين من الماء، وأبعدها من السماء، وفيها تسعة أعشار الشر والداء العضال، المقيم فيها بذنب، والخارج منها برحمة. وقد ائتفكت بأهلها=

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾: ﴿غَشَّىٰ﴾ الله إياها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ من عذاب الهاوية، فكما غشوا هم الحق فاهدوه، كذلك الله غشاهم بما غشوا جزاءً وفاقاً، وذلك من آلاء الله للمؤمنين على الكافرين:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾: فإن كلاًّ من هذه الأنباء المذكورة هنا، وفي صحف إبراهيم وموسى، إنها من آلاء ربك: نِعَم الربوبية البالغة الشاملة، فمن ذا الذي يتمارى فيها تشككاً وارتياباً.

والخطاب في ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ عله لكل من يصح خطابه، تنديداً بمن يتمارى منهم، وتسديداً لمن لا يتمارى، أو أنه خطاب للنبي ﷺ بـ«إياك أعني واسمعي يا جارة» أو استفهام تقرير له إذ يقر بآلاء الله كلها، ولكي يقرر لمن سواه، فإنه نذير لمن مضى:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾:

هناك طوال تاريخ الرسالات نُذُر، من الأولى والوسطى والأخرى، كتباً ورسلاً، وترى هذا النذير هل هو القرآن، أو نبي القرآن، أو هما على البدل؟ مع العلم أن النذر غير الأولى أولى من الأولى فيمن عليهم دارت الوحي، أولي العزم من الأنبياء.

علّ الأولى هنا لا يعني الأولى زمناً، وإنما الأولى مكانة، فكما أن محمداً هو أول العابدين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾(١) كذلك هو من أولي النذر وأولاهم: أولي العزم الخمسة الذين هم مدار الرسالات كلها، كما القرآن النذير ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾(٢).

= مرتين وعلى الله الثالثة وتمام الثالثة في الرجعة (نهج البلاغة).

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] قال: هم أهل البصرة، وهم المؤتفكة، والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات، قال: أولئك قوم لوط ائتفكت عليهم أي انقلبت عليهم، أقول وهذا من تفسير المصداق.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

فهذا النبي الكريم، وبقرآنه العظيم ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ وهم الأولى تبشيراً وإنذاراً: الخمسة العظماء، إنه منهم في أصالة الإنذار، والرسالة الأصيلة العالمية، والشريعة المستقلة، فليس بدعاً من الرسل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] إذ نُبِئَ كما نُبئوا، وأرسل كما أرسلوا، ودعى إلى الله والصالحات كما دعوا، اللهم إلّا أن فيه وفي قرآنه المبين، وتبيانه المتين، فيها زيادات خالدات، وميزات بارزات، تستحكم فيها عرى النبوات وقواعد البشارات والنذارات، كأنه البشير النذير لا سواه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣].

وقد تعني الأولى فيما تعني هنا كل من سوى محمد ﷺ من الرسل، فهو رسول آخر الزمن وهم لأول الزمن الممتد من أوّل النبيين إلى المسيح عليه السلام ف «هذا» محمد ﷺ: ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ من حيث أصل النذارة لا درجة الرسالة والنذارة، فليس بدعاً من الرسل والنذر.

وقد تعني الأولى - النذارة - في الذر الأوّل[٤]، إذ أخذ الله فيه ميثاق عباده على الإيمان به[٥] وإذ أخذ الميثاق من أنبيائه ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ...﴾. فمحمد في الميثاق الأوّل كان من النذر، دون أن يكون

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) في تفسير القمي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إن الله تبارك وتعالى لما ذرأ الخلق في الذر الأول أقامهم صفوفاً قدامه، وبعث الله محمداً ﷺ حيث دعاهم، فآمن به قوم وأنكره قوم، فقال الله عز وجل: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦] يعني به محمداً ﷺ حيث دعاهم إلى الله عز وجل في الذر الأول، وروى ذيله في بصائر الدرجات عنه عليه السلام.

(٥) ستجد تفصيل البحث حول الذر في آية الذر العام ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ...﴾ [الأعراف: ١٧٢].

بدعاً من الرسل، وفي الميثاق الثاني كان نذيراً ورسولاً للرسل[(١)].

فهو أولى النذر وأولاهم زمناً - أم ماذا - في الذر، ومكانةً طوال الزمن، فهو رسول الزمن، وفي آخر الزمن، تمتد رسالته ونذارته إلى أن:

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾:

- ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾[(٢)]. وبما أن الأزف هو الدنوّ القريب، فالقيامة الكبرى الموصوفة بالآزفة قريبة إلينا لوقت ضيق، قرباً نسبياً للخلائق منذ نزول القرآن، فليكن الزمن ماضياً أكثره الكثير، وباقياً أقله القليل، وكما برزت أشراطٌ من الساعة، ومنها البعثة المحمدية ﷺ كما ومنها انشقاق القمر في زمنه، وكمعجزة له: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢﴾[(٣)].

وفي أزف الآزفة إيحاء إلى قربٍ لها مضاعف، فإنها: قرب القريبة، كانت قريبة فزادها الله قرباً، أو أن وصفها بـ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ إيحاء بأنها ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾[(٤)] - وكل آت قريب - وعلّهما معاً معنيان وهو جمع قريب.

ثم وهذا القرب لا يعني سنة أو عشراً أو ألفاً وآلاف، لكي يستغرب:

كيف أزفت قبل أربعة عشر قرناً ولـمّا!!، وإنما قربٌ نسبي قياساً إلى مجموعة الزمن، منذ خلق العالم إلى قيام القيامة، أو منذ خلق الإنسان أياً كان، أو هذا الإنسان، فحين نزول القرآن أزفت الآزفة قرباً، واقتربت كاسحة جارفة مكشوفة:

---

(١) كما تدل عليه الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٢) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٣) سورة القمر، الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ نفس كاشفة[١]، على أنوثة التاء، ومبالغ في الكشف على مبالغتها كالعلّامة، لا كاشفة كشف الظهور والجلاء، ف :

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾[٢] ولا كشف الغطاء عما قدمت أيدينا: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٣] ولا كشف البلاء: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[٤].

فكشف الجلاء والغطاء والبلاء ليست هناك إلّا لله، فيكشف السوء هناك كما هنا عمن يشاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[٥] ويدعه على من يشاء وهم لا يظلمون.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

توحي آية العُجاب أن هناك من كان يعجب من حديث الوحي، ويضحك منه هازئاً، فهل إن أنباءَ قارعة العذاب، وما ينتظر الناس من حساب، إنها يُضحك منها وتثير العجاب؟ بدل البكاء والاضطراب، فمم تعجبون؟ وعلى مَ تضحكون[٦] ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾: لاهون رافعون رؤوسكم كالبعير السامد، فبم تتكبرون، ومم تفتخرون؟ وما أنتم إلّا فقراء صاغرون:

---

(١) ويجوز إطلاق النفس على الله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وأين نفس من نفس؟ ولا يقصد منها هنا إلا الذات.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الدخان، الآية: ١٢.

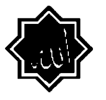
(٥) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٦) تقول روايات هنا: لما نزلت الآية ما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم حتى ذهب من الدنيا، وعل مختلقيها قد يستندون أيضاً إلى الآية: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] ولكنما الآيتان موجهتان إلى المشركين بما لهم من أعمال مبكية، دون الرسول الطاهر الأمين، فما عليه إذا ضحك مستبشراً رحمات الله دنيا وعقبى، ومن صفات المؤمن: بشره في وجهه وحزنه في قلبه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢)﴾:

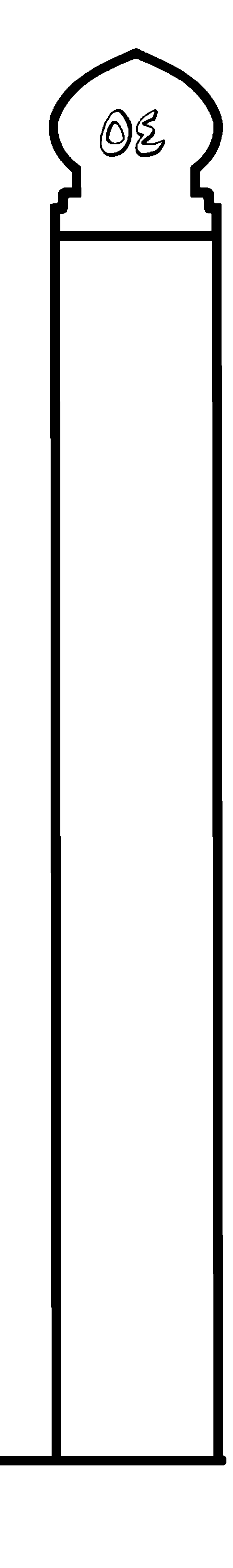
من آيات السجدة الواجبة[1]، وقد خوطب فيها من خوطب: المشركون الضاحكون السامدون، وتقول الروايات إنهم كذلك سجدوا كما المسلمون[2]، علّها طاعة لله في تلك اللحظة الحاسمة طوعاً، أو كرهاً إذ لم يتمالكوا أنفسهم، سجدوا تحت وطأة المطارق الهائلة الواقعة على قلوبهم، من أنباء الواقعة الطامة، فلم يملكوا مقاومة وقع القرآن، مهما قاوموا واقعة الوحي، فلم تجاوب مساجدهم قلوبَهم المقلوبة، فسجدوا وهم كارهون ناكرون!. وليس هذا فريداً في نوعه، فكم له من نظير، من أثر القرآن على من لا يصدقه وهو له نكير، كما اقشعرت جلود الوحيد الوليد وقامت كل شعرة على جسده إذ سمع آيات بينات يتلوها الرسول البشير النذير، ثم وما ملك نفسه إلّا أن يعترف في حقه إنه يؤثر بجنب ما ادعاه من باطل «إنه سحر» وما الأثر والبقاء إلّا من ميزات المعجزات فإن السحر يفنى فلا يؤثر.

وآية السجدة هذه علَّها آكد الأربع الآمرة بها، ولأنها تثنِّيها بعبادة الله عامة بعد الأمر بأبرزها خاصة: السجدة.



(١) راجع ج ٢ من الجزء الثلاثين، والآيات الباقية الواجبة فيها السجدة هي آيات العلق وفصلت والسجدة.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٣٢ - أخرج البخاري والترمذي وابن مردويه عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ في النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.



سُورَةُ القَمَرِ



مكية - وآياتها خمس وخمسون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾﴾

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾:

بما أن الاقتراب هو زيادة القرب، والساعة - حين ما تطلق - هي القيامة الكبرى، إذاً فاقتراب الساعة هو زيادة قربها كما تعنيه: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾(١) ولا صلة بين انشقاق القمر واقتراب الساعة، إلّا كونه من أشراط وعلائم قربها، كما وأن فرية السحر هنا: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ لا تناسب إلّا كون الانشقاق آية لنبي الساعة محمد ﷺ إذاً فهو آية في وحدتها تعني

(١) سورة النجم، الآية: ٥٧.

آيتين، آية لاقتراب الساعة وآية لنبيِّ الساعة، وقد توحي هذه الآية أنهم طلبوا منه ﷺ آية تثبت لهم دعواه: أنه نبي الساعة، فانشق القمر بإشارة منه ثم التحق، كخارقة عظيمة إلهية، يحملها هذا المطلع الباهر المنير، نسبة إلى الرسول البشير النذير، آية ماضية قرب الساعة، متهمة بالسحر.

إذاً فليست هي اشتقاق القمر من الأرض، تدليلاً على نظرية أخيرة متأخرة، فإنها لو صحت هناك علمياً لم تصح هنا قرآنياً، فالانشقاق هو تقطع الشيء في نفسه، والاشتقاق هو انفصال شيء عن آخر، فأين اشتقاق من انشقاق؟.

ثم الاشتقاق لو كان، فهو من آيات القدرة الإلهية المطلقة منذ الخلقة فلا تحمل فرية السحر!، والانشقاق هذا من آيات النبوة الختمية وأشراط الساعة وقد اتهم بالسحر فأين آية من آية، إضافة إلى عدم ثبوت فرضية الولادة: «الاشتقاق» وقد تنافيها آيات الخلقة كما ندرسها في طياتها.

كما وليست هي من حوادث الساعة، فإن هذه ماضية: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وتلك مستقبلة «تنشق القمر» وأن حوادث القيامة لا تنسب إلى سحر، أبعد القيامة؟ والمؤمن والكافر يؤمنون بها سواء! - وإن لم ينفع الكافر إيمانه - أم قبل القيامة؟ والإخبار عن المستقبل لا ينسب إلى السحر، اللّهم إلا الكذب، وإنما هو عمل حاضر يخرق العادة: فـ : اقتربت ساعة القيامة وانشق القمر آية للساعة وآية لنبي الساعة، مهما ينسبونها إلى السحر، رغم أن السحر لا يستمر وكما لا يؤثر.

فآية انشقاق القمر هنا آيتان، وكل لزام بعض، تلتقيان في التدليل على أن رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات، لا تتلوها إلّا الساعة كما قال: «أنا والساعة كهاتين»: السبابة والوسطى، و«أنا نبي الساعة»: إن زمن رسالته هو منذ نبِّئ حتى الساعة، وقد استجابه الله تعالى في هذه الآية عن اقتراح

المشركين[1] لحكمة تثبت الخاتمية، لا اتباعاً لأهوائهم، اللّهم إلّا فيما تلتقي الحكمة الإلهية بتحقيق آية، مع اقتراح الناكرين. إذاً فتحقيق هذه الآية المقترحة لا يتنافى والآيات التي تنافيها: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2]: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، فإنها لا تنفي إلّا الآيات المقترحة التي لا تنفع فلا تثبت شيئاً، دون شق القمر الذي هو آية ختم الرسالة، وأنه نبي الساعة.

وكما لا يتنافى كفاية القرآن آية خالدة تفوق الآيات كلها في التدليل على حق الرسالة، ولأنه الآية الواقعية العينية على أنها خاتمة الرسالات - لا أصلها فقط - تجاوباً مع الآيات القرآنية الدالة عليها: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[4].

ذلك، إضافة إلى آيات عينية أخرى كالمعراج وأضرابه، كآيات عابرة صغرى، تؤيده ﷺ في آيته الكبرى «القرآن» لمن غرب عقله وأصبح كالحيوان لا يصد إلّا المحسوس، ولا ينحو إلّا منحى الملموس، فقد جمعت له ﷺ إلى آيته الخالدة الكبرى، آياتٌ تشابه آيَ النبيين، مؤيدات لآيته - لا أصيلات - في التدليل على رسالته.

وأخيراً لا تلمح آية الانشقاق بكونها مقترحة، بل إنها أصيلة مقصودة،

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٣٣ - أخرج أبو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس في الآية قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والعاصي بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والنضر بن الحارث فقالوا للنبي ﷺ إن كنت صادقاً فشق لنا القمر». . . .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠-٩٣.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

قد كانت لها ساعة مقررة هي اقتراب الساعة، والتدليل على خاتمية نبي الساعة، مهما صادفها اقتراح المشركين، والآيات النافية لتحقيق الآيات المقترحة تعني نفي لعبة الافتراح، وتؤصِّل أصول الحكمة في تحقيق الآيات المعجزات، ومن أبرزها في صنوف الآيات المحسوسات آية انشقاق القمر.

وهذه الآية لاقتراب الساعة، آية اقترابها واقعياً، لأن انشقاق القمر من بوادر انسحاقه يوم الساعة، وعقلياً، لأنه يدل على إمكانية خراب العالم، فقد اقتربت الساعة عقلياً وواقعياً حين انشق القمر، وما حديث امتناع الخرق والالتيام إلّا خرافة اللئام، تكذبه فيما تكذب خرق المعراج وانشقاق القمر، وكما العلم يسفِّه أحلام السابقين المانعين عن خرق الأفلاك والتيامها، ويثبت خرقه للقواعد العلمية، متجاوباً آيات الخرق والالتيام؟.

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾:

لا صلة لهذه الآية بالمسبقة إلا أن تكون شق القمر آية للرسالة، تتهاجم عليها فرية السحر وأضرابها، فقد رأوا آية الانشقاق بأم أعينهم فأعرضوا عن حجتها إلى إبطالها بمقالة كافرة جاهلة تعودوها في آيات الرسالات كلها: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: مستمر طيلة الدعوة المحمدية، ومستمر عبر سائر الرسالات الإلهية، مستمر زمناً، مستمر قوة وشدة، يملك قوة زمنية وذاتية، فإن السحر كيفما كان لا يؤثر في السماء!.

هذا! وكما قال وليدهم الوحيد عن آية القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1] فهم يقولون هنا وهناك: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وترى إذا كان سحراً فكيف يؤثر وكيف يستمر؟. ومن ميزات السحر أن يندثر ولا يستمر، ولا سيما إذا أُتي به في مقام الإعجاز فإن الله سيبطله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.

﴿يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] فلا يملك هكذا سحر إلّا ازدواجية البطلان: ذاتياً وبإذن الله!.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾:

كذبوا بآية الانشقاق وسواها، واتبعوا في نكيرهم المتواصل أهواءهم، إذ سامحوا عن عقولهم وضمائرهم، ولكنهم مهما كذّبوا لا يستطيعون إمحاءَ الحق عن مقره، وإزالته عن مستقره، فإن للحق دولة وللباطل جولة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ من الله ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ فيما أقره الله، دون تزعزع واضطراب، وليس على أهوائهم الهاوية، ومحاولاتهم الخاوية، فالحق لا تتجاذبه الأهواء، وناكروه إلى هواء وهباء.

وقد يشمل «كل أمرٍ» كلَّ أمر من الأمور: أشياءً وأفعالاً، ومن الأوامر، ومن حق أو باطل، فكلّ أمر من هذه الثلاثة يستقر في مستقره، فيتبين حقه من باطله، إن في يوم الدنيا أو في يوم الدين، فالأمور والأوامر الإلهية تستقر في مستقرات الحق بما تملك من حق ومن براهين الحق، ثم الأوامر والأمور غير الإلهية المتحللة عن الوحي والعقل، إنها تستقر في مستقرات الباطل وثغراتها وسَقَراتها دنيا وعقبى، فالحق يبقى حقاً كما بدأ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2].

والباطل يزول زاهقاً كما بدأ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[3] ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾[4].

ومن الأمور المستقرة هنا أمر التصديق والتكذيب بالآيات الإلهية -

---

(١) سورة يونس، الآية: ٨١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.
(٤) سورة القمر، الآية: ٣٨.

كسائر الأفعال والأقوال - فإعراضهم، وقولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وتكذيبهم واتّباعهم أهواءهم، كل ذلك أمرٌ مستقِر، وكما الحق يستقرّ، و﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1]: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[2].

ثم إن آية الانشقاق مما تناقلته الألسن الصادقة، والأحاديث المتواترة[3] ما يحيل تأويل الآية إلى غير ظاهرها، وكما تحيل الآية ذاتها كلَّ تأويل لا يجاوبها، فكل تأويل عليل ما لم يجاوبه حق الدليل.

ومما يريب الناس هنا، أن الانشقاق هذا - كآية سماوية باهرة - لو

---

(١) سورة طه، الآية: ١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) قد روى حديث الانشقاق جماعة كثيرة من الصحابة كعلي عليه السلام وأنس وابن مسعود وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم، ممن حضر الانشقاق أو لم يحضروه أخرجه عنهم أرباب الجوامع والمسانيد والحفاظ، فممن أخرجه: البخاري ومسلم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل وابن جرير والطبراني عن ابن عباس وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير عن أبي معمر عنه وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والبخاري ومسلم عن أنس وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم من طريق مجاهد عن ابن عمر وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان (الدر المنثور ٦: ١٣٢ - ١٣٤).

وفي تفسير روح البيان ج ٩: ٢٦٣ - قال الطيبي أسند أبو إسحاق الزجاج عشرين حديثاً إلا واحداً في تفسيره إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في انشقاق القمر، وفي شرح الشريف للمواقف: هذا متواتر رواه جمع كثير من الصحابة.

هذا وقد روى أكثر من هذا بكثير محدثو الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مثل، في أمالي الشيخ بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عليه السلام عن علي عليه السلام قال: انشق القمر بمكة فلقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اشهدوا.

كانت واقعة، لرآها الناس جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها، وتناقله المنجمون الراصدون، والباحثون عن الأوضاع السماوية، والمؤرخون، كما تناقلته الرواة المسلمون، فإنها حادثة كونية عظيمة، فكيف انحصرت برواة المسلمين؟!.

وغير مقبول ولا معقول أن غير المسلمين كافة، أجمعوا على تجاهلها، ألكيلا تثبت معجزةً إسلامياً! فلم يكن لهم خبر مسبق عن هذه المعجزة، لكي يلحقها التجاهل والنكران! وإنما ظهرت لأهل الأرض كسائر المظاهر السماوية، اللهم إلا لمن طالبوا بها الرسول كآية من آيات الرسالة، وهم قلة قليلة ممن كانوا بمكة.

هذا - إلّا أن زمن الانشقاق - كما يروى - لم يكن إلّا يسيراً، لا يراه الكثير، إلّا قليلٌ ممن يفحص عن أحوال الكواكب، في الآفاق التي توافق أُفق مكة المكرمة[1] ضرورة اختلاف مطالع القمر باختلاف الآفاق، والاعتناء بأمر الإرصاد لم يكن بمثابة اليوم، وبلاد الغرب المعتنية بهذه الشؤون نائية عن مكة المكرمة، وقد كان القمر - حين انشق - بدراً، طالعاً بعد غروب الشمس - ليلة البدر - والتأم بعد قليل، ما يقرِّب طلوعه - فيما يطلع - بسائر الآفاق بعد التئامه، اللّهم إلّا بعضاً منها في غير المغرب، فالذي رآه منهم قد يخطِّئ بصره، إذ يراه خلاف السنة الدائبة الكونية، أو يقول: لعل فصلاً ناعماً من السحاب الأسود فصل بين القمر، أو أنه كُسف في نصفه[2] على أن هؤلاء أيضاً هم القلة القليلة، فضلاً عن الذي لم يره،

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٢٣ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

(٢) ويؤيده، أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر =

فإن هكذا رؤية نجومية تتطلب أوضاعاً وأوقاتاً خاصة، لم يكن منها الوقت الذي انشق فيه القمر، إضافة إلى أن من رآه - إن رآه - من غير المسلمين والمشركين المنتظرين، لم يكن بحسبانه أنه حادثة هامة، فالنجدي يراه من غير سبب حسب تقديره، فلا يحسب له حساباً حتى ينقله، وغيره لا يعرف له موقعاً، فالفريقان يتجاوبان في عدم الدافع لنقله، أو إذا نقله ناقل لا يصبح متواتراً تاريخياً، أم ماذا؟ مما يحول دون ما يحيل آية انشقاق القمر وكفى!.

والقول إن انشقاقه يُبطل سيره وتجاذبه، فتنصدم النجوم وقته، وتختل الكائنات قدره، إنه ليس إلّا تقولاً بعيداً عن العلم والإيمان، تُرى إن محرك القمر قبل انشقاقه، يَعيى عن تحريكه بعده، أو أن خالق الجاذبية الذاتية والخارجية فيه يعجز عن إدمانها حالة الانشقاق، ولذلك التأم، فمم - إذاً - الانصدام، ولماذا الاختلال، اللّهم إلّا اختلال أدمغة الشاكين المرتابين.

كما أن الروايات التي تجعله شقين داخلين في كمي رسول الله ﷺ، أو على جبلين من جبال مكة، هي خرافات جارفة، لا تقصر عن المسبقة من تشكيكات، فنحن كمسلمين لسنا بمصدقين إلّا تصريحة الوحي: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أو ما يشرحه ملائماً له، وأما نزول الشقين على جبلين، أو في كمين، أم ماذا؟ فهي من زيادات الطائشين المتطاولين، ولأن في سقوط القمر على الأرض قضاءً عليهما، وعلى الكون أجمع، مهما تحمل العلم سرعة النزول، وتصغير حجم القمر مع بقاء ثقله، ولكي يدخل شقاه في كمي الرسول ﷺ![1].

= على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سحر القمر - أقول تعبير الكسوف عن الانشقاق مما يقرب احتمال الكسوف عن واقع الانشقاق، فلعل الذي رآه من غير المنتظرين ظن أنه كسف فما نقله لأن الكسوف مهما كان هو أمر متكرر غير غريب.

(١) وذلك بازالة الفواصل بين أجزاء وجزيئات وذرات وأجزائها في القمر، فيصبح قدر ليمونة=

وقد يكون انشقاق القمر آية للساعة ونبي الساعة، مما بشر به في البعض من كتابات الوحي، وكما نراه في «نبوءت هيِّلِد»[1]: في النص الأنقلوسي: صيهراء شاها وَسِباه وعَرِقَ بِها وهاشاطا وشِامعا: «انتظر القمر وانشق وأطاع محمداً ثم التأم» وقد يعني الانتظار النظرة التكوينية له مطاوعة لإشارة الرسول ﷺ بإذن الله.

ويا لانشقاق القمر من آية باهرة تختلف عن آيات النبيين أجمعين، في صنوف معجزاتهم الحسية، كما اختلفت معجزته المعنوية الخالدة: القرآن، عن سائر كتابات الوحي، وبينه وبينها بون السماء والأرض، كما بين آية الانشقاق السماوية عن آياتهم وكلها أرضية!.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾:

لقد جاء هؤلاء الناكرين من الأنباء: الأخبار ذات الفوائد العظيمة، ما فيه مزدجر: الازدجار الاتعاظ، أو: محلّ الازدجار، أنباءٌ تحمل كل إنذار وتبشير، أنباء التكوين والتشريع، أنباء مَن مضى ويأتي ممن خالف شريعة الله أو طبقها، أنباء تلائم الفِطرة والعقول فتصدقانها، من الآخرة والأولى، هذه التي فيها مزدجر، لمن كان له عقل وبصر، ففي بلاغ الأنباء، وفي ترتيبها ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾: فإنها تبتدئ بالمبتدأ وتنتهي إلى المعاد، كلٌّ حسب ما تتطلبه ظروف الدعوة، وتتقبله العقول، وكما هنا وفي كافة مجالات الدعوة. فإنها كلها حكمة، وكلها بالغة.

= متوسطة الحجم، إلا أن هذه التكلفات المعلمية مهما صحت، فإنها لا تصحح الخراب الناتج عن سقوط القمر!.

(١) لقد شرحنا هذه النبوة المبشورة عن النبي «الحمان حطوفاه» في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» وهي تحمل بشارات عدة بحق الرسول محمد ﷺ.

ورغم أن هذه الأنباء كلها ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾: تبلغ العقول والقلوب ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ العقول المدخولة والقلوب المقلوبة، فلا تنفتح لرؤية الآيات البينات، فالادِّكارُ والازدجار لزامه بلوغ الجانبين، لكي يتولد منهما، بلوغ الحكمة وهي حاصلة، وبلوغ المبلِّغ إليهم، فرغم حصوله مبدئياً بما خلق الله ودبّر ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] إنهم ارتجعوا به إلى أسفل سافلين، إذا ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ هؤلاء، رغم كونها ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

هذا، وكما ليس في النذر إغناء، حتى فيما يستجيب المنذَرون، فإنما هو توفيق الله، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، لولاه لم تكف النذر ولم يستجب المنذَرون: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3] إلى صراط مستقيم.

فعلى الله الحجة البالغة، وعلى رسول الله قول بليغ بآيات بليغة، فإذ لم تنفع هذه وتلك، إذاً فالإعراض:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾:

تول عنهم في ذلك اليوم العسيب، لا يوم الدنيا إلّا عند الإياس القاطع عن خيرهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[4]. إعراضاً تولياً عن أذاهم ومقابلتهم بالمثل، وتولياً إياهم في عظتهم وقولك في أنفسهم قولاً بليغاً، فإذا يئست عنهم فاتركهم في طغيانهم يعمهون ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٣.

أو «تول عنهم» إلى «يوم..» فما عليك بعد إعراضهم بلاغٌ بعد الذي عانيت في بلاغك، وعلّه أقرب من توليه يوم يدع الداع، فإنه حاصل يومه دون أمر أو محاولة، اللّهم إلّا تولياً عن شفاعتهم، فإذ لم يسمعوا إلى الدعوة يوم الدنيا، لم تنفعهم الشفاعة يوم الدين.

أو «تولَّ عنهم» دنيا وعقبى، إذ انقطعت الصلة بينك وبينهم: صلة الدعوة الواجبة هنا إذ أعرضوا، وصلة الشفاعة هناك إذ لا تنفعهم، والجمع هذا أجمل لأنه أشمل، وفصل ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ عن «تولّ» لا يحتمل، فإنه غير فصيح ولا صحيح.

ثم ترى من هو الداع يومه وما هو الشيءُ النكر؟.. الداعي هنا لعلّه الله، أو ومن يدعو بإذنه، داعٍ متّبع في دعواه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[(١)] ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)] فهو الرحمن المستجاب بحمده، المتّبع من غير عوج في دعوته، الذي تخشع له الأصوات إذ يهطعون إليه: تصويباً لأعناقهم: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[(٣)].

وبما أن الدعوة هنا وهناك للكافرين، فهي تجمع دعوة البعث، المكروهة المنكورة لديهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[(٤)] ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[(٥)].

إلى دعوة الحساب فالعذاب النكر، ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[(٦)] ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[(٧)] مثلث النكر لمن عاش حياته

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.
(٤) سورة يس، الآية: ٥٢.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٤.
(٦) سورة الطلاق، الآية: ٨.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٨٧.

النكر، نكر بنكر، وأين نكر من نكر؟ نكر ظالم ممن أنكر الحق، ونكر عادل عليه من الحق.

ثم النكر هو الأمر الصعب الدهاء الذي لا يعرف فينكر، فالشيء النُّكر الذي يدعوهم الله إليه، هو الحياةُ الحسابُ العقابُ، التي عاشوا نكرانها حياتهم تكذيباً لها، فهم في قيامة الإحياء ينكرونها نكراً وكُرهاً لواقعها الذي لم يكونوا يتوقعونها، ونكراً وجهلاً بقَدَرها وكيفيتها، إذاً فهم مدعوون إلى مثلثي النُّكر من الآخرة والأولى.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾[1]:

فهم يدعون إلى شيء نكر فيضطرون للإجابة سراعاً، حال كونهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ خشوع الذل: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[2] ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3] خشوعاً وشخوصاً للأبصار وللقلوب سواء: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[4].

وحال أنهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: القبور، المحافظ التي حوتهم وحفظهم من تراب الأرض أو مائها أو هوائها، جُمَّعاً فيها أو هباء، فهم يخرجون منها بدعوة الرحمن، ضعفاء هزلاء، حائرين مائرين ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[5] ينتشرون في عرصات

---

(١) رغم ما فسر به وقيل: «فنقول عنهم» واذكروا إذ «يخرجون من الأجداث.. يوم يدع الداع» لكي تنذرهم به... وهذا عجيب في نوعه!.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٥) سورة المعارج، الآية: ٤٣.

المحشر كالفراش المبثوث ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[١].

وحال كونهم ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مصوبين أعناقهم إليه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾[٢].

فالهطوع على الشيء: هو الشخوص بالبصر في ذل وخشوع مع تصويب العنق، وإلى الشيء: هو الإقبال إليه مسرعاً خائفاً كذلك، والكفار مهطعون إلى الداع بالمعنيين إلا النظر إلى الله، اللهم إلا نظر الشخوص من بهت واحتيار، إلى الهول الواقع والمنتظر.

﴿يَقُولُ﴾ الكافر الخاشع ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ عسر خالص دون يسر خلاف ما كنا نزعم، ولم نكن نحسب له حساباً![٣] ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾[٤] مهما كان للمؤمنين يسيراً فيما هو عسير، إذ يزول عسره للمؤمن، ويزداد للكافر.

---

(١) سورة القارعة، الآية: ٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٣) في روضة الكافي بإسناده إلى ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يحدث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب عليه السلام يحدث الناس قال: إذا كان يوم القيامة بعث الله تبارك وتعالى من حفرهم عزلاً بهما جرداً مرداً في صعيد واحد يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة حتى يقفوا على عقبة المحشر فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق بهم أمورهم ويشتد ضجيجهم وترفع أصواتهم وهو أول هول من أهوال القيامة - إلى قوله - فيأمر (الله) ملكاً من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلايق انصتوا واسمعوا منادي الجبار، قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائصهم وتفزع قلوبهم ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداع، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر.

(٤) سورة المدثر، الآيتان: ٩، ١٠.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ
أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ (١٠) فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ (١١) وَفَجَّرۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ
وَدُسُرٖ (١٣) تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ (١٥) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ
فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (١٧) كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ
مُّنقَعِرٖ (٢٠) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ (٢٢) كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا
لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ (٢٥)
سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ
وَٱصۡطَبِرۡ (٢٧) وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ (٢٨) فَنَادَوۡاْ
صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ (٣١) وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ (٣٢) كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ (٣٣) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ
نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ (٣٤) نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدۡ
أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ
أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ (٣٨)

فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

عرض سريع عريض للأمم الكافرة الغابرة، بما فعلوا وافتعلوا وجاه الرسالات الإلهية، وما لا قوه أو ذاقوه من كوارث، من قوم نوح وصالح وهود وآل فرعون، الخمسة الكارثة، الواصمة جبين الإنسانية، الماردة عن مُثلها، الشاردة عن صراطها، يستعرضهم الله تعالى هنا، تسلية لخاطر الرسول الأقدس محمد ﷺ ولكي لا يستصعب ما يلقاه من كفرة قومه، وليصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وأولى له أن يصطبر.

يبتدىء في هذا العرض بقوم نوح، لأنهم ﴿كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾[1] وينتهي إلى قوم فرعون، ثم يجمعهم وأضرابهم في ضلال وسعر: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[2].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٤٧.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾[١]:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: قبل هؤلاء المكذبين بك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: بالمرسلين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢] ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ الواصب في العبودية، الصامد في الدعوة، تكذيباً بعد ما كذبوا المرسلين قبله، ومتفرعاً عليه إذ اعتادوا تكذيب الرسالات الإلهية: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ ولكن من؟ ﴿عَبْدَنَا﴾ كأنه العبد لا سواه في مجموع المكلفين، فلم يقل «عبداً من عبادنا» وإنما ﴿عَبْدَنَا﴾ فقد كان تكذيبه تكذيباً لله، واضحاً وضح النهار، كذبوه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ فيما فعلوا وقالوا، قولة الفعل والقول، ولكنها تختص هنا بالذكر تدليلاً على جمعها مجامع التكذيب قولياً وعملياً، فإنها أشر وأخطر ما تواجه به الرسالات من الدعايات المضادة الجارفة، إذ تسقط المرسلين عن عيون البسطاء، ودون أن تحمل حجة أو شاهداً.

﴿وَازْدُجِرَ﴾: علها من قولتهم: إن الجن زجرته: صاحت به عن جموع العقلاء وطردته، أو وبلغ به الجنون إلى حد زجرته مجننوه أيضاً عن جموعهم، فأصبح أجن من سائر المجانين، وكأنهم عقلاء بجنبه، إذ يعمل ويقول ما لا يعمله ولا يقوله المجانين أيضاً، فقد بلغ من الجنون قمته، ومن الزجرة ذروته!.

أو إن ﴿وَازْدُجِرَ﴾ استعراض لأهم مخلفات فرية الجنون: إنه أثر هذه الفرية - وبعد ما كررت وركزت وأخذت مأخذها من نوح طوال الدعوة - إنه ﴿وَازْدُجِرَ﴾ بما زجره قومه، إن صاحوا عليه وطردوه، وكأنه ارتكب جريمة نكراء، . . زجروه فازدجر، بدل أن يزدجروا - هم - ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾[٣]!.

---

(١) راجع سورة نوح في ج ٢٩ ستجد تفاصيل من دعوته وتكذيب قومه.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤.

وعلهما معاً معنيان إذ تتحملها الصيغة ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ ازدجاراً فعلياً من قبل قومه، بعد ازدجاره قولياً: إن الجن زجرته بالمعنيين المسبقين، فأصبح مغلوباً في ثالوث الازدجار فطلب من ربه الانتصار:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾:

فليس من إلهيّن أن يتهم رسول كنوح عليه السلام بهذه التهمة الوقحة، وهو من الكرامة عند الله لدرجة كأنه عبده لا سواه «عبدنا» بين عامة المكلفين زمنه. فينزله قومه إلى درك الجنون وأجنه، فيطردونه عن دعوته، ويقصرون لسانه عن تبليغ رسالته، فيصبح مغلوباً على أمره وكأنه لا يحمل رسالة!.. فحق له إذاً أن يدعو ربه ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾!، وبعد دعائه لهم الطويل الطويل، وحججه عليهم، اللذين تحملها سورتا نوح وهود عليهما السلام.

فمهمة الرسالة لا تنتهي إلا بعد بلاغها الأسماع إن نفعت، وبلوغها القلوب كما أريد منها: أو بعد إياس الرسول عن تأثيرها في المرسل إليهم: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾[1] فقد انتهى الأمران لنوح، بلاغاً في المؤمنين القلة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾[2] وفراراً في الباقين الكثرة، إذاً فهو مغلوب في مهمته، وعليه أن ينتصر من ربه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾:

يا رب انتصر: انتقم نصرة لرسالتك، لرسولك، لشريعتك، لحقك، فالأمر أمرك، والعبد عبدك، والرسول رسولك، ثم ولا رجاء في هؤلاء، ولماذا؟ لأنهم كذبوه رغم طول الدعوة، والمصابرة المثابرة على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصد فيهم بريق الأمل، ويشيم منهم بارق الإيمان، ولكنهم ما زادوا على الأيام إلا عتواً ونفوراً، ففزع إلى الله شاكياً ملتجياً، مستعيناً مستهدياً، في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، فتجاوب الوحيان، من

(١) سورة نوح، الآية: ٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾:

وما أن تم دعاء الانتصار، إرجاعاً لأمر المرسل إليهم إلى المرسل العزيز القهار إذاً بأمر الجبار إلى الكون أن يعجل بالانتصار، إشارة عاجلة إلى عجلته أن تعجل وتخرق عادتها فتغرق هؤلاء الكفار:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾:

ترى إن في السماء أبواباً أغلقت على مياهها؟ أقول: نعم وكما لها أبواب لغير الماء، مهما اختلفت أبواب عن أبواب، اختلاف ما خلفها من رحمة أو عذاب، فلكلٍّ بابٌ حسبه، ولكلٍّ فتح حسبه، وعل من أبواب ماء السماء أبواب الجاذبية، والضغوط الجوية، والظروف الحرارية: أن سهل سبل بخارها وامطارها حتى لا يحبسها حابس، ولا يكبسها كابس، إزالة للعوائق عن مجاري مياهها فأصبحت كحبيس فتح عنه بابه، أو معقول أطلق عنه عقاله.

﴿فَفَتَحْنَا﴾ بجمعية الصفات القهارة ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ سماء الماء ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: غزير متوال جارف غير مجازف، فانهمر بما همرناه وصببناه، ماء ليس من نصيب الأرض رحمة لها، وإنما إصابة ودماراً عليها وغرقاً لأهلها إلا الصالحين: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[3].

هذه مياه السماء المنهمرة، ثم تجاوباً بها - بأمر هامرها وآمرها في ذلك الطوفان - مياهُ الأرض المختزنة فيها، إضافة إلى عيونها الظاهرة:

(١) سورة نوح، الآية: ٢٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١١.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ كل الأرض ﴿عُيُونًا﴾ ويا لها من عيون! حيث استجابت كلها دون استعصاء[١]. فاستحالت في هذه التفجرة كلها عيوناً: فأصبحت عيوناً بتمامها ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾: اختلط ماء السماء المنهمر، بماء الأرض المنفجر، التقيا فوق الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾: التقاء عال، مسيطر على المغرقين ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾ من الله ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ على قدره دون فوضى، وإنما بحسبان، دون زيادة ولا نقصان، تقدير إلهي محسوب ومقصود، وليس بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي، حسب السنة المعتادة، فصادف غرقهم، وإنما قدر إلهي أن يلتقي الماءآن، وقد خلف طوفاناً عم الأرض وطمَّ، فعنده تم أمر الله ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

فلو كان ذلك الالتقاء فوضى لما أبقى أحداً، ولانجرفت الأرض إلى المحو الكامل، ولكنه ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ومنه نجاة نوح بجنب غرق الكافرين:

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾:

ترى ما الذي ينجي نوحاً والمؤمنين معه من هذه الورطة الغامرة؟ هذه التي أغرقت الأرض بجبالها وما عليها وحتى أعلى الجبال، التي علّها تعصم من أمر الله!:

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾[٣] فهل المنجي من هذه المهلكة هي سفينة مما تصنعها أيدي

---

(١) رغم ما تروى من روايات في استعصاء ماء المر والكبريت والملح - أنها كانت حلوة فاستعصت فجعلها الله مالحة أو مرة أم ماذا؟ فهذه الروايات خلاف الواقع من وجود هذه المياه قبل الطوفان، وخلاف عموم القدرة الإلهية النافذة في كل شيء وخلاف الآيات الدالات على خضوع كل شيء له، فتأول أو تطرح - راجع نور الثقلين ٥: ١٧٨

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٣.

إنسانها، ثم ويصبح وهو الربان؟ كلّا! إنها سفينة مصنوعة بيد رسول الله ﷺ وبأعين الله ووحيه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(١) ثم وربانها هو رب العالمين ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: أعين القدرة والرعاية الإلهية ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾(٢) وإلّا فما قيمة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾: حاملة ذات أخشاب كبيرة وأوتاد تربطها! اللهم إلّا بأعين الله، فهي إذا تحمل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين بالله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: طوال ألف سنة إلّا خمسين عاماً، فقد كفروا به طوال الدعوة، وستروه عنها وما يحق له، فكَفَرهم الله في الغامرات، كفراً بكفر وستراً بستر، وسوف يجزون يوم القيامة جزاءَهم الأوفى بما كانوا يكفرون. فقد تتحمل ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أن تعني - إضافة إلى هذا الحمل والجري العظيم - التقاءَ الماء على أمر قد قدر من غرق الكافرين، ففي غرقهم له جزاءً كما في حمله ونجاته له جزاء، فليس غرقهم جزاءً عليهم بكامله، اللهم إلّا نذراً، وإلّا له جزاء هنا.

ومن ثم نرى لهذا الجزاء ذي زاويتين بقاءً كآية للمؤمنين والكافرين:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾(٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(٥).

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٢.
(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ١١، ١٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.
(٥) سورة يس، الآية: ٤١.

وآية من هذه الآية، لوحة من هذه السفينة تحمل بشارة محمدية، برزت قبل ربع قرن في وادي قاف السوفيت[١] آرارات، المسماة في القرآن بالجودي، بشارة بأسماء الخمسة الطاهرة: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

فلقد ترك الله هذه السفينة الآية، وما على لوحتها من آية، تركها آية العالمين، وتذكرة للمدّكرين: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ على الكافرين ﴿وَنُذُرِ﴾ ي؟ إنه كان عذاباً بعد الإنذار والاستكبار، وبعد الإياس عن أثر الإنذار!.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾:

يسرناه عبر القصص والأمثال، وعبر الحجج البالغة والبراهين الدامغة، عبر صنوف العبر، وعبر كل ما تتقلبه الفِطَر والعقول والفِكَر.

هذا وكما نرى القرآن يسر التناول والإدراك، ولحدٍّ الإعجاز كما في سائر جوانبه اللفظية والمعنوية، وما عُسر اكتناه معانيه، واقتصاء مغازيه إلّا لأن فيه مجامع العلوم الربانية، الممكن نزولها إلى الخليقة مدى القرون والأجيال، رغم يسره في تعبيره ونضده في عبيره، فمهما كان التعبير يسراً لم يكن إلّا تيسيراً لإدراك المعاني الغامضة، والأضواء الوامضة، دون أن يجعلها سطحية سوقية ساذجة.

إنه تيسير للذكر، لمن بإمكانه الذكر، لمن لم يغرب عقله، ولم يعزب ضميره وإن كان لُداً: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣] فإنه يأخذ بمسامع الآذان، ومن ثم

---

(١) الجزء ٢٩ ففيه شرح وصورة فوتوغرافية عن اللوحة. التي وجدت في بعض قلل جبل آرارط وهو الجودي كما يصرح به في القرآن ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هُود: ٤٤].

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٨.

بأزمة القلوب حيث يتلوه الرسول ﷺ في الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾(١): يبلغ أعماق القلب ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢).

فلا سبيل لمن له مراس بلغة القرآن أن يعتذر بغموضه في أعماقه ورموزه، إن لم يتذكره، فكل من يفهم هذه اللغة يتذكر من القرآن قدر مجهوده، ولا أقل تذكّر العظة، وإن لم يبلغ مبالغ الأغوار في علومه وحقوقه، طالما السبيل إليها مسلوكة لمن يواصل السير مجهوده، فإنه معلم لمن يتعلم، وواعظ لمن يتعظ، وقاصد لمن يقصده، وحصد لمن يحصده، وراصد لمن يرصده، وفيه ما يتطلبه أي طالب إلّا الباطل.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾؟

إنهم عاد الأولى وهم قوم هود عليه السلام كذبوه شر تكذيب، رغم ما أنذرهم الله بخير نذر، فلاقوا مسًّا من عذابهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ي؟:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾(٣):

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لا - إليهم، بما يوحي بإرسالها عذاباً لا رحمة، ومن تصريحة العذاب ﴿صَرْصَرًا﴾: وهي البالغة في الصر والقرِّ: برد قارس لا قبل له، فقد كانت غالبة عاتية على هؤلاء العتاة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(٤) وكما عتت على خزانها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٣) راجع ج ٢٩ و٣٠، وقد ذكرت عاد في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن تنديداً بهم وتذكيراً لمن بعدهم.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ٦.

سخر الله عليهم هذه الصرصر العاتية ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: يوم عذابٍ نحسٍ، فليس اليوم نحساً إلّا بما فيه[١] نحس مستمر استمراراً زمنياً جعله أياماً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[٢] وهي: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٣] أيام نحسات حاسمات أزالت كافة آثار النحس والطغيان، فقد أصبحوا تحت رحمة هذه الصرصر العاتية كالنخل الخاوية الأعجاز، المنعقرة المصرومة، المقتلعة عن قعرها ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟[٤].

وقد يوحي هذا التشبيه أنهم كانوا جساماً أقوياء كالنخل، إلا أن عذاب الله أقوى فلا يعرف قوة لهؤلاء الهزلاء الضعفاء.

ثم وهذه الصرصر كان لها حرّها إضافة إلى قرّها، نموذجاً من النار الزمهرير في الجحيم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٥] ازدواجية عذاب الحرّ والقرّ من هذه الريح العقيم الصرصر: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[٦] وعلها كانت في أولها صراً، ثم أصبحت حراً، أم هما المستمران طول الأيام الثمانية!.

---

(١) فنحس هنا صفة لمضاف إليه محذوف، كعذاب أو مثله: يوم عذاب نحس - وليس صفة ليوم فإنه مضاف وليس موصوفاً.

وهذا هو الواقع الملموس أن لا خير فيه ولا نحس إلا بما يجري فيه من خير أو شر، فطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء، والزمان بوجه عام لزام، وبوجه خاص لنا محسوس ملموس، يظهر من طلوع الشمس وغروبها فمن أين النحوسة أو الخيرية، اللهم إلا مما يحدث فيه. فلا عبرة بالأحاديث الواردة أن يوم الأربعاء أم ماذا يوم نحس.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤١.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾؟

والجواب هو واقع المشهد لصرعى الزمجرة، ومن ثم نقَلهُ في هذا الذكر الحكيم يسراً للمدّكرين:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

... تتكرر هذه الذكرى في هذه المصارع أربع مرات، ولكي يتذكر من أراد أن يذّكر أو أراد نشوراً.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

وثمود هم قوم صالح، كذبوا بالنذر قبل صالح ومعه وإياه، وهو يختص بالذكر من بينهم لأنه أعظمهم وآيته الناقة من أعظم الآيات، فظلمهم بها من أقبح الظلم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾[١].

إنهم كذبوا بالنذر قولياً وعملياً، فما أبقوا فيما طغوا شيئاً إلّا فعلوه فقالُوا ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ مثلث التأنيب ذريعة للتكذيب: ﴿أَبَشَرًا﴾ وكيف يبعث الله بشراً: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[٢] بَشَراً ﴿مِّنَّا﴾ فلو كان بشراً من غيرنا لا مثلنا، فعلّه كان أهلاً للاتباع: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٣] بَشَراً ﴿مِّنَّا وَاحِدًا﴾: واحداً عن الأنصار، وعن العشيرة والمال، وعن طاقات بشرية وسواها قد تؤهله للاتباع: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤].

---

(١) راجع ج ٣ من الفرقان.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

فهؤلاء الأوغاد المناكيد يتذرعون بثالوثهم المنحوس هذا، إلى تكذيب بشر رسول، وترى ماذا يمنع عن كون بشر رسولاً إلى بشر؟ وفيه الحجة، وبه قطع الأعذار وإكمال المهجة، فحتى ولو بعث ملكاً لجُعل بشراً لهذه الغاية وأضرابها ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[١].

وترى بعد أن في اتباع الرسول البشر ضلال وسُعُر كما تقولوا: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾: ضلال في أرواحنا، وسعر: نيران متسعرة عاتياً في حياتنا كلها، ولماذا نتبعه فنسجّر لأنفسنا حياةً جهنمية ضالة؟!.

وإذا كان هنا ضلال وسعر، فهل في تكذيب الرسل هداية وجنة، ويا لها من معاكسة ضالة جهنمية يتذرعون بها إلى تكذيبهم رسل الله!. ويا لهؤلاء المكذبين من قدسية احتياطية يتحرزون لها عن اتّباع رسل الله، احترازاً عن ضلال وسُعُر، هما من مخلفات تكذيب رسل الله!.

ثم نراهم يضيفون إلى ثالوثهم رابعاً يدعمون به صرح الطغيان، ظلمات بعضها فوق بعض، وشبهات مكررة تحيك في صدور المكذبين طوال تاريخ الرسالات:

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؟:

كأنهم هنا أغمضوا النظر عن ثالوثهم المسبق: فليكن بشراً منا واحداً! فلماذا يكون هو هذا الواحد؟ فليكن كل واحد منا رسولاً لنفسه، أو وإلى غيره أيضاً: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[٢] أم إذا لا يبعث إلّا واحد، فكيف يلقى عليه الذكر من بيننا، وهو لا يملك عِدة ولا عُدة، ونحن العِدة ولنا العُدة؟: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾[٣]؟ وهم

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

يريدون أن يقسموا المعايش الروحية في الحياة العليا! وأين حياة من حياة، ورزق من رزق؟!.

ومن هذه الشبهات الواهية يتخطون تركهم لاتباع الرسل إلى تكذيبهم الأشِر: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾!: مبالغ في الكذب والبطر: الفرح والفخر والمرح، فالفرح المذموم شديده البطر وأشده الأشر، فقد وجه إلى هذا النبي العظيم أشد التهم، ولكي يسقطوه عن أعين الناس، ويتذرعوا به إلى التخلف الشرعي عنه! ولكن:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾:

فإن الغد سوف يكشف عن من هو الكذاب الأشر كشف الواقع، طالما هو المكشوف اليوم عند من لم يغرب عقله، ومن الغد:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾:

والناقة هذه آية إلهية أرسلت فتنة لهم: حجة واختباراً، وكما اقترحوها[1] فتبين لهم منها مَن هو الكذاب الأشر، قبل أن يعلموا يوم القيامة، فالغد هنا يشملهما، ولا سيما أن في غد الأولى حجة حاضرة حاذرة، وليس في الأخرى إلّا تخويفاً قد لا يخوفهم لأنهم ناكروه وكما في ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾... إيحاء ظاهر أن لإرسالها رباطاً باهراً بالكشف عن الكذاب الأشر.

---

(١) روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام. في حديث حول الآية: فبعث الله إليهم صالحاً فدعاهم فلم يجيبوه وعتوا عليه عتواً وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها فقالوا له: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه الحديث.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾: - ولقد حمل صالح هذه الرسالة الآية:

﴿قَالَ ... قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[2] ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فيما يفعلون ويفتعلون رقابة الرسالة فتبشيراً وإنذاراً ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم، ولكي يعلموا من الكذاب الأشر.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾: - ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3] فقد كانت آية في ولادتها دون والدين وعن الجبل، وفي شربها الماء قدر شرب القوم، آية حجة وابتلاء.

﴿... قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: قسمة إلهية بينهم وبين الناقة، كل يشرب: نصيب الشرب محتضر: حاضر دون انتقاص، قسمة عادلة حاضرة.

فهل انتبهوا بهذه الآية وخرجوا عن غيّهم؟ كلّا! إنهم ارتكبوا جريمة نكراء، لقد فتكوا بالآية المعجزة وقتلوها:

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: وذلك رغم ما حذروا عن مسها بسوء: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4].

عقروا الناقة بما نادوا صاحبهم لعقرها، وساعدوه وهو «أشقى الأولين أحيمر ثمود، رجل عارم عزيز في رهطه»[5] ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: تناول منهم ما به

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥.

(٤) سورة الأعراف، الآيات: ٧٣-٧٧.

(٥) الدر المنثور ٦: ٣٥٧ عن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة =

يعقر ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة، والتناول هنا يشمل كل التناولات المشجعة للعقر: من خمر تجننه، ومن مال وسيف ومن مكاسب معنوية عندهم، والعقر هو إصابة الأصل والقعر، فهي بالنسبة للناقة استئصالها ونحرها.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[(١)] فتصالحوا في إفساد عظيم على أحيمرهم فنادوه فتعاطى فعقر، فتمت الفتنة ووقعت المصيبة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

وإنها لصيحة خلفت رجفة مدمرة جاثمة هاشمة تحقيقاً لوعد سابق مطلق وآخر لاحق غير مكذوب: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ... وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ...﴾[(٢)].

ويا لها من صيحة مرجفة جائمة هاشمة: جثمتهم في ديارهم: لاطئين بها، لازقين عليها كأن لم يغنوا فيها، وهشمتهم: كاسرة لهم كالنبات الرخو ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ ويا له من تنظير عديم النظير، إذ شبههم بهشيم: الحشيش الذي يخرج من الحظائر بتفتُّت، هذا الذي يحتضره المحتظِر: صاحب الحظيرة، للبيع أكلاً للحيوان أو إحراقاً للتدفئة والطبخ.

فهم هشيم لكونهم يابسين كالحشيش كمن ماتوا قبل زمن بعيد، وهشيم

= - فمن أشقى الآخرين! قال: قلت: لا أعلم يا رسول الله ﷺ! قال: الذي يضربك على هذه وأشار إلى نافوخه.

(١) سورة النمل، الآية: ٤٨.

(٢) سورة هود، الآيات: ٦٥-٦٨.

حيث انضمت أجزاؤهم بعضها ببعض كحطب الحاطب الموضوع بعضها فوق بعض كالحظيرة. وهشيمٌ محتضَر لوقود المحتظِر، ولقد كانوا هشيماً كهذا الثالوث من وقعة الصيحة المرجفة. احتضروا كوقود النار: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1] والله تعالى هو المحتظر لهذا الهشيم من حظيرة الكون الواسع.

ويا لها من مصارع لكفار التاريخ، فهنا هشيم المحتظِر، وهناك أصحاب الفيل كعصف مأكول، وهنالك سائر المعذبين ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ي؟.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾:

.. ومن جرّاء تكذيبهم - وأشده وأنكره - بلوط عليه السلام يرسل الله عليهم حاصباً: ريحاً سماوية تحمل حجارةً: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[3]. ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[4] ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ﴾[5].

فهذا القطع من الليل هو من سحره، حيث العيون نائمة، وعيون أهل الله ساهرة، وهذه النجاة من نعم الله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾: أحياناً في الدنيا وتماماً في الأخرى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٥٩، ٦٠.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٦٥.
(٥) سورة هود، الآية: ٨١.

وفيما إذا سألنا: فماذا ذنب الأطفال، غير مكلفين في أي دين، إذ لم يستثنوا مع آل لوط الناجين؟

فالجواب: إن هلاكهم مع آبائهم الكافرين ليس لهم عذاباً، وإنما مزيد ابتلاء لآبائهم إذ يرونهم هلكى كأمثالهم، ثم هم يُجزون جزاء القاصرين غير المقصرين ولا يظلمون نقيراً، وكما يرون آباءهم المقصرين معذبين فيجبر بلاؤهم، وما الله بظلّام للعبيد!.

ومما يوحي بهذا التحليل الآيات المحتجة عليهم، المنددة بهم، المحذرة إياهم عن العذاب، والقصَّر خارجون عنها كلها:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾:

علّها مثلث البطشة: من طمس أعينهم، إذ راودوا لوطاً عن ضيفه، ومن إرسال الحاصب عليهم بحجارة من سجيل، ثم البطشة الكبرى في الأخرى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾(١).

فالبطشة المنذر بها تشملها كلها، وكما أنذر: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾(٢) كما وأنذر - مثل سائر المنذرين - البطشة الكبرى، ولكنهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: تردداً في أمرهم، تداولاً للمرية فيما بينهم ليجسموها كأنها الحق، متحاجين على النذر، مهددين إياهم، مستهزئين بهم، لاغين معهم، وإلى كل صنوف المماراة.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾:

المراودة هي التفاعل والتعامل في الرّود والتردد في طلب الشيء برفق

(١) سورة الدخان، الآية: ١٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

أو أي ضرب من ضروب المحاولات، ولقد كانت مراودتهم إياه عن ضيفه - إذ حسبوهم غلماناً صباحاً. فهاج سعارهم - كانت شرسة نحسة للغاية: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ...﴾[1] فـ ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾ إيحاءٌ لطيف أنهم على جموعهم المحتشدة وإصرارهم لن يصلوا إلى بغيتهم، إذ إن هؤلاء ملائكة الله، وإن الله يطمس أعين القوم دونهم: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ...﴾ وهل إنه طمسٌ بذهاب أعينهم إلى العمى[2] كما هو ظاهر الطمس، وليس الستر أو السدّ حتى يكون مؤقتاً، وكما قد توحي له ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فليس الحجاب المؤقت عن الرؤية عذاباً في هذا الحساب! ثم وهذا من ذوق العذاب فما هو ذوق النذر؟.

إنه ذوق لنذارات النذر بالعذاب المنذَر به، وتحقيق وعدهم، وتكريمهم فيه رغم مهانة المنذَرين، وقد أنذرهم لوط هذه البطشة الطامسة الحاصبة:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾:

فطالما الطمس وذهاب الأعين آني لا يستقر عذابه، مهما استقر حرمانهم عن الرؤية، ولكنهم بطمسهم عن الحياة بالحاصب استقروا في العذاب دون فتور، لاتصاله بعذابي البرزخ والقيامة.

---

(١) سورة هود، الآيات: ٧٨-٨١.

(٢) الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قصة لوط.. فكابروه - يعني لوطاً - حتى دخلوا البيت فصاح به جبرائيل فقال: يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرائيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].
وفي علل الشرائع عن أحدهما عليهما السلام فأشار إليهم جبرائيل بيده فرجعوا عمياناً يلتمسون الجدار بأيديهم يعاهدون الله عز وجل: لئن أصبحنا لا نستبقي أحداً من آل لوط.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾:

نذير فوق نذير، وتذكير فوق تذكير، وعذاب فوق عذاب بما قدموا من نكير!

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾:

ومن أكبر النذر موسى عليه السلام آية إلهية عظمى يَحمل آيات معجزات، وآل فرعون كذبوا بهذه الآيات كلها، لا بكل الآيات الإلهية طوال الرسالات، فإن منها ما حصلت زمن موسى ونذر معه، أو قبله وبعده، ومنها ما اختصت بخاتمة الرسالات وهي أكبرها وأخلدها، ومنها، فـ ﴿كُلِّهَا﴾ هنا تعني كل الآيات التي أرسل بها نذرهم.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1] ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فالآخذ عزيز مقتدر، والمأخوذ عزيز مقتدر! فـ ﴿أَخْذَ﴾ هنا تتحمل كونها مفعولاً لأجله للآخذ والمأخوذ كليهما، ولكن أين عزيز مقتدر من عزيز مقتدر! وقد يلقي هذا الأخذ ظلال الشدة والعنف على عذابه، تعريضاً بعزة فرعون واقتداره المزعومين، فبحسب ظلمه وبغيه على عزه وقدرته، كان أخذه قوياً.

فأولئكم من أحمق حماقى التاريخ طغياناً وكفراً، ذاقوا وبال أمرهم على عزتهم وقوتهم، فما يأمنكم أن يأتيكم عذاب كما أتاهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟:

تُرى من هم المخاطبون بـ «كُم» الأولى والثالثة؟ هل هم الكفار المهددون بالعذاب؟ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه: «كفاركم» والصحيح -

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٠.

إذاً - أأنتم! أم هم جموع المنذَرين، الكافرين منهم المقصرين، والناكرين القاصرين الذين مصيرهم الإيمان أو اللاتكذيب واللاإيمان؟ قد يكون ذلك، فـ «كفاركم» هم المكذبون الذين سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، و«كم» أعم منهم وكذلك «كم» الثالثة هم جموع المنذَرين، هؤلاء وهؤلاء، ففي توجيه الخطاب إلى العموم، المبتدىء بالقاصرين غير المعاندين، تشريف لهم مع الإنذار، يشاركه ويجاويه الخطاب الثالث «لكم»: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أنتم غير المسلمين ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم﴾ جميعاً مكذبين وغير مكذبين ﴿بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾؟:

وإنها نهاية المطاف في إسقاط كل شبهة عن وحي السماء، وسد كل ثغرة وكل مطمع في الهرب عنه.

وترى هل في الكافر خير حتى يفضل به على سواه من الكافرين؟ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ. . .﴾ علّ الخير هنا خفة الكفر - أأنتم أقل كفراً منهم لكي تأمنوا عذابهم؟ كلا - فأنتم سواء، أو ولو كنتم خيراً فالكفر دركات، لا ينجو أي درك لخفته عما يستحقه، أو علّ الخير هو المزعوم من عزة وقدرة ومال وبنين، يُستمد بها لدفع المضر ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ﴾: أملك مما كانوا يملكون من خير عاجل واهٍ؟ كلّا! فإنهم كانوا خيراً، فلم يك ينفعهم خيرهم عما أصابهم من شر وعذاب: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

أو لا خيرية هنا وهناك - بل: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾:

فما هي هذه الزبر: الكتب؟ هل هي سماوية؟ فأين هي! وإذا كانت هي

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

فتلك إذاً قسمة ضيزى: ظالمة جاهلة وتمييز خاطئ، فالزبر منه براء، اللهم إلا ما كتبته أيدي الدس والتحريف، فالوحي منه براء.. وإذا كانت غير سماوية فلا حجة فيها! والعقل منه براء.

وإذ لا خيرية لهم ولا براءة لكم - كما العقل يدل والواقع يشهد - فهل تسندون في باطلكم إلى جمعكم؟:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾: جمع متكاثف متكاتف كأننا واحد، حيث الفعيل يبالغ في مادته، فالجمع المبالغ في الجمعية هو المتكاتف الرصين كبنيان مرصوص واحد، ولذلك يخبر عنهم ثانياً بـ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ رغم جمعية «نحن» فقد تحولت إلى واحد فهو منتصر: خبر بعد خبر عن «نحن».

وهكذا جمع هو القوة الحاسمة الصارمة وينتج الانتصار والغلبة على المناوئين، وإذا كانوا جميعاً هكذا كما يدعون فلا انتصار لهم إلا على أضرابهم الكافرين غير الجميع، وأما على المؤمنين الجميع فلا، فجمع أولئك هو يبور، لأنه جمع على الباطل البائر، وجمع هؤلاء لا يبور، لأنه على الحق غير البائر، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] وإن مكث الباطل زمناً، فـ:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾: وبما أن الهزم هو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن، فهو إيحاء إلى يبسهم في جمعهم إذ لا تلازق عريق، ولا تلاصق عميق، فهم - إذاً - على جمعهم يكسرون وجاه الجمع المتلازق المتلاصق من المؤمنين.

وتصديقاً لهذه الملحمة القرآنية، الحاملة نبأ الغيب، لقد هُزِمَت - بعدها

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

بزمن - جموع من المشركين في حروبهم مع المسلمين أولاها حرب بدر، هذه البادرة المعجزة التي بيضت وجوه المسلمين - إذ غلبوا وهم ٣٦٣ شخصاً - على المشركين وهم عشرة آلاف.

تنزل هذه الآية بمكة المكرمة إذ لا عِدة لهم ولا عُدة فلا جرأة على حربهم، ثم تتحقق ببشارتها بالمدينة يوم بدر، وكان يرددها الرسول ﷺ مبتهجاً إن حقق الله له وعده(١) ونصر عبده إذ هزم جمعهم الجميع فولوا الدبر، ووحدة الدبر كوحدة الجمع إشارة إلى وحدتهم في جمعهم.

ومهما كانت هذه الهزيمة - بما قبلها وبعدها من هزائم عظيمة فهي هزيلة بجنب الساعة:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾:

إنها أدهى: وأبلى لا خلاص عنها، وأمر من كل ما مر: من هزيمة وصاعقة وصرصر وطوفان وحاصب وأخذ عزيز مقتدر، فإنها يوم البطشة الكبرى التي لا قِبَل لها ولا قَبْل فيما مرّ، فإنها أدهى وأمرّ.

فالمرارة وإن كانت لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعمات، ولكن الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقي العقاب، ومكروهة بعقابها، حسن وصفها بما يوصف به الشيء المكروه المذاق، ومن عادة من يلاقي مكروهه أن يتهيج وجهه، بما يدل على نفور جأشه وشدة استيحاشه، فكذلك المجرمون إذا شاهدوا أمارات العذاب ونوازل العقاب، ظهر في وجوههم المنكر، ما يستدل به على فظاعة حالهم، فكانوا كلائك المضغة المقرة، وذائق الكأس الصبرة في فرط التقطيب - فـ ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٣٦ - ١٣٧ - أخرجه جماعة عنه ﷺ أنه كان يثب في الدرع يوم بدر ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ...﴾ [القمر: ٤٥] فلما انتصر قال: هزم الجمع وولوا الدبر - وأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾:

. . . إنهم في ضلال مستمر وسعر متسعر يوم الدنيا ويوم الدين، عكس ما كانوا يتقولون ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾(١) فهذه القولة الضالة المتسعرة هي من ضلالهم، الذي هو عذاب للعقول - لو كانت - وللنفوس، ومن جرائها وورائها سعر الحياة الجهنمية البائسة، وفي آخر المطاف: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كما يسحب الحمر المستنفرة، وليعرفوا ويذوقوا واقع ضلال وسعر ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾؟ فبقدر ما أجرموا يذوقون مس سقر، وبقدر ما قدروا الهدى ضلالاً وسعراً، سوف يكونون في ضلال وسعر - ف :

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

خلق بقدر، وتقدير بقدر تكوين بقدر وتشريع بقدر، ثواب بقدر وعقاب بقدر(٢) في كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(٣) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾(٤) فخزائن كل شيء عنده كخلق كل شيء منه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٥) إن كان أمراً من الأمور أو الأوامر: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(٦) حتى ولو كان ماء من السماء:

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.
(٢) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الحسن بن علي عليه السلام عن علي عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فقال: يقول عز وجل: إنا كل شيء خلقناه لأهل النار بقدر أعمالهم، أقول: وهذا من التفسير بالمصداق المذكور قبل الآية.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٨.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[١] فـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾:

قدر في كل شيء بحساب الله في خلقه وأمره دون فوضى ولا جهالة، قدر لا يقدر عليه إلا الله، مهما قدره خلق من الله بما أقدره الله علماً وعرفاناً، وكما في تقدم العلوم البشرية ظهور قدر من قدر الله حسب القدرة البشرية، يزيدها علماً وإيقاناً أن الكون بعجلته صنع يد قديرة عليمة واحدة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[٢]؟.

ثم وقدر الشيء هو الحد الذي لا يتجاوزه أو ينقصه، من هندسة الكون، ومن القضاء والقَدَر، اللذين لا يتنافيان واختيار الإنسان فيما يثاب به أو يعاقب عليه، فلقد قدر الله للإنسان فما قدر، أن يكون شيءٌ من أفعاله باختياره، كما قدر له أن يكون شيء آخر من أفعاله دون اختياره، والاختيارية من أفعال الإنسان وإن كانت - في وجه - من أفعال الله أيضاً، ولكنه لا يسيره إليها دون اختياره - فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» لا هو مفوض في أفعاله بمعزل عن الإرادة الإلهية، ولا هو مجبور فيها بمعزل عن اختياره نفسه، وإنما له اختيار في هذه الأفعال قليلاً أو كثيراً، ما يجعله مختاراً، ولو بجزء من مئات الأجزاء، أو مقدمة من مئات المقدمات، فالاختيار بين درجات ودركات، والتفويض والإجبار كلٌّ على سواء دون درجات أو دركات، وليعرف هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، إن فعل الله ليس فوضى عشوائية عمياء، وإنما بقدر وحكمة، وبعلم ومصلحة ترجع لصالح الخلق والخلق فقط، فليس الله هو المستفيد، وإنما هو المفيد في كل فعل وبكل قدر: قدر يحدِّد حقيقته وصفته، زمانه ومكانه، ومن ثم

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

رباط بسائر الكون وتأثيره فيه وتأثره به، ولو أردنا تفصيل القدر حسب ما وصل إليه علم البشر وهو نقطة من البحر، لكلَّفنا موسوعة شاسعة واسعة وإليكم نموذجاً من عين لك واحدة: إن لها سبع طبقات وثلاث رطوبات، فواحدة من السبع هي الشبكة، وهي لا تزيد في سمكها على ورقة، وفيها وحدها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة، وبهذه كلها يكون النظر فلتنظر بهذه العين والبصر إلى الكون الواسع لتعرف القدر وكما تقدر.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾:

فما هو أمر الله هنا وما هو لمح البصر؟ هل هو أمر التشريع؟ وليس واحداً بل هو أوامر في تشاريع: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ...﴾[1] ثم ولا صلة له بلمح البصر! أم هو أمر التكوين والتقدير؟ فكذلك الأمر!: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾[2] من الأمور والأوامر ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾[3] وليس الواحد جميعاً! أو هو أمر الساعة: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾[4]؟ قد يكون، كما وتجاوبه ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ إذ ليست صفة لأمر، وإنما لموصوف كـ: إرادة - أو كلمة تعنيها: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5] فهي كلمة كن - التكوينية.

أو أن ﴿أَمۡرُنَآ﴾ هنا تشمل الإرادات الإلهية كلها على سبيل البدل وهو أجمع: وما أمرنا في التكوين والتقدير إلّا واحدة كلمح بالبصر، واحدة حقيقية غير مركبة من معدات مقدمات، ولا في حالة التكوين، ودون حاجة إلى زمان أو مكان أو أعوان ولا أمر آخر أيّاً كان، وإنما كلمة «كن» وليست لفظية، وإنما تكوينية يعبر عنها بها تقريباً لأذهاننا.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٢) سورة القدر، الآية: ٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٥) سورة يس، الآية: ٨٢.

كما وأن لمح البصر لا يعني زمناً قدره، وإن كان قصيراً، وإنما يلمح بأقصر القصر كما كان يعرفه البشر، وكما تدلّ عليه ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: بل هو أقرب، قرباً لا يعرفه البشر، لأنه مجرد عن الزمان، فالله هو خالق الزمان والمكان، فكيف يحتاج في أمره إلى مكان أو زمان، وإنما لمح البصر أو أقرب منه لمحٌ إلى سرعة النفاذ لأمره فيما يريد دون تربص ولا تريث.

فبواحدة من هذه الوحدات تكون الساعة، كما تكون كل كائنة من الكائنات صغيرة أو كبيرة. بل لا صغيرة في أمر الله ولا كبيرة، ولا قليلة ولا كثيرة، وإنما واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب!.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾:

الأشياع هم الأتباع في العقيدة والعمل، أو الأحزاب فيها بتجريدها عن التبعية كما هنا، فكيف بإمكان الغابر اتباع الحاضر ولما يأت، اللهم إلا مشاكلة في السيرة، ومن ثم فقد يكون الأشياع والمشيع بهم على سواء، أو أقوى منهم - في خير: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[1] فإنه أعظم من نوح، أو في شر كما هنا، فإن قوم نوح كانوا أظلم وأطغى وقد حشروا بسائر الطغاة في ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وكما علّه في ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾[2] فلا يشترط في الأشياع التبعية في السيرة، ولا لحوق الزمن أو حضوره.

ثم ولا يعني هلاكهم استهلاك أقوالهم وأفعالهم لكي يخلصوا من عذاب الساعة التي هي أدهى وأمر، فإنها مزبرة مستطرة:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

كل فعل لهم بجانحة أو جارحة، بلسان أو سائر الأعضاء العاملة، كل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

ذلك ثابتة مسجلة في الزبر: زبر الجوارح نفسها، وزبر الأرض بفضائها، وزبر الكرام الكاتبين، في مسجلات صوتية وصورية وكما يصلح أن تكون شاهدة عليهم بما عملوا دون أن يقدروا على نكران.

لا فحسب الكبيرة من الأفعال، فكل صغير وكبير مستطر بما سطره الله استنساخاً عما عملتم ﴿. . . إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

فهاتان الآيتان من آيات انعكاس الأعمال المنتشرة في سور القرآن بعشرات، فصلناها في طياتها فراجع[٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾:

إنهم في جنات حسية ونهر، وأخرى روحية وهي أكبر: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ. . .﴾ ولقد عرفنا ﴿جَنَّٰتٍ﴾: أشجار وبنايات تجنهم عن الشمس وما يؤذي، فما هي (نهر)؟ هل إنها نهر الماء؟ وفي الجنات أنهار كما في سائر الآيات لا (نهر): ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٣]! وأنهم ليسوا هناك في نهر، وإنما على نهر أو أنهار، يتنضّرون بها ويستقون منها ويغوصون فيها!

علّ (نهر) هنا - هي السعة من فيض الله الفائض على أهل الجنة، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «النهر الفضاء والسعة وليس بنهر جار»[٤] كما وتجاويه اللغة[٥] فهم - إذاً - في جنات، وفي سعة من كافة الحاجيات

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٢) منها سورة الزلزلة والقارعة في ج ٣٠ وسوف نوافيكم بالباقية في سائر الآيات.
(٣) قد جاءت «الأنهار» مع الجنات في ٤٧ موضعاً من القرآن، ولم يأت «نهر» لجنات القيامة إلا هنا، ولما في الدنيا إلا مرتين ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يعني بهما نهر واحد، وليس نهر الجنات الأخروية واحداً إلا في آيتنا هذه، فهل أن هذه اليتيمة قبال ٤٧ الأنهار - تعني الأنهار رغم وحدة الصيغة؟.
(٤) الدر المنثور ٦: ١٣٩ - أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:
(٥) في لسان العرب: النهر والنهر واحد الأنهار والجمع أنهار ونهر ونهور والنهر كل كثير =

المتطلبات ومنها أنهاراً، فهي أيضاً من نهر، إذ لا حياة فائضة بلا أنهار، فما ألطفه - دون تكلف - أن يراد بـ(نهر) ما يشمل الأنهار وفي مثلث التجاوب كتاباً وسنة ولغة!

ثم ترى ما هو مقعد صدق ومن هو مليك مقتدر؟.. إنه قعود صدق، وقاعدة صدق، مكان صدق ومكانة صدق، و(مقعد) توحي بالدوام واللبث، ومن لطيف ما فيها أن (ق ع د) بكل تقاليبها تدل على الدوام والبقاء[1]، دون (مجلس) ثم ولا تعني القعود قبال القيام والحراك، وإنما المقام والمسكن المريح.

ثم إذا كان ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ هو الله وهو الله، فالمقعد هو المكانة الصادقة الدائبة، فـ(عند) لا تعني قرب المكان إذ ليس له مكان، وإنما المكانة والزلفى، وكما للأخصين من الصالحين: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ...﴾[3].

وإذا كان المليك هو أقرب عباد الله محمد ﷺ - كما عليه يراد ضمن المراد - فالمقعد هو المكان[4] ولا غرو في الجمع بين المليك الإلهي

= الجري وأنهرت الدم أسلته، ونهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ قد يجوز أن يعني به السعة والضياء، وفي غريب القرآن: والنهر السعة تشبيهاً بنهر الماء، وفي الشعر:

ملكت بها فانهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

(١) فـ: قعد - قدع بمعنى، و: عقد وعدق بمعنى المكث، ودقع ودعق كذلك - فـ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القَمَر: ٥٥] توحي بكل تقاليبها بدوام المكوث!.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٤) الدر المنثور ٦: ١٣٩ - أخرج أبو نعيم عن جابر قال: بينما رسول الله ﷺ يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي ﷺ: يا أبا دجانة أما علمت أن من أحبنا وابتلى بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ثم تلا: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

أقول: هذا الحديث ذو وجهين، فقد يعني بـ«معنا» نفس ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لأنه الصادق الأول في هذا المقعد - وقد يعني ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: ٥٥].

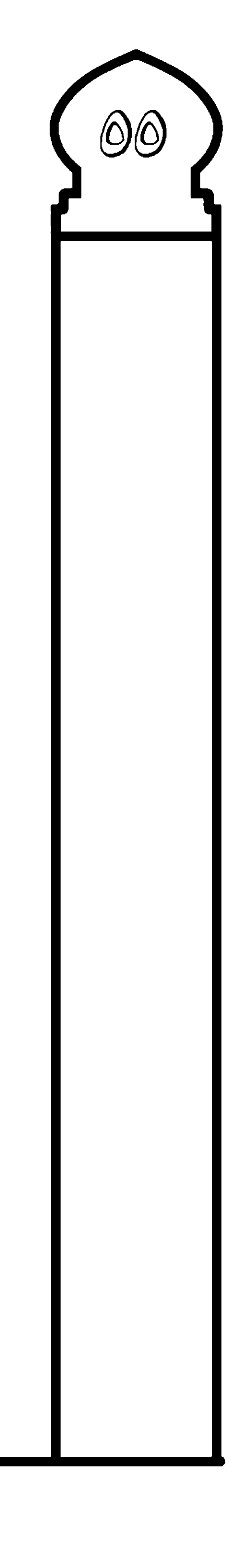
والبشري إذ تتحملها ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ وإن كان أين مليك من مليك! وفي هذا الجمع الجميل فالمتقون في مقعد صدق: مكاناً ومكانة، عند مليك مقتدر - فـ (التقوى جماع كل عبادة صالحة، وبه وصل من وصل إلى الدرجات العلى، وبه عاش من عاش بالحياة الطيبة والأنس الدائم)[١] فليعش أطيب الحياة وأدومها عند مليك مقتدر.

ولكي نعرف أن التقوى تقوى أن توصل بالإنسان إلى حفرة القرب، حيث يعاشر المتقي (الذين عند ربك) فعنده مقامه وهو أنسهم وكما عاشوه مدى الحياة، تاركين الرغبات دون حبه وتقواه، معرضين عن طغواه إلى تقواه.

أجل - وإن أفضل المتقين من إذا طالبه الخلق في الدنيا ولها لم يجدوه، ولو طالبه مالك في النار لم يجده، ولو طالبه رضوان في الجنة ملتهياً بها لم يجده، وإنما يجده الله عنده ويجد الله عنده: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾ فكونهم في جنات ونهر لا يلهيهم عن كونهم عند مليك مقتدر.



(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير المتقين في هذه الآية.



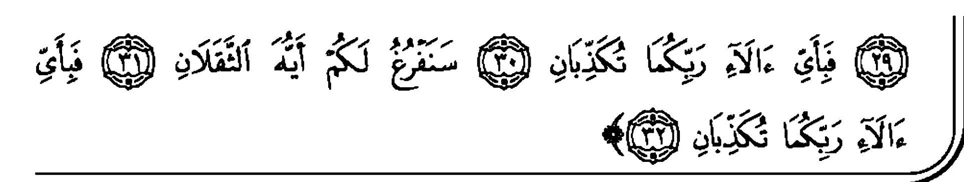
سُورَةُ الرَّحۡمٰن



مكية أو مدنية – وآياتها ثمان وسبعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ
﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ
ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ
﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ
كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ


﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

يروى عن الرسول الأقدس ﷺ: «لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن»[1] وإنها حقاً عروس القرآن، وإن كان القرآن عروساً كله، فإنها عروس في رنينها وطنينها إذ تزف بموسيقى التعبير المنسق الموزون، كأنها شعر وليس به! وعروس في حنانها وحنينها[2] إذ تشعرنا بالرحمة والعذاب ومواردهما، وعروس - جملة وتفصيلاً - في ألفاظها بمعانيها.

والرحمن هي السورة الوحيدة التي تتسمى بأشمل اسم من أسماء الله ويعتبر بوحدته آية واحدة، ترمز إلى رحمات رحمانيته ورحيميته في الأولى والآخرة تستعرضها السورة، لمسات من الرحمتين، وإعلانٌ عام في ساحة الكون ينطلق من الرحمن فيتجاوب به الكون كله، فالكون كله، والسورة كلها، معارض ومظاهر لآلاء الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾:

... إنها أولى الأسماء والصفات الإلهية بعد «الله» لا يسمى بها إلا الله إلا زوراً وغروراً، فهي تشمل كافة الصفات والأسماء الإلهية الفائضة على الخلق عامة، إذ هي أعم من الرحيم، فإنها لبعض الخلق خاصة، فقد ذكرت الرحيم فيما ذكرت، قرينة برحمات خاصة، ولم تذكر الرحمن إلا عامة أو قرينة برحمات عامة، مما يؤكد تفسيرها في السنة واللغة بالرحمة العامة، وفيما تذكر برحمة خاصة، لا تعني إلا شمولها لها، وكما تشمل سائر

(١) الدر المنثور ٦: ١٤٠ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن علي عليه السلام قال سمعت النبي ﷺ يقول: ...

(٢) الحنان هو الرحمة والمودة، والحنين شديد الطرب والبكاء، وكذلك الشوق.

الرحمات لا اختصاصها بها، فهي على أية حال أشمل من الرحيم[١]. ومن الرحمة العامة: الرحمانية، رحمة الخلق وهداية الخلق: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢] ومن الهداية ما ترجع إليهما من صالح ذاتي أو وصفي وعارضي، وقد تستعرض ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ قسماً كبيراً من أقسام الرحمتين الرحمانية والرحيمية، ومن أعظمها:

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾:

تتقدم على خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الأرض للأنام أم ماذا؟ رمزاً إلى أن القرآن هو الرحمة التي تعادل سائر الرحمات وتتقدمها، فكتب الوحي كلها تقدمات للقرآن، وخلق الكون كله بما فيه الإنس والجان خلقٌ لمن يتوجب عليه فهم القرآن، متذرعاً كتاب التكوين آفاقياً وأنفسياً للوصول إلى كتاب التدوين: القرآن.

وإنها لنعمة كبرى ورحمة عظمى تتجلى فيها رحمة الرحمن لمن يمكنه تعلم القرآن من ملك أو جن وإنسان.

وترى أن «علّم» من تعليم العلامة[٣] حتى يكون القرآن مفعوله الوحيد: أن جعل القرآن علامة لرسالة الرسول، وكرامة لمن يتعلم القرآن؟ أم من تعليم العلم، فمفعوله الأول مقدر هو كل من حمّل تعلّم القرآن، من حامل رسالته الأصيلة[٤]، إلى حملته الفروع، وإلى عامة المرسل إليهم.

---

(١) لقد ذكرت الرحمن ٧ مرات والرحيم ٩٥ مرة، وفي أحاديثنا: الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة، وكذلك في اللغة - وتجد تفصيل البحث عن الوصفين في بسملة الحمد - علنا نوفق للوصول إليها بتوفيق الله تعالى.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) قد يكون علم تفعيل علم فهو تعليم العلم، أو يكون من علم فهو تعليم العلم والعلامة.

(٤) تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في الآية: الله علم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم القرآن، أقول: وهو من باب التفسير بأفضل المصاديق، ويناسب كذلك تعليم العلامة كما قلناه.

ومن لطيف الأمر أن كلا التعليمين من أعظم الرحمات الإلهية، رحمة الإعجاز - القمة، ورحمة التعليم والتزكية - القمة، والأوفق بأسلوب القرآن أن تعني «علم» كلتا القمتين.

وكما أن القرآن بين الكتب رحمة تشريعية قمة، كذلك خلق الإنسان بين الخلق رحمة تكوينية قمة:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾:

فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم، مفضل على كثير من الخلق مهما ساواه آخرون: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١] فتخصيصه بالذكر هنا وعن الجان المشاركين إياه في تعليم القرآن، ليس إلا لأنه موجّه إليه أصالة، ثم إلى الجان كفرع من فروع الإنسان، لا لأنه فقط المكلف بذلك، أو هو المفضل على الخلق كله.

من ثم - وبعد تعليم القرآن وخلق الإنسان - يأتي دور تعليم البيان، وهو الزاوية الثالثة في مثلث كيان الإنسان، بما يتطلبه من الفطرة والعقل والفكرة، ولكي تكون مادة للبيان، وإلا فممّ وعمّا البيان؟!

وترى ما هو البيان؟ لكي يحتل من ميزات الإنسان قمتها! هل إنه إظهار ما في الضمير من الواقع ومن الطلبات؟ فقد يشاركه الحيوان، كلٌّ مع ذوي نوعه وبحسبه، كما الإنسان مع سائر الإنسان! أو أنه بيانٌ باللسان، وبيان بالإشارة، وبيان بالقلم، وإلى سائر البيان: كافة الوسائل التي يتذرع بها لـ«بيان كل ما يحتاج إليه الناس»[٢] ما يحتاجه صاحب البيان أو غيره من إنسان، بيان الإفادة والاستفادة، بيان الاحتجاج أو طلب الحجة على ما يرام، وترى أن للحيوان هكذا بيان؟ مهما كان له إظهارٌ لما يتطلبه بإشارة أو

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا في تفسير ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرّحمٰن: ٤].

لسان! كلا وأنه الإنسان الذي زود بكل بيان وتبيان، بأصولها ووسائلها وفصائلها وحصائلها، فكما القرآن فيه تبيان كل شيء، كذلك الإنسان، فله أن يتبين من القرآن كل شيء، ثم يبين على ضوئه كل شيء، تجاوب كتابي التكوين والتدوين: الإنسان والقرآن! فإنسان القرآن هو مجمع الكتابين ومرج البحرين، فيا له من إنسان عالي الكيان!

فقد مُنح من الوسائل بما لم يزَّود به سائر الحيوان، إضافة إلى أن ضميره يفوق سائر الضمائر! فبيانه - إذاً - يفوق سائر البيان! وهكذا بيان عن هكذا ضمير هو الذي يميّزه عن سواه فيمتاز على سائر الحيوان.

ترى لو لم يكن للإنسان بيان أكان إنساناً كما الآن؟ فدور البيان - إذاً - دور أعظم كيان، به يتعلم وبه يعلّم، به يحتج وبه يحتج له أو عليه، به يتكامل وبه يكمل، ثم وكل وسيلة من وسائل البيان، قلماً ولساناً وسواه، يتطلب كتاباً ضخماً بدراسة فخمة، علّها توضّح طرفاً من أطرافه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾!

ترى لولا أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ . . . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ من أين كان له هذه النعمة القمة السابغة، السابقة سائر النعم، الحاوية كافة القيم؟

لنأخذ مثالاً ساذجاً من وسائل البيان: اللسان وما معه من جهازات الصوت، عضلانياً وشعورياً: ينتقل شعور ضرورة أو رجحان الإفادة أو الاستفادة من القلب وزملائه إلى الجهازات الصوتية، فتطرد الرئة، ما تحتاجه الكلمة من الهواء المخزّنة فيها، ليمر من الشُّعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة المحيرة للعقول، فيصوت الهواء في الحنجرة صوتاً تشكله حسبما قرره الإنسان وكيفما قرر: سرعة وبطءٌ أم ماذا؟ ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان، يمر بها الصوت، فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة، وفي اللسان خاصة

يمرّ كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع خاص، يتم فيه ضغطه، ليصوت الحرف بجرس خاص.. وذلك كله كلمة واحدة وراءها ومعها جنود الأفكار والمشاعر والضمائر والإحساسات، عوالم غريبة وكلها من فضل الرحمن الذي ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾!

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾:

هذان السراجان - سراج النهار وسراج الليل - إنهما كسائر الكون بحسبان: يصاحبهما حسبان من الرحمن منذ كان لهما كيان ويكون: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[1] ترى أن الحسبان هنا هو الحساب: فهما مخلوقان بحساب، ومجريان بحساب، ويعرف بهما الحساب: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[2] أم إنهما في جحيم العقاب كما يرسل الحسبان على من يستحق العذاب: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[3] وكيف يعذبان؟ وهما كوكبان طائعان لأمر الرحمن! وبماذا يعذبان؟ اللهم إلا في تأويل يتيم بجانب أسلوب القرآن[4].

الجواب: إن الحسبان هو الحساب أياً كان، أفي إرسال العذاب على أهله، فحسبانه أنه بقدر وحساب دون فوضى، أو في سراجي الليل والنهار، ففي خلقهما وجريهما، ولآخر المطاف في وقفتهما ورجعتهما عند قيامتهما، فإنهما في كل ذلك بحسبان وميزان ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾!

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٤) القمي في تفسيره عن الحسن بن خالد عن الإمام الرضا عليه السلام في الآية: قال: يعذبان قلت: الشمس والقمر يعذبان؟ قال: سألت عن شيء فأتقنه، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره مطيعان له، ضوؤهما من نور عرشه وحرهما من جهنم، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما، وعاد إلى النار حرهما، فلا يكون شمس ولا قمر.

ثم ترى ألم تكن في السماء شمس أكبر وأضوأ من هذه، أو قمر أنور من هذا؟ فاختصا لذلك بالذكر من بين الشموس والأقمار؟

أجل إن هناك شموساً وأقماراً أكبر منهما بكثير وأنور وأحرّ، ولكنهما أعرف نجمين وأهمهما بالنسبة لنا: سكنة الأرض - من حيث الفوائد الظاهرة.

فالشعرى اليمانية - كما سبقت - هي أثقل من شمسنا بعشرين ضعفاً، ونورها خمسون ضعفاً، وحجم السماك الرامح ثمانون ضعفاً، ونوره ثمانية آلاف ضعف وسهيل أقوى من الشمس بألفين. . أم ماذا؟ وكما هناك أقمار وأقمار!.

فهذان الكوكبان - كسائر الكواكب وسائر الكون - إنهما بحسبان: في خلقهما وحجمهما ووزنهما ونورهما وحرارتهما وسيرهما ووقفتهما، في بُعدهما عنا، وفي الخسوف والكسوف، وفي كيانهما ككلٍّ كما هما.

فالذي يصلنا من حرارة الشمس ليس إلا جزءاً من مليوني جزء من حرارتها فلو زادت لاختنقت الأرض أو احترقت، أو لو نقصت لبردت أو تجمدت، وعلى التقديرين استحالت عليها الحياة أو صعبت. . وهكذا القمر وسائر النجوم والشموس والأقمار وسائر الكون: ف ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ والكون كله بحسبان ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ . . فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾:

وكونهما يسجدان هو كذلك بحسبان، كما الكون كله يشاركهما في هذا السجود الحسبان: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[١] سجود التسبيح بالشعور المرموز: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

(١) سورة النحل، الآية: ٤٩.

بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١) فليس التسبيح التكويني اللااختياري، ولا القولي والعملي الاختياري، إنهما ليسا مما لا نفقهه، اللهم إلا ما لا نفقهه من الشعوري المرموز!.

وترى النجم هنا هل هو نجم السماء: الكوكب الطالع، وهو المقصود في سائر نجوم القرآن، أو مِن المقصود؟ كما وأن الشمس والقمر هنا تَشِيران إليه، إذاً فما ألطفه نزولاً من السماء إلى الأرض، من طالع السماء إلى طالع الأرض! وما أجمله رباطاً بينهما، يعني - فيما يعني معهما - ما بينهما من طالع وغارب، من زائد وعازب: إن السماء وما ينجم فيها، والأرض وما ينجم عليها، إنهما وما بينهما يسجدان!.

أو أن النجم هنا ما نجم من النبات دون ثبات(٢)، وجاه الشجر النابت على ثبات، رمزاً إلى أن غير الثابتات من الكائنات والثابتات، إنها كلها لله ساجدات، فمحراب الكون لا تخلو منه كائنة إلا ساجدة، ثم ومن سجود النبات نجماً وشجراً، ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم، والمقدر العليم، بالتنقل من حال الاطلاع إلى حال الإيناع، ومن حال الإيراق إلى حال الإثمار، غير متمنعة على المعرّف، ولا ممتنعة على المدبر، ثم وذلك كله - أو من ذلك - ما هو عن شعور التسبيح: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾!

وفي تقديم النجم على الشجر في السجود إشارة إلى تقدمه عليه في ظاهر السجود، فيما النجم هو النبات المنبسط على الأرض، فكله رأس وكله سجود، مهما كان الشجر ساجداً بعروقه وسوقه الناعمة، فإن أصل الساق قائم وإن كان قيامه أيضاً سجوداً فإنه قيام بأمر الرحمن!.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) لسان العرب: قد خص بالنجم من النبات ما لا يقوم على ساق كما خص القائم على الساق منه بالشجر.

فهل تعني هذه الآية، اليتيمة في نجمها، ما لا تعنيه آيات النجوم كلها[١]؟ ودون أية قرينة فيها! اللهم إلا قرينة الشجر؟ كلا! فعلّ الجمع أرفق، وبالتدليل على السجدة الشاملة أوفق، وقد تتحمله الآية دون تحميل، كما وتتحمله اللغة: فالنجم يشمل كل ناجم وطالع، وطلوع كل شيء بحسبه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾:

إن رفع السماء يوحي بأنها كانت سماء من ذي قبل ثم رفعت، ترى أنها كانت سماء خافضة فرفعت والسماء هي جهة العلو؟ فكيف كانت سماء إذاً؟ ثم ترى إلى أين رفعت؟ وعلى مَ؟ وبمَ؟.

السماء هذه - قبل رفعها - هي الدخان الغاز، حصيلة تفجرة المادة الأم: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ...﴾[٢] وكان الغاز هذا في المادة الأم ففتقها الله فانفتقت أرضاً هي زبدُ الأرض الأم: مادة الأرضين السبع، وانفتقت غازاً هي السماء الأم: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ...﴾[٣] فالمادة الأم هي المرتوقة، ثم السماء الأم وأرضها هما المفتوقتان عن الأم، ثم وللسماء رفعان، رفع الدخان الأم، المتصاعد إلى أعماق الفضاء بعد تفجرة المادة الأولى، ورفع الطبقات السبع، كل فوق بعض، وعل ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ تعنيهما، فلا تعني السماء جهة العلوّ فقط لكي تنافي خفضها قبل رفعها، وإنما الغاز التي هي مادة

(١) إذ ليس في القرآن آية يتحمل النجم فيها ما ينجم من النبات إلا هذه، وآيات النجوم اثنتي عشرة آية.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

السماء، والجهات والفضاءات العلوية هي أمكنة السماوات، وقد رفعت إليها، وكما أن كل سماء مرفوعة على ما تحتها، كذلك السماوات مرفوعة على ما تحتها من كرات ومنها الأرضون بما فيها أرضنا، ثم وهي كلها مرفوعة بعمد ولكن لا ترونها: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1] [2].

فالله رفع السماء، هذا الفضاء السامق الهائل الذي لا تبدو له حدود، وعلق عليها مليارات القناديل، السيارات منها والثابتات، ولولا التقدير والميزان الموضوع في أقدارها وحركاتها لانفلتت فأفلتت الكائنات عن مسيراتها ومصيراتها، ولكن الرحمن:

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾: وضعاً هو رفعٌ لما له الميزان، ميزان أنزله الرحمن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[3] ميزان علم القرآن وسائر الميزان: وضعه في التكوين وفي التشريع، في السماء والأرض، للآخرة والأولى، ميزان الكيان والرباط بسائر الكون، ميزان العقل والعدل الذي تستقيم به الأمور، ويعتدل عليه الجمهور: الإنس والجان، وكذلك سائر الميزان: ميزان الدليل: القرآن ونبي القرآن وخلفاؤه المعصومون[4] والعلماء الربانيون، وميزان المدلول: العدل في كافة زوايا الكون وحواياه، فلولا الميزان لم يبق لأي كائن كيان، ولا للإنس والجان، فليدرس الإنسان:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٢) راجع سورة النازعات، وسورة الأنبياء في آية الفتق، وسورة فصلت الآيات ٩ - ١٢.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٧.

(٤) في تفسير القمي عن الحسين بن خالد عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث: (الميزان أمير المؤمنين عليه السلام نصبه لخلقه - ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾: لا تعصوا الإمام - ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أقيموا الإمام بالعدل، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾: لا تبخسوا الإمام حقه ولا تظلموه). . . .

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾:

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]: فلندرس من كتابي التكوين والتدوين درساً في طغوى الميزان: سلباً: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ وإيجاباً في تقواه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

فتقوى الميزان هي الحساب العدل به وفيه، وطغواه هي الفوضى اللاحساب، وليس ميزانَ البيع فقط، بل سائر القيم والموازين في سائر جوانب الحياة بمتطلباتها ومنها موازين المعاملات.

فهنا إقامة للوزن بالقسط العدل هي تقواه، وتخسير للميزان بالقسط اللاعدل، هو طغواه، بما لهما من درجات ودركات، فالحق في الأرض وفي حياة البشر مربوط ببناء الكون، ومدروس عن ميزان الكون، فكما الفوضى في وزن سائر الكون تفضي إلى القضاء على الكون، أو شلّ عجلته ودورانه، كذلك الفوضى في ميزان حياة الإنسان تشل دوران حياته كإنسان، وتخسره ما فضل به على سائر الحيوان وأضل سبيلاً.

وترى أن «الميزان» في هذا المثلث[2] بمعنى؟ كلا! فالأول هو معيار الوزن تكويناً وتشريعاً، والثاني ما يمكن فيه الطغيان، من ميزان التشريع تهريفاً وتحريفاً، أو خلافاً وعصياناً، فميزان التكوين لا يقبل الطغيان، اللهم إلا ما فيه خيار للإنسان، والثالث هو الذي يقبل الإخسار من الميزان، وزناً وموزوناً ومعياراً، اللهم إلا في معيار المعاملات، حيث الإخسار لا يتجه إلى آلة الوزن، فقد يحدد كل ميزان بالحد الذي تحدده قرائنه: وزناً ومعياراً وموزوناً، جمعاً وتفريقاً، جملة وتفصيلاً.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) ١ - وضع الميزان ٢ - ألا تطغوا في الميزان ٣ - ولا تخسروا الميزان.

ثم الميزان - أي ميزان - في الأرض، لإنسانها وجانها، إنه مأخوذ من ميزان السماء، فحساباتها الجسمانية مأخوذة عن مدارات الشمس، والروحانية منها تؤخذ عن شموس التشاريع السماوية ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾!.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾:

ترى إن الأنام هنا - ولا توجد في سواها - هي الإنسان كما قد يُرام؟ وليس وضع الأرض حاصراً فيهم، والأرض هنا محصور للأنام[1]! وقد خلق قبلهم الجان: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[2] فقد كانت الأرض لهم قبل أن تكون للإنسان! اللهم إلا أن يعنى به جنس الإنس بأنساله، والمخلوق بعد الجن هو النسل الأخير، إلا أنه لا يختص به خلق الأرض وله مشارك فيها وفي التكليف سواء، حتى ولو خلق قبل الجن! اللهم إلا اختصاص التشريف كـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3] ولكنها تختلف عن آية الأنام الحاصرة لهم وضع الأرض! اللهم إلا في تشريف مستغرق، يدمج سائر مشاركيه فيه، إلا أن «كما» في آية الآلاء تصريحة بشمول الأنام للإنس والجان، فليس للجان ذكر مسبق على آيتها الأولى، إلا أن تعنيه الأنام قبلها، فلتشملها الأنام.

ثم وهل تشمل كل دابة، أو كل حي من طائر وسابح ودابب؟ قد يكون وكما تصدقه اللغة[4] ولكنما الفاكهة والنخل والرمان لا تناسب إلا الإنس

---

(١) تقديم المفعول (الأرض) يوحي بالحصر، بخلاف آية الانتفاع.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٤) كما عن ابن عباس أنه الجن، وقال إنه: الخلق، ولما سئل عن الدليل استشهد بهذا الشعر:

فإن تسألينا مم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسخر

وقال أيضاً: كل شيء يدب على الأرض، وقال: كل شيء فيه الروح (الدر المنثور ٦: ١٤١).

والجان، وكما الامتنان في وضع الأرض وسواها خصهما: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فليكن الأنام هو الإنس والجان، فتعميمه لغيرهما غير فصيح، كما اختصاصه بالإنس غير صحيح، وما دامت تعمه وغيره لغوياً وسواه فلتكن، وإلا فلماذا لم يأت باسم الإنسان لو كان هو المخصوص كما في خلقه من صلصال كالفخار؟: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

ويا لوضع الأرض لنا مهاداً وقراراً، من نعمة سابغة لا ندركها، اللهم إلا حين يثير زلزال، أو يحير طوفان، أو يثور بركان، فقد نشعر ونفكر في مدى عظيم النعمة لوضع الأرض لنا قراراً، وجعل هذه المجنونة الفرار لنا ذلولاً، فما هي إلا هباءة سائحة سابحة في بحار الأجواء الواسعة لولا وضعها العادل في حركاتها وبركاتها لساخت بأهلها إلى دركاتها: «وعدل حركتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيد فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسنح بحملها...».

فهي محمولة بعمد لا ترونها، في جادة فضائية، جادّةٌ في سيرها، لولا رحمة الرحمن لانكفأ بنا إلى الأعماق فلم يبق منا باق، فسبحان الذي جعل الأرض للأنام:

﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾:

الفاكهة ما تطيب به النفس وتستأنس من المأكول، واختصت بما تثمره نبات الأرض، كما الفكاهة حديث ذوي الإنس.

واختصاص النخل بالذكر بين سائر الفاكهة، لأنها قوت على كونها فاكهة، ومن أفضل القوت وأفضل الفاكهة، في حالتي اليبوسة والطراوة، في حين أن سائر الفاكهة ليست قوتاً إلا قليلاً كالعنب والجوز، كما وأن الحب - الشامل لسائر الحبوب - هي أفضل من النخل ومن الفاكهة، فمثلث النعيم هذا يختلف في زواياها، من الأدنى إلى الأرقى: فاكهة - نخل - حب،

على أن للأولين فضلهما من حيث الفاكهة، فلا تفكّه في الحب إلا القوت، ومن الصعب الاكتفاء بالقوت بلا فاكهة، كما من المحال المعاكسة: الاكتفاء بالفاكهة دون قوت، اللهم إلا في النخل التي تجمعها، لفترة غير بعيدة من الزمن.

ويعد هذه يأتي دور الريحان، النابتات ذوات الروائح الطيبة الريحانية، التي تصاحب القوت والفاكهة، وقد تكون الفاكهة ريحاناً، كما القوت قد تكون ريحاناً.

ومن فضل النخل أنها ذات الأكمام: جمع الكُمِّ - ضماً وكسراً -: ما تغطي الثمرة، كما الكُم ما يغطي اليدين، والكُمة ما يغطي الرأس، فالثمرة المكمومة: المحفوظة عن الفضاء وغباراتها وتأثيراتها، إنها أبعد من الفساد، ثم وفي أكمام النخل من ليفها ولحاها فوائد، حتى وفي نواتها أكل للإنسان وسائر الحيوان.

كما وأن في عصف الحب: ورقه وتبنه، فيها فوائد جمة، أكلاً وسواه.

فهذه وتلك طرف من نعم الرحمن على الإنس والجان:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾:

وترى أية منة على الجان في أن خلق الله الإنسان وعلمه البيان، مهما كانت المنة تشملهم في تعليم القرآن وسواه من النعيم المعدودة مسبقاً؟.

الجواب: لولا الإنسان وتعليمه البيان لما استطاع الجان أن يتعلموا القرآن فإنه نزل على رسول الإنس، ومن ثم وبواسطته إلى رسل الجان فإليهم، فخلق الإنسان وتعليمه البيان والقرآن نعمة كبيرة على الجان: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

وهي آية عديمة النظير، تتكرر في هذه السورة فقط إحدى وثلاثين مرة، في طيات ذكريات النعم التي منحها الإنس والجان، تلقي على السورة كلها

لوناً من الشعرية المنثورة، رغم أن القرآن ليس شعراً، بل ولا نثراً فيما نعرف، إنه كلام الله خارجاً عن الشعر والنثر في ألفاظه، كما هو خارج عما عرفه الإنسان في معانيه.

والاستفهام في الآية بالنسبة للثقلين للتنديد والتخجيل، وبالنسبة لآلاء الرب للتجليل، فآلاء الرب ونعمه ظاهرة فيها ربوبيته، باهرة رحمته، إلا النعم التي نبدلها نحن نقماً وكفراً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾(١) ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

إن تكذيب النعمة دركات، كما وأن تصديقها درجات: جوانح وجوارح وأعمالاً، والدرك الأسفل من تكذيبها أن تشارك فيه الثلاث: قولاً وقلباً وقالباً، والدرج الأعلى من تصديقها مثلث التصديق، وبينهما في كل منهما متوسطات.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾:

إن خلق الإنس والجان هو النعمة القمة لهما، كأصل للقاعدة لسائر النعم التي تتواتر لهما، فما هو صلصال، وما هو مارج من نار؟

الصلصال هو الطين اليابس المنتن الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ: ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(٣): طين أسود منتن ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٤): شديد الثبوت، فطين الإنسان صلصال من حمإٍ مسنون

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١١.

لازب: طين أسود نتن لازق كالفخار: الطين المطبوخ بالنار: الخزف، وهذا هو مخمر الطين وخالصه، كما الإنسان هو خالص الكون الترابي، وهذا يرمي إلى صنع أول إنسان، فإن نسله ليسوا من هكذا طين: والترتيب الخلقي أنه كان تراباً، ثم طيناً، ثم حمأً مسنوناً لازباً، ثم صلصالاً كالفخار.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أصل الجان، دون الأنسال الذرية المخلوقة من أنساله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ...﴾[١] خلقه ﴿مِن مَّارِجٍ﴾: قَلِق مازج ﴿مِّن نَّارٍ...﴾ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[٢] فالمرْج أصله الخلط والمزج، من مَرَجَ، والمَرَج هو القلق والاضطراب من مرج:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[٣]، والهرج والمرْج بمعنى، ومرْجه هو المَرَج، سكنت ازدواجاً للكلام، فالمارج من نار هو القلق منها[٤]: اللهيب المنطلق عنها المازج، الخليط من نار: خليط من مختلف لهيبها بألوانها: أحمر وأصفر وأخضر[٥] وعلّه إلى سائر ألوانها التي اكتشف العلم عن سبحة منها، أم ماذا! وخليط بسموم، لأنه مخلوق ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: التي تلتهب من سُمٍّ قوي، إذاً فأصل الجن من مارج: قلق مازج، من نار السموم[٦]: السم الفاتك عند اشتعاله، وعلّه مختلف السُّمّ أو قويه أم ماذا.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة ق، الآية: ٥.

(٤) في الحديث عنه ﷺ: كيف أنتم إذا مرج الدين فظهرت الرغبة واختلف الإخوان وحرق البيت العتيق، وفي آخر عنه ﷺ: كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم؟.

(٥) الدر المنثور ٦: ١٤١ عن مجاهد في ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرّحمٰن: ١٥] قال: اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت، وعن سعيد بن جبير: الخضرة التي تقطع من النار السوداء الذي يكون بين النار وبين الدخان.

(٦) إنما فسرنا المارج بالمعنيين، لأنه لو أريد أحدهما فحسب لجيء بأحدهما فحسب: خليط =

وترى لو خلق الجان من النور بدلاً عن النار، أو خلق الإنسان من تراب طيب بدلاً عن الصلصال كالفخار، أما كان أحسن آلاءً وأقل بلاءً؟ فكيف يمتنّ الله على الإنسان والجان في خلقهما مما خلقا؟!.

الجواب: إنه أعلم بما خلق ومما خلق، فلولا النار لم يكن الجان جاناً وإنما ملكاً، ولولا الصلصال الحمأ المسنون اللازب لم يكن الإنسان إنساناً وإنما كائناً آخر، فخلق كلٌّ كما هو الآن - بما يحملان من إعدادات واستعدادات - محصور في المادتين ليس إلا، فمن عظيم آلائه للإنسان أنه خلقه من طين نتن فجعله في أحسن تقويم، وللجان أنه خلقه من نار السموم، وجعله يتلو الإنسان في التقويم!. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾:

فمن آلاء الرحمن ربوبيته الوحيدة للمشرقين والمغربين، فإن كثرتها فوضى تضاد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ كما أن ثبات الشارقات والغاربات دمار للكائنات.

ثم المشرقان والمغربان هنا تجمعان مشرق الشمس والقمر ومغربهما: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[1] ومشرق الشمس ومغربها، مع مشرق سائر الشوارق ومغربها، ومشرق كلٍّ مع زميله: الجهة الفرعية شمالاً وجنوباً، ومغرب كلٍّ كذلك، وأعلى المشارق والمغارب صيفاً وأدناهما شتاء، في غاية ارتفاع الشمس وانخفاضها: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[2] [3] فآيات المشرق والمغرب تتجاوب، إفراداً وتثنية وجمعاً، دون تنافر وتناحر.

= أو قلق، فذكر المارج دليل على قصدهما معاً، ولأنه عنى منه القلق وهو لازم، فلا يعني من مزجه المتعدي، حتى يفسر بنار مزجت غيرها بشيء، وإنما لازمه الذي هو الانمزاج.

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٣) راجع تفسير الآية ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] المعارج ج ٢٩. وفي كتاب =

ثم من آلاء الرب في مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما أن الفصول الأربعة مترتبة عليهما، ويتبعه تقلب الهواء وتنوعها، وما يليها من مطر وشجر ونبات.

كما وأن من الآلاء الأربع رباعية التدبير، وما إليها من آلاء في المشرقين والمغربين نحن نجهلها، لو اختل شيء منها لاختلت الحياة أو استحالت أو حولت مماتاً.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾:

المرْج هو القلَق وهو الإرسال، وهو المزج[1] وهنا الإرسال والمزج، فلو كان أحدهما المقصود لجيء به، لا المرج الجامع لهما، مرج الإرسال التقاء دون مزج وتداخل، ومرج اللقاء دون تفاعل، اللهم إلا في غير بغي.

ومن البحرين الممزوجين بحر الأرض وبحر السماء، إذ يمزج من أبخرة الأرض بمياه السماء وبخاراتها، كما يمزج من مياه السماء ببحار الأرض، وقد يروى عن علي عليه السلام [2] كما ومنهما بحر العذب والملح الأرضيين، وقد يجمعهما: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[3] حجر محجور عن بصر العين وبصيرة العلم وحتى

= الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرَّحمٰن: ١٧] فإن مشرق الشتاء على حده ومشرق الصيف على حده. أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها، وأما قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعَارج: ٤٠] فإن لها ثلاثة وستين برجاً تطلع كل يوم من برج وتغيب في برج فلا تعود إليه إلا من قابل في ذلك اليوم.

(١) الإرسال من معانيها الثانوية كما يقال: مرج الدابة يمرجها إذا أرسلها ترعى في المرج: المرعى.
والمزج هو معناها الأصيل وليس هنا القلق، من المكسور العين، وهنا هي من المفتوح العين، إضافة إلى كونه لازماً والمرج هنا متعد.

(٢) قرب الإسناد للحميري عنه عليه السلام في آية المرج واللؤلؤ والمرجان: من السماء ومن ماء البحر، وتتمة الحديث تأتي.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٣.

الآن، حجر حاجز بينهما عن التباغي رغم التلاقي: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[(١)].

وترى ما هو هذا الحجر الحاجز البرزخ في البحرين الأرضيين؟ ليس لنا أن نهرف بما لا نعرف! إلا أن البرزخ توحي بأنه ليس من العذب الفرات ولا الملح الأجاج، وإنما برزخ بين الماءين، فهل هو ماءٌ بعد؟ قد يكون! ولكنه محجور عن الرؤية، فليكن أخف من المياه التي نعرفها، مختلفة عنها تراكيبه، بجزئياته، فَرِقتّه ودقتّه بحيث لا يُرى!.

ثم الحاجز بين الأرضي والسماوي أن يبغيا هو تقدير الرحمن، المحجور عن الإنس والجان! وأما الحاجز بين البحر الأرضي والأنهار فليس محجوراً لا عن البصائر ولا الأبصار، فإنه علو الأنهار على البحار واختلاف أماكنها.

فقد مرج البحرين: أرسلهما طاميين، وأمارهما مائعين، فهما يلتقيان بمقاربة مقارفة المرج المزج، وليست بالمزج، وإنما ضُمّن المرج هنا معنى المزج لأنهما أرسلا رسلهما الرامي إلى مزجهما، الواقع بدوافعه تماماً لولا الحجر المحجور، والبرزخ الحاجز، الذي يمنعهما عن الانخراط، ويصد كلًّا منهما عن الانفراط، فلا يبغي أحدهما على الآخر فيقلبه إلى صفته، أو ينقصه عن حِدَته، لا الملح الأجاج على العذب الفرات، ولا العذب على الملح الأجاج، اللهم إلا في مرج المزج غير الباغي، كما يمزج ماء البحار بمياه الأنهار، بعدما يصبح بخاراً وأمطاراً، ويمزج مياه العيون والأنهار بمياه البحار إذ تصب فيها، ولكنه مرج ومزج بحساب وميزان، إذ يأخذ كل قدر ما يعطي، دون بخس في المكيال ولا إخسار في الميزان، وهذا أيضاً من الحاجز بينهما، كما الحاجز بين مياه البحر والأنهار، إلا أنه حجر غير محجور.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦١.

ولولا الحاجز بين البحرين: بين العذب والمالح في البحر، وبين البحار المالحة والأنهار العذبة، وبين التفاعلات عبر التبدلات، لبحر الأرض والسماء، لولاه لتعطلت الحياة أو استحالت، فالملح الأجاج الذي يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ضرورة لتطهيرها بجوها وإفساحها المجال للحياة من حيوان البحر وسواه، والعذب المدخر في مخازن الأرض، والساري في مساريها، والكائن في البحار أيضاً كعروق أو أنهار[١] ضرورة للشرب والإنبات، كلٌّ على قدره.

والبحران - كما أشرنا - يعمان ماءَي الأرض جمعاء، سواء مياه البحار بعضهما مع بعض أو ماءَي بحر واحد، أو البحار والأنهار في الأرض، أو ما يتبدل بخاراً من البحار فإلى الأنهار، ومن الأنهار تسيل إلى البحار، إلا أن الحجر المحجور لا يساعد بحري البحار والأنهار أرضاً، فإن الحاجز بينهما محسوس هو علو الأنهار واختلاف أمكنتها عن أماكن البحار، وأما البحر الواحد المتواجد فيه الماءان دون مزج فلا حاجز بينهما ملموساً، ويتلوه الحاجز المانع عن تغلب أحدهما على الآخر في غير الواحد، كما في الأمطار من البخار، والأنهار السائلة في البحار، فرغم المرج المزج لا تغلّب للبعض على البعض.

وترى كيف يعبر عن البحر الواحد الحاوي للماءين بالبحرين؟ لأن أهم شروط التعدد اختلاف الماءين، وقد يكون بحران في مكانين وماءهما من سنخ واحد، فأحرى أن يكون بحران وهناك ماءان وإن في مكان واحد.

ففي مرج البحرين، أي بحرين، وبأي مرجٍ، إرسالاً ومزجاً، وفي جعل

---

(١) كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وكما تجعل دجلة البحر بحرين، كذلك هو وسائر البحر بحران، الأولان مالحان، والآخران مالح هو المالحان، وعذب هو دجلة.

برزخ بينهما، أي برزخ، إن فيها آلاء من الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾:

ترى أن اللؤلؤ والمرجان اللذين تجمعهما الحلية البحرية، هما يخرجان من العذب الفرات كما من الملح الأجاج؟ والمعروف خروج اللؤلؤ من المالح!

تجيبك الآية نفسها: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وأخرى نظيرتها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...﴾[1] وما هي قيمة العرف الهارف غير العارف، بجنب الخلّاق العليم! ولقد عرف العلم أخيراً نكر ذلك العرف الخاطئ مصدقاً القرآن في خروج اللؤلؤ والمرجان من البحرين: عذباً ومالحاً[2] وكما يخرج من أحدهما: المالح، بسبب العذب: بحر السماء.

وهما، ولا سيما اللؤلؤ أفخر حلية تلبس، وهي من لباس الجنة: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾[3] وهي من أجمل الجمال إذ الغلمان المخلدون بها يشبّهون: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[4].

وترى ما هو أصل اللؤلؤ والمرجان وكيف يخرجان؟ إنهما أعجب حيوانين بحريين وأجملهما! فاللؤلؤ حيوان صغير، يهبط إلى أعماق البحر،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٢.

(٢) تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٢٦ ينقل عن مجلة (السياسة الأسبوعية) المصرية ٢٧ رمضان ١٣٤٤ هـ. ١ أبريل ١٩٢٦ ما يلي: (يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحاربة التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أميركا والصين وغيرها)...

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الإنسان، الآية: ١٩.

لتقيه من الأخطار، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية، ويختلف عن سائر الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها، وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤ»(١).

«ولها صنوف عدة، فأجمل نوع منها ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما، ويوجد منها نحو ثلاثين نوعاً.. واللؤلؤ اللطيف الشكل، الجميل الماء هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي، ذو قيمة تجارية هائلة، وأغلاه ما كان جميل الماء، كروي الشكل، وتختلف ألوانه من: أبيض ورمادي ووردي وأخضر وأصفر وأسود وأزرق»(٢).

ومن أروع ألوان تكون اللؤلؤ ما يروى عن علي عليه السلام البحران هما: «من السماء ومن ماء البحر، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة، واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة»(٣) إذاً ف ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ تعم الخروج من كل واحد منهما كما في بحري الأرض، والخروج من أحدهما بسبب الآخر كما من ماء البحر بسبب ماء السماء، ف «من» هنا تعم السببية والنشوية التبعيضية.

ثم اللؤلؤ لؤلؤان، ما يصنعه الرحمن دون صنع من الإنسان وما يصنعه

(١) نقلاً عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).
(٢) ينقله الطنطاوي عن مجلة السياسة الأسبوعية.
(٣) قرب الإسناد للحميري عنه عليه السلام في الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

أو يولده الإنسان بفضل العلم الذي منحه الله[١] فهذه أيضاً من منن الرحمان أن أخرج له اللؤلؤ في مختلف الألوان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

«والمرجان يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر، وهو حيوان صغير يبني مع الآلاف من رفاقه مساكن هي أشبه بأغصان الأشجار، ثم تتكامل حتى تكون منها جزائر، وإذا اجتمعت جزائر عاشت فيها المرجانات آمنة مطمئنة، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته كظباء الصحراء، له فروع غبراء، أو برتقالية صفراء، أو قرنفلية حمراء أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج، وتعبث الريح بأغصانها، فكيف إذاً تصبح صخرات مكونات للجزائر المرجانية؟ سبحان الخلاق العظيم!.

وجزيرة واحدة من تلك الجزائر المرجانية تبلغ فراسخ عدة، تتكسر على جوانبها الناصعة البيضاء، أمواج المحيط[٢].

«إن حيوانة المرجانة تثبت نفسها بطرفها الأسفل بصخر أو عشب، وتفتح فمها التي في أعلى جسمها، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذائها، فإذا لمست هذه الزوائد فريسة - وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة

(١) فاللؤلؤ المولد أن يدخل في كل من المحار هنة صغيرة كالتي تدخل في الخلقية، ولكنه بحاجة إلى زمان طويل كالذي تقتضيه الخلقي، لذلك يدخلون في جوف المحار هنة كبيرة تتكون حولها اللؤلؤ سريعاً على مقدار كبر حجمها.
(واللؤلؤ الصناعي اكتشفه رجل فرنسي (١٦٥ م): جاكون، كان يغسل نوعاً من السمك في ماء عذب فرأى في غسالته لمعاناً كلمعان اللؤلؤ حين يجف، فخطر له أن يطلي به خرزاً من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يلصق بالزجاج، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التاريخ، فاشتهرت لآليه وأقبلت عليها الغواني في ذلك العصر، ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى (البينوس لوسيدوس) وفي انكلترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنكة) فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلاً لطيفاً حتى تنظف من الملح والقدر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلؤة في الماء، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شيء من (الأمونيا) حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعاً)... (تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٧٠ - ٧٢).

(٢) تفسير الجواهر ٢٤ ص ٢٦، نقلاً عن بعض المصادر.

كبراغيث الماء - أصيبت بالشلل حالاً، والتصقت بها، فتنكمش الزوائد وتنحي نحو الفم، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان.. ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه، يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ويكوّن حياة منفردة، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي.

ويتكاثر أيضاً بطريقة أخرى هي التزرّر، وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمتراً، ثم الجزر المرجانية - المسبق ذكرها - بتعاون المرجانات»[(١)].

هكذا يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحرين، وهما أفخر ما يتزين به الإنس والجان: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾!

فلولا الجان يشارك الإنسان في التزين باللؤلؤ والمرجان، لم يصح هكذا امتنان.

ومن باب الجري والتأويل، قد يشمل البحران واللؤلؤ والمرجان، بحري النبوة والإمامة، بحري عذب فرات، لا ملح ولا أجاج[(٢)] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) في كتاب: الله يتجلى في عصر العلم.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٤٢، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمٰن: ١٩-٢٠] قال: علي وفاطمة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرّحمٰن: ٢٠] قال: النبي ﷺ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرّحمٰن: ٢٢] قال: الحسن والحسين، وأخرجه أيضاً عن أنس بن مالك.

أقول: فقد اتصل بحر النبوة بفاطمة الصديقة بنت النبي ﷺ، ببحر الإمامة علي عليه السلام، بحران ملتئمان متلاقيان، بينهما برزخ الرسالة القدسية المحمدية، إذ اتصل بحر الإمامة والنبوة روحانياً مسبقاً، أن تربى علي في حجر النبي وفي جو الوحي والتنزيل، ثم اكتمل =

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾:

الجوار: الجواري - جمع الجارية، تشمل الجاريات المنشآت في البحر كلها على مدار الزمن وتقدم الصنع، وهي لله ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ رغم أنها من منشآت الخلق! ولأن المنشئ لها من منشآت الله، وكذلك آلاتها وأدواتها ومحركاتها الرياحية والبترولية والكهربائية وسواها، فهل يتواجد شيء في الكون ليس من منشآت الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فجواري البحر من آيات الرحمن ورحماته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾[(١)] أو إن يشأ يغير البترول، أو أياً من المحروقات فيظللن رواكد على ظهره، أو يغير الماء، أو يثير الريح المجنونة، أو يخل بشيء مما له دخل في جريانها، فيظللن في ضلال بأصحابها رواكد على ظهره.

فالله هو المسخر لنا الفلك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[(٢)] ﴿يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[(٣)] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾[(٤)] فمن ذا الذي يحفظها في خضمّ البحر وثبج الموج إلا الرحمن، ومن ذا الذي يقرها على سطحه المتماوج، ويجريها بالرياح المتهايج إلا الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: كهذه المنشآت للإنس والجان، التي تحمل رحمات من الرحمن.

= الاتصال الروحاني بوصلة جسمانية في زواج علي بفاطمة، والنبي هو البرزخ بين البحرين إذ جمع الولاية والنبوة، وعلي له الولاية دون النبوة والوحي، وفاطمة هي بضعة النبوة، دون الرسالة والإمامة، والخارج منهما: اللؤلؤ والمرجان: الحسنان هما مجمع الولاية روحانياً، والنبوة نسبياً.

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٦.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٣١.

فلولا أن هناك في البحر منشآت للجان كما للإنسان، أو أنهم يركبون منشآت الإنسان لم تكن هي من آلاء الرب لهما فكيف كان عليهم الامتنان؟! فالجان إذاً شركاء الإنسان في منشآت البحر كالأعلام: الآثار المُعلمة التي تدل الضلال من قريب أو بعيد، فكما النجوم هدًى سماوية في ظلمات البر والبحر، كذلك هذه المنشآت فإنها كالأعلام: أعلام البحر وجباله، كجبال البر وأعلامه.

فقد كانت الجواري ولا تزال من أعظم النعم وأوفر المنن، التي يسّرت أسباب الحياة، وهي من يسر الناقلات: البرية والجوية، تكليفاً، ومن أكثرها حملاً وتخفيفاً عن أثقال الحياة.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾: من ذوي العقول جناً وإنساً أمّن ذا؟ و﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ ترى أنهم من على الجوار المسبق ذكرها؟ والفناء يعمهم ومن لا يركب الجوار! اللهم إلا الأولوية بالفناء في خضم البحر المتلاطم، إلا أن كلهم لا يفنون عليه إلا قلة، فلا تعني الفناء هذه إلا عموم الفناء فلا تخص مَن على الجوار! أم من على الأرض[1]؟ ولا يخص الفناء أهل الأرض، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[3]! اللهم إلا لأنهم هم المخاطبون، ولا سيما معشر الجن والإنس، إلا أن خطابات القرآن، غير المختص بالإنس والجان، تشمل كافة من يصلحون للخطاب من عقلاء الأرض والسماء، أم كل مَنْ على الدنيا،

---

(١) القمي في تفسيره قال قال من على وجه الأرض.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

الجامعة للأرض وجواريها ومجاريها الجامحة لزيناتها وشهواتها ورغباتها؟: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ومن ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(١) قد يكونون هم المعنيون أجمع، أو هم من المعنيين، فغيرهم من المتقين المتبنين الحياة على مرضاة الله، مطمئنين بالله لا سواه، عائشين مع الله لا سواه، إنهم باقون مع الله لا يفنون، وقد توحي له ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لا «ربك» ولا «وجه الله» ولا «الله» فلا تعني البقاء بين الفانين هنا ذات الله فقط، وإنما الربانيون أيضاً، المخصوصون بربوبيته وكرامته، وكما أضيف الرب إلى أخصهم وأكرمهم «ربك»: فإنه الرسول الأقدس ﷺ أول العابدين، وآخر المرسلين.

فأهل الله العارفون بالله، الباغون مرضاة الله، هؤلاء هم الباقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، وأهل اللهو هم الفانون الهالكون، وهم أحياء يمشون ويأكلون كما تأكل الأنعام.

فليس وجه الرب وجهاً عضوياً لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، ولا من المشبهة المجسمة، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضاً مؤلفة، وأعضاء مصرَّفة: إن وجه الله هكذا يبقى، وسائره يبطل ويفنى، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ثم الوجه الجسداني ليس ذا الجلال ولا الإكرام، لأنه ذليل فإنه كسائر الأعضاء، ومهان دان كسائر من عليها!.

وإنما ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ جهة الربوبية ووجهتها، الظاهرة في المربوبين الربانيين، الباهرة في أولياء الله المكرمين، فإنها باقية ببقاء الله وهم عند الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾(٢) فالذين هم عند الله،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

وليسوا عند أنفسهم ورغباتهم، وإنما عند ربك، تحت ظله وفي رعايته، إنهم باقون قدر ما هم عند ربك، وفانون قدر ما هم عند أنفسهم: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(١) ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢) ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣).

فهنا آيتا الفناء والهلاك تتجاوبان، إن الفناء لمن عليها: ضمير تأنيث تضمر الكائنات كل الكائنات إلا وجه ربك، والهلاك يشمل كل شيء إلا وجهه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٤) فلا باقي إلا وجه الله: ذاته بربوبيته: الكائنة من ذاته، والكامنة في البعض من مخلوقاته، ربوبية رحيمية روحانية، الذين يُتوجه بهم إلى الله، وتتواجد فيهم مرضاة الله وتربياته، لا ذاته وصفاته! فهم - إذاً «أنبياؤه وحججه الذين بهم يتوجه إلى الله عزّ وجلّ وإلى دينه ومعرفته»(٥) و«إذا أفنى الله الأشياء، أفنى الصور والهجاء، لا ينقطع ولا يزال من لم يزل عالماً»(٦): بالله، عائشاً مع الله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام يسأل عن الخبر الذي رووه: إن ثواب لا إله إلا الله النظر إلى وجه الله تعالى؟ فقال: من وصف الله عزّ وجلّ بوجه كالوجوه فقد كفر، ولكن وجه الله أنبياءه... وقال الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦-٢٧] وقال عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨] فالنظر إلى أنبياء الله تعالى ورسله وحججه عليهم السلام في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة»، وفي تفسير القمي عن علي بن الحسين عليه السلام «نحن الوجه الذي يؤتى الله منه».

(٦) الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨] فالمراد: كل شيء هالك إلا دينه، لأن من المحال أن يهلك الله كل شيء ويبقى الوجه، هو أجل وأعظم من ذلك، وإنما يهلك من ليس منه، ألا ترى أنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ففصل بين خلقه ووجهه.

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾(١) فهم ممن شاء الله بقاءهم، ولم يرضَ فناءهم لأنهم منه! فـ «إنما يهلك من ليس منه».

فليس الفناء - إذاً - مستقبلاً: يوم القيامة، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ في أي زمان أو مكان وبأي كيان، منذ الخلق حتى الفناء ويوم الإحياء مرة أخرى لأنهم ليسوا منه، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾: ما يتوجه به إلى الله: ذوات قديسة ربانية، فهم باقون، لأنهم منه، وهم عند الله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(٢)!.

وفي وجهه تعالى وجوه عدة، معروفة من قرائنها المقرونة بها: من الوجهة سمتاً للاتجاه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(٣) ومن وجه الربوبية كما هنا، والوجه هو ما يواجَه به الشيء ويواجِه به الشيء، فإذا أصبح المتوجه إلى الله، يواجه معرفته ومرضاته بكيانه كله، أصبح كله وجهاً لله، وواجهه الله بخاصة رحماته ومكرماته، وجهاً بوجه، فكما أنه أصبح وجهاً لله، يكون الله له وجهاً يواجهه برحمته وحنانه.

ووجه الرب هذا، هو ذو الجلال، لأنه من ذي الجلال، وهو ذو الإكرام، فإنه تعالى يكرم المتوجهين إليه، العائشين مرضاته، فبقاء وجه الرب من أعظم آلائه، وفناء سائر الوجوه على بعض الوجوه كذلك من آلائه، إن كان فناء الكون، أو فناء الكيان، بقصر أو باختيار، فلولا الفناء الموت لم تعرف قيمة الحياة، ولازداد الطائشون طيشاً، ولولا الفناء في الله لم يكن بقاء بالله، ولولا فناء مَن عليها، المطمئنين بالحياة الدنيا، الراضين عنها، لم يكن لبقاء وجه الله من جلال ولا إكرام، مهما كان الفناء الأخير من بلائه دون آلائه، ولكنها من وجهة أخرى من آلائه، لمن جانبها، فالفناء دركات ودرجات، والبقاء بالله درجات ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟!.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾:

السؤال هو الحاجة التي تحرص النفس عليها، فالسؤال التماسها ممن يستجيبها، سواء أكان بلسان الذات، فالممكنات كلها فقيرة الذات إلى الله، أم بلسان الصفات فكذلك الأمر، أم بلسان الحال، فكل تشهد أن كونها في مثلث الكيان دون سؤال، ودون إجابة، إنه من المحال، أم بلسان المقال، فقد يجاب إذا توفرت شروط الإجابة، وقد لا يجاب إذا لم تتوفر: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1] لا «كل ما سألتموه» فالأسئلة الحالية والذاتية والصفاتية مستجابة على أية حال، ولو لم يخطر للسائل ببال، كمن لا يعرفون الله، أو لا يوحدونه، أو الغافلون عنه، أو الذين قد يسألون ما يضرهم، وقد لا يسألون ما ينفعهم، فهو يعطيهم ما يصلحهم استجابة لمثلث السؤال بلا إدراك للسائل فيه ولا مقال، فهو وحده المجيب، وسائله لا يخيب، وما سأل أحد غير الله، إلا حرم سؤله عند الله، وماذا يملك مَن دون الله، حتى يسألونهم مِن دون الله؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن﴾ فماذا يسألونه؟ ومتى؟ وما هو دليل الإجابة وليست في الآية؟ ومن هم السائلون؟.

إن السؤال لا يختص كائناً دون سواه، إن كان يشمل كافة الطلبات والحاجات، وقد جيء هنا بـ«مَن» إما تدليلاً على أن الكائن أياً كان لا يخلو عن شعور، كيف لا و: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] أو أن «مَن» لتشريف الكائنات العاقلة - كالملائكة والإنس والجان - على سواها.

ثم وكلٌّ يسأل ما يحتاجه ويصلحه هو أو سواه أيضاً، وإلا فلا إجابة.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

وقد يسأل أهل السماوات - فيما يسألون - لأهل الأرض، من الجنة والناس، وإلا لم يكن في سؤالهم آلاء للإنس والجان، فلم يصح عليهما فيه الامتنان، وممن نعرفهم في أهل السماوات، السائلين لأهل الأرض الملائكة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١] ﴿... لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢] ومن بين السائلين من لا يسأله أمراً سواه، فالعارف لا يسأله إلا إياه ليزداد معرفة بالله، فكل يسأل على حد شاكلته ومعرفته مُناه: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وبما أن الأسئلة هذه منوطة بيوم الدنيا، فلا إجابة يوم الآخرة إلا بما قدمت كل نفس في الأولى، فهم يجازون هنالك دون سؤال، وإنما حسب الأقوال فالأحوال فالأعمال، فالسؤال إذاً تختص هنا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾: شأن الإجابة وسواها من شؤون الربوبية للأولى دون الأخرى: «من إحداث بديع لم يكن»[٣] فإنه بديع في شأنه خلقاً وأفعالاً على غير مثال واحتذاء أمثال، إنما يبدع بدعاً: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] دون حاجة إلى زمن، أو استعانة بمثال سابق. ثم «ومن شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين ويجيب داعياً»[٥] أو أن يفعل ما يشاء عدلاً أو فضلاً، ولا يشغله شأن عن شأن: شأن الرحمة الرحمانية والرحيمية.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ ... كُلَّ يَوْمٍ ...﴾ هل هو كل نهار؟ أم هو بليله؟ أم ماذا؟

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧.

(٣) أصول الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن».

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٥) الدر المنثور ٦: ١٤٦، أخرجه الحفاظ عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آية الشأن.

إنه كل آن: كل وحدة زمنية عن كل وحدة حركية، لأصغر ذرة من مادة، علّها أقل بكثير من الوحدة الالكترونية ٥٠,٠٠٠/١ ثانية في حسابنا، فكل يوم هنا هو كل وحدة زمنية لا تنقسم(١).

ولا يعني السؤال والإجابة في كل يوم، أن الله تعالى: المسؤول المجيب - هو أيضاً بذاته في كل يوم، وإنما الزمان والمكان ظرف فعله، لا ذاته، فقد كان إذ لا «كان» ولا زمان ولا مكان، وسوف يبقى ويكون إذ يفنى كل «كان» وكل زمان ومكان، وهو الآن كما سيكون وكما كان، خارجاً عن الزمان والمكان، فلا يشمله زمان ولا مكان، كما لا يشغله شأن عن شأن.

ثم السؤال هذا في موقف الامتنان هو دليل الإجابة وإلا فلا امتنان.

وأخيراً للشأن هنا وجهتان: للأولى، كما يسأله فيها من في السماوات ومن في الأرض كل يوم هو في شأن.. وللأخرى أو هو أشمل هو شأن الربوبية الشاملة كل شيء، في أي زمان أو مكان، تجريداً للأخرى عن السؤال: «كلّ يوم، كما كان في الأولى، مع سؤال ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾.

فـ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾: آن أو ما زاد أو نقص، دهر أو سواه، ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ غير ما كان في غيره، فلا تكرار في فعله، ولا عادة ولا تقليد، ولا مسايرة أو تسيير، وإنما اختياراً وإبداعاً، فليس الله ليبقى دون شأن، لا تنقطع رحمته ما كان هنالك مرحوم، فقد كان إذ لا كان، فكان شأنه إذ ذاك ما كان، ثم لا يخلو أي يوم - منذ الخلقة - من شأنه أياً كان.

---

(١) لقد تحدثنا عن معنى (يوم) في عدة مجالات، إنه الزمان أياً كان، ويتبع القرائن في تحديده، فشأن الخلق والتدبير يشمل أقل وحدة زمنية، لأنه من أمر الله ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧] ومن الأقرب أدنى حركة لأصغر مادة لم نعرفها حتى الآن.

فللّه تعالى، شأنه يوم الدنيا ويوم الدين، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يتبع أهواء خلقه في أي من شأنه ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[١] وإنما يحكم ما يشاء كما يشاء ويفعل ما يريد كما يريد: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٢].

ففي سماحهم لسؤاله تعالى آلاء، ولإجابته ما يصلح من سؤال آلاء، ولرجوع الرحمتين إلى الإنس والجان آلاء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾:

إنه تعالى ليس له هكذا شأن في اليوم العصيب، والهول الرهيب، وإنما شأنه الفراغ للإنس والجان، للمساءلة الحساب، ومن ثم الثواب والعقاب.

وترى إذا لم يفرغ للثقلين يعيى عن الحساب، أو يخطىء في الحساب، ولا يشغله شأن عن شأن؟

الجواب: إن فراغه للحساب حقيقة ومبالغة، حقيقة لأنه فرغ عن شأن النشأة الأولى لشأن الأخرى وليس إلا الحساب وما يخلفه، ومبالغة إذ يعني: سنعيد لكم ونفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تفجيع فيه ولا اشتغال بغيره عنه، فالعامد لشيء مع غيره ربما قصر فيه أو أخطأ، والفارغ له لا يقصر ولا يخطىء، فقد دللنا هنا بذلك على المبالغة للمساءلة الحساب - دون عذوب عنه ولا نقصان أو نسيان - من الجهة التي نتعودها، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ وأدلّ الكلام على معنى الإيعاد تقريباً للتصور عن صورة مذهلة مزلزلة للعذاب، تسحق كيان مصورها سحقاً، وتمحقه محقاً، كيف أن الذي لا يشغله شأن عن شأن، سيفرغ لكم أيها الثقلان؟!

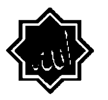
---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

والثقلان هما الإنس والجان من الثَقَل: الثِقل، مما يوحي أنهما الأفضلان وإن في الأرض فقط[١]، أو العبء فهما المثقلان الوازران فقط بين المكلفين[٢] ولذلك يفرغ لهما لا سواهما، فالثقل والفراغ يوحيان أنهما اللذان يدور عليهما رحى التكليف، والحساب الثواب والعقاب، وإن كان معهما غيرهما من المكلفين المحشورين، من أعلاهم غير المعروفين، وأدناهم فيمن نعرف من سائر الدواب: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٣] [٤].

فحساب غير الثقلين ليس في فراغ، مهما كان لهم حساب، لتفاهة التكليف وخفته، أو خفة العصيان وقلته، وأما الثقلان فهما المثقلان تكليفاً ووبالاً، كما هما المثقلان ثواباً وكمالاً، ثم الفراغ للحساب الجزاء من آلاء الرب للمؤمنين إذ يُنتصر لهم يوم الدين من الظالمين، ويثابون هناك على ما عملوا يوم الدنيا، نعمتان لهم، ونقمتان لمن سواهم من الظالمين، فالفراغ للحساب لهم من الآلاء وللظالمين بلاء: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.



(١) ومما يشهد له ما تواتر عن الرسول ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين): أي العظيمين (كتاب الله وعترتي)
فليكن الإنس والجان أيضاً ثقلين بين سائر الخليقة.
(٢) تفسير روح البيان ج ٩ ص ٣٠ قال الصادق عليه السلام.. لأنهما يثقلان بالذنوب.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٤) راجع ج ١ من الجزء ٣٠ في حشر الحيوان.

۞ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ
﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ
﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ

ورمان (٦٨) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٦٩) فيهن خيرات حسان (٧٠) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧١) حور مقصورات في الخيام (٧٢) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان (٧٤) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٥) متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان (٧٦) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٧٧) تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام (٧٨)﴾

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي ءالاء ربكما تكذبان (٣٦)﴾:

المعشر هو الجماعة العظيمة والكثرة الكاملة، فهل الخطاب به في محشر القيامة، إذ يحشرون كاملة أجمعين؟ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾(١) ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم...﴾(٢) أو أن الخطاب يشمل المعشرين: يوم الدنيا ويوم الدين؟ قد يكون. حيث تتحمله الآية في مغزاها.

وهل الآية تبشير للإنس والجان بملحمة غيبية هي إمكانية غزو الفضاء بسلطان علمي أو إقدار بتقدير الرحمان أم ماذا، فهي خاصة بيوم الدنيا؟.

فهي لا تمت لهما بصلة بما احتفت به من إنذار وتهويل بعذاب يوم الدين: ﴿سنفرغ لكم... يرسل عليكما... فإذا انشقت السماء...﴾ وأين هكذا تبشير من هذا الإنذار؟.

ثم النفوذ هنا «من»: خروجاً عن أقطار السماوات والأرض إلى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

غيرهما، لا «في»: دخولاً في أقطارها غزواً لها، ثم النفوذ فرار من جهة إلى أخرى كما ينفذ السهم، وليس غزو السماء فراراً منها إلى الأرض، ولا من الأرض إلى نفسها، وإنما غزو السماء تزويد وتحكيم لقرار علمي سلطوي في الحياة الأرضية على السماء: أن بإمكان ساكن الأرض وما كنها غزو السماء.

فالآية لا تمت بصلة لما تهواه غزاة السماء وإنما هي آية الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1] إذ تعد بالجمع بين دواب الأرض والسماء، لا تلك التي توعد محاولي النفوذ بإرسال شواظ من نار! فهل هو بعدُ وعدٌ لغزو الفضاء مع وعيد النار؟. ثم ولماذا محاولة النفوذ من تلكم الأقطار؟ أفراراً من حساب الجبار وعذاب النار؟ فـ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ثم ولا فرار عن النار إلا بسلطان الجبار على ضوء سلطان من التقوى، ودون حاجة للنفوذ من هذه الأقطار!.

أم خروجاً من سلطان الله: ملكه وقدرته؟ فلو كان بعد الأرض والسماوات مكان لم يكن إلا بسلطان الرحمن: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾: في ملك الله وقبضته، فما محاولة الخروج عن سلطان الله إلا محاولة جنونية مستحالة.

فسواء أكانت محاولة النفوذ من الأقطار يوم الدنيا أم يوم الدين، فـ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾: فأين تطير هذه الحشرة الهزيلة الذليلة، وإلى أين، أتحسبها تنجو من عذاب الرحمن، أو تخرج عن سلطانه؟ فلتنفذ من الأقطار كل الأقطار، فهل تفر من النار؟ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا انتصار الفرار، ولا إخماد النار، ولا أي غلب على العزيز الجبار، فلماذا الفرار؟!

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

إن شواظ النار: لسانها اللهيب الخالص الأخضر، ترسل على الفارين ولو إلى أبعد الأقطار، والنحاس هنا المذاب السائل من الصفر، أو الدخان المتصاعد من النار، هما يرسلان عليكما، ولا إليكما، مما يوحي أن عذاب الله حاضر حاذر ولو خارج الأقطار، لا يتطلب معونة الإرسال إلى الفار، ولو استطاع الفرار؟!.

فالسلطة الإلهية المطلقة هي من الآلاء، وتحقيق العذاب على المستحقين من الآلاء، وملاحقة الفارين عن العذاب من الآلاء، عدلاً أو فضلاً من الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن البلاء العدل على أهله من الآلاء الفضل على أهل الله.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾:

انشقاق السماء هو اخترامها وافتراقها عن التئامها وصلابتها:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[1] واهية وَهْيَ الدهان: المهل - دردي الزيت إذ تمور موراً، وكما علّها كانت حين دخانها وردة كالدهان فهي ذات الرجع إلى ما كانت يوم قيامتها فترجع كما كانت ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾.

وردة علّها احمرارة الحرب أو اصفرارة الخوف والغضب، تسيل هي السماء كالدماء، بدلاً عن أن تسيل منها الدماء، وردة الانشقاق في قيامة الإماتة تقدمة لقيامة الإحياء، ويا لهما من آلاء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾:

فهنا سؤال منفي هو الاستعلام، ولماذا يسأل علام الغيوب، أو يسأل

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٦.

عُمّاله الموكلون بالعذاب؟ إذ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ فـ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1] فإن وصمة الجريمة مثبتة على سيماهم، ثم وهناك سؤال مثبت: سؤال تقبيح وإيلام: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[2] يسألون عما أجرموا، لا عما أجرم غيرهم: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3] إذاً فلا نفي السؤال يخص جماعة أو طائفة دون آخرين، ولا إثباته[4]. كما لا جواب للمجرمين عذراً، ولا استجواب إلا حجة عليهم.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾: علامتهم - سيماهم في وجوههم وسائر أعضائهم وأحوالهم وأقوالهم، الوجوه الكالحة الباسرة بكل الوجوه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾[5] وحتى إذا تكلفت بشاشة ونضارة، فسيما الوجوه المجرمة معروفة عند أهله، وحتى يوم الدنيا، فالمؤمن ينظر بنور الله فيعرف المجرم بسيماه رغم نضارة النُّعمة وغزارة النُّهمة، فكيف بيوم الطاعة، إذ الوجوه باسرة، ورجاسة السرائر في سيماهم ظاهرة، وعمال العذاب، الملائكة الموكلون به هناك، أنظر بنور الله من المؤمنين يوم الدنيا، فيا له من مشهد عنيف، ومع العنف الهوان، إذ تؤخذ بالنواصي: الجباه، والأقدام، فيقذفون في النار، مع كل هوان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذ لا مغالطة في عرفان المجرمين، فلا مخالطة لهم بالمؤمنين.

وإنما تؤخذ بالنواصي والأقدام حين ينتهي دور الشفاعة والغفران، فإنهما

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٤.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٥.
(٤) في المجمع عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال في الآية: إن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه، أقول إنه في نفسه صحيح كواقع لا كتفسير للآية لأنها تعم الإنس والجن جميعاً.
(٥) سورة القيامة، الآية: ٢٤.

قبل إبرام الحكم وختام الأمر، يوم البرزخ، ويوم القيامة قبل الحساب، أو بينه وبين إبرام العذاب وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ [(١)].

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: نار شديدة التأجج ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا﴾ بكونها وكيانها وإحراقها لهم ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أجرموا ثمار الحياة الإنسانية قطفاً لها قبل إيناعها أو قطعاً لها عن آخرها ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ﴾ ماء ﴿حَمِيمٍ﴾: حار ﴿ءَانٍ﴾: منتهى الحِمّة والحرارة، طواف الاضطرار والاستغاثة: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾[(٢)] وليس المغاث به خيراً من المغاث منه، فلذلك يطوفون في هذا البين حائرين، وإذا كان ماؤها في منتهى الحمام، فكيف بنارها؟ سبحان العزيز العلام!

فطواف المجرمين بين مختلف العذاب من الآلاء: عدلاً على مستحقيه، وفضلاً للمؤمنين بل وللمجرمين أيضاً يوم الدنيا إذ ينذرون به فينتفعون، مهما كان لهم عذاباً يوم الدين: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم وإليكم مواصفات الجنات التي هي آلاء بشرى لأهلها يوم الدنيا وواقعاً يوم الدين:

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٤٥ - أخرج عبد الرزاق في المصنف عن رجل من كندة قال قلت لعائشة: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد شفاعة؟ قالت: نعم، لقد سألته فقال: نعم، حين يوضع الصراط وحين تبيض وجوه وتسود وجوه وعند الجسر حتى يشحذ حتى يكون مثل شفرة السيف، ويسجر حتى يكون مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه ولا يضره، وأما المنافق فينطلق حتى إذا كان في وسطه خر في قدميه يهوي بيديه إلى قدميه، فهل رأيت من رجل يسعى حافياً فيؤخذ بشوكة حتى تكاد تنفذ قدميه، فإنه كذلك يهوي بيديه إلى قدميه فيضربه الزباني بخطاف في ناصيته فيطرح في جهنم يهوي فيها خمسين عاماً، فقلت: أيثقل؟ قال: يثقل خمس خلفات فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾:

هاتان الجنتان هما في جنة العدن الخلود: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1] وعلهما فيها الجنة الجسدانية والروحانية وهي أكبر: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3] فكما أن خوف مقام الرب وتقواه مشتركان بين الروح والجسم، فلتكن هكذا الجنتان، أو هما فيها بستانان[4] بما معهما من جنة المعرفة والرضوان، أو أنهما جنة الإنس والجان. كلٌّ على حِدة، ولكنه خلاف المعروف من آي القرآن: من اشتراكهما في الجنان دون تَباعد وانحياز، وإن «مَن» يشمل كل واحد، لا كل اثنين أحدهما من الإنس والآخر من الجان، ومن مقام الرب قيامه الربوبي بالقسط: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[5] وقيامه بما نكسب: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[6] وقيامه بكل متطلبات الحياة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[7] قيامات قيمات: قسطاً في الحكم وقسطاً في استنساخ الأعمال، وقسطاً في الجزاء، فليس خوف مقام الرب إلا من قسطه العدل -

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥.
(٤) الدر المنثور ٦: ١٤٧ - أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله ﷺ قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] قال: بستانان عرض كل واحد منهما مسيرة مائة عام فيها أشجار وفرعهما ثابت وشجرهما ثابت وعرصتهما عظيمة ونعيمهما عظيم وخيرهما دائم ولذتهما قائمة وأنهارهما جارية وريحهما طيب وبركتهما كثيرة وحياتهما طويلة وفاكهتهما كثيرة.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

لا القسط الظلم - من قيامه بالشهادة والحساب والعذاب، ثم ومن مقام الرب قيام العبد في موقف الحساب: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] فلمن خاف مقام ربه، ومقامه عند ربه - جنتان: فلتحق لخائفه جنتان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم وكما الخوف من مقام الرب درجات كذلك جنتاه درجات، ويعم درجات الخوف أن يتبنى حياته الخوف من مقام الرب، دون اللامبالاة، ومن أفضل الخائفين «من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويقول ويعلم ما يعمله من خير وشر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال[٢] ومن أدناهم من يقترف أحياناً بعض المعاصي ثم يتوب، فهو من أهل الجنتين الدانيتين»[٣].

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩)﴾:

جنتان ذواتا أفنان: أغصان مختلفة الألوان صغيرتان نديتان نضرتان، فلكل جنة أغصان، ولكلٍّ ألوان، كل على حسبه كما الجنتان، إن كانتا بستانين أو جنة جسدانية وجنة رضوان، أو كلٌّ لكل من الإنس والجان.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٢) أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية. . ثم قال: فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.
وفي كتاب الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية: هو أن الرجل يهجم على شهوة من شهوات الدنيا وهي معصية فيذكر مقام ربه فيدعها من مخافته.

(٣) الدر المنثور ٦: ١٤٦ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الثانية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثالثة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟، قال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم وان رغم أنف ابن أبي الدرداء، أقول: تصديق هذه الرواية لا تناسب إلا للجنتين الأخريين. لا الأوليين العاليتين، ولعل ذلك خطأ من الراوي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ آية العاليتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ص[الرَّحمٰن: ٤٦] أو إنما يناسب ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٢].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾:

لكلٍّ عين جارية، فلجنة الرضوان عين المعرفة الفائضة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وإنما دائبة فمتزائدة، وكما للجنة الثانية، فيا للعينين مع الأفنان من نضارة ولمعان: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾:

فالزوجان هما الاثنان من كل نوع، أحدهما متشابه لما رزقوه في الدنيا، والثاني غير متشابه: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[1] كلٌّ متشابه لما رزقوه من قبل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[2] وغير متشابه هو الزوج الثاني، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حتى والمتشابه منهما بينه وبين الذي في الدنيا، بون الجنة والدنيا.

ثم ومن فاكهة المعرفة أيضاً زوجان، متشابه لما عرفوها في الدنيا، وغير متشابه لم يعرفوها فيها!

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾:

وإذا كان بطائن هذه الفرش من إستبرق: حرير غليظ، فماذا إذاً تكون ظواهرها؟ إنها أحسن وأنضر من إستبرق، ولا أنضر لنا يوم الدنيا من إستبرق! ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾: أثمارهما المجتناة ﴿دَانٍ﴾ لا تكلّف إلا قطفاً من دون تكليف إلا طوعاً وعطفاً.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾:

قد توحي ضمير الجمع هنا دون التثنية المسبقة، بأن الجنتين هناك هما الجسدانية والروحانية، والنساء قاصرات الطرف لسن في جنة الرضوان، والجنة الأخرى لأهلها - ككل - جنات، وكما تتكرر فيما يلي ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ لا «فِيهِما» فلا تثنية إلا فيما يناسب جنة الرضوان.

فجنا جنة المعرفة دانٍ لأهلها، يجنونها من أشجارها، كجنا غيرها، وكذلك الأفنان، وعينان تجريان ومن كل فاكهة زوجان.

فكما يتفكه الإنسان من فواكه يأكلها، كذلك - وأحرى - من فواكه تتفكه بها روحه، وكما يتنضر من الأفنان الأغصان، كذلك - وأحرى - من مختلف أفنان المعرفة والرضوان، وكما يشرب أو يُغمس في عين جارية بالأبدان، كذلك - وأحرى - من عين المعرفة الفائضة بفضل الرحمن في جنة الرضوان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ الجنات الجسدانية - بنات ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ من القصر الكمال، لا القصور النقص: فهن، مقصورة أطرافهن على أزواجهن: أطراف العيون والقلوب، فلا تهوي إحداهن إلا زوجها، ولا تنظر إلا إليه[1]، فإنهن عفيفات الشعور والنظرة، وقصور الطرف هذا ليس مقصوراً عليهم منذ الزواج، وإنما منذ أنشأهن الله إنشاءً إذ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: لم يقتضهن قبلهم ويقترعهن بجماع أم سواه، مساً أم سواه وبأي من

(١) الدر المنثور ٦: ١٤٧ - أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ في الآية: لا ينظرن إلا إلى أزواجهن وفيه ١٥١ عن مجاهد في الآية قال: مقصورات قلوبهن وأبصارهن وأنفسهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ لا يرون غيرهن.

ألوان الاستمتاع أو سواه[١] ومن طمث العفاف النكاح - وأحرى منه - اللاعفاف السفاح.

﴿إِنسٌ . . . وَلَا جَآنٌّ﴾: والنفي هذا يجوِّز الإثبات: أن بإمكان الجن طمثهن كما الإنس، وكذلك إمكانية طمث كل ذكر من الجن والإنس أنثى الآخر، ثم ونفي الطمث في معنى أوسع إنهن لم يدخلن معركة الحياة الزوجية بأتعابها وأشغابها وطوارئها، ولا أية أتعاب تنقص من جمالهن، فهن كما يروى عن الرسول ﷺ بعدما تلا الآية: «لم يصبهن شمس ولا دخان، لم يعذبن في البلايا، ولم يكلمن في الرزايا، ولم تغيرهن الأحزان، ناعمات لا ييأسن، وخالدات فلا يمتن، ومقيمات فلا يظعنَّ، لهن أخيار يعجز عن نعتهن الأوهام»[٢].

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾:

هنا يضاف إلى جمال البكارة وقصر النظرة جمال اللون والنضارة: ياقوتية اللون ومرجانيته، فهن إذاً في مثلث الجمال والطراوة، الذي يجمع كمال الأنوثة كله، وكل ذلك النعيم العميم جزاء الإحسان - و:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾:

وإنه لجزاء الفضل وليس العدل، فإن الإحسان من هؤلاء المحسنين لم يك ليرجع إلى رب العالمين، وإنما إلى أنفسهم، وكما الإساءة ليست إلا عليهم: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٣] على أن الحسنة لنا

---

(١) الطمث لازماً الحيض من يطمث مضموماً ومتعدياً من يطمث مكسوراً كما هنا: الافتضاض والاقتراع والمس، فـ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ [الرَّحمٰن: ٥٦] تجمع جميع ما تحل من الاستمتاعات النسائية، أو ومعداتها حتى الخطبة.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٤٨ - أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله ﷺ قال:

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧.

من الله، فإنه الهادي للحسنى، مهما كان لنا حول في الإحسان، فـ «هل جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد والإسلام إلا الجنة»[١]؟ فليس يعني الإحسان إلا إيجاد الحسن والإتيان به على ضوء شريعة الله، أو العقل المؤيد بها، لا كل تراه حسناً كما تهواه، فإنه قد يكون إساءة، أو لا إساءة ولا إحساناً! فيا علينا للرحمان من امتنان فيما أحسن إلينا من آلاء فاضلة، ونعماء فاحلة يسميها جزاء الإحسان! ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

ثم آية الإحسان لا تختص المسلمين الصالحين بجزائهم يوم الدين، فإنها تعمهم والكافرين، كما تعم يوم الدنيا ويوم الدين، مهما كان من أفضله وأتمه للمؤمنين، ليوم الدين، وكما يروى عن الرسول ﷺ: أنزل علي هذه الآية مسجلة في سورة الرحمن في المسلم والكافر سواء: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»[٢]: سواءٌ يوم الدنيا لا يوم الدين.

فقد «جرت في الكافر والمؤمن والبر والفاجر سواء، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»[٣].

فكل من أحسن إليك - أياً كان دينه أو لا دين له - فعليك بالإحسان

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٤٩ - أخرجه بـ(الإسلام) ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عنه ﷺ وبـ(التوحيد) جماعة منهم ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر عنه ﷺ والترمذي والبغوي والديلمي وابن النجار عن أنس عنه ﷺ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس عنه ﷺ.
كما وأخرجه الصدوق في التوحيد عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي عليه السلام أنه سمع النبي ﷺ يقول:

(٢) الدر المنثور ٦: ١٤٩ - أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والديلمي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

(٣) تفسير العياشي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: آية في كتاب الله مسجلة: هي ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرّحمٰن: ٦٠] جرت.

إليه وبأفضل مما أحسن، وإلا فالبادئ أفضل، إلا أن يفضل في جزائه بإحسان يفوق ما فعل، وكما هي سنة الله، وإن كان لا يصله إحسان المحسنين، اللهم إلا إليهم، وقد تجري آية التحية في ردّها بأحسن منها أو مثلها هاهنا، فإن الإحسان من التحية أو هو أفضل التحية.

ونجد الله تعالى يعد المحسنين أجمع الجزاء الحسنى، إن في الدنيا والأخرى، أم في إحداهما، للمؤمن في الأخرى، وللكافر - غير المستحق الأخرى - في الأولى كـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] فالدنيا دار جزاء للمحسنين لها، كما الآخرة دار الجزاء الأوفى لمن أحسن لها، ولا يظلمون فتيلاً.

وآية الإحسان هذه، في صورة الاستفهام، تستخرّ الضمائر الحية، معتبرة وجوب جزاء الإحسان بالإحسان عقلياً وإنسانياً، قبل كونه واجباً قرآنياً، ولا ينكره إلا من سامح عن عقله وضميره، حتى ولا الحيوان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

هاتان هما الجنتان العاليتان بما فيهما ومن فيهما، فهل هناك أعلى منهما، أو دونهما؟ أجل:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾:

وترى إذا كانت الأخريان دون الأوليان فما هي المنة فيهما على الإنس والجان؟ علّها في أن دونهما لمن هم دون من له الأوليان، وإلا فلا جنة لهم لولا الأخريان، وهذا عدلٌ في مراتب الجنات حسب الدرجات، كما وأن

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

كل جنة هنا أو هناك أيضاً درجات حسب القابليات، أفليس ذلك القضاء العدل من آلاء الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾:

فهناك الأوليان فيهما ذواتا أفنان، وهنا الأخريان فيهما مدهامتان: خضراوان(١) ضاربتان إلى السواد، فأين أفنان: أغصان مختلفة الألوان، من: خضراوتان؟.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾:

فهناك عينان تجريان، وهنا نضاختان: ناضبتان بالماء، وهذا دون الجريان.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾:

فهناك ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ثانيهما غير متشابه، وهنا ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ هي أولاهما المتشابه لما في الأولى، دون غير المتشابه.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾:

فهنا خيرات حسان، تقارف قاصرات الطرف في بعض الخيرات، وتفارقها في البعض ومن المفارقات هنا:

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾:

هنا مقصورات الطرف بقصر أزواجهن لهن وقصر الخيام، وهناك قاصرات الطرف من ذواتهن دون قصر الأزواج ولا قصر الخيام، فأين إذاً مقصورات من قاصرات؟! فهذه من المفارقات ومن ثم المقارفات:

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٤٩، أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال سألت النبي عن قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، قال: خضراوان.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾:

ولأن الطمث - أياً كان - هو نقص الأنثى، فلا يناسب الإحسان ولا الحسان في الجنان، اللهم إلا هامشياً لمن يتذوقها.

وترى إن كان الحور المقصورات في الخيام غير مطموثة من قبل، فما هو دور النساء الإنسيات، هل هن محرومات عن زواج الجنة ولسن حوراً، وكثير منهن مطموثات في الدنيا؟.

علّ الجواب أن الحور المقصورات هن من الخيرات الحسان لا كلهن، فمنهن أيضاً النساء الإنسيات(١) يجعلهن الرحمن عذارى أبكاراً، أم وإذا بقين ثيبات فلسن بمرغوبات عنهن لأزواجهن، بل هن مرغوبات لهم طيبات، ثم وهن أفضل وأجمل من الحور المقصورات وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ لما يسأل: «أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله، ألبس الله وجوههن من النور وأجسادهن من الحرير»(٢).

وعلّ قاصرات الطرف والمقصورات، اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان تشملهن، وأحرى، فـ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قد يخص الآخرة، وإن طمثن يوم الدنيا

---

(١) روضة الكافي بإسناده إلى الحلبي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمٰن: ٧٠] قال: هن صوالح المؤمنات العارفات، أقول وهذا من بيان أحد المصاديق البعيدة عن الأذهان بمناسبة ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ [الرَّحمٰن: ٥٦]. .

(٢) الدر المنثور ٦: ١٥٠ - أخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله ﷺ (إلى أن قال ﷺ بعدها في المتن): «بيض الألوان، خضر الثياب، مجاهرهن الدر، وأمشاطهن الياقوت، يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نيأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كان لنا» وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام: الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهن أجمل من الحور العين.

بهم أو بغيرهم، أو أنهم هم الذين طمثوهن في الدنيا فلم يطمثن قبلهم إنس ولا جان، أو أن طمثهن مطموس يوم الآخرة فأصبحن غير مطموثات.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾:

فهناك المتكآت فرش من إستبرق وجنا جنتيه دان، وهنا رفرف: الأبسطة - خضر، علّها الإستبرق التي كانت بطائن الفرش هناك، أو فضول المجالس[1].

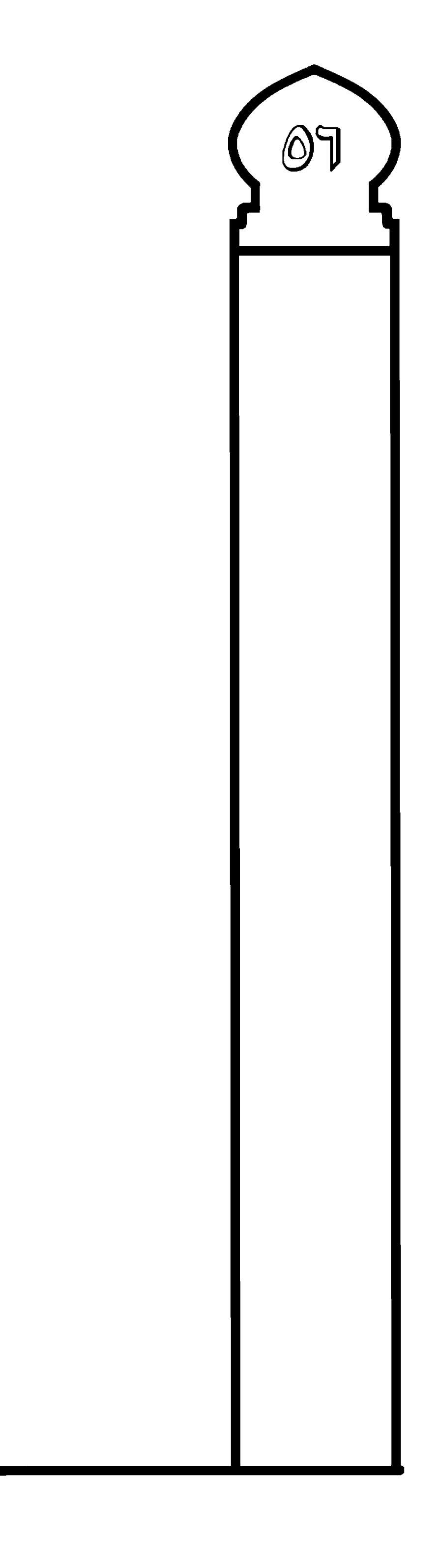
وعبقري حسان: نادرة حسنة: زرابي أو طنافس أو ثياباً موشاة أو الديباج، أو أية حسان نادرة، فأين جنتان وجنتان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾:

أجمل ختام لسورة الرحمن، قد يكون الاسم المتبارك فيه أيضاً هو الرحمن، الذي افتتحت به سورة الرحمن، خير بداية وخير ختام، ولأن الآلاء المستعرضة فيها وسواها، كلها من رحمة الرحمن، أكانت رحمانية أم رحيمية فهو اسم ربوبي من أشمله الرحمن، ويا له من اسم متبارك الكيان في كل زمان ومكان، ويا لمسماه من جلال وإكرام، جلال في ذاته وصفاته، وإكرام برحمته وجلاله لمخلوقاته!.



(١) الدر المنثور ٦: ١٥٢، أخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب عليه السلام.



سُورَةُ الوَاقِعَةِ



مكية - وآياتها ست وتسعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١) لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا
رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا (٤) وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا (٥) فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا (٦)
وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ (٧) فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (٨) وَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ
(١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤)
عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ
مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ
(١٩) وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٞ
(٢٢) كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) لَا يَسۡمَعُونَ
فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (٢٦) وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡيَمِينِ (٢٧) فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ (٢٨) وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ (٢٩) وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ (٣٠)
وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ (٣١) وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ (٣٢) لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ (٣٣)
وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ (٣٥) فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتۡرَابٗا
(٣٧) لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ

﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾:

الواقعة هذه هي واقعة قيامة الإماتة والتدمير، التي تتلوها قيامة الإحياء والتعمير: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾: الحادثة التي هي لا محالة واقعة، لحدٍّ تسمت باسم الواقعة، إذ لا بداء عنها ولا رجوع، فإنها حتمي الوقوع لحد كأنها الآن واقعة، كما توحي له الفاعلة مرتين: مرة لأن الفاعل لا بد وهو شامل للحال، مهما شمل - أيضاً - الاستقبال، وأخرى إن كانت تاؤها للمبالغة، كما قد تؤيده تاء الكاذبة، قرن مبالغة الوقوع بمبالغة اللاوقوع.

و«إذا» الظرفية - هنا مضمّنة معنى الشرط، أنها رغم ما كانت لها كاذبة قبل وقوعها، ليس لوقعتها كاذبة ظرف وقوعها، إذ يجد الكاذبة نفسه والكون كله، يجدها في واقع الواقعة، فأنى له أن يكون لها كاذبة؟! أو أن الجزاء محذوف يستوحى من «ليس.. خافضة رافعة». ثم ف ﴿كَاذِبَةٌ﴾ هي مبالغة «كاذب» كما ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تبالغ في «الواقع»:

إن الذين كانوا يصرون مبالغين في تكذيبها يوم الدنيا، ليسوا ليكذبوا بها

في الأخرى، فوقعتها - وهي وقوعها مرة دون مهل ولا تكرار - هي التي تزيل عنهم ذلك التكذيب الإصرار، فتحولهم إلى التصديق والإقرار، حين لا يفيدهم تصديق ولا إقرار ولات حين فرار.

ثم ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ قد تكون وصفاً لـ ﴿كَاذِبَةٌ﴾: الذي يكذب بها خفضاً لها عن دورها الموعود، في الحساب العدل والعقاب، والفضل والثواب، أو رفعاً لها عن الكيان والوجود: أن لا قيامة فلا حساب، فلا ثواب ولا عقاب!.

أو أنها خبر محذوف المبتدأ: «هي خافضة رافعة»: خافضة أقواماً ترفّعوا يوم الدنيا دونما حق أو صلاحية فرفضتهم إلى النار وبئس القرار، ورافعة آخرين تنزلوا عما يحق لهم، فرفعتهم إلى الجنة[1]، ونعم القرار، ولأن الواقعة ظاهرة حق وحساب دون الدنيا الفوضى اللاحساب!.

أو أن الوصفين يشملان الواقعة والكاذبة بالمعنيين، فقد تتحملها الجملة أدبياً ومعنوياً: فلا كاذبة للواقعة خفضاً ولا رفعاً، بل هي خافضة لمكذبيها رافعة لمصدقيها.

وقد يتخطى نفي الكاذبة لها يومَ الواقعة، إلى ما قبلها، أن تكون ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وصفاً للواقعة قبل وقوعها[2] كما تصفها ليوم وقوعها: أن ليس لوقعة الواقعة قبلها، من يبالغ في التكذيب بها يوم الدنيا، كما ليس لها كاذبة

---

(١) الخصال للصدوق عن الزهري قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول في الآية: خافضة خفضت والله بأعداء الله في النار، رافعة رفعت والله أولياء الله إلى الجنة.
وفي الدر المنثور ٦: ١٥٣ عن محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مترفعين وترفع رجالاً كانوا في الدنيا منخفضين، ومثله عن السدي وقتادة.

(٢) ذلك وإن كانت الجملة منكرة لا تأتي وصفاً إلا لنكرة، فإن الواقعة أيضاً ليست معرفة حيث اللام فيها ليست تعريفاً، وإنما هي موصول، كما يقال: الذي يقع، ترى الجملة هذه معرفة أم نكرة؟!

يومها، سواء، إذ لا سناد لمكذبيها يبالغون به في تكذيبها، إلا ظنوناً وأوهاماً لا تملك إلا التشكيك بها، لا التأكيد من عدم وقوعها، وهذا ما يبرر المبالغة في الكاذبة، إذ لا يكذب بها الواقع فيها، المتواجد عندها، فضلاً عن أن يبالغ في تكذيبها، حتى يبرر نفي المبالغة.

فكما الواقعة يوم وقوعها تملك واقع البرهان الملموس على أنها واقعة، كذلك هي الآن، وطوال أيام الدنيا، تملك من البراهين، ما توضحها وضح النهار، وكأنها الآن واقعة، بما تمكّن من واقعها المستقبل من براهين، وما تفرضها بعد إمكانيتها من براهين أخرى.

فلا يملك أحد من ناكريها يوم الدنيا أن يكذب بها خفضاً عن شأنها، أو رفعاً ونكراناً لكونها وكيانها، كما لا يملكون في الأخرى - ف :

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾: قيامة الإماتة والإحياء والمتأكدة ﴿لَيْسَ﴾ حينها ﴿لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[١] من يبالغ في تكذيبها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ لا تكذيب الخفض من دورها، ولا رفعها إزالة لها، كما و﴿لَيْسَ﴾ الواقعة ﴿لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا في الأخرى ولا الأولى ﴿خَافِضَةٌ﴾ لها أو ﴿رَّافِعَةٌ...﴾ بل هي - الواقعة ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأقوام ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لآخرين.

فهي هي خافضة لمن ترفّع دون حق، ورافعة لمن تخفض بباطل، دون أن يملك أحد خفضها هي أو رفعها، إذ الملك يومئذ لله وله الحكم وإليه يرجعون، دون الدنيا الدنية التي أكثر مُلاكها ظالمون، خافضون دون حق ورافعون، كما وأنها خافضة للسماء المرفوعة بأنجمها، ورافعة للأرض المخفوضة بجبالها، خفض الزلزال ورفعه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[٢].

(١) فاللام هنا للتوقيت، وعلى الوجه الثاني للتعدية.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

ففي يوم الواقعة تختل الموازين والقيم الأرضية الواهية، وتحتل مكانها القيم والموازين الإلهية، بلا مؤاربة ولا مسايرة.

وترى ماذا يحدث أثر حدث الواقعة، أو ماذا الذي يحدثها؟

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾:

... نموذج من مواصفات الواقعة في الأرض والجبال، فرجرجة الأرض واضطرابها، وانبساس الجبال وهباؤها، هذا وذلك من مئات المئات من واقعات الواقعة التي تشمل الأرض والسماوات، فلا تبقي ولا تذر.

إن للأرض رجفات أربع ورجرجات: دائبة هي حركاتها المتداخلة المعدّلة، وموضعيته هي زلازلها قبل الواقعة، ومدمرة هي رجة الإماتة كما هنا، ومعمرة هي رجة الإحياء بعدها، ورجة الإماتة هي الهائلة المخوفة، كما توحي لها ﴿رَجًّا﴾ تعني عظيماً مهولاً، محولاً للأرض إلى غير الأرض: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1].

وبسّ الجبال إرساءها وتسييرها - ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾: ذرات في الهواء[2] - وتفتيتها وبثُّها فكانت ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ كالعهن المنفوش، أفهذه الجبال الراسية تتحول هباء، بعدما رست قواعدها في الأرض، وعلت رؤوسها في الهواء؟ أجل ومع الأرض والجبال السماء.

ترى ثم ماذا بعد قيامة التدمير؟ إنها قيامة الإحياء والتعمير، وانقسام المكلفين إلى أزواج ثلاثة، حسب الأعمال والقابليات:

---

(١) راجع تفسير سورة الزلزلة ج ٣ من الفرقان.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٦ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: الهباء المنبث رهج الذرات، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكرة.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾:

أقراناً تحشرون إلى الساهرة جنب بعض، وإنما تثلثكم سيرة مفارقات الأعمال والنيات، دون أن ينظر إلى صورة الأشكال أو مقارفات الأعمال ولمّا.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: وهم الذين عاشوا يمين الحياة ويمنها، إيماناً بالله، يميناً، في سبيل الله، فيميناً في مرضاة الله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾(١).

والميمنة هي ناحية اليمين واليمين... يمنا وبركة في حياتهم كل الحياة، ويميناً في اتجاهات الحياة إلى الدين، ويميناً يوم القيامة إذ يؤتون كتبهم بأيمانهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾(٢) شؤماً في الحياة حيث انحازوا إلى شمالها، ولؤماً في العقائد والأعمال والتصرفات إذ جدّوا في إهمالها، فالمشأمة هي ناحية الشؤم واللؤم قبال اليمين.

والسؤال في أصحاب الميمنة سؤال تبجيل وتجليل، كما أنها في أصحاب المشأمة سؤال تذليل وتهويل، ومن ثم السابقون يؤتى بذكرهم دون سؤال، علّه لأنهم سبقوا السؤال والجواب، واجتازوا كل حساب، لأنهم

---

(١) سورة البلد، الآيات: ١٢-١٨.

(٢) سورة البلد، الآيتان: ١٩، ٢٠.

مقربون! وهم ورثة الكتاب لأنهم مصطفون: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾: هل هم السابقون زماناً؟ وليس لسبق الزمن دور في القرب والزلفى! ثم وهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين! أترى أن القلة الآخرة كالثلة الأولى سابقة زمناً؟ أم هم السابقون شرفاً وإيماناً فلماذا التكرار؟.

ترى لأن الثاني خبر الأول؟ ومن شأن الخبر التنكر: «سابقون» وأن يفيد، وما هي إفادة حمل الشيء على نفسه، حملاً ذاتياً أولياً لا يُعنى إلا في المنطقيات دون المعرفيات! أو أنه وصف له؟ فكذلك الأمر! فالوصف يزيد الموصوف معنًى، لا أن يكرره دون معنى ولا جدوى! أو أنهما وصفان للزوج الثالث من ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ فالأول يعني السبق في الأولى، والثاني سبق الأخرى نتيجة الأولى جزاء الحسنى بالحسنى؟ فهذا ما يقتضيه أدب اللفظ والمعنى، فالسابقون بالخيرات: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) إيماناً وعملاً صالحاً في الأولى، هم السابقون بالخيرات جزاءً فضلاً في الأخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٣) فهم في صراع الحق والباطل سراع إلى الحق وسبّاق إليه دون مماطلة ومماهلة، ولا تلعثم وتوان فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ إلى الله زلفى، أئمة الهدى، بدوّامة التقى، فلهم العقبى الحسنى كما أحسنوا في الأولى.

فالسابقون سبقوا أصحاب الميمنة في كافة ميادين سباق التقوى حالاً

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦١.

ومقالاً وإيماناً، من حمل الرسالات الإلهية أصالة بالوحي، أو خلافة عن أصحاب الوحي، ومن سنّ السنن الحسنة التي ظلت سبلاً للخيرات لأهل الخيرات، ومن أي سباق في أية صبغة إلهية[١] فأصبحوا هم المقربين لهم الأرواح العليا[٢]، والدرجات الحسنى، وأفضل الزلفى في الأولى، ومن ثم الأخرى، ازدواجية السباق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ...﴾.

ثم ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هنا - لا «المتقربون» توحي بازدواجية مكانة القرب لهم من الله: إنهم تقربوا إليه كما اسطاعوا، ومن ثم أكمل الله تقربهم إليه أن قربهم فأصبحوا «مقربين»: قرّبوا لسبقهم سواهم، فسبقوهم في الجنة لقربهم!.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

ترى من هم الأولون الثلة؟ ثم الآخرون القلة؟ أهم الأولون والآخرون من هذه الأمة؟ والخطاب «كنتم» شامل كل الخليقة المكلفة، ولا دليل على الاختصاص بهذه الأمة! ولا يربوا الأولون منهم على الآخرين عدداً أو عُدداً، اللّهم في المعصومين الأربعة عشر، والسابقون يعمهم وكل سابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) كالسباق إلى إجابة دعوات المرسلين، كما في الدر المنثور ٦: ١٥٤ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في آية ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله ﷺ، وفيه عنه أنها نزلت فيهم وكل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقاً.

(٢) في أمالي الشيخ المفيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في آية السابقين: (فأما ما ذكره من أمر السابقين فإنهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين جعل فيهم خمسة أرواح): روح القدس وروح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن، فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين، وبها عملوا الأشياء، وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به شيئاً، وبروح القوة جاهدوا عدوهم، وعالجوا معايشهم، وبروح الشهوة أصابوا لذيذ الطعام ونكحوا الحلال من شباب النساء، وبروح البدن دبوا ودرجوا فيها...

أقول: هؤلاء هم الرعيل الأعلى من السابقين المقربين، ويتلوهم الدرجات التالين لهم، من الذين لم يوح إليهم، إنما مثلوا رجالات الوحي في دورهم الرسالي إيماناً وأعمالاً ودعوات.

أو أن الثلة وهي الجماعة العظيمة هي ممن قبل الرسالة الأخيرة، من أنبيائهم وأئمتهم وربانيهم، ولا ريب أنهم الكثرة الكثيرة، والقلة - وهي هنا بجنب ذلك الكثرة - إنها السابقون منذ الرسالة المحمدية إلى يوم القيامة، من الرسول ﷺ والأخصين به: الأئمة الاثني عشر، ومن أجلاء أصحابه وأصحابهم، ثم الربانيين القمة في هذه الأمة إلى يوم القيامة(١) فمهما كان أصحاب الميمنة منهم ثلة كالأولين، فالمقربون منهم قلة دون الأولين، فأين عدد النبيين السابقين، وهم أئمة السابقين الأولين، وأين هم المعصومون في هذه الأمة وهم أئمة السابقين الآخرين؟ ومن ثم أوصياء كلٍّ والأوفياء من أصحاب كلٍّ، السابقين إلى الإيمان برسالاتهم، أين هم بجنب الأوصياء الاثني عشر في هذه الأمة، والأوفياء السابقين القمة فيهم؟! مهما كان السابقون القلة أعظم درجة من السابقين الثلة وأتمُ عدداً، ولكن هؤلاء أكثر عَدداً.

---

(١) وفي روضة الواعظين قال أبو الحسن موسى عليه السلام: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين حواري محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه؟ فيقوم سلمان والمقداد وأبو ذر، ثم ينادي: أين حواري علي بن أبي طالب عليه السلام وصي محمد ابن عبد الله رسول الله ﷺ فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي ومحمد بن أبي بكر وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد وأويس القرني، قال: ثم ينادي المنادي: أين حواري الحسن بن علي، ابن فاطمة بنت محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ؟ فيقوم سفيان بن ليلى الهمداني وحذيفة بن أسيد الغفاري، قال: ثم ينادي: أين حواري الحسين بن علي؟ فيقوم من استشهد معه ولم يتخلف عليه، قال: ثم ينادي: أين حواري علي بن الحسين؟ فيقوم جبير بن مطعم ويحيى بن أم الطويل وأبو خالد الكابلي وسعيد بن المسيب، ثم ينادي: أين حواري محمد بن علي وحواري جعفر بن محمد عليه السلام؟ فيقوم عبد الله بن شريك العامري وزرارة بن أعين وبريد بن معاوية العجلي ومحمد بن مسلم وأبو بصير ليث المرادي وعبد الله بن أبي يعفور وعامر بن عبد الله بن جذاعة وحجر بن زائدة وحمران بن أعين، ثم ينادي سائر الشيعة مع سائر الأئمة عليهم السلام يوم القيامة فهؤلاء أول السابقين وأول المقربين وأول المتحورين من التابعين.
أقول: والمذكورون ليسوا هم الحاصرون، وإنما القمة منهم، أو أن هناك مهمة دعت إلى اختصاصهم بالذكر.

إذاً فالسابقون السابقون، هم ثلة من الأولين وقلة من الآخرين، ولقد اصطلحت «الآخرون» لأهل الرسالة الأخيرة، كما أن رسولها رسول الساعة، ورسول آخر الزمن، وأمتها هي الأمة الأخيرة، وانعطافاً إلى سائر آيات الأولين والآخرين: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾[١] كما وأن استعراض أحوال القيامة، الشاملة لأهل الجمع أجمع يشهد لهكذا تفسير، ذلك، وكما يشهد له أئمة السابقين الآخرين صلوات الله عليهم أجمعين[٢].

هؤلاء السابقون المقربون، هم ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جنات فوق سائر الجنات، وأفضلها جنات المعرفة والرضوان: في الأولى - وأحرى - في الأخرى، وهم في جناتهم:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾:

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ منسوجة نسج الدروع وعل نسيجها الذهب والفضة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[٣]. مرمولة: مزينة بهما وبالجواهر[٤] فهي موضونة توضن بقضبان الذهب والفضة.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾: مطمئنين، حال كونهم ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ فجلسة التقابل بين

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي جعفر عليه السلام ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون، وفي روضة الواعظين عن الصادق عليه السلام ثلة من الأولين: ابن آدم المقتول ومؤمن آل فرعون وصاحب ياسين، وقليل من الآخرين: علي بن أبي طالب عليه السلام. أقول، وهذا تفسير ببعض المصاديق منهما، مختلف فيه كعلي عليه السلام أو مشكوك الشمول كالثلاثة الأول.

(٣) سورة الطور، الآية: ٢٠.

(٤) الدر المنثور ٦: ١٥٥ عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب، ومثله عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة.

المتحابين خير الجلسات وأحلاها ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان حدثة وليدة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لا في المقامة بالخدمة فحسب، وإنما مثلث الخلود: كوناً، وكياناً: خدمةً وولدنة.

وترى من هؤلاء الولدان، أهم ممن أنشأهم الله في الجنة؟ أم هم - أو معهم - ولدان توفوا قبل أن يبلغوا الحلم، فلا هم يستحقون النار، ولا جنة الأبرار، فهم يخدمونهم دون تعب ولا شغب؟ قد يكون، ويوافقه العقل والنقل[1].

ثم ترى أهم من ولد المقربين، ولكي لا يكونوا مهانين بما يخدمون؟ علهم هم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[2] إذ توحي اللام باختصاصهم بهم، أم إنهم اختصوا بالمقربين دونما قرابة بينهم، وليس في تطوافهم عليهم تطفيف عن شأنهم وإنما ترفيع ولا تخفيف، ولا سيما من كان منهم من ولد المشركين وكما يروى.

ثم ويكون طوافهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾: أقداح، ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾[3].

﴿وَأَبَارِيقَ﴾: آنية لها خراطيم وعُرى، كلٌّ لما يناسبه من شراب ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: خمر هي مأخوذة من عين جارية متلمعة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[4] [5].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾: صداع الرأس «ولا ينزفون»: فراغ العقل.

---

(١) المجمع عن علي عليه السلام أنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها فأنزلوا هذه المنزلة.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٤) سورة الصافات، الآيات: ٤٥-٤٧.
(٥) راجع ج ٣٠ من التفسير: خمر الدنيا والآخرة.

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤﴾:

فاكهة حسب التخير: انتخاباً لأحسنها تفكهاً، ولحم طير من أي نوع يشتهون، وبأية طبخة يريدون، أو انطباخة دون طبخ، فالفاكهة تُختار لأنها عند الشبع، واللحم يشتهى، فإنه عند الجوع، فليس تعبير الاختيار والاشتهاء، اشتهاء فوضى في التعبير، وإنما اختيار ببلاغة العليم الخبير.

﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾: جمع عيناء: واسعة العيون الجميلة، تحير الناظر إليها. ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المصون عن كل لمسة ونظرة، أو أية عارضة، لم تثقبه يد، ولم تخدشه عين، كذلك الحور العين إذ ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ ويزيدهن لطفاً أنهن طائفات حول أزواجهن[١].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: لا بما كانوا يعلمون أو يأملون، أو بما كانوا يعتقدون أو يؤمنون، وإنما عمل الإيمان الذي كانوا به يداومون.

هذا طرف من نعيم الجنة الجسدانية، فإليكم طرفاً من الجنة النفسانية:

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ۝٢٦﴾:

فلماذا اللغو هناك وهم غارقون في نعمة الله ومعرفته، ولماذا التأثيم ولا إثم هناك ولا تأثيم، فإن بواعث اللغو، وهواجس اللهو، ووساوس النفس هناك منفية، لأنهم ظهروا على الحقائق كلها وظهرت لهم، وكملت عقولهم وأحلامهم ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾[٢] فلا أضغان تدفع إلى تناحرات، ولا غلّ يدعو لتنافرات: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٣]

---

(١) لأن ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ [الواقعة: ٢٢] عطف على ﴿وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] يطوف عليهم ولدان مخلدون وحور عين.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

فدافع اللغو والتأثيم، جهل تحوّل إلى العلم والمقربون كانوا عالمين، أو طيش استقر بالنعيم، وهم كانوا يملكون طيشهم، أو جهالة تحولت إلى معرفة وهم كانوا عارفين، فلا لذة لهم أحلى من العبودية، ولا ذلة لهم أبلى من ترك العبودية، فحياتهم هناك حياة أمن واستقرار بإيمان، دون شغب ولا نصب، فـ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ فضلاً عن أن يأتوا به ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾:

قيلٌ من رب العالمين: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[1] وقيل من الملائكة المقربين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2] وقيل من سائر المقربين وسائر أهل النعيم: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[3] فهي لهم سلام ودار السّلام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[4] ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[5] فليست لهم فيها إلا قيلات السّلام وحيات السّلام يرف عليهم فيها السّلام، فالجو كله سلام سلام، فإنه دار السّلام، وصاحبها هو الله السّلام.

ومن قيل السّلام السّلام، قيلات تحمل تزويدهم بمعرفة الرحمن وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وهل يأنس المقربون - وفي جنة الرضوان - إلا بقيلات تقربهم زلفى إلى الحنان المنان؟

ومن قيله محاوراتهم فيما بينهم وسواهم من أهل الجنان، أنيسة حنونة أليفة ليس فيها إلا سلام سلام، فهم يَسمعون سلام كما يُسمعون سلام!.

وترى ما هو وجه التكرار في ﴿سَلَٰمًا﴾؟ قد يكون رمزاً إلى مختلف السلام من الله ومن أهل دار السلام، أو أنه سلام لا يحمل ساماً كما في

(١) سورة يس، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٤٦.

سلام المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وإنما سلام يحمل سلاماً بكل ما له من معنى صادق لائق، وقد يكونان هما المعنيّان.

ثم ومن هنا نتبين أن ﴿سَلَٰمًا﴾ خير تحية وإكرام، فلنستنَّ بسنة أهل الجنة هنا فيسلم بعضنا على بعض.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾:

هم أصحاب الميمنة المسبقين، يؤتون كتابهم بيمينهم وكما عاشوا يمين الكتاب والدين، وترى كيف سموا «أصحاب الميمنة» عند ذكر الإقسام، و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ عند ذكر الإنعام؟ علّه لأن الميمنة هي سبب اليمين، فلولا ميمنة الدنيا ويمنها بيمينها، لم يؤتوا في الأخرى كتابهم بيمينهم، كما لولا مشأمة المشؤومين يوم الدنيا لم يؤتوا كتابهم بشمالهم أو وراء ظهورهم.

ثم وأصحاب اليمين لهم درجة بعد السابقين، ترى ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ في حالهم وحلهم وترحالهم؟.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾:

شجر النبق «يخضده الله من شوكه»[1] فيستظل به أصحاب اليمين لكثرة غنائه في الإظلال، لسعة ورقه وتداخله، فكما الله يبدل سيئاتهم حسنات، يبدل سيئة السدر حسنة لكي ينتفعوا بما كان يُشيكهم بشوكه، وليتبرّدوا ويتنزهوا ببرده، أو ويأكلوا من فواكهه.

إن الحدائق في الجنان ظليلة فيها الكواعب سدرها مخضود

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٥٦، أخرج الحاكم وصححه البيهقي في البعث عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: وما هي؟ قال: السدر فإن لها شوكاً، فقال رسول الله ﷺ: أليس يقول الله: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، إنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾:

شجر الموز[1]، المقصود منه الثمر للاستغلال وهو من أقوى الثمر وألطفه، والمرغوب منه الورق للاستظلال، ومن جماله نضد الثمر والورق، قرناً إلى قدم، ثم نضد أغراسه، فهو في مثلث النضد: بعضه على بعض، وهو فاكهة وإدام مع بعض! وما ألطفه أكلاً وهو حار الطبع، تحت سدر مخضود وهو بارد الطبع.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[2] فهو ظليل ممدود، منبسط لا يتقلّص، دائم لا تنسخه أو تتفرج به شمس أو سواها، بسقف وأشجار وخيام أم ماذا؟ مما

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٥٧، أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: هو الموز، كما أخرج جماعة عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد.

وروي عن علي وأبي عبد الله عليه السلام أنهما قرآ (وطلع منضود) وهذا زور وافتراء عليهما عليهما السلام فإنه خلاف القرآن المتواتر فليضرب عرض الحائط، وما أسخفه رواية تروى عن علي عليه السلام أخرجها ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عبادة قال قرأت عن علي عليه السلام ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فقال علي عليه السلام: ما بال الطلح، أما تقرأ وطلع؟ ثم قال: وطلع نضيد، فقيل له يا أمير المؤمنين! أنحكها من المصاحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم (الدر المنثور ٦: ١٥٧).

أقول: ما هي دلالة طلع نضيد هناك على لزوم طلع - كذلك - في منضود هنا؟ ولو كان طلعاً هنا فعلى إمام المسلمين أن يثبته طلعاً ويمحيه طلحاً، فأمثال هذه الروايات ليست إلا زوراً من هؤلاء الذين يصرون على وصمة التحريف في القرآن، وهم يستندون فيه إلى ما ينسبونه زوراً إلى الرسول والأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

رغم المروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ كما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم وفسره علي عليه السلام بالموز، وتبعها الصحابة المذكورون مسبقاً، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موضع آخر الموز من فواكه الجنة كما في كتاب صنعة أهل الجنة والنار عن أبي جعفر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ... أن نخل الجنة... وموزها ورمانها أمثال الدلى...

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٧.

يدل - مع سدر مخضور - على وجود الشمس في الجنة، هذه التي تكور ثم ترجع، أم سواها من شمس يستظل عنها أهل الجنة فيها فـ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[١].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾:

مصبوب من علٍ دون انقطاع، أو جار في الأنهار نابعة دون أخاديد وأحفار.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾:

كثيرة الطعوم والألوان، وكثيرة الأنواع والأعداد، وكثيرة المدة والمدى دون انقطاع ولا امتناع، لا تقطع لأنها من الرحمة الواسعة اللامحدودة، ولا تمنع، ولماذا تمنع؟ أبخلاً من المضيف؟ أم مرضاً من الضيف؟ فلا بخل أبداً، ولا مرض هناك.

ومن ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وأحرى - ظل الله الممدود على أهل الله في دار كرامة الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[٢] ومن ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أصول العلم الإلهي التي بها حياة أهل الجنة الروحانية، ومن (فاكهة..) فاكهة المعرفة والعلم، التي يتفكه بها أهلوها[٣].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾:

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.

(٣) روى سعد بن عبد الله القمي بإسناده عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ قال: يا نصر! كأنه والله ليس حيث يذهب الناس، إنما هو العلم وما يخرج منه. أقول: إنه من باب بيان أفضل المصاديق وأخفاها.

﴿وَفُرُشٍ﴾: جمع فرش - وفراش، فرشاً للراحة اتكاءً أو نوماً عليه، وفراشاً: حليلة ينام معها على الفرش ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾: عن الأرض، فرشاً من حيث العلو معنوياً ومادياً، ومن حيث الأشكال والأنواع، ومرفوعة عن الدناءات فراشاً بمن فيها من حليلات: مرفوعات جلالاً وجمالاً وأحوالاً. فـ:

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾: أولياً بابتداع كالحور العين، أو ثانوياً بعد ابتداء كالمؤمنات المنشآت في النشأة الأخرى، وكما عن الرسول ﷺ: «إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز شمطاً عمشاً رمصاً»[1] ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[2].

وترى ما هي حاجة الأبكار من المؤمنات أو الحور المنشآت، أن ينشأن أبكاراً كما الثيبات، فالأوليات كن أبكاراً، والأخريات حديثات الخلق المبدعات، لزامهن البكورة دون جعل حديث؟ علّ الوجه أن هذا الجعل هنا وهناك يجعل البكورة لهن لزاماً، لا تزول بزواج: فـ «إن أهل الجنة إذا جامعوا النساء عدن أبكاراً»[3] فللباكرات من الدنيا والحور، تُجعل بكورة الخلود، وللثيبات «إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكاراً»[4] كأن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ إذاً فهن سواء في خلود البكورة بما أنشأهن الله فجعلهن أبكاراً، ومن ثم:

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٥٨ - أخرجه من عدة طرق عن أنس قال قال رسول الله ﷺ.

(٢) الدر المنثور عن زيد الجعفي سمعت النبي ﷺ يقول في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ قال: الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا.

(٣) الدر المنثور أخرج الطبراني عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ.

(٤) الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ﷺ! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها عجوز، فذهب يصلي ثم رجع فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة، فقال: إن ذلك كذلك - إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكاراً.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا . . .﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[١] ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[٢] فـمـا هي العرب وما هي الأتراب؟

فالعرب جمع عَروبة وهي المعرِبة بحالها وأقوالها عن عفافها وتعشقها لزوجها فهن المتعشقات لهم والمتغنجات، الجاذبات لهم والمنجذبات المتغزلات:

يعربن عند بعولتهن إذا خلوا وإذا هم خرجوا فهن خفار

فهن عُرُب بكافة مظاهر الزوجية ومآربها ومعاربها، وبكافة مزاهر الجمال مع أزواجهن، وخفار مع سواهم، ومن عُرب مقالهن عربية كلامهن ولغتهن[٣] فإنها أجمل اللغات، وهي لغة أهل الجنة، فهن عُرُب في الأقوال والأعمال والأحوال!

والأتراب هن لِدات منشآت مع بعض، متماثلات متوافيات السن والجمال مع لداتهن، ومع أزواجهن، متكافئات معهم في شؤون الزوجية، عبر عنهن بالأتراب لمماثلتهن الترائب: ضلوع الصدر المتقارنات المتقاربات: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ فهن أتراب لأصحاب اليمين كما هن أتراب مع بعض، وترب العمر بين الزوجين وإن كان مرغوباً عنه في الدنيا، ولكنه مرغوب فيه في الأخرى، لبقائهما على حالهما هناك، وتغيرهما عن أحوالهما هنا[٤].

---

(١) سورة ص، الآية: ٥٢.

(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٣.

(٣) الدر المنثور ٦: ١٥٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله عرباً: قال: كلامهن عربي، وفي كتاب صفة الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام في حديث أوصاف أهل الجنة: صاروا . . وعلى لسان محمد العربية.

(٤) إن مماثلة العمر بين القرناء من المرغوب فيه مبدئياً، كتقارب العقلية والفكر كتقارب الجسم، =

﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

ومهما كان السابقون الآخرون قلة وجاه ثلة الأولين، فأصحاب اليمين الآخرون ثلة كما الأولون ثلة، وأين ثلة من ثلة؟

وإذ لا تناسخ في الأخبار، وإلا كان أحدهما كذباً أو كلاهما، فلا يعقل أن تنسخ أية ثُلة الآخرين من أصحاب اليمين، أيةَ قلة الآخرين من السابقين، وكيف والموضوع أيضاً مختلف، فهنا أصحاب اليمين وهناك سابقون، فلتضرب أحاديث النسخ هنا عرض الحائط[١].

والآخرون الثلة هنا هم من الأمة الإسلامية كما الآخرون القلة هناك وكما يروى[٢] خلاف ما يروى أن «هما جميعاً من هذه الأمة»[٣] فإذا كانوا جميعاً منهم، فما هو دور الأوسطين من المسلمين، وما هو دور سائر الأمم؟ أفليس منهم أصحاب اليمين؟

وترى أية ثلة أكثر عَدداً وأعظم عُدداً؟ آية الثلثين لا توحي بشيءٍ! فقد تكونان سواء، أو إحداهما أو فر من الآخر لحدّ لا تجعلها قلة[٤]، وقد

= وكونها مرغوباً عنها بين الزوجين إنما هو باعتبار المستقبل حيث يستقبلان الشيخوخة، والمرأة أسرع فيها، والرجل بحاجة دائماً إلى شابة تؤنسه، وأما إذا بقيا في عنفوان العمر فالمماثلة مرغوب فيها دون ريب.

(١) الدر المنثور ٦: ١٥٥ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ضرب أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا إذا لا يكون من أمة محمد ﷺ إلا قليل، فنزلت نصف النهار وثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وتقابلون الناس - فنسخت الآية وقليل من الآخرين.

أقول: ولا يفسر القرآن هكذا إلا منسوخ عقله لا يميز بين السابقين القلة وأصحاب اليمين الثلة.

(٢) الدر المنثور: أخرج الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في حديث طويل: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة فكبر القوم ثم تلا هذه الآية.

(٣) الدر المنثور ٦: ١٥٩ عن أبي بكرة عنه ﷺ في الآية (هما جميعاً من هذه الأمة).

(٤) الخصال للصدوق عن سليمان بن يزيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة مائة وعشرون صفاً، هذه الأمة منها ثمانون صفاً. =

توحي ثلة الآخرين: أصحاب اليمين، أن الأمة الإسلامية ككلٍّ أكثر عدداً من سائر الأمم، فأطول زمناً منهم، فدور الرسالات الواجدة برسلها بين الأمم، أكثر إنتاجاً من دور الفترة الرسالية، وإذا كان أصحاب اليمين من الرسالة الأخيرة ثلة كالأولين، من حيث العدد، فليكن الأولون قلة من حيث الزمن بجنبهم، أو أن أكثر الثلة في الدولة الأخيرة الإسلامية المهدوية، فلا تتطلب هذه الثلة زمناً أطول، فبالإمكان أن يكون زمن الأولين أطول من زمن الآخرين، لا ندري!

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾:

وقد يكفي تعريفاً بهم أنهم أصحاب المشأمة الشمال، إذ يؤتون كتبهم بشمائلهم إمارة السقوط، كما يؤتى أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح، وثم هنا الإجابة عن «أين مكانهم في القيامة»:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فِي سَمُومٍ﴾ فالسمُّ والسُّمّ كل ثقب ضيق كسم الخياط، فالسموم هو النار والريح، الحاملتا السُّمّ، لطيفتا التأثير ومبالغتاه، تدخلان البواطن ثقباً ونقباً، فالهواء هناك ساخنة هباء تنفذ المسام بشواظ سامّة فتشوي الأجسام، فكيف إذاً النار!

ثم الماء هناك ﴿حَمِيمٍ﴾ كالنار، لا يبرد ولا يروي ولا يغني من اللهب، لأنه نفسه لهب، وإذا كان المتسمم المحموم قد يخف عن سمِّه وحمِّه بظلٍّ، فلهؤلاء المناكيد ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾: دخان لافح خانق: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾[1] ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ يخفف عن وطأة السموم والحميم ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ معتدل

= أقول: الأربعون قبال الثمانين، لا ريب وأنهم قلة، اللهم إلا إذا كانت صفوف المسلمين أقل عدداً من صفوف غيرهم حتى يتقارب أصحاب اليمين الأولين والآخرين.

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣١.

قد يعدل من شطا حمّته، أو يخففه عن قمته، وإنما يزيده تسمماً وخنقاً - ولماذا هذا العذاب الخناق:؟ لـ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

ثالوث الكفر بالله وبرسالات الله وبيوم الله.

فالمترف هو الذي أبطرته النعمة وأطغته ودللته، فأخذ من شهوته فيها مداها وانغمس فيها منتهاها، فليس هو كل ذي نعمة ولا كل طاغ دون نعمة، وسواء أكانت نعمة المال التي أغفلته، أو نعمة القوة أو الجمال التي ألهته، أو أية نعمة من شأنها الإبطاء والإطغاء، فجماع هذه النعم ظرف لجماع البطر والطغيان، ثم وكلٌ على حسبه.

فالفقير الذي لا يجد مالاً ولا مجالاً لتحقيق آمال من قوة أو جمال، إنه مهما كان كافراً لا يصل إلى قمة الكفر والطغيان، اللهم إلا هامشاً للطغاة المترفين، فهو أيضاً من المترفين، إذ أترف في نعمة العقل الداعي إلى عبادة الرحمن، إلى نقمة الطغيان، وغرته هؤلاء بما يعدونه ويؤتونه من تافه الأنعام، فالترف له دركات، وكما الخروج عنه درجات، والمترفون بدركاتهم من أصحاب الشمال فهم في النار، وسواهم بدرجاتهم من السابقين أو أصحاب اليمين فهم في الجنة.

هذا، ولكن الترف الذي يجعل صاحبه طرفاً للسابقين وأصحاب اليمين، هو ذروته لأصول الضلالة والطغيان، وقد ينجو الهامش ولو بعد زمان وكما يلمح به القرآن:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١]

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1] هذا وكما أنهم المعذبون الأصول، والسبب الرئيسي للعذاب ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2] فأمر الله الموجَّه إلى المترفين غير ما يوجه إلى غير المترفين، ولأنهم أولو نعمة وقوة، فتكاليفهم أثقل، وعذاب التخلف عنها أعضل.

ومما يدفعهم إلى الترف إصرارهم على الخلف والنقض العظيم: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فالحنث هو الخلف وهو النقض وهو الميل عن الحق إلى الباطل، والقول غير الحق، والذنب، فالحنث العظيم هو العظيم من كلٍّ، ولا أعظم من نكران وجود الله، والشرك بالله، وتكذيب رسالات الله، ونكران يوم الله.

إن حنث نكران القيامة هنا مفرد بالذكر، ولأن الأصل في نكران سواه إنكاره لا سواه، ولكي يخلصوا عن عبء التكاليف الإلهية.

فنكران الألوهية الحقة حنث عظيم بكل معانيه الخمسة: فهو خلف للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ونقض لميثاق الفطرة وحكم العقل، وميل عن الحق الذي تتوفر له كافة البراهين، إلى الباطل الذي ترفضه كل البراهين، فهو قول بغير حق، وذنب عظيم لا أعظم منه، وكما يتلوه متفرعاً عليه حنث نكران الرسالات ونكران يوم القيام.

هؤلاء المترفون، كان حياتهم الترف، والإصرار على الحنث العظيم، ومنه نكران اليوم العظيم:

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾:

تقوُّل عن استبعاد وبكل إصرار واستبداد: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ وصرنا تراباً، ثم مضى زمن بعيد عن الكينونة الترابية: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ فبعد هذه المدة وهذا التحول ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كما كنا من قبل: تنكُّر للبعث المؤكد المشار إليه باللام (لـ) تأكيداً للنفي، مقابلة الإصرار بالإصرار! ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الذين هم أبعد منا زمناً، فهم في أمر مريج من ثالوث الاستبعاد: بُعدين زمنيين بَعد بُعد أصل البعث[1].

فما هو الفارق بين الأولين والآخرين بعد كون الكل ميتين، واستحقاقهم الحساب والثواب أو العقاب على سواء، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾: وقت معين عند الله معلوم لدى الله، مهما كان مجهولاً لدى غير الله، جمعاً مؤكداً تؤكده البراهين[2].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[3] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾[4].

---

(١) أقنومه الأول الموت والثاني الكينونة الترابية الماضي عليها زمن يعبد لهم. والثالث لمن هو أبعد منهم زمناً: آباؤهم الأولون.

(٢) فـ(ان) و(لـ) وصيغة المفعول الدال على إثبات (مجموعون) تؤكد إثبات ما نفوه وتصديق ما رفضوه.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٦.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ٦٢-٦٨.

هذه مواصفات للزقوم، إنها أنحس شجرة في الجحيم صوره وسيرة ونبتاً: كما وأن جرس اللفظ يصور ملمس المعنى: خشناً شائكاً في الحلوق، هائلاً في العيون، كالمهل يغلي في البطون، وما دامت هي من أصل الجحيم فهي آصل من الجحيم، وما كان طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فهو تناسب أكلاً لرؤوس الشياطين.

وترى إذا كانت هذه شجرة الزقوم فكيف يأكلها الضالون المكذبون؟ أليس الجوع أحلى من هذه الشائكة الفاتكة؟. لأن «ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب»[1] والجوع طاغ، والمحنة طاغية! ولا طعام لهم إلا هيه! أفصبراً على الجوع المنهك المهلك ولحد الموت؟ فلا موت هنا ولا فوت، أم لو قدر على الصبر فلا يطعم الزقوم؟ إنه طعامه شاء أم أبى! فليس طعام الإكرام حتى يختار، إنه طعام العقاب فلا بد منه ولو يحتار، وكذلك طعام الدوام في العذاب فليأكله بالإجبار، فالضالون المكذبون إذاً بين واجبين أمام ذلك الطعام، ذاتي ضرورة الحاجة إلى الأكل، ومفروض ضرورة العقاب والبقاء إلى أجل مفروض.

ومما يوحي باضطرارهم الثانوي في أكله ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ فالأولى منه يفرض ما يبقي الرمق لا ملء البطون.

ثم إن ثالوث: حرارة الجحيم، وشائكة الزقوم للحلوق والبطون، وملء البطون، لتدفع إلى الماء، فترى ماذا يشربون؟:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾: الماء البالغ الحرارة: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾[2] ويعدما تقطعت وتفسخت بالزقوم، عذاباً فوق العذاب، وترى - إذاً - يشربون منه قليلاً؟ كلا:

---

(١) تفسير العياشي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:
(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾: الهُيام داء يأخذ الإبل من العطش[1]، فالهيم هي الإبل المراض المصابة بداء الاستسقاء وفي الرمضاء، إذ لا تكاد ترتوي من الماء، فهم - إذاً - بطونهم مليئة من الزقوم ثم من الحميم، عذاباً دائباً لا يخف، ولا يخفف من العطش والجوع، رغم ملء الطعام وملء الشراب دونما انقطاع.

ومما يوحيه شرب الهيم، كراهة الشرب الكثير أو المتواصل، أو بنفس واحدة، فإن «ذلك شرب الهيم»[2].

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: والنزل ما يقدم للضيف إكراماً له عند نزوله إلى المضيف، فالنزل للراحة والاستقرار، وإذا كانت هي نزلهم التي لا راحة فيها ولا قرار، فكيف إذاً عذابهم في حميم النار، نعوذ بالله العزيز الجبار.

ومن ثم ترى سرداً لبعض البراهين على إمكانية المعاد وضرورته.



(١) وقد يسمى كل من، أو ما يشرب الماء الكثير، هيماً كتلال الرمول الساخنة من حر الشمس، فإنها أيضاً هيم لا تروى من الماء، وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ثلاثة أنفاس في الشراب أفضل من نفس واحدة في الشرب، ويكره أن يشبه بالهيم - قيل: وما اليهم؟ قال: الرمل، وفي نقل آخر عنه: هي الإبل، وهو الموافق لأصل اللغة.

(٢) كما في تهذيب الأحكام بإسناده عن سليمان بن خالد قال. سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يشرب بالنفس الواحد؟ قال: يكره ذلك وذلك شرب الهيم - قال. وما الهيم؟ قال. الإبل.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ
نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن
نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ
(٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ
مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
(٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا
يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا
تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
(٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ

إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الخلق الأول كما تصدقون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١) ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ نا - لم لا تصدقوننا(٢) في الخلق الثاني وإن كان مثله، بل وهو أهون عليه! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٣) فذلك إبداع وهذا تكرار فهو أهون، لو قيس خلق بخلق، ولكن الكل لديه هين على سواء: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾(٤) فلا تفاضل بين قدرته ولا تفاصل، وإنما يحتج علينا بما عرفناه وتعودناه من هين وأهون، إن إعادتنا في المعاد أهون من خلقنا الأول من نطفة ومن تراب، وهو كذلك أهون من خلق المادة الأمِّ لا من شيء، فالإعادة أهون من أصل الخلق بمرحلتين ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؟

ثم الخلق الأول فضل غير موعود، والثاني عدل موعود، عدل لحدّ كأنه غاية الخلق أجمع: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٥) ثم ولو لم يكن غاية فهو عناية واجبة بحكم العقل والعدل، حتى ولو لم يعد به رب العدل، كيف وقد وعد وردّد الوعد على ألسن رسله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٦) ﴿رَبَّنَآ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٢) لولا بمعنى لم لا، في مقام الاعتساف والتنديد، مثل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ [التوبة: ١٢٢].
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٧.
(٤) سورة مريم، الآية: ٩.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٢.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

فتصديق المعاد الحساب الجزاء واجب في أُطر أربعة: إمكانية: المماثلة، إمكانية: الأولوية، الضرورة ذاتياً عقلاً وعدلاً، والضرورة الوعدية ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؟!

هذه هي سنة الله في خلق الإيمان الصادق باستعراض المواد الأولية للكون وإرجاعنا إليها في خلقها وتطويرها، ولكي نتخطى من التفكير فيها إلى ما يتوجب علينا تصديقه، وكما يخلق هذا الكون الغامض من مواده الأولية البسيطة... دون أن يكلفنا الخوض في فلسفات معقدة بعيدة عن الأفكار، غريبة الأوطار، فإن شريعة الله لا تخص الفلاسفة العقليين ولا التجريبيين، بل هي شاملة للجنة والناس أجمعين، كلٌّ يعرفها بقدره، ويستدل لها بقدره، كالماء والهواء المستفيد منهما الناس في أُطر على سواء، وفي أخرى حسب المستطاع، والماء هو الماء والهواء هي الهواء.

يتحدث هنا في آيات ست عن مَن خلقهم؟ وكيف خلقهم؟ وكيف يميتهم ثم ينشئهم؟ وما هو الرباط بين الموت والحياة بدءاً وعوداً، برهنّا هنا وهناك على إمكانية وضرورة المعاد الحساب، مبتدئاً ببرهان قصير في لفظه، كثير في معناه وعمقه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ومن ثم إلى سائر التفاصيل والتعاليل:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩)﴾:

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ منياً، ثم - بعد تطورات جنينية - إنساناً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إياه - منياً وإنساناً.

فمهما كنت أنت الممني، فلست أنت خالق المني، وأين خالق من

---

[1] (١) سورة آل عمران، الآية: ٩.

ممني؟! فإن كنت تحسبك زوراً وغروراً إنك الممني خالقٌ للمني؟ فمم خلقته؟ ومتى! وكم عدد خلياته ذكراً وأُنثى؟ وهل أمنيته لتخلق منه ذكراً أم أنثى أو خنثى أم ماذا؟

فهل من مجيب، ولو من عباقرة الأخصائيين في علم الجنين؟ اللهم كلا! ولقد مضت عشرات القرون حتى كشفنا أخيراً عن النزر القليل الضئيل من كيان المني، وكيف يمنى؟ ومن أين يحمل؟ وماذا يحمل؟ وماذا يُحمّل[١]؟

فليس دورك أنت إلا أن تشتهي فتُمني، ولا صاحبتك إلا أن تحمل المني، ثم تنقطعان عن كل صلة وعملية أو محاولة إلا أخذ الحائطة ألا تجهض، ومن ثم فسائر الصنع وكلُّه للخلاق العليم، وكما صنع المني مما صنع، وأنت لا تعلم منه كثيراً ولا قليلاً، إلا زهيداً ضئيلاً على ضوء العلم إن كنت من أهله ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾؟: المنيَ منياً ثم نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظاماً، ثم كسوه لحماً، ثم إنشاءه خلقاً آخر، أنتم أو نحن؟! (بل أنت يا رب)[٢].

وقد يتحسب الناكرون إن سنة التكوين جرت على خلق الإنسان من مني، ولا توالد فلا مني يوم القيامة يمنى حتى يخلق مرة أخرى!

والجواب أن خالق الإنسان من منيّ يمنى، قادر أن يخلقه من حالة أخرى، وكما خلق الإنسان الأول ولا مني يمنى، فإذ تصدقون أنه الخالق في الصورتين بمني ودون مني، فما يمنعكم من تصديقه في خلقه مرة أخرى، فآية الخلق العام: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ...﴾ للتدليل على إمكانية ولزوم المعاد،

---

(١) راجع من سورة العلق من الجزء الثلاثين.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٦٠ - أخرج جماعة عن حجر المرادي قال: كنت عند علي عليه السلام سمعته وهو يصلي بالليل يقرأ فمر بهذه الآية ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] قال: بلى أنت يا رب.

وآية ﴿مَّا تُمْنُونَ...﴾ دليلاً على عدم انحصار خلقه في كيفية خاصة، فإنه الخالق على أية حال: يخلقكم في آخر حال كما بدأكم أول مرة ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[1].

فهذه رؤية، وإلى رؤية أخرى:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ...﴾[2] رؤية أخرى في ما تمنون تجعلكم تصدقون بيوم الدين، فلقد تسلل المني من أجزاء البدن، التي هي كلها حية حياة الإنسان، وبانفصالها عنها تموت عن هذه الحياة، وباستقرارها في الرحم وتنقلاتها من حالة إلى أخرى ترجع إليها في صورة إنسان آخر حياة أخرى تماثل الأولى، فكما الله يحيي هنا ويميت ثم يحيي مرة أخرى، كذلك وأحرى في الحياة الأخرى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾!

وإذا كانت الحياة بتقديرها من الله، فهل الموت وهو انتهاء دور من الحياة ليس بتقدير الله؟ ولكي يكون مسبوقاً لا يقدر على إعادتها:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

فهو السابق في الإحياء، ثم الإماتة، فكيف يكون مسبوقاً عاجزاً عن تحقيق ما قدره من آجال، دون تقدم لها ولا تأخر: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[3] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا...﴾[4] ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٢) الفاء هنا وفيما بعده تفريع للأدلة الفرعية للمعاد على دليل الأصل ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧].
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٥.

أم كيف يكون مسبوقاً على تبديل أمثالهم وإنشائهم فيما لا يعلمون؟

إنه سابق هنا وهناك، وفي كل تحقيق وتبديل وإنشاء كما يشاء! دون سبق عليه في سباق استباق الآجال، ولا سباق تناثر الأبدان بعد تحقق الآجال، ولا سباق ضلال الأجزاء وتناحرها، ولا سباق أصل الموت، فلا تتغلب الأسبابُ وتسبقُ مسببَ الأسباب، دون تحقيق ما توجَّب ووعده من تبديل الأمثال والإنشاء الجديد، فليس الموت خارجاً عن تقديره، أو أنه بتقدير غيره، حتى يكون مسبوقاً في حوادث الموت، فتفلت عنه أزمة الإحياء بعد الموت، بل هو سابق كافة الأسباب في الحياة وفي الموت، فكذلك الإحياء بعد الموت، دون أن تسبقه الأسباب التي هي من أمره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ . . . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[٢] تقدير صالح يخلفه الجزاء بعد الإنشاء، فالموت الفوت الذي لا نشأة بعده، إنه موت الفوضى، لا يتأتى من الحكيم العليم، وإنما هو التقدير الناحي منحى الإنشاء في خلق جديد.

وترى ماذا يعني تبديل الأمثال؟ المبني عليه تقدير الموت؟ هل إنه تبديل كل سلف بخلفه: ﴿. . . إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾[٣]: نبدلهم خيراً منهم يخلفهم؟ فليس تقدير الموت ينحو

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ [الواقعة: ٦١] متعلق بـ: قدرنا ومسبوقين، فتقدير الموت هو على الإنشاء الآتي، وليس مسبوقاً على الإنشاء الآتي. . . قدرنا. . . على أن نبدل، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل. . .

ومما يبرر الإتيان بـ(على) للمتعلق الأول ﴿قَدَّرْنَا﴾ وإن كان في الثاني ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ أيضاً وجه في (على) هو التدليل على عدم المغلوبية، فـ(على) إثباتاً تدل على الغلبة، ونفياً تدل على عدم المغلوبية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] على أمرنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] تأمل.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٤٠، ٤١.

إلى هذا التبديل، وإنما هو تقدير الحياة والموت مع بعض، على أنه تبديل بالأمثال لا تبديل الأمثال.

أو أنه تبديل كل منهم بمثله في النشأة الأخرى، تبديلاً بنفسه في صورة وحالة أُخرى، لا تبديلاً ببديل غيره: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[1]: بدلنا أمثالهم تبديلاً تجهلونه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإن كنتم تعلمون أصل الإنشاء درساً من النشأة الاولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[2] فـ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ...﴾ ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ...﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: فإن تبديلكم أمثالكم غرض من تقدير الموت، وهو مقدور لنا ميسور.

فليس الهدف من تقدير الموت انقطاع الحياة وحصول الفوت، ولا أننا مسبوقون مغلوبون في التبديل والإنشاء، بل المنشأ في النشأة الأخرى، والمثل المبدل إليه، خير من النشأة الأولى صفاءً فبقاءً: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3]: يوم تبديلهم خيراً منهم أبداناً، صفاءً فبقاءً، فشراً لهم عقاباً وجزاءً.

إن المخاطبين في آيات تبديل الأمثال ليسوا هم الحاضرين يوم نزول القرآن، بل الأولين والآخرين المجموعين إلى يوم الدين، فهم أجمعون يبدّلون أمثالهم، التي هي خير منهم، كما وهم أجمعون ينشأون فيما لا

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٨١.
(٣) سورة المعارج، الآيات: ٤٠-٤٢.

يعلمون[١] لا أن كل جماعة تبدَّل مثلَها أن يخلفها مثلُها فإنه تبديل بالمثل، وليس تبديل المثل[٢] بل وليس تبديلاً أيضاً فإنه في أصل اللغة تغيير شيء عن حاله، وإنما هو إبدال: جعل شيء مكان آخر[٣].

هنا تبرز حقيقة ناصعة من طيات هذه الآيات، أن المعاد في المَعاد هو مثل الميت، لا عينه فإنه محال، ولا غيره، أو مع أجزاءٍ غيره فإنه خلاف العدل، وهو هرج ومرج، فالبدن المعاد هو هو أصلاً وجوهراً، وليس هو هو وزناً وصورة، فإنه يخلق مرة أخرى في خلق جديد: وهذا الخلق الجديد هو مثل العتيق العتيد مماثلة الشيء لنفسه في حالتين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ...﴾[٤] ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾[٥] فلا إعادة للمعدوم هناك، وإنما نشأة أخرى وخلق جديد هو مثل القديم، خلقاً وجوهراً.

وترى أنه يخلق الروح من جديد، كما يخلق البدن من جديد؟ أقول أجل، ولكن أين جديد من جديد، فجديد البدن هو صورة جديدة عما كان

---

(١) فضمير الجمع هنا وهناك يعني كل الجمع، لا أن الأول يعني المخاطبين (أمثالكم) والثاني كل الجموع (ونشئكم) إلا أن يعني بالجمع الثاني نفس الأول، ويوم الإنشاء الآخر يوم الجمع - لا جماعة خاصة.

(٢) التبديل مما يتطلب مفعولين أحدهما مذكور هنا: أمثالهم، فالأول محذوف هو هم. وإذا كان المقصود جعل أخلاف لهم أمثال فالواجب لغوياً أن يقول أن يبد لهم بأمثالهم، وآيات التبديل والإبدال أقوى شاهد على ذلك: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ﴾ [القلم: ٣٢] ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾ [الكهف: ٨١] بخلاف آيات التبديل التي تنحو منحى تحويل الحال.

(٣) لسان العرب للمنظوري ج ١ ص ١٧٦، كما وفي الآية ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] فهي هي وهي غيرها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠] بخلاف آيات الإبدال كما مضت.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

(٥) سورة ق، الآية: ١٥.

بدناً دون روح، ولكن جديد الروح ليس إحياؤها من جديد، وإنما إحياؤها عن صعقتها وإغمائها وإغفائها إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(١): صعقة الإحياء بالحياة الدنيا، وصعقة الإحياء بالحياة البرزخية، فمن لم يمت حتى الصعقة ليست له حياة برزخية، ومن هو ميت حينها وحي برزخياً، يصعق: فلا هو حي ولا هو ميت، برزخ بين الموت الفوت والحياة البرزخية، وهو آخر رمق من الحياة.

ففي الخلق الجديد تُحيى عن الصعقة الروحُ نفسها، ويخلق البدن مرة أخرى، فيصدق تبديلهم أمثالهم، حقيقة في أبدانهم، وإعادةَ كاملةِ الحياة إلى أرواحهم ورجعها إلى أبدانها.

وهذا نزر قليل من إنشائنا فيما لا نعلم، ندرسه عن النشأة الأولى، وعما يوحيه الله هنا: ﴿. . . نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إن البدن الجديد يشابه القديم: أنه على مثاله، وأنه كان فيه، ويفارقه أنه خلاصة منه، دائبة مع الروح مدى الحياة، قابلة للخلود، بعيدة عن الفساد، بخلاف العتيق البائد غير الخالد، الناقص والزائد، إذاً فالجديد خير من العتيق صفاءً وجلاءً، وإن كان أبلى منه بلاء إن كان من أهل البلاء، ولكنه خير جزاء إن كان من أهله، خيراً على خير.

وقد يروى صحيحاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: سئل عن الميت يبلى جسده؟ قال: «نعم - حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة»(٢) وكما يروى عنه في البدن المعاد: (هي هي وهي غيرها).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢١ ص ٤٣ - ح ٧ وفيه ج ٣٧ ح ٥ «والبدن يصير تراباً منه خلق» أي الطينة المشار إليها في الحديث.

نبذة عن تبديل الأمثال كما يخطر ببال:

إن الروح المفاقة بعد صعقتها تعود يوم القيامة الكبرى إلى شخص هذا البدن الذي صار رفاتاً، تعود إليه بعد خلقه ثانياً على مثال صورته الأولى، متخلصاً متحللاً عما زاد على أجزاءئه الأصيلة، التي خلق منها أول مرة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(١) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(٢) فالعود على مثال البدء في خلق أول إنسان، وكل إنسان.

فكما أن كل إنسان مخلوق من سلالة من طين وهي الماء المهين (المني) وهو سلالة وصفوة من كافة أجزاء الإنسان، التي هي سلالة من مختلف الأغذية، التي تسللت أولاً من طين تحول غذاء نباتاً وحيواناً، فالمني إذاً سلالة من طين، من طيات هذه التحولات، ومن ثم النطفة سلالة من هذا الماء المهين، تجعل في قرار مكين من المبيض، لكي تنمو وتصبح جنيناً بعد طي مختلف الصور خلقاً بعد خلق، وهذا في الخلق الأول لكل إنسان إلا الأول.

فكذلك حين العود إذ تُصطفى من طينه سلالة، ومنها سلالة أُخرى، تتخلص في الأولى عن الأجزاء الملتحقة بها طول الحياة، وفي الثانية عن ثقل البدن الدنيوي لحدٍّ يصلح للخلود في دار الخلود، بريئاً عن المرض والموت وسائر العوارض الطارئة عليه يوم الدنيا، وحيث إن ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(٣) يكمل المطلوب في العود كما البدء: إن البدن المُعاد في المَعاد سلالة من سلالة من طين الإنسان، يخلق من الطينة التي خلق منها أول مرة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

وكما الإنسان الأول خلق من صلصال من حمإ مسنون وطين لازب كالفخار، وكل ذلك دون تحول التراب منياً ثم جنيناً، ودون مكوث الرحم طيلة شهور، فكذلك إعادته خلقاً ثانياً في المعاد، فيصير طينه حمأً صلصالاً: طين أسود نتن صلب، فيبرئه الله ويصوره كصورته الأولى كالفخار، قضية مماثلة العود للبدء، فتتم الإعادة كما بدأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[1].

وهل الأمثال المبدل إليها من المِثْل أو المَثَل؟ قد تؤيد المِثل آيتُه: ﴿... قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وكما يجب أن يكون البدن المعاد مثل الأول وإن في الأصل، ولكنه مِثلٌ مَثَل: فلو كان مِثْله فقط وجب حمله ما كان يحمله دون زيادة ولا نقصان، ولو كان مثله فقط جاز أن يدلّ عليه بمشابهة وليس منه في شيء، وليس هذا إعادةً وتبديلاً عادلاً، وإنما البدل العادل هو المِثْل المَثَل: مَثَل يدل عليه علامة له وآية، ومِثلٌ أنه يحمل منه الأصل مادةً والصورة كما يحق، فالأمثال المبدل إليها تجمع المِثل والمَثَل، ويا له جمعاً ما أحسنه وأعدله.

وأحرى الأمثال يوم المعاد أمثال السيرة والأخلاق، التي تتحول صورةً، وأمثال الأعمال والأقوال التي تبقي في أعضائها وأجوائها، ومن ثم تشهد معها لها أو عليها.

هذا من تبديل الأمثال في الأخرى، كما وأن هناك تبديلاً للأمثال في الأولى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ...﴾ إذ يأخذ المني من الأصلاب والترائب، ثم يخلق منها أمثالكم. فإذ خلق من منيك مثلك، فقد خلقك مثلك، وكذلك الله يخلقك مثلك من منيك وطينتك يوم القيامة، وإن كان فرق بين مثل ومثل، فهنا من منيك مثلك ولداً لك، وهناك منيك الذي خلقت منه أول

(١) راجع (عقائدنا) بحث مقارنات المعاد ص ٢٧١ - ٢٧٨.

مرة، تخلق منه مرة أخرى مثل الأولى، فما أوضحه مثالاً خلق الأمثال يوم الدنيا بخلق الأمثال في الأخرى!

فكما أن ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ كم ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ في الأولى ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في التطورات الجنينية، كذلك وأحرى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ كم ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ في الأخرى ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلتدرسوا للنشأة الأخرى من الأولى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

درساً في مرحلتين من النشأة الأولى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ...﴾ درس الأولوية في المرحلة الأولى ولأن النشأة الأخرى أهون منها وأحرى، ودرس المماثلة التامة في المرحلة الثانية: خروج المني من الأجزاء الحية وانفصاله عن الحياة الإنسانية، ثم رجعه إليها عبر التطورات الجنينية، دروس حاضرة حاذرة من كتاب تكوينكم تذكركم النشأة الأخرى.

فـ«عجب كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى»[1]!

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾:

هنا زرع وهناك حرث، وأين حرث من زرع؟ فالزرع هو الإنبات ولا مُنبت حقيقة إلا الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ...﴾[2] ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ...﴾[3] ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[4]

(١) أصول الكافي بإسناده إلى أبي حمزة قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول:
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

﴿يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾[1] فإنشاء الزرع وإنباته، وجعله وإخراجه، إنه من الله، مهما كان حصده وقطعه من خلق الله، وإذا ينسب الزرع إليهم أحياناً بتلميح دون تصريح: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾[2] فإنما هي نسبة مجازية توسعية لأنهم يبذرون وقد يسقون ويصلحون، دون حول ولا قوة فيه إنشاءً وإنباتاً إلا بمشيئة الله، فلو شاء لم تبدأ رحلتها، ولو شاء لم تتم نباتها ونماءها، ولو شاء لجعلها حطاماً بثمارها، أو قبل أن تؤتي ثمارها: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا...﴾: هشيماً متفتتاً متكسراً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: تتعجبون يائسين مما أُصيب به زرعكم وتتحدثون قائلين: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾: مخسرون فيما بذرناه وبذلنا لزرعنا إذ خاب سعينا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: عن نصيبنا من رزق أو عن رحمة الله.

فلو أنكم أنتم الزارعون، فلماذا تحرمون منه أنفسكم وتُغرمون؟ فما الزرع إلا من عند الله العزيز الحكيم، يمنحكم ثمره ويسمح لكم خيره، أن يسَّر البذرة في رحلتها الناجحة كما فعل فيما تُمنون بأدواره الجنينية وقبلها، حذواً بحذوه فـ «لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت»[3].

ولتأخذوا درساً من البذرة المزروعة التي تحصدون، أنكم كذلك في القيامة تحصدون، فبذرة الحياة الدنيا لا حصاد لها وافياً إلا اليوم الذي فيه تحشرون.

وكما أن البذرة الميتة نباتياً تُحيى مع الماء والأرض، ثم تموت، ومن ثم تحيى مرة أخرى ومرات في كل حصدة وزراعة، فلولا تصدقون أن الله الذي أحياكم ثم يميتكم، أنه سوف يحييكم لكي تَحصُدون بعدما تُحصدون؟ ولتجزى كل نفس بما تسعى.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) الدر المنثور ٦: ١٦٠ - أخرجه جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ..

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ يختص هنا بالذكر بين سائر الماء، لأنه أصل الحياة المباشرة للإنسان، ثم بواسطة النبات والحيوان حياة ثانوية مكملة لها.

فهل أنتم الشاربون أنزلتموه من المزن: السحاب المثقل بالماء، أم الله؟ فمن هذا الذي يزجي سحاباً من أبخرة المياه فيبسطه في السماء، ويسقي به من يشاء؟ ومن الذي خلق عنصر الماء من قبل وحوّله إلى مختلف الحالات، وجعله أصل الحياة؟ أنتم أم الله؟ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؟.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾: بدل العذب الفرات: مالحاً مراً حاراً بأشده لاهباً ملتهباً كالنار، حاملاً لعنة الموت لا رحمة الحياة، يؤج بكم إلى عجيج الصرخات[١]، ولكنه جعله لكم عذباً فراتاً سائغاً شرابه، مهما جعل من دونه ملحاً أجاجاً لغير الشرب من مصالح الحياة ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٢].

وكما أن هذا الماء يحمل الحياة، بضمة - وهو ميت - إلى أجزاء ميتات، فلولا تصدقون أن الله يرسل هذا الماء إلى رميمكم ورفاتكم فيرجعكم إلى الحياة؟. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: عقلياً أن تصدقوه في نبإ المعاد، وعملياً أن تقدموا خيراً لأنفسكم ليوم المعاد؟

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

علّ ذكر المني والماء والنار يوحي بأن النشأة الأخرى سوف تكون في إطار هذا المثلث، أن الله يحييه من النطفة التي منها خُلق، وهي الطينة

(١) هذه كلها معاني الأجاج كما في لسان العرب لابن المنظور الإفريقي.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٥.

الأصيلة المخلوق منها الجنين، الباقية طوال الحياة، الحاملة كافة الأعضاء، هذه! دون الزوائد الملتحقة بها من هنا وهناك، والمنفصلة عنها كذلك إلى هنا وهناك، يرسل الله الماء بالنار على هذه الطينة فيحييها كما خلقها أول مرة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾![1].

إن النار متاع للحياة كما الزرع والماء متاع، قواعد ثلاث تتبنى الحياة متناصرة في مختلف الحقول، نباتية وحيوانية وإنسانية أم ماذا؟ فما هو دور الإنسان بشأن النار؟ اللهم ليس إلا الإيراء: إيقاد الزند - الناجح، دون الكابي، فهل للإنسان إلا إيقاد النار بوقودها الأصيل: شجرة النار - كما يصنعه البدائيون - أو غير الأصيل كسائر الوقود المصطنع - كما يفعله المتحضرون -؟

وكما النار تشمل سائر النار، وإلى نيران الكهارب والأوكسيجين وسائر الإشعاعات النارية والنووية، كذلك شجرة النار، التي تتشجر فتتسعر منها النار، من الشجر الأخضر وإلى غيرها من الشجر: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[2].

تختص النار هنا بالشجرة الأخضر، وهناك تعمُّ الشجر، وليس اختصاصَ الانحصار، إنما الذي يعرفه كل إنسان، وإلا فما من مادة إلا وتحمل ناراً، من عناصر وجزئيات وذرّات، ومن ثم بتفجراتها على ضوء العلم تتوقد مختلف النار، كهربياً وذريّاً أم ماذا؟.

فكما أن من احتكاك فرع من شجرة بفرع من شجر آخر تورى نار، كطريقة بدائية بادئة في إيراء النار، كذلك سائر النار بسائر الإيراء من سائر الأشجار.

---

(١) نبحث عن المادة المعادة في المعاد في مجالات أوسع إن شاء الله.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.

ثم هناك وقود أول ووقود ثان وإلى سائر الوقود، من شجر الإيراء، ومن حطب وزيت وبترول أم ماذا؟ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أنت يا رب! ولماذا؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾: لإمكانية المعاد، فكما أنها من أصول الحياة في المبدأ، كذلك هي في المعاد، أن تتعاون مع الماء في الطينة فيرجع كل ببدنه الأصيل! فهذه تذكرة.

ومن ثم تذكرة لنار المعاد، التي تورى على من قدمتها يداه، وأن الله ليس بظلّام للعبيد...

﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: أقوى: دخل في قَواء: مفازة، وهي كذلك من الأضداد من القوة نفياً وإثباتاً. فالغني مقوٍ لكونه ذا قوة، والفقير مقوٍ لكونه بلا قوة، ثم المفازة قد تكون مفازة الأسفار القريبة من هنا إلى هناك دنياً، أم سفر بعيد من الدنيا إلى الآخرة، فالدنيا إذاً كلها مفازة وقواء، كما وأن أصحابها كلهم ذوو قواء: فقراء وأغنياء، مفازة واسعة - زماناً ومكاناً - يتجول فيها الخلق أغنياء وفقراء، ويجتازونها إلى الساهرة على سواء.

فالنار التذكرة للخلق أجمعين، هي أيضاً متاع للمقوين، في سفر قريب أم بَعيد. المقوين الواجدين القوة والغنى، والمقوين الفاقدين لهما أو إحداهما، فالحاجة إلى النار حاجة عامة للناس أجمعين، مستضعفين كانوا أم مستمتعين، وعلى حد تفسير الرسول الأمين ﷺ: «لا تمنعوا عباد الله فضل الماء ولا كلاءً ولا ناراً، فإن الله تعالى جعلها متاعاً للمقوين وقوة للمستضعفين وقواما للمستمتعين»[1]. مهما كان مقوي الدنيا في مفازاتها أحوج إليها.

(١) الدر المنثور ٦: ١٦١ - أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن واثلة قال قال رسول الله ﷺ: ...

وعلى ضوء هذا التنبؤ من نبينا العظيم وكما تتحمله الآية، يرجع ضمير التأنيث في ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ إلى مثلث أصول الحياة: الماء والزرع والنار، فهي متاع للمقوين: أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، الكائنين في قَواء: مفازة لا تفوز بالحياة إلا بها، وإلا فهي قفر، إذ لا ماء فيها ولا نار ولا كلاء، ومن ثم فلا حياة فلا إنسان.

فمتاع هذا المثلث ظاهر، فما هي تذكرة الزرع والماء؟ إنهما تذكران إمكانية المعاد، الذي يضم هذه الأصول في المُعاد!.

ولأن الله يذكّركم بالقيامة وطامّتها قبل أن تأتيكم، ويبرهن لكم إليها بما لا مزيد لها قبل أن تأتوها، وينعم عليكم بوافر النعيم في الأولى لكي تتمتعوا بها وتقدموا للأخرى:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

نزِّه ربَّك العظيم عما ينافي الربوبية العظيمة، نزِّهْه مستعيناً باسمه العظيم[1]، فربك عظيم واسمه عظيم لأنه يدلك على عظيم ربوبيته، ولكنك لا تستطيع تسبيح ذاته بذاته، إذ لا تحيط به علماً، فسبِّحه باسمه العظيم وكل اسمه عظيم. فقل: (سبحان ربي العظيم)[2] لا فحسب تسبيحاً في المقال، فكذلك في الإيمان والحال والأعمال، أن تصبح حياتك تسبيحاً باسم ربك العظيم، أو تتحول إلى اسم الرب العظيم، كما وأن أولياءه المكرمين هم من أسماء الله الحسنى، يدلون على الله ويقربون إلى الله.

﴿فَسَبِّحْ﴾ ربك العظيم ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عن الفوضى اللاغاية

---

(١) على أن الباء في (باسم) للاستعانة كما هو الأظهر دون تكلف زائد. فالقول إنها زائدة قول زائد، وغيره بمعنى غيره لا يلائم الآية.

(٢) من لا يحضره الفقيه، والمجمع - صح عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية، فقال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم.

الصالحة من الخلق، العابثة بهم، فلا يحشرهم للحساب الجزاء، وسبحه باسمه عن الحساب الفوضى يوم الحساب، وعن كل ما لا يليق بعظمة الربوبية الفاضلة العادلة بغير حساب.

وتُرى هل يختلف ﴿رَبِّكَ﴾ عن «رب العالمين» أفهناك أرباب متشاكسون؟! كلا! وإنما يوجه الخطاب هنا - على أوجه الوجوه - إلى أعظم أسماء الربوبية العينية: الرسول الأقدس محمد ﷺ، فباستطاعته أن يسبح ربه باسمه العظيم، وهو أيضاً من اسمه العظيم، وهو أعرف من سواه باسم ربه العظيم: رب عظيم واسم عظيم، يسبح به رسول عظيم، ولكي يكمل التسبيح فيقتدي به من سواه من العالمين.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾:

تحدثنا عن اللاقسم في مواضعها، وأنه حقاً نفي للقسم لا قسمٌ، إيحاءً بالاستغناء عنه لما له يُقسم. وإن كان القسم عظيماً فإن المقسم له أعظم وأغنى، فكرم القرآن وسعته، الزاهر المتظاهر اللامع، أظهر من مواقع النجوم وألمع، لمن كان له بصر، فما هي هذه النجوم بمواقعها، التي يستعظم الله أن يقسم بها، وإن كان لما هو أعظم منها؟.

ترى أنها نجوم السماء: الكواكب الطالعة فيها، الآخذة مواقعها، رصداً للراصدين، وهداية للمهتدين[1]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى

---

(١) أصول الكافي بإسناد القمي عن مسعدة بن صدقة قال قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال الله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: عظم أمر من يحلف بها.

أقول: يشهد على ما في المتن إذ كان المقصود كل النجوم، والحديثان كما ترى صريحان أنه نفي للقسم، خلافاً لمن يحاول تحويله إلى القسم تحميلاً لا يتحمله القرآن.

﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(١)]؟ ونجوم القرآن أهدى، وهدايتها أعمّ وأبقى! فلماذا يقسم بها كمثال لإثبات كرم القرآن وسعته في هداه، وزهرته وعُلاه؟.

أم هي هي النجوم يوم قيامتها، الساقطة الواقعة في مواقعها[(٢)]، المطموسة عن كيانها: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[(٣)] ولماذا يقسم بها لنجوم لا تسقط ولا تطمس؟ فيوم القيامة يوم تظهر نجوم القرآن بحقائقها مهما كذبوا بها من قبل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[(٤)]!.

أم هي نجوم من السماء، هي رجوم لمسترقي السمع بالملإ الأعلى، آخذة من أهدافها من مواقع الشياطين، ثاقبة لهم وداحرة[(٥)]: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾[(٦)]؟

ولماذا يقسم بها لنجوم القرآن وهي أدحر وأثقب للشياطين، كما هي أهدى وأنور للمؤمنين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٧)].

أم هي آيات القرآن، النازلة نجوماً، بعد أن نزلت ليلة واحدة، على قلب الرسول الأقدس ﷺ أعلى موقع لنزولها، ثم تتحول إلى مواقع أخرى من قلوب السابقين إلى دعوته، ثم أصحاب اليمين، ثم إلى الناس أجمعين؟

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٢) من موقع اسم زمان واسم مكان، زمن وقوعها ومكانه.

(٣) سورة المرسلات، الآية: ٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(٥) مجمع البيان روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن مواقع النجوم رجومها للشياطين فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه: «فلا أقسم بها»، أقول هنا: المواقع جمع موقع اسم مكان وكما هو كذلك في الاحتمال الأخير، ولعله جمع موقع اسم مصدر ولكي يشمل معنى اسم المكان والزمان.

(٦) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

فنجوم القرآن نجوم هداية للجنة والناس، ورجوم على النسناس[١].

وهل يقسم بنجوم القرآن لإثبات كرم القرآن؟ قد يجوز وهو أحرى! فإنه من برهنة الشيء على نفسه، فكما الشمس تدل على نفسها، وهي أحرى شاهد لها، كذلك نجوم القرآن بمواقعها، القلوب الواقعة هي فيها، الواعية لها، إنها تدل على ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ هنا، لا قسمٌ ضمّن فيها القسم[٢] لا بمواقع النجوم كلها، وإنما بنجوم القرآن، ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: عظيم في دلالته، عظيم في جلالته، عظيم في معناه، عظيم في هداه.

إنه تصريح باللاقسم وتلويح بالقسم بمواقع نجوم القرآن، وما أحلاه تعبيراً، عن لماعة نجوم القرآن وبلاغتها، وكما يروى عن أفضل مواقعها: الرسول الأقدس ﷺ: «.. له نجوم وعلى نجومه نجوم.. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليُجلِ جالٍ بصَره، وليَبلغ الصفة نَظَره، يَنجُ من عَطب، ويتخلص من نشْبٍ، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور..»[٣].

فمهما كان القسم بسائر النجوم عظيماً، لأنها دلالات ظاهرة، وشهادات على عظمة القدرة، وسعة الحكمة لمن يوقعها في مواقعها،

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٦١ أخرجه جماعة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال: القرآن، وفيه أخرج الفريابي بسند صحيح عن المنهال بن عمرو عنه قال قرأ عبد الله بن مسعود ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: بمحكم القرآن فكان ينزل على النبي ﷺ نجوماً، وفيه مثله عن مجاهد، وعن ابن عباس في إخراج آخر في الآية قال: مستقر الكتاب أوله وآخره، أقول: إنه فسر الموقع بمعنى المستقر وهو قريب كما قلناه.

(٢) راجع ج ٣٠ - الفرقان وكذلك الآيات ٦٩: ٣٨ - ٤٣ و٩٠: ١ و٨٤: ١٦ و٧٥: ١ - ٣ و٧٠: ٤٠ - ٤١ - فإنها آيات سبع تحدثنا عن اللاقسم فيها.

(٣) اصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ - الطبعة الجديدة عنه ﷺ...

فيهتدي بها راصدوها، ويندحر مسترقو السمع للملأ الأعلى، وهي إضافة إلى ذلك ظاهرة في أنفسها في طلوعها وغروبها وانفضاضها وانقضاضها، ولكنما حق العظمة وعظمة الحق في الدلالة على كرم القرآن، ليس إلا في نجوم القرآن، وقليل هؤلاء الذين يعلمون، وكثيرون يجهلون، أن القرآن نور ينير لنفسه، فلا يستنير بسواه، وحتى الرسول لرسالته لا يستدل بسواه، فهو نور لمن أرسل به، ونور لمن أرسل إليه، وعلى حدّ تعبير الموقع الثاني من مواقعه: علي عليه السلام : ونور لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقده، وشعاع لا يظلم ضوؤه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا تهدم أركانه.. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغُدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وهدىً لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجُنة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[١].

إن القرآن قبل نزوله كان كوكباً لم يطلع بعدُ على المطالع غير الإلهية، وإنما كان في أم الكتاب لدى الله: ﴿وَإِنَّهُ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] عليّ عن الطلوع لأحد، وحكيم عن أن يطّلع عليه أحد، وإنما بزغ نجماً: - كوكباً طالعاً - لأول مرة، إذ أشرق على قلب الرسول الأمين

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤.

في ليلة مباركة، ومن ثم بزغ نجوماً إذ تنزلت آياته المفصلات، مفسرات للنجم الأول، ثم انتقل منه ﷺ إلى حفاظ سره وخزنة علمه الأئمة المعصومين، ثم منه ومنهم إلى سائر المؤمنين كنجوم الشفاء والرحمة، وعلى الشياطين رجومَ البلاء والنقمة، نجوم أربعة للقرآن الكريم! ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: كيف لا وهو من لدن رب كريم: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1] متحولاً إلى رسول كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2] كريم في آياته، كريم في معطياته، غير ضنين ولا لئيم، فالكرم هو التوسع في المحاسن الكبيرة، فلا يُنقص عن كرمه، ولا يُمس من كرامته فإنه:

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

ترى ما هو الكتاب المكنون، الكائن فيه القرآن الكريم، ليكنّه عما يمسّ منه إلا المطهرون؟ وما هو المسّ ومن هم المطهرون؟.

علّ ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ هو لوح محفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾[3] [4]، وليس في كتاب ثابت عند الله غير لائح لأحد ولا عند رسول الله ﷺ لائحاً له وخلفاء المعصومين غير لائح للآخرين، أو لائحاً لجمع الأولين غير لائح للآخرين، إنما ﴿فِى لَوْحٍ﴾: صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين، من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين، آياته لائحة، بيناته واضحة، ورغم أنه في لوح، وبمتناول الكل، فهو ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾ و﴿مَّكْنُونٍ﴾ عن لعبة اللاعبين، وتحريف المحرّفين، فكيان القرآن أياً كان هو أنه في حفاظ الله وكنانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[5].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠. (٢) سورة الحاقة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٤) راجع تفسير الآية في ج ٣٠، والآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] ج ٢٩.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.

وترى أهو محفوظ كذلك عند من يقرأه عن ظهر الغيب غالطاً أو عامداً، أو يكتبه كذلك وينشره بغية تحريفه؟.. كلا، إنما في ﴿كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ و«كتاب» هو الثابت فليس إلا الحق، فهو قرآن كريم في ثابت بإذن الله، مكنون بكنان الله، آخذاً من أم الكتاب، وإلى كتاب قلب الرسول ﷺ وقلوب ممثليه المعصومين، وكتب ألسنتهم، ثم وكتب صدور الحفاظ، فالغالط يرجع لمّا يظهر غلطه، والعامد يفضح إذ يُرى خلاف ما يَراه الحفاظ والمؤمنون، والكاتب غلطاً، جاهلاً أو عامداً، لا يبقى كتابه سنداً، فريثما ينشر يُدحر، وكما دحر المسلمون القرآن المحرَّف الذي نشره الإسرائيليون، وكيف ينجح قرآن محرّف بين بلايين البلايين من القرائين طول العالم الإسلامي وعرضه، وخلال التفاسير وسواها، وفي صدور الحفاظ وسواهم، حتى ولا كلمة واحدة، أو حرف أو نقطة واحدة، وكما الواقع المجمع عليه من هذا القرآن طوال القرون الإسلامية خير شاهد إيجابي لذلك الكن والحفظ، وواقع الاندحار عن المجموعة الإسلامية لما قد يحاول دسه ونشره وبثه شاهد سلبي على غيره، فمهما سمي قرآناً فليس في كتاب، وإن سمي كتاباً فليس مكنوناً.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فما هو «هـ»؟ وما هو المس؟ ومَن هم المطهرون؟

الضمير الغائب «ه» راجع إلى القرآن أياً كان من محاله ومدارجه: حين ينزل من عند الله، وإذ يصل إلى منزل القلب المحمدي، وحين يُسمع أو يُفهم أو يُمس خطه بلمس، أو ببصر، أم ماذا؟ فلا يمسه في أيٍّ من هذه إلا المطهرون وكما يناسب هذه وهذه.

فقد حمله إذ نزل، المطهرون «المقربون»[1]: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾

(١) الدر المنثور ٦: ١٦٢ - أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: =

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[١]. وكما لا يحمل علمه صافياً دون كدر إلا المطهرون، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، فهم أولاء الذين يمسون حقائقه وينفذون أحكامه كاملة، يمسونه كما يحق دون أن يمسوا منه بباطل.

ومن ثم لا يدركه بعدهم إلا المنوّرة قلوبهم، المطهرة نفوسهم، كلٌّ على قدره، وكما يعيه قلبه و«القلوب أوعية فخيرها أوعاها»، كما ولا يسمع إليه ولا يبصره إلا المطهرون في أسماعهم وأبصارهم، دون الملتهين بالأغاني الملهية، والصور المغرية، فهم لا يتلذذون من القرآن فلا يمسونه سمعاً ولا بصراً، كما لا يتفهمونه معنى وبصيرة، ولا يتذوقونه واقعاً... وإلى هنا «لا» نافية تنفي واقع المسّ هكذا في مختلف المس، كلٌّ على حسبه.

ومن ثم تكون «لا» ناهية تنحو نحو النهي عن مسّه، خطه ورسمه، إلا المطهرون عن الكفر، فلا يمسه كافر، اللهم من يحاول التطهر به، لا مسّه أو المس منه، وإلا المطهرون عن أحداث وأخباث «فلا يمس القرآن إلا طاهر»[٢].

ولا غريب من القرآن أن يجمع بين النفي والنهي في حرف واحد، أو

= ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]. قال: عند الله في صحف مطهرة لا يمسه إلا المطهرون المقربون.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٠-٢١٢.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٦٢ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: ... وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل مثله وعن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده عنه ﷺ مثله. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال في كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم: (ولا تمس القرآن إلا على طهور). وفي الاستبصار بإسناده عن أبي الحسن عليه السلام قال: المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنباً ولا تمس خطه ولا تعلقه، إن الله تعالى يقول: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقِعَة: ٧٩].

أنها نافية تعني في موارد النهي مبالغة النهي[١].

فالطهارة المشروطة في حلية مس القرآن خطأً، تعمُّ الطهارة عن الكفر وطهارة الحدثين، وضوءاً وغسلاً، والطهارة عن أية نجاسة في المحل الماسّ، دون اختصاص بالحدثية، خلافاً لبعض الفقهاء، وفاقاً لإطلاق المس والطهارة. تأمّل.

فـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ مسّ النور والخير، ولا مسّ السوء والشر، فالمطهرون داخلون في مسّه، وغيرهم خارجون عن مسِّه وعن المسّ من كرامته[٢].

كيف وهو مكنون بكنان الله أينما كان!.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾...

إنه كتعليل لعدم مسِّه إلا من المطهرين، فما نزل من رب العالمين كيف يحمله إلى رسله الشياطين؟ أم كيف يمسه إلا من طهرهم رب العالمين، أو كيف يجوز مسّه من غير المطهرين عن أدناس وأحداث وأخباث؟!

نكات وتنبهات:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ ترى هل من نكران لأحد أنه قرآن، حتى يقسم أو لا يقسم تلميحاً بالقسم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾: مقروء!.

علّه لأن الناكر كان ينكر كونه مقروءاً له من ربِّه، على سمعه وقلبه، إذ قالوا ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[٣]: اختلقه من نفسه، ثم نسبه إلى ربه، فإنكاراً عليه يؤكد ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ جواباً عن هكذا قيل.

---

(١) والإتيان بالخبر وقصد الإنشاء عادة جارية فيما يراد تأكيد الإنشاء، فلا يخبر بالنفي هنا فيما ينهى، يعني أنه من المنع لدرجة كأنه لا يقع أصلاً.

(٢) الاستثناء على الأول متصل إذ يمسونه، وعلى الثاني منفصل إذ لا يمسونه.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

ومن قيل إنه قرآن قرأه عليه الشياطين، قرآن لئيم، فيرد عليه ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[1].

ومن قيل ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ ولكن دسَّ فيه ومسّ منه الشياطين، فأصبح محرَّفاً كما فعلوا بالكتب من قبل، فيرد بقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

ثم على ضوء ﴿كَرِيمٌ﴾ إنه كريم كما الله كريم، لأنه أنعم نعم الله وأدومه. ومن كرمه عدم هوانه بكثرة التلاوة والمراجعة، بل هو دائباً غضّ طريّ، لا تزيد كثرة تلاوته إلا طلاوة وطراوة، خلاف سائر الكلام أياً كان، فإنه لا يحلو على التكرار والترداد، وقد يرجع مُرّاً إذا استمر، بخلاف القرآن الكريم: طاهر الأصل، ظاهر الفضل، لفظه فصيح ومعناه صحيح «ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم»[2].

وترى والقرآن هو الكتاب كيف يكون في كتاب، فما هو كتاب وكتاب؟

الجواب: إن الكتاب المكنون هو المكتوب فيه الكتاب، والقرآن الكتاب هو المكتوب، ففرق بين مكتوب ومكتوب فيه، وسواء أكان المكتوبُ القرآنَ المسجل بقلم النور على البيت المعمور: القلب المحمدي أم ماذا، أو كان القرآن المفصل بألفاظه أو معانيه أم ماذا، وإذا كان المكتوب فيه مكنوناً فالمكتوب أكنّ وآمن.

ثم «المطهرون» يعمّ من طهَّروا أنفسهم ونفوسهم فطهرهُم الله تطهيراً، كمن تشملهم آية التطهير.

ومن طهروا نفوسهم فأيدهم الله فيما طهروا، كمن يحذون حذوهم ويتلون تلوهم من الأولياء المكرمين.

ومن تطهروا - أخيراً - عن الأحداث والأخباث، فلو قال «إلا

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٠.

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص ٥٩٨ عن النبي ﷺ.

المتطهرون» لم يشمل إلا الآخرين، وأما «المطهرون» فهو يشمل الأولين والآخرين، لأن الطهارة فيها تعم الثلاث[١].

ثم ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يخص القرآن المفصل النازل نجوماً، بعد المحكم النازل ليلة القدر[٢] مما يدل على عدم اختصاص الكتاب المكنون بالقرآن المحكم، بعد نزوله، عند النبي، أو قبله عند الله، أنه مكنون عند الله وعند نبي الله فقط لا! بل هو محفوظ أينما حلّ وارتحل، وإلى القرآن المفصل، عند النبي وعند المؤمنين وإلى يوم الدين[٣].

وبما أن مسّ القرآن باللسان من أخفى المسّ وأخفه، فالنهي عن هكذا مسٍّ للمحدث، ألا يقرأه على حدث، منع خفي ينحو منحى الكراهة، وهو إيحاءٌ لطيف استوحاه المطهرون المعصومون كما هو دأبهم في فقه القرآن.

والكراهة هنا هي قلة الثواب، تحريضاً على التطهر فالقراءة، ليدرك كامل الثواب.

* * *

ومن ثم، وبعد ذلك كله في نجوم القرآن، أفتستقبلون رجومه؟

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: حديث الله وآياته «تدهنون»: تتهاونون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[٤] ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٥] ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦].

---

(١) التطهير الإلهي، والتطهير البشري، وما بينهما من تطهير إلهي وبشري.
(٢) لأن التنزيل هو النزول التدريجي بخلاف الإنزال فإنه دفعي.
(٣) راجع سورة القدر ج ٣ من الفرقان.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٦) سورة القلم، الآية: ٤٤.

ورغم أن حديث القرآن رزق رزقتموه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ منه ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: تبديلاً بنعمة الله نقمة وكفراً: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١) أتهرباً من نعمة الله وحرباً مع الله.

إنكم لا تدهنون بالكفر والفسق وأي باطل، ثم تدهنون بحديث الله وآياته التي هي رزقكم في المثل العليا، فأُفٌّ لكم كيف تحكمون!.

أفتكذبون الله أنه يقدّر الموت، وليس بمسبوق فيه، ولا في أن يبدلكم أمثالكم وينشئكم فيما لا تعلمون فيدينكم بما كنتم تعملون، فلولا تدرؤون عن أنفسكم الموت أو ترجعون الأرواح إذا بلغت الحلقوم:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

هل إن الله أقرب إلى المحتضر أم أنتم؟ انه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بل ومنه أيضاً: قيوماً بحيطة العلم والقدرة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: لا رؤية البصر: أنتم ولا أي محتضر، فإن هذا القرب ليس من المبصر، ولا رؤية البصيرة اليقين إلا من المحتضر، آمن أو كفر، إذ يجد نفسه بين يدي من هو أقدر منه وأقرب إليه منه، وأما أنتم الناكرون، الناظرون إلى المحتضر فلا تبصرون لا بالبصيرة ولا بالبصر، فهلّا تذكرون من المحتضر أنه على نفسه ليس أقدر من الله وسوف يأتي دوركم على سواء.

وإذ ليس الله أقرب إليه منكم، وأنتم أقرب إليه، وتحبون حشره ورجعه! ﴿فَلَوْلَآ ... تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في نكران الدينونة الحساب؟

﴿فَلَوْلَآ ... تَرْجِعُونَهَآ﴾ الروح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾: ﴿إِذَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١١.

بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ...﴾[1] ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إلى المحتضر يستغيث بلسان القال أو الحال، وهو ممن يخصكم، أو ينفعكم رجعه إلى الحياة لتجربوا أنكم أنتم السابقون لو تزعمون ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غير محمولين على مكروه موتاً أو سواه، أو كنتم غير عباد عاجزين، أو غير مجزيين بأعمالكم[2] ﴿فَلَوْلَآ ... تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في هذه الدعاوي الزور، وفي عدم دينونة الحساب، فمن يدين بأنه مدين لا يدعي سبقه على رب العالمين في تقدير الموت، فلا يفكر ولا يحاول في رجعٍ أياً كان، ولكن الذي لا يدين بأنه مدين، لأنه ناكر سبق الله في الحياة والموت وفي تبديل الأمثال بعد الموت، فليدرأ الموت وكل سوء عن نفسه وعمن يخصه:

﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] ﴿فَلَوْلَآ ... تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟

فالله هو السابق في الموت وفي الحياة، في المبدأ والمعاد، وعدله يفرض المعاد الحساب، والجزاء الوفاق.

أضواء في طيات هذه الآيات:

١ - ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾: في هذه اللحظة الحاسمة الجاسمة، إذ تولى الروح وراءها الدنيا وتستقبل الأخرى دون أن تملك من أمرهما شيئاً إلا ما قدمت من صالحات وأخرت، وقد انفصلت عمن حولها وما حولها من مالِها ومالَها!

٢ - بلوغ الروح التراقي والحلقوم دليل قاطع لا مرد له على عدم

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) المفردات للراغب، يذكر هذه المعاني الثلاثة للمدين.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

تجردها عن مادة مّا، فالمجرد عنها ليس له مكان لا خارج البدن ولا داخله، فأين الروح المجردة في البدن حتي تبلغ الحلقوم ثم تخرج؟

٣ - يبتدىء خروج الروح من الرجل إلى الحلقوم ومن ثم تخرج، وليس كما يزعم أنها تخرج من المخرج، وإلا لم يكن بلوغها الحلقوم حالةً للاحتضار.

٤ - إن الله أقرب إلى المحتضر ممن سواه، وأقرب إليه من نفسه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾(١) واقع معقول وملموس، وفي حياتنا اليومية، فهو أقرب إلى الكائن - أياً كان - من نفسه: كياناً وكوناً وقدرة وعلماً وعزماً وتصميماً فـ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾(٢) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٣) فإن كنت أنت أقرب إلى نفسك، أو غيرُ الله أياً كان فلماذا تغلبون في مصالحهم ولا تغلبون، كلا! ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ رغم البصائر المتكررة المبصرة لكم فأنى تصرفون!

٥ - فالرجع كالبدء بيد الله، يقدر كيف يشاء ويميت ويحيي ثم إليه تُقلَبون: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾(٤).

حين تقف قدرة الإنسان - أو أياً كان - وكل محاولاته، يقف علمه وينتهي دوره المختار، فتنفرد القدرة الإلهية وعلمه وأمره ويخلص الأمر كله لله وهنالك يخسر المبطلون ﴿فَلَوْلَآ ... تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾:

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

جولة ثانية تختصر الأولى، وتزيد عليها في الجزاء بين الموت والمعاد، فالأولى تستعرض الجزاء منذ القيامة الكبرى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ . . . فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾. وهذه تستعرضها منذ الاحتضار والموت وإلى القيامة، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

في هذه الجولة نرى المقربين في مثلث الرحمة، علَّه الروح والريحان للبرزخ، وطبعاً جنة نعيم وهي الخلد للآخرة[١]، كما وإن المكذبين الضالين في مثنى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ علّها للبرزخ، و﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وليست إلا للآخرة[٢] ومن ثم لأصحاب اليمين وهم الأمة الوسطى بينهما، واحد يعم سلام الإكرام والإنعام، منذ الموت إلى يوم القيام.

وترى ما هما الروح والريحان؟ إن الرَّوح والرُّوح من أصل واحد، ثم اختص الثاني بالنفس، والأول بالنَّفَس المتنفسّ، وهما ما به الحياة، حياة الأصل للرُوح، وحياة النزهة للرَوح، فالمقربون يتنفسون بالموت عن خنق ما كانوا وحنقه، ثم يزيدهم رُوحاً ورَوحاً وريحاناً، وعل الرَّوح هنا رحمة نفسانية روحانية، ونسمة من جنة الرضوان، ونفحة من معرفة الرحمن، ويا لها بوحدتها من روح وريحان، ثم الريحان عِطرٌ يعطر المشام، ويذهب بعفونة الأيام.

ثم وما هو ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؟ علَّه يوحي بحالة مرضية لهم تُطمئن النبي ﷺ بسلام له منهم وسلوان، فلا يضطرب بما قد اقترفوه من آثام، فقد حوّلهم الله من لا سلام إلى سلام، إذ كفَّر عنهم سيئاتهم وأدخلهم

(١) أمالي الصدوق بإسناده إلى موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في حديث: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ يعني في قبره ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ يعني في الآخرة.

(٢) أصول الكافي وأمالي الصدوق بهذا الإسناد ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣﴾ يعني في القبر ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ يعني في الآخرة.

مدخلاً كريماً، وبدَّل سيئاتهم حسنات فأصبحوا في سلام وسلوان، في رحمة وغفران، فمنهم لك سلام، عطاء من ربك وإنعام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وترى لماذا (سلامٌ) وليس (السّلام)؟ قد يكون تنكير السّلام له منهم لإثبات أصل السّلام، دون أن يناحره شيء من اللاسلام للأدنين من أصحاب اليمين، الذين قد يذوقوه في فترة البرزخ، ولو زاد ففي بداية القيامة، أم لو زاد فمصيرهم الأخير الجنة مهما ابتلوا هنا وهناك، إذاً فحالهم مرضية للرسول الشفيع الأمين، وبشفاعته وذويه يخرج غير المخلدين عن الجحيم، وهم أدنى أصحاب اليمين.

ثم الرعيل الأعلى منهم لهم السّلام كل السّلام دون عذاب ولا بلاء، ثم المتوسطون بين الأولين والآخرين لهم وسط من السّلام ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ مهما اعتراهم من غير سلام.

كما وأن روح المقربين وريحانهم وجنتهم النعيم درجات حسب الدرجات، فلأفضل المقربين الرسول محمد ﷺ فضله على سواه، لحدّ يحتاجه في الزلفى من سواه.

كما وأن للمكذبين الضالين دركات في نُزُل من حميم وتصلية جحيم «حتى انصرف المشيع ورجع المتفجع، اقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال وعثرة الامتحان، وأعظم ما هنالك بليَّة نزول الجحيم وفورات السعير وسورات الزفير، ولا دعة مزيحة، ولا قوة حاجزة، ولا موتة ناجزة، ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات»[1].

ثم وتصلية جحيم هي إيقادها بوقود أجسادهم وأرواحهم الجهنمية:

---

(١) نهج البلاغة للسيد الرضي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: ...

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1] فسائر أهل النار وهم هوامش الضلالة يحرقون بنارهم كما احترقوا يوم الدنيا، ثم ومنهم من ينجو مع الناجين فيلحق بأصحاب اليمين، ومنهم.. ثم لا يبقى في النار إلا الوقود حتى يتم جزاءهم الوفاق، ثم تخمد النار ويموت الوقود، المؤبدون ثم لا يحيون.

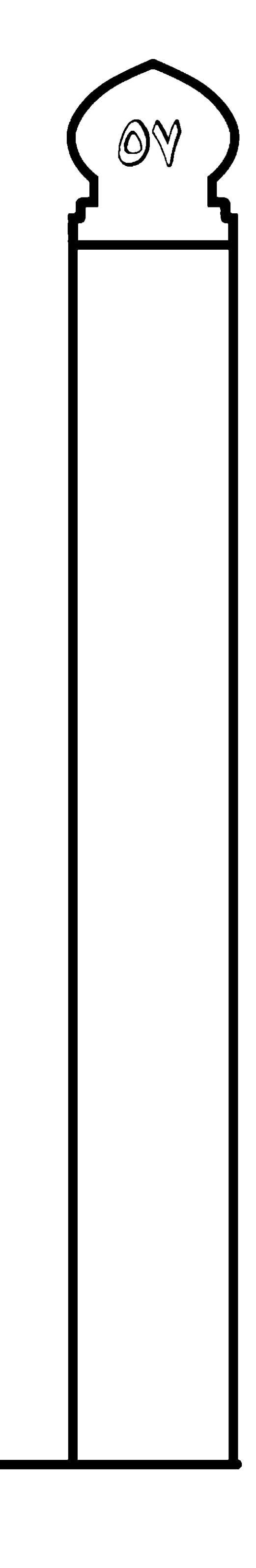
﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾[2] لا علم اليقين فقط ولا عين اليقين، وإنما حق اليقين، الذي ليس فوقه يقين، و﴿هَٰذَا﴾ هو الله، وهو كتاب الله، وهو يوم الله، لا ريب في أي من هذا وذاك، فالمقربون لهم في ذلك حق اليقين، وأصحاب اليمين لهم عين اليقين أو علم اليقين، ثم للمكذبين الضالين عين اليقين إذ يدخلون الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾[3] وكان لهم أن يرونها قبل يوم الدين: علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين.

ومهما يتعرض علم اليقين وهو اليقين العلم، للخطأ أو الإهمال في متطلبات اليقين، أو تخطأ عين اليقين أو تهمل مهما كان أقل خطأ وإهمالاً من علم اليقين، فليس حق اليقين وهو اليقين الحق، الثابت الصامد، مما يخطئ أو يهمل، لأنه واضح وضح النار وأوضح.



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٣) سورة التكاثر، الآية: ٧.



سُورَةُ الحَدِيدِ



مدنية - وآياتها تسع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾:

هنا وأحياناً في غيرها ﴿سَبَّحَ﴾ وهنالك في مواضيع «يسبح» إيحاءً باستمرارية تسبيح الكائنات غابراً ومستقبلاً وحاضراً دون فكاك، وأيًّا كان التسبيح ومن أي كان.

و﴿سَبَّحَ﴾ مما تُعدّى بنفسها، فلماذا عُدّيت هنا باللام وأحياناً بنفسها؟

لأن اللام توحي بالاختصاص، فلا تسبح ما في السماوات والأرض إلا لله، لا له ولسواه، فليُحمل عليها المعدّى بنفسها: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فلا تسبيح إلا لله.

والتسبيح هو الإمرار السريع دون تباطوءٍ، من السبح: المرّ السريع في الماء والهواء أو أياً كان، فالمسبح لله يمر سريعاً في ممرات نفسه وسائر الكائنات، دون وقفة ولا ريبة، ويحمل معه تنزيه الله ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأسماء وأحكاماً أم ماذا، لأن الكون محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها وتنزّهه عما لا يليق به.

وترى التسبيح فقط من ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ دونهما ومن فيهما وهم أقدر وأحرى؟.. إنه للكائنات كل الكائنات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[(١)] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[(٢)].

فالكائنات كلها تسبيحات لله بما لا نفقهه، من التسبيح عن شعور وإدراك ممن نحسبهم غير عقلاء ولا مدركين، أو ما نفقهه من تسبيح اختياري لمن يعرفون الله بدرجاتهم، أم ذاتي لمن يكفر بالله، فذاته في صفوف الكائنات تسبح الله عما لا يليق به من ذات وصفات أم ماذا.

فالعارفون الله، ومن يدق أبواب المعرفة بالله يرون الله مسبَّحاً عبر سير البصر والبصيرة في آيات الله، أنفسية وآفاقية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٣)].

فالكائنات بذواتها وصفاتها وحالاتها، بأفعالها وأقوالها وكل ما لها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أفلا تدل ذواتها الفقيرة البائسة على نزاهته تعالى عن البؤس والفقر، أو لا تدل دلالة جامعة تضم سائر الدلالات أن الله مسبَّح الذات والأفعال والصفات عما للكائنات كل الكائنات من ذوات وصفات: «هو خلوٌّ من خلقه وخلقه خِلوٌّ منه» «كلما في الخلق يمتنع عن خالقه، وكل ما في الخالق يمتنع عن مخلوقه» والى غير ذلك من مفارقات بين الواجب والممكنات.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ . . . وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ. . .﴾: غالبٌ لا يُغلَب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فلا يجهل أو يخطىء أو يظلم، عزيز حكيم: في ألوهيته وربوبيته. . وفي أنه مسبّح.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾:

﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ المَلكية المالكية الحقة دون زوال فلا يزول وهو لا يزال

---

(١) سورة النور، الآية: ٤١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المعبرة عن الكائنات كل الكائنات ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: كأبرز مظاهر الربوبية المطلقة، لا فحسب، بل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما هو شيء أو يمكن أن يكون شيئاً، قدرة متعلقة بالممكنات في كافة الجهات.

فيا لتسبيح المملوك العبد للملك المالك بالحق من حلاوة وطلاوة، كيف لا و:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

آية فريدة منقطعة النظير، ليست إلا هي وإلا هنا كما هي، اللهم إلا في البعض من اتجاهاتها بعبارات أخرى، تعني السرمدية الإلهية: أزلية وأبدية، والحيطة العلمية والقيومية المطلقة.

وهذه الأسماء الأربعة من مظاهر السرمدية والحيطة المطلقة الإلهية، كوناً وكياناً وعلماً وقدرة وقيومية أم ماذا.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ لا سواه، وتُرى أنه أوّل بالنسبة لسواه في الزمان أو المكان، تقدماً فيهما على أيٍّ كان؟ ولا زمان له ولا مكان، فهو الذي كوّن المكان والزمان!.. أو أنه أوّل في الحدوث؟ وليس له حدث، وإنما أحدث الأشياء وكان إذ لا كان، فلم يَحدث هو أياً كان، وإن كان حدوثاً بلا زمان!

كلا: «إنه الأول لا عن أول قبله وعن بدءٍ سبقه.. ولكن قديم أول وقديم آخر»[١]: أولية القدمة والأزلية، فلو سألت عن ربك متى كان؟ فالجواب إذن: «كان بلا كينونة، كان بلا كيف، كان لم يزل بلا كم وبلا كيف، كان ليس له قبل، هو قبل القبل بلا قبل، ولا غاية ولا منتهى، انقطعت عنه الغاية وهو غاية كل غاية»[٢].

---

(١) الكافي عن علي بن إبراهيم القمي بإسناده إلى ميمون اللبان سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد سئل عن الأول والآخر فقال: (.. وآخر لا عن نهاية)....

(٢) الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه رفعه قال: اجتمعت اليهود =

ترى «ومتى لم يكن حتى يقال متى كان؟ كان ربي قبل القبل بلا قبل ويعد البعد بلا بعد..»[١].. وإذا سألت «أين كان ربنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟ فالجواب: «أين» سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان»[٢].

ف «هو كائن بلا كينونة كائن، كان بلا كيف يكون»[٣]: تفارق كينونته تعالى سائر الكينونات تفارق التباين التام، إذ ليس له بدء ولا زمان ولا مكان ولا تحول من حال إلى حال، بل لا تكون له حال.

هذه هي الأولية اللائقة بجناب عزه، الأزلية اللاأولية، أو والأولية في الخالقية والتقدير، فليس معه خالق ولا بعده أو قبله، ومهما كان خُلقه في زمان ومكان، فلا يعتريه هو زمان ولا مكان، فقد كان إذ لا «كان»، لا زمان ولا مكان، ثم خلق الزمان والمكان، وخلق فيهما كلّ «كان».

هذا، ولكنما الأولية الأزلية لزامها أوليّات الألوهية كلها، فالأزل خارج عن كل زمان ومكان، مهما كان معه - لخلقه - زمان ومكان.

= إلى رأس الجالوت فقالوا له: إن هذا الرجل علم يعنون أمير المؤمنين عليه السلام فانطلق بنا إليه نسأله، فأتوه.. فقال له رأس الجالوت: جئناك نسألك، قال: سل يا يهودي عما بدا لك، فقال: أسألك عن ربك متى كان؟ فقال: ... فقال رأس الجالوت: امضوا بنا فهو أعلم مما يقال فيه.

(١) بنفس الإسناد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبيه الحسن الموصلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء حبر من الأحبار إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين متى كان ربك؟ فقال: ...

فقال يا أمير المؤمنين: أفنبي أنت؟ فقال: ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) فيه وروي أنه سئل الصادق عليه السلام أين كان ربنا...

(٣) الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال رأس الجالوت لليهود: إن المسلمين يزعمون أن علياً من أجدل الناس وأعلمهم، اذهبوا بنا إليه لعلي أسأله عن مسألة وأخطئه فيها فأتاه فقال: يا أمير المؤمنين! إني أريد أن أسألك عن مسألة، قال: سل عما شئت، قال: متى كان ربنا؟ قال له: يا يهودي! إنما يقال متى كان لمن لم يكن فكان متى كان، هو كائن بلا كينونة كائن، كان بلا كيف يكون، بلى يا يهودي، ثم بلى يا يهودي، كيف يكون له قبل، هو قبل القبل بلا غاية ولا منتهى غاية ولا غاية إليها، انقطعت الغايات عنده، هو غاية كل غاية، فقال: أشهد أن دينك الحق وأن من خالفك باطل.

إن الزمان مهما كان وأيّاً كان، هو محدود لا محالة لتصرّمه، وإن أجزاءه محدودة، ومجموعة المحدودات محدودة لا محالة، فله أول وهو حين خلق، وآخر حين ينقضي.

وأما الأزلي الذات، وغنيُّها عن كافة الذوات، المفتقرة إليه الذوات، المبتدَأة المبتدَعة في الذوات وفي الصفات، هذا الأزلي ليس له حدّ ولا أية حالات، إنما أزلي لا أولي، أول ليس له أولٌ، وآخرٌ ليس له آخر:

«والآخر» آخر كما هو أول، فالأول أزل والآخر أبد والجمع سرمد: «آخر لا عن نهاية.. ولكن قديم أول وقديم آخر، لم يزل ولا يزول بلا مدى ولا نهاية، ولا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال..»[١].

«إنه ليس شيء إلا يبدأ ويتغير أو يدخله التغير والزوال، وينتقل من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة إلا رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر على ما لم يزل، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره، مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرة، ومرة لحماً ودماً، ومرة رفاتاً ورميماً، وكالبسر الذي يكون مرة بلحاً، ومرة بسراً، ومرة رطباً، ومرة تمراً، فتتبدل عليه الأسماء والصفات، والله عزوجل بخلاف ذلك»[٢].

هذه هي الآخرية اللائقة بجناب عزّه، أو الآخرية في الخالقية والتقدير أيضاً، فليس بعده خالق كما لا يكون معه أو قبله، بل هو «قبل القبل بلا قبل،

---

(١) الكافي عن القمي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام وقد سئل عن الأول والآخر فقال: (الأول لا عن أول قبله وعن بدء سبقه، وآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أول قديم آخر خالق كل شيء).

(٢) الكافي عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ وقلنا: أما الأول فقد عرفناه وأما الآخر فبين لنا تفسيره، فقال:...

وبعد البعد بلا بعد ولا غاية ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كل غاية»[١]. فقد كان إذ لا - كان - وسوف يكون إذ لا - يكون -: كينونة سرمدية فائقة التصور، ليس لمن سوى الله من إدراكها نصيب، إلا نفي الكينونات المخلوقة عن جنابه، وإثبات كينونة سرمدية لا نملك من تصوُّرها شيئاً، إلا أنها غير ما نملك من كينونات!.

وآخِر بمعنى آخَر هو أنه المرجع وإليه المصير، فهو آخر في الأبد، وآخر في الخالقية، وآخر في المصير.

وحصيلة التعبير التفسير عن آية الأول والآخر، أولاً وأخيراً. إنه: «قديم أول، قديم آخر» «قبل القبل بلا قبل، وبَعد البَعد بلا بَعد» «لم يزل ولا يزول بلا مدى ولا نهاية» «الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، بأوليته وجب أن لا يكون له أول، وبآخريته وجب أن لا يكون له آخر»[٢]، وهو المبدأ وإليه المصير. فهو أول نظراً إلى ترتيب الوجودات سلاسل، فإنها استفادت الوجود من الأول تعالى، وأما هو فهو كائن بذاته دون مكوِّن، ثم هو آخر نظراً إلى سلسلة السلوك المعرفي، فهو آخر منازل السالكين، وغاية الباغين.

وترى إذا انحصرت به الآخرية الأبدية كما الأولية الأزلية، فما هو دور الآبدين في الجنة إذ وُعد لهم ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[٣].

أقول: إن أبديتهم لو كانت بمعنى اللانهاية، إنها زمنية عارضية غيرية، فهم آبدون بفضل الله ورحمته، فمن ذواتهم هم بائدون لا يملكون أبداً ولا حياة، فهم في أبدهم لهم آخر في ذواتهم، كما وأن لزام الزمن لكيانهم

(١) خبر الخبر الماضي إذ سأل أمير المؤمنين عليه السلام متى كان ربك؟ فأجاب: ومتى لم يكن؟

(٢) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام وفيه (إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود، وإن قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم). وفيه (سبق الأوقات كونه والعدم وجوده والابتداء أزله).

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٨.

يحكم بأن لهم آخراً كما لهم أول، وهذه تختلف عن الآخرية الأبدية الإلهية اختلاف العدم عن الوجود، فقد «كان الله ولم يكن معه شيء»، والآن كما كان وسوف يكون كما كان، لا يقارنه أيٌّ كان، وليس معه شيء أياً كان، ليس معه في أي زمان أو لا زمان، وإنما كيان كل «كان»: إنه من جلوات قدرته، وكما لا تختلف حاله تعالى بعد الخلق عما كان قبله في السرمدية، كذلك أحوال الخلق فإنها لا تختلف من حيث الفقر والعدم الذاتي، لا تختلف بعد خلقها عما قبل، اللهم إلا بظهور الوجود، دون استقلال ولا لحظة، فضلاً عن الأبدية، اللهم إلا بفضل الله.

ومن الفوارق بين الأبدين، أن الإلهي منهما لزام الأزلية، والثاني لزامه الحدوث والبداية.

هذا، ولكن الحق أن لا أبدية للخلق وإن كانت عرضية، فإن الزمان محدود أياً كان، وما له بداية لا بد أن تكون له نهاية مهما جهلناها، ومن ميزات اللانهاية أنها لا تقبل الزيادة والنقصان كما اللابداية. ترى لو نقص من زمن الجنة سنة أو زيدت، ألا تنقص اللانهاية لها ولا تزيد؟ فإن لا، فلتكن زيادة سنة ونقيصته على سواء! وإن بلى، فهذا ينافي اللانهاية اللامحدودية[1].

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ﴾: ظاهر على ما سواه بالقدرة والغلبة والعلم، وظاهر بوجوده دون كنهه، في كل ما سواه بالحكمة والصنعة وآثار العلم، ظهور القدرة والعلم دونما استثناء، وظهور الآية لمن أراده وابتغاه. «فليس ظاهراً من أجل أنه على الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتَسَنُّم لذَراها، حتى

---

(١) راجع كتابنا (حوار) بحث الأبدية والأزلية ص ٤٣. وهنا أحاديث تدل على زوال كل شيء، كما أخرجه في الدر المنثور ٦: ١٧١ في دعاء الرسول ﷺ (.. والكائن بعدما لا يكون شيء)...

ولا على عرشه وكرسيه، ولكن لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها... وإنه الظاهر (لا ظهوراً بالذات، وإنما بالآيات والدلالات) لمن أراده... فأي ظاهر أظهر وأوضح من الله، تبارك وتعالى؟ لأنك لا تعدم صفته حيثما توجهت، وفيك من آثاره ما تغنيك»[١]. و«ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه»[٢]. «قبله»: بالأزلية الأولية والخالقية، «بعده» بالأبدية الآخرية، «معه» بالقيّومية، «وفيه» بآثار الصنع الحكمة، ومن رُزِق حديد البصر ودقيق النظر، فلا يبصر حياته إلا ربه، وهذا هو توحيد البصر. «عميت عين لا تراك.. متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك... يا من دلَّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته..».

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: خفي في الذات رغم أنه ظاهر بالآيات «وكل ظاهرٍ غيرُه غير باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر». وكما لم يكن ظاهراً على شيء، كذلك ليس باطناً في شيء، حتى يستبطن فيُرى في شيء، «الظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة»: ذَرية الجسم ودقته!

فهو الظاهر غلباً على من سواه، وغَلَبَهُ باطن لا يراه مَن سواه، وهو الظاهر بالآيات لمن أراده، وباطن بالذات ولو عمن أراده، وهو باطن الذات والصفات والإرادات، إذ لا تُرى بعين البصر، وهو ظاهر فيها إذ يُرى بعين البصيرة، دون حيطة ولا إدراك، فباطن - أيضاً - ببصيرة الحيطة والإدراك.

ولا ظاهرَ من الله إلا آياته ودلالاته، ثم هو باطن فيما سوى آياته ودلالاته، وليس باطناً يحل في سواه، أو لأنه دقيق لا يُبصر فإنه «لا يُحسّ ولا يُجسّ ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس».

---

(١) الكافي عن علي بن محمد مرسلاً عن الحسن الرضا عليه السلام قال: اعلم علمك الله الخير، أن الله تبارك وتعالى قديم - إلى قوله -: وأما الظاهر...

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام.

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره
وجوده من أظهر الأشياء وكنهه في غاية الخفاء

- فإنه ظاهر في التعريف، باطن في التكييف.

فسبحان «الذي بطن من خفيات الأمور وظهر في العقول، بما يُرى في خلقه من علامات التدبير» «الظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه»[1]:

لا شيء فوقه في الظهور بمعنييه، ولا باطن دونه بمعانيه، فكل باطن لغموضه ورموزه، لدقته وصغره، لبعده زماناً أو مكاناً، أو لأي من أسباب البطون، إنه يرجى ظهوره لمن يهيىء أسبابه، إلا الله، وكل ظاهر قد يخفى على العقول إلا الله، إذ الكائنات كلها دلالات وآيات بينات دالات على الله، فهو أظهر من كل شيء، ولإحاطته على كل شيء، وأبطن من كل شيء، ولإحاطته من ورائه وإنه أقرب إلى كلّ شيء من نفسه، «عميت عين لا تراك.. ألغيرك من الظهور ما ليس لك!

إنه ليس من معاني بطونه تغيّبه عن الخلق أو تغيب الخلق عنه، فإنه بكل شيء عليم وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

فالمسبح له مما في السماوات والأرض، الملك المالك للسماوات والأرض، القدير على كل شيء، الأول والآخر مستغرقاً كل شيء، الظاهر

---

(١) بين الأقواس مقتطفات من الخطب التوحيدية لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، وفي الدر المنثور ٦: ١٧١ عنه صلى الله عليه وآله وسلم (أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، وفيه كان من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: يا كائن قبل أن يكون شيء والكون لكل شيء والكائن بعدما لا يكون شيء أسألك بلحظة من لحظاتك الوافرات الراجيات المنجيات).

لمريديه في كل شيء، والظاهر بقدرته على كل شيء، حقيق أن يكون ظاهراً بعلمه على كل شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وليس علماً به بعد خلقه، ولا أنه أعلم به بعد خلقه، فقد «أحاط بالأشياء علماً قبل كونها، فلم يزده بكونها علماً، علمه بها قبل أن يكون كعلمه بها بعد تكوينها»[١]. فلكل شيء وجود علمي قبل كونه واقعياً «والعلم ذاته ولا معلوم، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم»[٢].

وكما الله باين عن خلقه في ذاته وصفاته، كذلك باين في علمه وهو من صفات ذاته - ف «علم الله لا يوصف الله منه بأين، ولا يوصف العلم من الله بكيف، ولا يفرد العلم من الله، ولا يباين الله منه، وليس بين الله وبين علمه حدّ»[٣]. بل وليس هناك بينٌ، فذاته علم، كما أن ذاته حياة وقدرة، صفات ذاتية ثلاث، تنشعب منها صفات الفعل.

فقد «علم الأشياء لإباداة لا يكون العلم إلا بها، وليس بينه وبين معلومه علمُ غيره»[٤].

و«كل شيء» في العلم، أوسع من «كل شيء» في القدرة، فالشيء المقدور هو ما تتعلق به القدرة لصلوحه، أو يمكن أن تتعلق به لإمكانه، وأما المعلوم فيكفيه تعلق العلم فيشمل المحالات الذاتية، وكما يشمل الممكنات، ليس لأن العلم أوسع من القدرة، وإنما لأن المقدور أضيق من المعلوم، لا لنقصان في القدرة، وإنما لقصور في المحال، فإنه ليس شيئاً في القدرة مهما كان شيئاً في العلم.

---

(١) التوحيد للصدوق خطبته لعلي عليه السلام وفيها:

(٢) فيه بإسناده إلى أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله عزّ وجلّ ربنا والعلم ذاته.

(٣) توحيد الصدوق بإسناده إلى عبد الأعلى عن العبد الصالح موسى بن جعفر عليه السلام:

(٤) فيه في خطبة لعلي عليه السلام.. ونوافيكم بتفاصيل عن علمه تعالى في طيات آياته إن شاء الله.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾:

.. آيات سبع تحمل ﴿سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ لخلق السماوات والأرض، ومن ثم آيات في «فصلت» تفصِّل هذه الستة على خلقهما سبعاً وسبعاً، فهي هي إذاً أحرى بالبحث والتنقيب عن: كيف تنقسم الستة على السبع والسبع؟ دون سائر السبع التي تحمل ﴿سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ دون تفاصيل كما هنا، اللهم إلا أن نشير إلى حصيلة موجزة عما نفصلها في «فصلت»:

إنها ستة أوقات وأدوار زمنية مضت على خلق السماوات والأرض، وليست هي على سواء، ولا نصيب منها لأدوار التكامل الأرضي والسماوي، وإنما لخلق الزبد الأرضي: مادتها الأم، والدخان السماوي كذلك، ولتحويلهما إلى سبع وسبع، ولخلق الأنجم في السماء الأولى، أم ماذا؟!

فلا تناحر بين آيات الستة أيام، وآيات فصلت: ثمانية أيام، فأربعة منها لدور التكامل الأرضي، والباقية: اثنان لخلق الأرض ﴿... خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[1] وآخران لقضاء السماء سبعاً - وعلّه مع الأرض: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾[2]. فاليومان الباقيان من الستة - إذاً - لخلقٍ وراء الخلقين، علّ أحدهما لخلق الدخان السماوي، أو والزبد الأرضي، والثاني لخلق المصابيح في السماء الدنيا، ولأنه و﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ متأخر عن يومي تسبيع السماء و.. أم ماذا؟!

﴿... ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾: عرش العلم: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا

(١) سورة فصلت، الآية: ٩.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

﴿يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وعرش القيمومة على ذوات الخلق: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وعرش الرقابة البصيرة على الأعمال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهذا المثلث نتيجة الاستواء على العرش إنه:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: من مياه وبذور ومن سائر الأشياء أمواتاً وأحياءً ما لا يحصيها إلا الله ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: من مياه وأشجار وأثمار ومن أحياء وأموات، صادرات وواردات أرضية كلها في ظلال عرش العلم والتقدير والتدبير، لا يفلت منها فالت، ولا يغلط فيها غالط، اللهم إلا من شذ عن أمر الله من الجنة والناس، ولكنه لا يقدر على مناحرة إرادة الله، اللهم إلا فيما له الخيار من أمور تشريعية، ولكنها أيضاً لا تحصل أخيراً إلا بإذن الله تكويناً مهما لم يأذن تشريعاً.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من سماء الوحي من وحي وتقدير، ومن سائر السماء من أنوار وأمطار، ومن شهب ونيازك نارية ومن طوارق نورية ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة الموكلين بأعمال العباد، الشهود لهم وعليهم، ومن أعمال وأقوال وأحوال، ومن نور ونار وبخار أم ماذا!

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: أينما كنتم من أدوار الوجود، من ذرات وجزئيات وعناصر، ومن تراب وأثمار وإلى نطفة إلى الخلق الآخر الإنسان، ومدى الحياة وبعد الموت وإلى النشأة الأخرى «هو معكم» هنا وهناك، معية هي لزام ذواتكم، وترى ما هي هذه المعية أينما كنتم: كل مكان وزمان؟ أو ما هي المعيات المعنيات بين مختلف المعيات؟

هل أنها معيّة التأييد والتوفيق؟ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾[1] وهذه معية مشروطة لا تعمُّ الجميع!.. أو معية النصرة في الحرب: ﴿فَلَا تَهِنُوا

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(١) وليس الكل محاربين، ولا مؤمنين أقوياء صامدين في الحرب حتى يستحقوا النصر!. أو معية الحفظ عن العدو الضاري وهو على الدرب: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٢) ولا يستحقها المؤمنون كلهم فكيف بسواهم! كلا.

وإنما معيّات عامة تشمل - على أقل تقدير - المخاطَبين من الجنة والناس أجمعين، من معية علمية فهو أعلم بهم من أنفسهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾(٣) ومعية القدرة القيومية و﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾(٤) والمعية الخالقية، إذ الخلق لا يستغني عن الخالق بعد خلقه، فهو كما كان وأحوج مما كان، استبقاءً لما أوتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(٥)، ومعية الشهادة على الأعمال أم ماذا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٦).

ومعية الحفاظ على العباد: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٧) وما إليها من معيات إلهيات كما تليق بذاته وصفاته المقدسة، دون معية زمانية أو مكانية، بمداناة أو حلول أم ماذا! فقد «كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان، لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان»(٨)، فمعنى كونه في كل مكان مع كل إنس وجان، هو معية العلم والقدرة والخالقية والحفاظ على الخليقة.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٤٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٥) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٧) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٨) أصول الكافي بإسناده عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى كان... ولا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور، (لا إله إلا هو الكبير المتعال).

ومن ثم معها معيات خاصة للخصوص من عباد الله الذين يعيشون مع الله: معية الوحي والإلهام، والتوفيق المستدام، والنصرة على الأعداء والحفاظ الخاص، ومعية القرب والزلفى قدر ما يكون العبد مع الله!

وإنها لحقيقة مذهلة ومؤنسة، حقيقة أن تؤخذ بعين العبرة والادكار، مذهلة بروعة الجلال تمنع شاعريها عن التورُّط في الضلال، ومؤنسة برحمة الظلال، رضواناً وقربى إلى حضرة ذي الجلال، فيا لها من إسعاف عن كل فتك وإسفاف، وإيناس عن كل وحدة سفساف! فإيمان بالله، وعلى المروي عن الرسول ﷺ: «من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان»[١].

ومن فروع هذه المعية الشاملة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، ومن ثم المعية الملكية المالكية:

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥﴾:

وبطبيعة الحال ترجع أمور المُلك والرعية إلى المَلِك، فالأمور كل الأمور راجعة إلى الله في الأولى والأخرى، من أمور التكوين وتدبيره، وأمور التشريع وتقديره، الأمور: الأفعال والأشياء - ومنها الأشخاص - والأوامر[٢] ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[٣]، ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٤] ترجع إليه كما منه بدأت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[٥].

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧١ - أخرجه ابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ.
(٢) فالأمور هنا جمع الأمر بمعانيه: الشيء - الفعل - الأمر مقابل النهي، أو بوجه عام: الحكم.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾:

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[١]: اختلاف بينهما بالنور والظلام، وكون أحدهما خلف الآخر بنسق ثابت، واختلافهما زمناً حسب اختلاف الفصول وأجزائها، فكما الله هو الخالق لهما، ومرتبهما، كذلك هو الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: نقصاً من الليل فزيادة في النهار كما في الصيف، ونقصاً في النهار فزيادة في الليل كما في الشتاء، كحقيقة الولوج، وكذلك التقاءهما في وقتي الطلوع والغروب، تداخل الليل في النهار غروباً، كأنه والج فيه، وتداخل النهار في الليل طلوعاً كأنه يلجه، حركة دائبة منظمة لطيفة، تدل بلطف على محرّك منظّم لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: صاحب الصدور، علّه القلب الذي يصاحب الصدور وهو فيه ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٢] أو وسائر ما يصاحب الصدور من العقول والألباب، أو أنه الروح صاحب الصدر، بكافة جنودها الروحية المدركة، فالله عليم بهذه الذات فضلاً عن الصدور، فإن حصائلها بمصادرها تصدر من سائر جنود الروح.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾:

آية فريدة في كرامة الاستخلاف في الإنفاق، تكويناً أن هيأ لنا ربنا وسائل الإنفاق بما هبانا، وتشريعاً أن أمرنا بالإنفاق كما أنفق علينا، تخلُّقاً بأخلاق الله، ولنكون مَثَلاً لله مهما لن نكون مِثلَه!.

فالأموال التي نملكها ليست لنا إلا خلافة مسموحة من ربنا، تتداول بيننا في معاملات ووراثات فإنفاقات فلسنا إذاً فيها إلا كأداة:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

ويكفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان

إنها أمانات فسح لنا مجالات بتصرفات فيها ضمن حدود الشرع، ننفقها على مستحقيها الآخرين كما ننفقها على أنفسنا، فلا ننسى أولاً وأخيراً أنها لله وأننا فيها مستخلفون، فلا نتخلف عن حدود الخلافة في الأمانة.

ويا لها من رحمة وكرامة ربانية أن يعدنا أجراً كبيراً لو أنفقنا مما استخلفَنا فيه على عياله! والخلق عيال الله، فأحب الخلق عند الله أحبهم لعيال الله.

وليس الإنفاق دون شريطة الإيمان مأموراً به ولا مرغوباً فيه، بل هو مرغوب عنه، كمن يمن أو يؤذي أو يرائي الناس: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1].

وإنما الإنفاق المندفع عن الإيمان، فلا لون له إلا ابتغاء رضوان الله، دون ألوان الغايات والتجارات وسائر المكاسب غير الإلهية، فالإنفاق المنطلق عن الإيمان رحمة شاملة تشمل ذوي الاستحقاق كلهم، قرباء وغرباء، ضعفاء وأقوياء، من يرجى خيره ومن لا يرجى، كل ذلك على حد سـواء: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] كما وأن لغة الإنفاق توحي بذلك فإنه الإفناء، ومن يبتغي أجره في الدنيا من أهلها، مادياً أو معنوياً، انه ليس بمنفق، إنما هو تاجر، فقد يكون فاجراً في تجارته كمن ينفق في سبيل الطاغوت، أو يمن ويؤذي المحتاج، أو يرائي الناس، أم ماذا، وقد يكون صالحاً كسائر التجار، وإنما الأجر الكبير للمنفق في سبيل الله لا سواه.

وترى من هم المخاطبون بـ «آمنوا»؟ أهم المؤمنون؟ فكيف يؤمرون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٢.

بتحصيل الحاصل! أم الكافرون بالله وبالرسالات؟ فمن أين يعرفون أن هذا أمر من الله؟ وهم ناكرون له غير مصدقين بوحيه! ثم ومن لا يؤمن بدليل العقل فكيف يؤمن بمجرد النقل؟!.

نقول أولاً هم المؤمنون، وقد أمروا هنا كما في غيرها بمزيد الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[١] والإنفاق في سبيل الله بحاجة إلى إيمان عريق، دون الإيمان الذي يصانع الشرك أحياناً: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[٢] فللإيمان عقيدياً وعملياً مراقٍ ودرجات لا بد أن يتدرج إليها بمساعٍ ومحاولات دائبة.

ثم وماذا عليه لو خص بالكافرين أو شملهم، إذ يأمرهم بالإيمان بعد استعراض دلائل الإيمان وملزماته، فلهم أن يعرفوا وحي القرآن ببيناته، ومنه أمرهم بالإيمان، فطالما البينات تقنعهم للإيمان، فهنا يأمرهم بحقيقة الإيمان، إذ لا يكفي الإيمان البدائي لمثل الإنفاق في سبيل الله، إذاً فالخطاب يشمل الناس أجمعين مؤمنين وكافرين! ومن ثم يندد بالكافرين منهم:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨﴾:

فالتنديد هنا بسلب الإيمان وليس بنقصانه، فـ «ما لكم» ما داؤكم؟ وما دواؤكم؟ فلو ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؟ ودوافع الإيمان تحيط بكم؟ من دعوة رسولية تملك من كافة البينات المخرجات من الظلمات إلى النور ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ ومن استجابة الفطرة للميثاق المأخوذ عليها من الله ﴿وَقَدۡ أَخَذَ﴾ الله ﴿مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: بالدعوتين: برسول الفطرة التي فطر الناس

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

عليها، وبرسول الله ﷺ الذي يدعوكم بإقامة وجوهكم إليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) ثم وقليل هؤلاء الذين يعلمون فيؤمنون، ثم قليل المؤمنون العالمون الذين يعملون.

فمن يحترم عقله، ويؤمن بفطرته الإنسانية، عليه أن يصغى لمن يوقظ فطرته، ويذكره مهمته في دوره الإنساني السامي، فليستجب دعوة الرسول الداعي إلى دعوة الفطرة، و﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)!.

إنه ليست دعوات الرسل بالتي تجانب وتنافر دعوة الفطرة، وإنما تجانسها وتنورها أكثر وأكثر، وتتبناها كدعامة أولى محكمة لبناية الإيمان المفصل، وهنا ملتقى وحي الله ووحي الفطرة، وكلاهما من وحي الله للذات وخارج الذات.

وقد يشمل التنديد المؤمنين الناقصين لماذا لا يؤمنون كما يجب، إيمان له مخلفاته في العمل ومنه الإنفاق في سبيل الله ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الرسول ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ من ذي قبل، لتؤمنوا حقه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بميثاقكم الذي وائقتموه(٣).

هذا، وشموله للكافرين هو الذي يبرر التنديد بسلب الإيمان، وليشمل المؤمنين والكافرين جميعاً، وأما اختصاصه بالمؤمنين فلا مبرر له، أن ينفي

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

(٣) عله الميثاق العام لما آمنوا بألسنتهم، أنهم سوف يؤمنون بقلوبهم وأعمالهم، فشهادة اللسان ميثاق على شهادة القلوب والأعمال، أو ميثاق أو مواثيق خاصة بينه وبين هؤلاء، أو ميثاق الآيات البينات، إذاً فآخذ الميثاق هو الله هناك وهو رسول الله ﷺ هنا وهو أيضاً من ميثاق الله.

الإيمان عن المؤمن لعدم استكماله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ وترى كيف يدعوكم؟:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾:

ومن ميثاق الرسول آياته البينات التي توثق المبصرين بالإيمان، إضافة إلى ميثاق الفطرة وسائر الميثاق.

إن الإنسان أياً كان يعيش ظلمات الأوهام أحوالاً وأوحالاً ما دام متحللاً عن وحي الفطرة ووحي الشريعة، وقليل هؤلاء الذين يقيمون وجوههم لدين الفطرة، ولا يقيمهم تماماً إلا الوحي المفصل المفسر لوحي الفطرة، فالمتحلل عنهما يعيش ظلمات بعضها فوق بعض، والمتحلل عن وحي الشريعة كذلك يعيش ظلمات مهما كانت أخف، فالرسول يتلو عليهم آيات الله البينات، ليخرجهم الله بها من الظلمات إلى النور، قضية الرأفة والرحمة.

وما أسماه تعريفاً بالرسول: ﴿عَبْدِهِۦٓ﴾ إذ تحلل عن عبودية وعبادة ما سوى الله، واختصه نفسه بالله، فاختص لذلك أكرم كرامات الله: أن يحمل أشرف وأسمى رسالات الله.

إن هناك ظلمات تُظلِم على الفطرة الإنسانية فتَظلمها، فإذا أخرج الإنسان عنها بمذكرات الآيات البينات فهو إذاً في النور الذاتي، وليس وراء ذاته إلا ما يزيد فطرته جلاءً واعتلاءً، فالفطرة غير المحجوبة هي النور، وهي المرقى إلى سائر النور ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾(١).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

لذلك ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] لا «فيدخلهم النور» فإنه من دواخل ذاته فهو داخل فيه محجوباً أو غير محجوب، فإذا ارتفعت الحجب الظلمات فهو إذاً في النور، دونما حاجة إلى طي مسافة بينه وبين النور، فإنما يبتدئ بفطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وينتهي إلى الله النور، منتهى لا نهاية له، فلا بدّ للسالك إلى هذا النور أن يستمر في السير، ناسياً نفسه وذاكراً ربه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾:

هنا الخطاب الأول العتاب خاص بضعفاء الإيمان، الذين يتثاقلون عن الإنفاق في سبيل الله، قاتل أم لم يقاتل، أنفق في غير سبيل الله أو لم ينفق وإن كانوا درجات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ ولستم إلا مستخلفين فيما رزقتم، ثم ولا يبقى لكم باقية: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا أن الأموال لكم، ولا أنها باقية أو أنتم باقون، فإذا الخلائق فنوا وانقرضوا، خلّوا ما كانوا يسكنونه أو من يساكنونه، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه، وهناك الله وارث ما تركوه، وإن كان مالكاً من قبلُ مالكوه، فهو الباقي بعد فنائهم، والدائم بعد انقضائهم.

فلا بدّ للمال أن ينفصل عن صاحبه، بالموت فالوبال، أو بالإنفاق وسائر الواجب أو الحلال، فهل من عاقل يترك ماله وبالاً دون تسميد لمستقبل الحال بإنفاقه أو قرضه في سبيل الله؟!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

ويا لها من حجج بالغة دامغة، ناصعة ناصحة، فما الذي يبقى عندها من دوافع الشح وهوالق البخل لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد!

ثم ينتقل الخطاب إلى المنفقين المقاتلين في سبيل الله في ساعتي العسر واليسر، ترى أنهما سواء - كلا:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ...﴾ من ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾[1] وفترة الشدة قبل الفتح، وأهمه فتح مكة، ويعده فتح الحديبية، الذين أنفقوا وقاتلوا في حالة الأسر والعُسر، أيام كان الإسلام غريباً والخطر قريباً، والمسلمون محاصرون مطاردون، قليلون في العِدة، قليلون في العُدة، فالإنفاق والقتال كانا في عضال، فلا تشوبهما شائبة، مهما كان الإنفاق قليلاً لقلة الأموال.. فـ ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ إذ أنفقوا وقاتلوا في رخاء ورجاء، ولم يكن لمن قبل الفتح رجاء ولا رخاء، أنفقوا والعقيدة آمنة، والغلبة كائنة أو كامنة، فليكن مَن قبلهم أعظم درجة منهم، مهما كانت النية صافية وعلى سواء، فإن الموانع والدوافع تختلف هنا وهناك، وأفضل الأعمال أحمزها، فالظروف الصعبة الملتوية قبل الفتح تحكم أن المنفقين المقاتلين في سبيل الله فيه أفضل ممن أنفق وقاتل بعد الفتح مهما كان الإنفاق من قبل قليلاً، فليس الكم هو الذي يرجح الميزان، وإنما هو الظرف والباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٧٢ - أخرج سعيد بن منصور عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: يأتيكم قوم من هاهنا - وأشار بيده إلى اليمن - تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، قالوا: فنحن خير أم هم؟ قال: بل أنتم، فلو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه، فصلت هذه الآية بيننا وبين الناس: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠] وأخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ وأخرج=

«و» إن كان ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(١) ولكنما الجزاء الحسنى درجات كما الأعمال والنيات الحسنى في اليسر والعسر درجات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢).

ومن ثم كما أن المناصرين في ساعة العسر مع النبي ﷺ أفضل درجة ممن ناصره ساعة اليسر، فالذين ينصرون الإسلام بعد دوري الرسالة والإمامة، وظروفهم كمن قبل الفتح أو أعسر، فهم أفضل درجة من أنفق من قبل الفتح وقاتل، إذ هم كانوا في ظلال الرسول ﷺ حاضراً بآياته البينات، والآخرون غُيَّب عن زمن الرسول ﷺ وإنما صمدوا في الإيمان لما رأوه وسمعوه من قرآنه المبين وتبيانه المتين، فأحاديث التفضيل بين مَن قبل الفتح ومَن بعده لا تشملهم(٣) بل وتفضلهم كآياته على من قبل الفتح. فحسناهم أفضل من حسناهم صورة طبق الأصل ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾(٤) فليجز كذلك حسب شاكلته ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(٥).

فلينفق المؤمن مما هو مستخلَف فيه، وسوف يتركه لمستخلِفه، ولو غفل عن هذا وذاك، وحسب أنه هو المالك أو الباقي ملكه - وهو من أضعف الإيمان، أو هو الكفر - فلو غفل هكذا أو تغافل - إذاً فليقرض الله من ماله! قرضاً يربيه الله فيه، هنا وبعد ما يحييه:

= أحمد عن أنس في حديث عنه ﷺ دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم، وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه.

أقول: وكل هذه مقارنة بين من كانوا زمن النبي قبل الفتح وبعده، وأما الذين أتوا ويأتون بعده فلا، فلا فضل إذاً إلا للأفضل أعمالاً، حسب الظروف والنيات ومدى الصعوبات.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٣) المصدر السابق نفسه في الصفحة السابقة رقم (١).
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

ومن ذا الذي يبقى بعد هذا الخطاب الحنون العتاب متصلباً على منع الإنفاق والإقراض؟!

.. هنا! إذ يجعل الله عبده مالكاً لما استخلفه فيه، ويجعل نفسه مستقرضاً بمضاعف الأداء وأجر كريم، هنا ينفتك القلب، وحقيق لمن له أدنى شعور أن يموت خجلاً، أو يصعق ويتصدع وجلاً، كيف أن الله الغني الحميد يستقرض عباده الفقراء المهازيل «يستقرضهم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً»[1]، ومجرد الشعور أن المستقرض غني أمين، مضاعف في الرد، كريم، إنه يطيِّر أصحاب الأموال إليه طيراناً.

فيا له رباً حنوناً في هدايته كيف يداري عباده المجاهيل في هداه، فلا يبقي سبيلاً إلا ويرشدهم، ولا يذر دليلاً إلا ويدلهم، وهنا يعطف بهم إلى مثلث التدليل من زواياه الثلاث، يجعل نفسه في الثالثة كأنه المستقرض: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ وليس إلا لعباده، مما يدفع جماعة من اليهود إلى القولة الهراء الاستهزاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[2] وهذه نهاية العناية الإلهية في الهداية، وكما ترمز بأن أوامره ونواهيه كلها لصالح العباد، فسبيل الله هي سبيل صالح الحياة على ضوء الهداية الإلهية، فإنه أعلم بصالحنا منا، فإقراض الله، والإنفاق في سبيل الله، والتصدق لله، هذه كلها تنحو منحى سبيل الإنسان وصالحه، فالله هو الغني ونحن الفقراء، فما أكفر عبداً وأجهله أن يتغامض عن هذه العظات، ولا يتذكر بتلكم الموعظات، فيعيش حياته ويلات وويلات!.

---

(١) نهج البلاغة عن علي عليه السلام (واتقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها) فقد قال الله سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] واستقرضكم وله.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

وكما الإنفاق هو الإفناء، أن يؤتي ما أوتي من مالِه أو مالَه لله دون ابتغاءِ جزاءً أو شكور ممن سوى الله، كذلك الإقراض هو الإقطاع: أن تقص وتقطع مما لك قرضاً حسناً، إن واجباً أو ندباً، قرضاً ترجع فيه أو لا ترجع، حسناً متحللاً عن كل سوءٍ.

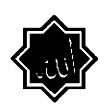
ومن أركان الحسن في القرض أن يكون بنية حسنة: لوجه الله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾(١) وبطيبة نفس، وأن يكون مما تحبون: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٢) ومن الحلال - فـ«لا يقبل الله صدقة من غلول» ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾(٣) وبعيداً عن الرئاء والمن والأذى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾(٤) وألا يعتز في نفسه مذللاً للمستقرض، فإن الله هو المستقرض مهما كان لعباده المحاويج: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾(٥) وألا يماطل في أدائه ما يجد سبيلاً إلى أداء عاجل وأن يؤجل إلى ميسرة إن كان قرضاً يرجع، دون مراجعة ولا مخاجلة أو مخالجة، وأن يتحرى الأحوج أشخاصاً وجهات إلهية، وأن يخفيها تحرجاً عن الرئاء، أو يبديها تحريضاً لمن سواه شرط الإخلاص: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٦) فتلك عشرة كاملة في أصول القرض الحسن.

وكما أن الإقراض من مضاعفات الرحمة وكرم السجية، كذلك الله يعد المقرض مضاعف الرد وكريم الأجر، ولأن الأجر موعده الحياة الأخرى،

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٥) سورة المدثر، الآية: ٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

فليكن المضاعف، أو من المضاعف، في الحياة الدنيا، أن يربي الله ماله ضعفاً أو أضعافاً: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾[1] يربيه مادياً، ويربيه معنوياً أن تتزكى نفسٌ تعوُّداً على العطاء، وألا يتهدّده الفقراء والمديونون بمسٍّ في ماله أو نفسه أو عرضه، فيعيش سليم الحال، سليم المال، وسليم المآل، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾[2].



(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.
(٢) سورة العلق، الآية: ٨.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ
فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ
ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ
وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ
﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ
مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ
وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

وترى متى يضاعفه الله له وله أجر كريم، كأحرى الأوقات الوفيات؟..

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ أيها الناظر البصير، وبالأحرى أيها الرسول البشير النذير! ﴿تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ فما هذا النور الخاص بالجهتين، الذي لا يتخطى صاحبه إلى سواه فيضطر المظلم أن يلتمسه في مُناه: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾؟.

إنه ليس نوراً يُبصَر ومن خارج ذواتهم «نورهم» لا (نورٌ) أو (نور سواهم) وإنما نور البصيرة الذي أخرجهم الله إليه، من ظلمات الهوى إلى نور المعرفة والهدى، نور أشرق في تلكم الأرواح المستجيبة لدعوة الله، نور يحصل بالسعي دون فوضى، ومن ثم هو يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الاخرى جزاءً وفاقاً ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] نور يخرج صاحبه من الخزي هناك كما أخرجه من سائر الظلمات هنا، ثم يتممه الله هناك كما يشاء ويرضى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[2] [3]. نور يلتمس سعياً في الحياة الدنيا، ومع اختصاصها بأصحابها قد يشفعون من يليق بها أن ينظروا إليهم في الأخرى: ﴿... ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٣) راجع سورة التحريم ج ٢٨ - الفرقان.

إن سائر الأنوار لا تختص بأصحابها، فقد تُغتصب أو يُستفاد منها دون علم أو رضى أصحابها، يستنير منها الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، وأما ذلك النور فمثله كنور البصر، لا يبصر إلا لصاحبه قدر سعيه، صادراً منه وواردأ إليه، اللهم إلا شفاعة مرضية، فهو برهان ربَّاني: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1] وهو إيمان ناتج عن ذلك البرهان: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[2] وهو العمل الصالح الناتج عن الإيمان. ومن ثم هو نور الفرقان الناتج عن خالص الإيمان: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[3]: مربع النور: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[4]!.

ترى ولماذا ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ دون سائر الجهات الأربع أو الست؟...

لأن هذا النور غير سائر النور، نور البصيرة وليس البصر، وإن كان يهدي - فيما يهدي - البصر. ولأن طريق الجنة يُمنة ووِجاه، وطريق النار يسرة ووراء، وكما عن الرسول ﷺ: «بينا أنا على حوضي أنادي هلم، إذ أناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني، فأنادي ألا هلمَّ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقاً»[5]. فلا نور لأصحاب الشمال لا وجاها ولا يمنة، وإنما تأخذهم النار من ورائهم وذات الشمال.

وقد تختص ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالسابقين المقرّبين، الذين هم وجه بلا قفا ولا أية جهة أخرى إلا وجه الله، ومن ثم يتوجهون إليه، ويتجهون إلى رحمته ورضوانه، و﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأصحاب اليمين الذين هم وجه من وجه، وإذا اتجهوا عن الأمام فإلى اليمين، فإنه الدين، وإن كان أدنى من المقربين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٥) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسي ج ٩ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

أو أن قسم الإيمان والعمل الصالح والفرقان تكون بالأيمان، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، وقسم الهداية تكون بين الأيدي ومنه الهداة إلى الله، وقد توحي له ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ نفسها فإنه النور المفصول عن ذواتهم بين الأيدي، وهم الهداة خارج الذوات، و﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لا عن أو من إيمانهم، فإنه النور الذاتي اللامع بالأيمان، فهو الإيمان والعمل الصالح والفرقان الناتج عنهما[1].

وأما الشمال ووراء الظهر فلأصحاب الشمال إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون إلى النار، جهنم يصلونها وبئس القرار.

أو أنه نور واحد قد توحي به وحدة النور: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ فالنور المربع من الأيمان يعده للحساب الحاضر، وهو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل وكلاهما واحد وإن كانت وحدة النور أعمّ من الوحدة العددية والنوعية. إذاً فالوحدة والكثرة كلتاهما معنيتان، لأن الكثرة هنا هي الوحدة والوحدة هي الكثرة وكلها نور، من مثلثه الذاتي وواحده الخارجي: الهداة إلى الله، كتاباً وأنبياء وأولياء.

وكما أن مساعي النور درجات، فالحاصل عنها أيضاً درجات حسب المساعي والمقامات، فـ«الناس منازلهم بأعمالهم»[2]، منهم من يستضيء

(١) الخصال للصدوق بإسناده إلى أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر عليه السلام في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوا منازل أهل الجنة. ورواه في الكافي عنه، وروى مثله عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام ومحمد بن العباس مثله عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٧٢ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن من المؤمنين يوم القيامة من يضيء له نوره كما بين المدينة إلى عدن أو إلى صنعاء فدون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه، والناس منازلهم بأعمالهم.

بنوره أصحاب الجنة أجمعون، ومنهم دون ذلك إلى من لا يضيء نوره إلا له دون سواه.

ثم هذا النور الساعي من الجهتين الأصيلتين تضيء لأصحابها من سائر الجهات، يعرفهم الرسول ﷺ «إنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، ويعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وبنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم»[1] طالما السعي الشمائلي هامشي على ضوء الأولين، كما الخلفي والفوقي والتحتي.

ومن ثم يصاحب نورَهم بين الأيدي والأيمان بشرى جنة الخلود والفوز العظيم على ضوء النور الذي التمسوه يوم الدنيا، وتممه الله في الأخرى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فهذا دور المؤمنين، فما هو إذاً دور المنافقين؟ إنه النكسة وظلمة الركسة:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾:

هناك المؤمنون والمؤمنات في منظر طريف ظريف، وهنا المنافقون والمنافقات في منظر هائل عنيف، في حيرة الضلالة ومَهانة الإهمال، متعلقين بأذيال المؤمنين والمؤمنات قائلين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وأنّى لهم الاقتباس، ولات حين مناص، من الظلمات التي عاشوها حياتهم!.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧٢ - أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الرحمن ابن جبير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي وعن خلفي وعن يميني وعن شمالي فاعرف أمتي بين الأمم. فقيل: يا رسول الله! وكيف تعرفهم؟ بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك؟ قال: غر محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

وترى ما هذه النظرة التي يلتمس منها قبسات النور؟ إنها ليست نظرة البصر فإنها غير مفيدة، وهي حاصلة في حوارهم، وإنما هي نظرة البصيرة المتأملة الشفيعة إلى الله أن يُقبسهم من نورهم، لذلك لم تعدّ بـ «إلى» المؤدية معنى نظر البصر: «انظرونا»: تأملونا لهذه البغية، وليس مجرد التأمل «في»: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] أو التأمل «كيف»: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

«ولا نظر الانتظار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[3] اللهم إلا انتظارهم ليلحقوهم إلى الجنة على نورهم كما هم مسرعون، وأنّى لهم وهم مظلمون مبطئون!.

أو انتظار الشفاعة لمن ينظرونهم أمل الشفاعة، ولكنه أيضاً النظر «إلى» وهنا النظر «انظرونا» فهو نظر يفيد الاقتباس من ذلك النور.

وقد التمسوا محالاً فأجيبوا بمحال مضاعف: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فليس هذا النور بالذي يلتمس هنا، ولا بالذي يقتبس من أهل النور هنا، وإنما يلتمس ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ يوم الدنيا التي خلفتموها وراءكم ظهرياً، ومن ثم يقتبس منه هنا، أو كان أصله من هناك ثم يتمم هنا بشفاعة أو التماس، ثم يكون تمام الاقتباس: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[4]، وأما الذين لم يلتمسوا من ورائهم نوراً هناك، فلا نور لهم هنا، لا أصلاً ولا تتميماً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[5] ولكن أهل الله ينظرون بنور الله دونما ضوء

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٩.
(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٥) سورة النور، الآية: ٤٠.

بصري منه يُقتبس، فأين المنافقون القائلون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾؟ والمؤمنون ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾(١)؟

وهذا الجواب المهانة العتاب يحمل محالين: الرجوع إلى الوراء: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾(٢) والتماس النور لو رجع: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾(٣).

ولماذا ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ﴾ لا «قالوا»؟ علّه لأن القائل هنا ليس هم المؤمنين أنفسهم، أو هم كلهم، بل هم خزنة النار بإذن العزيز الجبار، أو أنه قيلٌ من الرسول ﷺ الذي كان يذكرهم ذكراهم هذه ليل نهار، فلم يستفيقوا من نومتهم، فاستحقوا هكذا استهتار، بأمر تعجيزي يستهزأ بهم كما كانوا يستهزئون بالمؤمنين، أو أنه مكر من خير الماكرين أن يرجعوا إلى وراءٍ لهم إليه الرجعة، وراءٌ في المحشر نفسه، فيُفاجؤون بسور له باب، كلٌّ محتمل ومتحمَّل، والجمع أجمل.

لقد كان المؤمنون والمنافقون يتراؤون ويتسامعون في حوار حاسم، فضرب بينهم بحجاب الجواب العتاب، ثم حجاب سور له باب بعد ذلك الجواب:

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾:

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧٣ - أخرج الطبراني وابن مردويه قال قال رسول الله ﷺ: إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على العباد، وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون: (ربنا أتمم لنا نورنا، فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً).

أقول: نور المنافقين هنا ضوئي عرضي امتهاناً ومكراً حسناً، ونور المؤمنين ذاتي كسبي إكراماً لهم وتكريماً.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

تُرى ما هذا الحجاب، وما هذا الباب، وما هو باطن الرحمة وظاهر العذاب؟؟

هل أنه حجاب الأعراف؟: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ...﴾[١] قد يكون، وليكن حجاباً دائباً لا يستطيع أصحاب النار اختراقه يمنة أو يسرة أو من علٍ، فليكن سوراً دائرياً أو مثله، لا طولياً له جانبان منتهيان، فإنهما له بابان، فلا حاجة فيه إلى باب، ولكنه ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ فالسور توحي بحجاب يحيط من الجوانب كلها، فإنها الحائط المشتمل، والباب - أياً كان - توحي أن لا سبيل إلى داخل السور إلا منه، إذاً فهي حائط محيط بأهل الجنة ومحاط بأهل النار، والباب هذه بابها إلى الجنة، فهي باب الرحمة، وباطن السور فيه الرحمة: واقعها إذ يعيش أهلها النور، وبشارتها، إذ هم يخرجون من بابها إلى الجنة، وظاهر السور ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ قبل نفس السور ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ واقعه إذ يعيش أهله الظلمات، ومستقبله إذ يستقبلون فيه النار.

فلن يدخل السور، ولن يقرب إلى باب السور، إلا أهل النور، وأما المظلمون فهم خارج السور، وناؤون عن باب السور، فالمؤمنون هم في مربع النور: معهم، وفي السور، ومن باب السور، وإلى الجنة النور، والمنافقون ومعهم الكافرون هم محرومون عن النور بما حرموا أنفسهم.

وهذا من الفصل يوم الفصل بين المؤمنين وسواهم، ثم هناك فصائل أخرى تفصل بينهم تلو بعض، أو مع بعض حتى يتم الفصل، حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ثم لا تراءٍ ولا حوار.

وبما أن كل ما في الآخرة هو مثال لما في الدنيا ثواباً أو عقاباً، جزاءً وفاقاً، فهذا السور المضروب بينهم في المحشر مثال عما ضرب بينهم يوم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

الدنيا، سور الحياة الدنيا، الذي حاول المؤمنون أن يبطنوه وينظروه عميقاً وبعيداً فبصّرهم: «من أبصر بها بصرته» وغيرهم نظروا إلى ظاهر منه و«أبصروا إليها فأعمتهم»: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1] والدنيا هي الدنيا والسور هو السور، وإنما اختلفوا وافترقوا في مفترق النظر بحديد البصر، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

ف ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ كما في باطن الحياة الدنيا الناحي منحى الرحمات لمن أبصر بها، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كظاهر الحياة الدنيا لمن أبصر إليها، فالحياة الدنيا في باطنها الرحمة، وظاهرها من قِبَلها العذاب، لا أنها العذاب أو فيها العذاب، وإنما من قِبَلها وبسببها لمن يعلم ظاهراً منها ويجهل باطنها.

ومن لطيف التعبير «فضرب» ماضياً، لا «فيضرب» مضارعاً، رغم استقبال الضرب، مما يوحي أن هذا السور المضروب يوم الأخرى كان مضروباً من قبلُ يوم الأولى، فليس سور الأخرى إلا استمرار الأولى في صورة أخرى!

ثم هذا السور حاجب الرؤية وليس حاجب الصورت حيث الحوار والتنادي: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في سور الدنيا، ونعيش مع بعض، ويساكن بعضنا البعض، عشنا في صعيد واحد، وحشرنا معكم في صعيد واحد، فلماذا هذا الفراق بين الرفاق؟ وقد كنا مسلمين!.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: كنتم معنا معية الزمان والمكان وفي ظاهر الإيمان، وليست

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

تفيد هذه المعية المادية الجوفاء، إذا اختلفنا في معيةٍ حقيقة الإيمان، فمقاييس الأخرى تختلف عن الأولى اختلاف الحساب عن الفوضي.

﴿... بَلَىٰ﴾ فيما لا يفيد هنا، و«لا» فيما يفيد: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

لكنكم عشتم مربع الظلمات بدلاً عن مربع النور: فتنة الأنفس، والتربص، والارتياب والغرور، وأين مربع الظلمات من مربع النور!.

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أنفسكم أنتم عن برهاني الفطرة والرسالة، فخسرتم النور الأول، والتهيتم عن النور المبين، و﴿فَتَنتُمْ﴾ المؤمنين الذين هم كأنفسكم قضية الإيمان لو كان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾(١) وليتكم ما لبثتم في هذه الفتنة فرجعتم إلى نور الفطرة والرسالة، ولكنكم ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ وتلبثتم ماكثين في هذه الفتنة الالتهاء فقست قلوبكم: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢) ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤) فالتربص في الفتنة تُعمِّقها وتزيدها ركسة عن الحق، تربصتم بأنفسكم في الفتنة وتربصتم بالمؤمنين الدوائر: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٥) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٦)، كذلك وتربصتم عن التوبة والإنابة إلى الله، ثالوث التربص المنحوس.

---

(١) سورة البروج، الآية: ١٠.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٤) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤١.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٩٨.

ولو أنكم رجعتم عن الفتنة المتربصة بكم وبالمؤمنين، والمتربصين عن التوبة، ورجعتم إلى الله، قفزة إلى الفطرة قبل انكسافها بالمرة، لرجع لكم نور العلم فالإيمان، ولكنكم ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ إذا استأصلت الفطرة عن نورها فأظلمت، فأوصلتكم الفتنة المتربصة المستقرة إلى الريبة، ريبة في كل حق ناصع، أو إيماناً بكل باطل فاجع: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾[1] فقد كفرتم بالرسالة الإلهية الناصحة الناصعة كفر النفاق والشقاق.

وطالما الخطوة الثالثة الريبة بعد تربص الفتنة زَلِقة خطرة، ولكنما الأمل في الرجعة إلى الهدى بعدُ واقع وإن بصعوبة، ولكنكم «وغرتكم الأماني»: ثالوث الأماني الفارغة الجوفاء، من النفس الغَريرة، ومن الشيطان الغَرور، ومن الكفار الغارين، وساعدتكم في هذا الثالوث المنحوس الدنيا الغَرور، بكل زور وغُرور.

وكأنها أنزلتكم إلى درك الطمأنينة إلى الباطل لحد الإيمان به واليقين، إذ زال عن فطرتكم كل نور، فلم تبق إلا الظلمات، حيث الأماني تستحكم عرى الفتنة والارتياب، ولا سيما أمنية انتكاس أمر الإسلام، وارتكاس المسلمين، فـ «تجنبوا المُنى فإنها تذهب بهجة ما خُوِّلتم وتستصغرون بها مواهب الله جل وعزّ عندكم، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم»[2]، وهكذا عشتم مربع الظلمات ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: بالموت والسؤال والحساب والعقاب، وكانت حياتكم كلها حياة الغرور إذ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾: الشيطان المبالغ في الغرور، فإن له أيادٍ في مربع الضلال، ولكنه ليس ولا يمكن إلا باستجابة المغرور، دون تسيير وإنما مسايرة الزور والغرور.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٢.

(٢) أصول الكافي بإسناده إلى أبان بن تغلب قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

وهكذا يخطو الغَرور بالإنسان إلى دركات الغُرور، لا لأن غروره قوي وإنما لضعف المغرور، انضعافاً من الإنسان، فانضيافاً إلى الشيطان و﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[2].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

فليس لكم هناك مال تفدون به، أو نفس تفدي عنكم، ولو كان فـ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ...﴾ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[3] رغم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾[4] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾[6].

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ في دار القرار، كما كان مأواكم في دار الفرار ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: أملك بكم وأولى بأخذكم، فكأنها تملككم رِقاً، ولا تحرركم عتقاً، وكما كنتم أرقاء لموجبات النار، جهنم تصلونها وبئس القرار.

لقد حان الآن أن ينحى المنافقون نحو الإيمان، فتخشع قلوبهم لذكر الله لو كانت لهم قلوب، فالمؤمنون أجدر بذلك وأحرى:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

إنه ليس المنافقين والكافرين فقط هم الذين ينسيهم الشيطان ذكر الله،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩١.
(٤) سورة الرعد، الآية: ١٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٦.
(٦) سورة المعارج، الآية: ١١.

فيخطوا بهم خطواته، بل هو إلى تضليل المؤمنين أرغب، فحيا إلى مطاردة الشيطان أن ندحره عن صدورنا وقلوبنا فإنه الوسواس الخناس:

بخشوع القلب يخشع القالب، وقد يخشع القالب والقلب لاهٍ، ورين القلب لا يزيله ويجليه إلا ذكر الله، ذكر يأخذ بأزمة القلب ويستكن في زواياه، فليس ذكر اللسان إلا من بواعث ذكر القلب، وإلى أن يصبح العبد كله ذكراً الله!

فالذكر الذي لا يخشع به القلب، هو قالب الذكر وليس قلبه، وإنما حقيقة الذكر هي التي تقلِّب القلب إلى الله، وتفرغه عما سوى الله.

وهنا الآية ترن رناً عاتباً حنوناً، وتئن أنّاً صارخاً على أسماع المؤمنين منوناً، محذِّرة إياهم أن تقسو قلوبهم بطول الآماد في التغافل والتساهي عن ذكر الله، فإن ذكر الله درجات، كما أن نسيانه دركات، ومهما يبلغ الإنسان إلى درجات من الإيمان، فبعده درجات ودرجات، لو قيست إلى ما قبله لكان كالدركات.

فليعش المؤمن حياته تروية دائبة لقلبه بمياه ذكر الله، فهذا الخطاب الودُ العتاب يواجه المؤمنين كافة إلا المقربين، يواجههم الطول التاريخي والعرض الجغرافي أن يحاولوا في تخشيع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق دونما غفلة ومماطلة أو مماهلة، محذراً إياهم أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم أمد الذكرى فنسوا وغفوا فقست قلوبهم، وليس وراءَ قسوة القلب إلا كل فسوق وخروق، وإلى الكفر.

والقلب - كما سمي - كيانه التقلب والانقلاب، فلا بدّ له دوماً من زمام رباني يزمه عن الأزمات التقلبات، فلا بدّ من الطّرق المتواصل عليه بطوارق أنوار الذكر حتى لا يبلد ويقسو وتنطمس إشراقته، ولكي يرق ويبرق ويشف ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] تخرج عن تقلباتها الفوضى، وتطمئن إلى الله العلي الأعلى.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ذلك لأن قلب الروح يعشق اللامحدود، وإنما تقلبه وتزلّقه إلى هنا وهناك، إلى هذا وذاك، دونما وقفة واطمئنان، لأنه لا يجد بغيته في هذه المحدودة الزائغة الزائفة من كائنات الوجود، فإذا تعلق بالله اطمئن وارتكن، ثم لا تقلُّب ولا انفلات، اللهم إلا لمن لم يعرف ربه كما يحق، فقد ينزلق إلا من اعتصم بالله وعصمه الله.

إن طول الآماد في فترات الرسالات من أهم ما يُنسي ذكر الله فتقسى بها القلوب، لأنهم ينورون القلوب ويحركونها بسناد الوحي فلا يخطئون أو يتباطؤون، ومَن سواهم من مبلغي رسالات الله إنما يصدرون عنهم غُيّباً وحضوراً فقد يتباطؤون أو يخطئون، مما يقلّل من تأثيرات العظات، فتتعاظم القساوات في ثالث الأدوار، دور الانتظار الذي نعيشه، إذ لا رسول ولا إمام حاضراً، وإنما منتظراً ليأتي ويقوِّم الأود، فهذا الدور من أخطر الأدوار تقاسياً للقلوب، ومن أكثرها مسؤوليات على عواتق المسلمين، فإذا يؤثر طول الآماد في الفترات الرسالية في قساوات القلوب، والرسالة غير منتهية، والفترة محدودة، فماذا يكون أحوالنا في دور الانتظار وقد انتهت الرسالة والرسالات، وختم دور الإمامات، والفترة طائلة لحد غير معروف، ولحد الآن ألف وست وستون سنة تمضي على الغيبة التامة لدور الإمامة، ولم يسبق له مثيل طولاً، ولا يأساً قاطعاً عن تجديد الرسالات.

فإذ تئنُّ آية الأنَّ على المؤمنين زمن الرسول[1] وعلى أسماعهم تئن الآيات

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧٤ - أخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ . . .﴾ وفيه أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال: أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ولقد أنزل علي في ضحككم آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] قالوا: يا رسول الله ﷺ! فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون قدر ما ضحكتم، وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم إلا أن كل ما هو آت قريب، إنما البعيد ما ليس بآيات.

من أقوى الرسالات الإلهية، فنحن الغيَّب عن ذلك الزمن، وعن زمن أئمة تلكم الرسالة، نحن أحرى وأجدر وأفقر إلى هذه الرنة الموقظة، فلنأخذها نصب عيوننا، وصغي آذاننا ونقول: بلى يا رب! قد آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك وحقيق لمن له قلب أن يصعق ويتفتت لما يسمعها كبعض الأولين(١).

وترى ما هو الفارق بين «ذكر اللّه» و«ما نزل من الحق» وهو أفضل ما يذكرنا الله؟. قد يكون ذكر الله أعم مما نزل من الحق، حيث الحق النازل هنا هو القرآن وهو نبي القرآن بسائر بيناته، وهو أحق ما يذكر الله من خوارج الذوات، ولكنها لا تذكر الله إلا باستجابة من دواخل الذوات، فِطَراً وفِكراً وعقولاً بما معها من مذكرات آفاقية وأنفسية، فذكر الله يشمل سائر ما من شأنه أن يذكرنا الله مما نزل من الحق وسواه، فالحق النازل تشريعاً من طرق الرسالات، والحق النازل تكويناً من سائر الطرق، يتناصران في تحقيق ذكر الله الذي يُخشع القلوب.

ومن الفوارق الأدبية بين «ذكر الله» القرآن. و«ذكر الله» سوى القرآن، إنه في القرآن إضافة إلى الفاعل فإنه المذكر لله، وفي سواه إضافة إلى المفعول فإنه يذكرنا الله: «ذكر القرآن» - «ذكر ما سوى القرآن» ولا ضير أن يجمع ذكر الله هنا فاعله ومفعوله سواء.

---

(١) روح المعاني للألوسي ج ٢٧ ص ١٨٠: روى السلمي عن حمد بن أبي الحواري قال: بينا كنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً قد خر مغشياً عليه فقلت: ما هذا؟ فقالوا كان رجلاً حاضر القلب فسمع آية من كتاب الله فخر مغشياً عليه فقلت: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فانشأ يقول:

أما آن للهجران أن يتصرما ... و للغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصب الذي ذاب وانحنى ... ألم يأن أن يبكي عليه ويرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحي ... كتاباً حكى نقش الوشي النمنما

ثم قال: إشكال إشكال فخر مغشياً عليه فحركناه فإذا هو ميت.

ولو أن ذكر الله - أياً كان - دخل شغاف القلب، وأخذ بزمام القلب فهنا الخشوع دونما محاولة أخرى، ولو أنه بقي في حالة الأهبة والذِّكر قالباً، ولم يتحول إلى القلب فلا خشوع وبأية محاولة أخرى، وإنما التنديد في آية الأنِّ بمن لم يحول قوالب الذكر إلى القلوب، لا ما نزل من الحق ولا سواه، وإنما اكتفوا بذكر اللسان، ومن ثم بكل هؤلاء الذين وقفوا عن الحراك في تحكيم ذكر الله في قلوبهم، أو يتباطؤون في الحراك، مهما انقلب ذكرٌ من الله إلى قلوبهم، فليس لذكر الله حد ولا نهاية، وعلى السالك أن يتسارع في هذه السبيل حتى يتوفاه الموت، ومن ثم يُسرع بالعجلة التي قدمها لنفسه.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: ألم يأت آن وحين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بألسنتهم دون قلوبهم، أو بقلوبهم أحياناً دون أخرى، أو ببعضها دون الآخر، أو بدرجة دون تزايد ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ كل ما يذكر الله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قرآناً وأيا كان، ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ من اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾: الأجل والفترة بين الرسالات ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شاؤوا أم أبوا ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم العامدون الضالون المضللون. فقيل منهم ضالون جهلاً وقصوراً فهم ليسوا بفاسقين، وقليل من هؤلاء القلة مؤمنون صامدون رغم طول الآماد وبواعث القساوات، وهنيئاً لهذه القلة المؤمنة، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة من الملة الحنيفة المحمدية، وفي أقسى الزمن وأطول الفترات: دور الانتظار، نظرة الانتصار.

وترى هل من فرج بعد الانكسار بما تقاست القلوب في فترة الانتظار، وماتت الأرض؟ اللهم نعم:

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

إن إحياء الأرض بعد موتها، لا بعد إماتتها، توحي أن موتها منها،

وإحياءها من الله، فهي إذاً الحياة الروحية، بعد موتها عنها بما قست القلوب[١] وإن كانت تشمل حياةً قبلها بموتها هي الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية الجسدانية، وكذلك حياة بعدها هي الحياة الأخرى عند القيامة الكبرى، ولكنما المقصود الأصيل من الحياة هنا هي الوسطى: الروحية السامية، زمن قيام الدولة الإسلامية الكبرى بزعامة القائم المهدي عليه التحية والسلام[٢]، لمكان (بعد موتها) وأن الآية تحتف بها آيات لا تناسب الحياة المادية فحسب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ...﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ...﴾ وإن كانت تلمح بالحياة الأولى والأخرى أيضاً.

فالأرض المبشَّر بإحيائها هي الأرض الناقصة من أطرافها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾[٣] وهو ذهاب نورها وبهجتها بذهاب علمائها العارفين بالله، ومؤمنيها المتمسكين بدين الله.

كما وأنها أراضي القلوب التي خوت عن خشية الله، وانطفت عن نور

(١) الكافي بإسناده عن أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام في الآية: قال: ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله عز وجل رجالاً فتحيي الأرض لإحياء العدل ولإقامة الحد فيها انفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً.

أقول: سلب الإحياء بالقطر عله سلب الحصر، وكما يزعمه البسطاء، فإن الآية تشملها وإن تلويحا.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾. قال: يحيي الله تعالى بالقائم بعد موتها، يعني بموتها كفر أهلها والكافر ميت.

وفيه بإسناده إلى سليط قال: قال الحسين بن علي عليه السلام منا اثنا عشر مهدياً أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم التاسع من ولدي هو القائم بالحق به يحيي الأرض بعد موتها ويظهر به الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي روضة الكافي بإسناده إلى محمد الحلبي أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ - قال: العدل بعد الجور.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٤١.

معرفة الله، فالله تعالى يحيي هذه وتلك، زمن الانتظار أحياناً، وزمن الانتصار تماماً، إذ لا حكم إلا لله، فلا يعبد إذاً إلا الله.

فلا يقوم قائم الانتصار إلا بعدما ملئت الأرض ظلماً وجوراً وهذا موتها، فهو يملأها قسطاً وعدلاً، وهذا إحياؤها، وإن كان لا بدّ لتأسيس هذه الدولة العالمية من مساعدين من أقوياء المسلمين، فهم أولاء، العشرة آلاف جنود المهدي عليه السلام وثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً أصحاب الألوية، إضافة إلى من يرجعهم الله من سائر المؤمنين الأشداء رجعة الاستعداد أو الاستدعاء! اللهم اجعلنا منهم أحياء أو أمواتاً.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

مزيد تأكيد لإقراض الله قرضاً حسناً متصدقاً فيه وفي سواه من إنفاق في سبيل الله، والتصدق هو التجافي عن حق لمن يحتاجه، بتكلف، كأن يحبه كثيراً، أو يحتاجه دون ضرورة أم ماذا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾:

إن الصديقين والشهداء عند الله ليسوا أُناساً خصوصاً تُحتكر لهم هذه المقامات، وتحجز لهم لأنهم أصحاب القرابات إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو أياً من ميزات اللهم إلا القُرُبات: الإيمان بالله ورسوله وإن كان له درجات، فالصديق والشهيد عند الله هو الذي بلغ الذروة من الإيمان عقيدياً وعملياً، فإن الإسلام شريعة لا مجال فيها للطبقيات في نيل الدرجات.

ومن المؤمنين الذروة من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على

نفسه ودينه[١] مما يدل على أن دينه أعز عنده مما سواه، وإن كانوا هم أيضاً درجات.

صحيح أن المؤمن لن يصل إلى درجة النبيين، إلا أن له أن يضاهيهم فيصل إلى درجة الشهداء والصديقين وكما هم شهداء وصديقون: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[٢] ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[٣] ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾[٤] فالصديقون والشهداء هم من مربع النور: الرعيل الأعلى المنعم عليهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[٥] فقد بلغ الصديقون إلى درجة يؤمر المصلون أجمعون أن يهديهم الله صراطهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[٦] فهم البالغون القمة في النعمات الروحية الإلهية، اللهم إلا رسالة الوحي في غير النبيين منهم.

إذاً فبإمكان المؤمن أن يصطف في صفوف النبيين اللهم إلا الوحي والعصمة الخاصة بهم، فإنهما جذبة إلهية لمن كمّل سيره إلى الله، فيصطفيه الله تكميلاً لما قصر هو عنه، فالنبوة بين سعي بشري واصطفاءٍ مكمل إلهي.

ولأنهم صديقون عند ربهم، فهم الشهداء عند ربهم كما النبيون شهداء: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[٧] ومحمد ﷺ

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧٦ أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «... كتب عند الله صديقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً وتلا هذه الآية ثم قال: والفارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة».

(٢) سورة مريم، الآية: ٤١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٦) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

هو شهيد الشهداء: نبيين وصديقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1].

إنهم يشهدون على أعمال العباد لأنهم صديقون لا يكذبون ولا يسهون، فحياتهم الصدق دون أية كذبة، ولا تورية إلا ما يشاء الله ويرضى، وكيف يمكن إلقاء الشهادة ممن لم يتلق الأعمال، فهم - إذاً - يُلقّون أعمال العباد ويتلقونها يوم الدنيا حتى يشهدوا بها ويُلقوها في الأخرى، كما وأنهم شهداء عند الله: حضوراً عنده وليسوا غيَّباً، يشاهدون جلاله وجماله، كبرياءه ومناله، عميانٌ عمن سوى الله، لا يرون شيئاً إلا وقد يرون الله قبله وبعده ومعه وفيه، رؤية علم ومعرفة كأنها عيان: «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وهم كذلك شهداء الله وحججه يوم الدنيا، يدلون اليه، مجاهدين في التدليل عليه، مثلث الشهادة الصادقة للصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

هؤلاء لهم أجرهم كما سعوا، ونورهم كما قدموا ولا يظلمون فتيلاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: رسلاً ورسالات بسائر الآيات ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: نار شديدة التأجج، كما هم كانوا ناراً على أصحاب النعيم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾:

إن الحقيقة في الحياة الدنيا، وراءَ كل ما يبدو فيها هي الحياة الخماسية الزهيدة الجوفاء، دون بقاءٍ ولا وفاء، تجمعها «إنها حياة الغرور»: غرور لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ومن ثم هي ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

أبصر إليها فأعمته عن حقيقتها، وهي هي ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لمن أبصر بها فبصرته، فهي من طبعها حياة الغرور لمن لا يحدُّ البصر، وهي ثانية حياة المغفرة والرضوان لحديدي البصر! فعلى السالك السبيل من هذه القنطرة الخطرة أن يعمق النظر ويحد البصر، لكي لا يغره بالله الغرور في هذه الحياة الغُرور.

إنها حياة ذات وجهين ووجهتين: باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قبله العذاب، وكما تضرب هي سوراً بين أهل الجنة والنار يوم القرار.

فبإمكان الإنسان أن يجعل من الحياة الدنيا حياة عُليا، أن يقنطرها للأخرى، ويستخدمها للارتقاء في مراقي العبودية والتقى، فإن الدنيا مدرسة الآخرة!.

يجعل بدل اللعب الطفولي، العمل البناء البطولي، وبدل اللهو عن ذكر الله لهواً عما سوى الله وعيشة مع الله، وبدل زينة الحياة الدنيا، زينة الحياة العليا: الإيمان والتقوى، وبدل التفاخر بالأرذل الأدنى، التناصر فيما يحب الله ويرضى، وبدل التكاثر في الأموال والأولاد، التكاثر في المثل العليا.

إن دور اللعب هو دور الطفولة، يتعبون أنفسهم فيما لا يُعنى، فتذهب أتعابهم سدى، واللهو دور الشبان، إذ يلتهون عن مهمات الحياة إلى ملذاتها وملماتها، وعن عقلياتها إلى شهواتها، ثم لا يبقى لهم بعد انقضائها إلا حسرات، إذ يرى تقضّي العمر والمال واللذة العمياء، والزينة في الملابس والمراكب والمساكن دور الكهولة أو ما يشارفها، بعدما انقضى ثورة اللهو والشهوة، ثم بعد الكهولة دور التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والألقاب الفارغة الجوفاء، وأخيراً دور التكاثر في الأموال والأولاد وقد يتخطى الأحياء إلى الأموات: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[1].

---

(١) سورة التكاثر، الآيتان: ١، ٢.

ومن الناس النسناس من يعيش هذه الأدوار طول حياته، صبياً في كهولته، شاباً في طفولته، طفلاً في رجولته، يلعب ويلهو وهو شيخ هرم، ويلعب دور الزينة والتفاخر والتكاثر في سني عمره كلها «فأولى لهم ثم أولى لهم»!.

وهنا الآية تمثل خير الأمثال للحياة الدنيا (كمثل غيث) مثلاً عن الحياة العليا، الخليطة بزخارف الدنيا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)].

والغيث من الغوث: المطر المغيث العطشى، والمغيث الحب والنوى، وكذلك الحياة العليا الإيمانية تغيث أصحابها عن غرور الدنيا وزخرفاتها، وهي الحياة المستجيبة لنداء الفطرة ورسالات السماء.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾: هل الكفار هنا هم الزرّاع إذ يكفرون البذر ويسترونه تحت التراب؟ وقد يناسبه الغيث والنبات! ولكنها إذاً آية يتيمة في هكذا كفر بين آيات الكفار كلها[(٢)]! أم هم الكافرون الساترون الحاجبون الفطرة عن نور الحق، والساترون سائر الحق بحجب التكذيب والإنكار؟

قد يلائمه سائر آيات الكفار، وغير فصيح ولا صحيح أن يعني به في هذه اليتيمة غير ما عنى به في سائر العشرين آية، فلماذا لم يقل الزرَّاع لو كان معنياً من الكفار، كما في سائر آيات الزرَّاع[(٣)]؟ وقد قورن بالكفار في واحدة منها: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[(٤)]! ولكنما العجاب من نبات

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) وهي إحدى وعشرون آية لا يحتمل معنى الزرع إلا في هذه.
(٣) وهي أربع عشرة آية.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

الغيث لا يخص الكفار، زرَّاعاً أم غير زرَّاع، بل يعجب المؤمن والكافر، ولا سيما الزرَّاع مؤمنين أو كافرين!

قد يعني به الزرَّاع هنا مضمّناً الكفار، تورية وإلماعاً إلى إعجابهم بالحياة الدنيا، فالغيث يعجب الزراع وأحرى، ويعجب الكفار زراعاً وسواهم، وأين عجب من عجب؟ عجبٌ كافر وهو عجابُ كافر، وعجبٌ مؤمن وهو عجاب مؤمن، عجبٌ لاهٍ، وعجب من رحمة الله.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ النبات ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾: كسراً هشيماً تذروه الرياح، وهكذا ينتهي شريط الحياة الدنيا العاجلة الزهيدة، ثم هي ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للزراع الكافرين المعجبين بظاهر الحياة الدنيا، اللاعبين اللاهين المتزينين المتفاخرين المتكاثرين ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ للزراع المؤمنين، الذين استفادوا من غيث الحياة إغاثة لها عن دنياها، فما زخرفوها أو دنّسوها بغرورها وزورها، بل أنبتوها من هذه الممرة الكأداء نباتاً حسناً، فهي في الآخرة ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لمن قصر قليلاً وجاهد كثيراً «ورضوان من الله» لمن عاش حياته رضوانَ الله.

فإنما الدنيا مزرعة الآخرة، وأهلها كلهم زراع، فمنهم من يَخسر زرعه ويُخسر كالزراع الكفار، ومنهم من يَربح ويُربح كالزراع المؤمنين.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: إنها متاع يتمتع به إلى حين: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١] دون استمرار ليوم الدين، وهي كذلك متاع يشترى به غفران من الله ورضوان، وإن كان قليلاً بجنب ما يبدل عنه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢] فلا أصالة للحياة الدنيا

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

القلة إلا متاعاً في الآخرة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1] أجل إنها متاع ولكنها تغري المتمتعين بها أنها أصيل، يبصرون إليها كغاية فتعميهم عماية عن حقيقتها المتاع الزهيد، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ولو أبصروا بها فهي في الآخرة مغفرة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾!.

ولو استعلمنا بعيد النظر في هذه العبر وجدنا أن القرآن لا يقصد بهذه المهانة للحياة الدنيا إهمالها والعزلة عنها فنعيش حياة الرهبان والدراويش، وإنما يقصد تصحيح المقاييس في استعمال هذه الحياة لتتخطى الدنيا إلى العليا، والاستعلاء على غُرور هذا المتاع الغرور، لنستبدل بها حياةً أبقى وأرقى في الآخرة والأولى، فالدين يستعمر الأولى قبل الأخرى ويستمر بالإنسان في حياة عليا وهو في الدنيا، ويصنع ميادين السباق للرفاق في هذه القنطرة إلى مغفرة وجنة:

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾:

نؤمر هنا بالسباق، وفي غيرها بالسراع: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وهكذا يجب أن تكون مسارع الحياة ومصارعها إلى الله، لا إلى اللهو.

وهل هناك من فرق بين آيتي آل عمران والحديد؟ إن هذه تقدّر عرض الجنة كعرض السماء والأرض، إذاً فليست هي في السماوات والأرض، ولا كعرضهما، وإنما كعرض السماء والأرض، وعلّها السماء الأولى أو أية سماء؟ ولأنها للمتقين.

وتلك تقدّر عرضها السماوات والأرض، فهي إذاً فيهما وكسعتهما، بالسماوات السبع، ولأنها للسابقين فهي أوسع؟.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

أقول: لا هذا ولا ذاك، فإن جنة المتقين والسابقين وأيٍّ من المؤمنين هي فوق السماء السابعة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾[(١)] مهما كانت لها درجات حسب الدرجات، وسدرة المنتهى هي منتهى الكون المحيط بسائر الكون، ومن الأفق الأعلى لصاحب المعراج قبل مقام أو أدنى، هذه الجنة فرشها عرش السماء السابعة و«سقفها عرش الرحمن»[(٢)].

ولو كانت هي في السماء والأرض لم يكن عرضها كعرض السماء والأرض، ولا عرض السماوات والأرض، وإنما «جنة هي السماوات والأرض» فالسماء هناك هي السماوات هنا وكما في غيرها، إلا إذا قيّدت بالدنيا «السماء الدنيا» أم ماذا، والعرض هو السعة، لا ما يقابل الطول، فإن السماوات والأرض ليست عرضاً مقابل الطول، وإنما هي سعة جامعة للعرض والطول، فـ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[(٣)] تعني سعتها ليس إلا.

وبعد كل ذلك فشكل السماوات والأرض دائري كروي لا طول له ولا عرض، وإنما محيط وسطح وحجم، وإن الجنة معدَّة الآن للمتقين والذين آمنوا بالله ورسله، ولا نرى إعداداً في الأرض أن تصبح من الجنة، ولا في السماء. إذاً فسؤال: إذا كان عرض الجنة كعرض السماوات والأرض، فأين النار؟ هذا السؤال ساقط لا جواب له إلا اختلاف المكان. وما يعزى من جواب إلى النبي ﷺ: «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل؟» مختلق، فمن المحال اجتماع الليل والنهار في أفق وجو واحد، فكيف تجتمع الجنة والنار في السماوات والأرض؟ وساحة الرسول بريئة من هذه الهرطقات!.

ثم المسابقة المسارعة إلى مغفرة من الرب هي في الدنيا، ومن أعمالنا،

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٥.
(٢) كما يروى عن الرسول ﷺ تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٢٥٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

وهما إلى الجنة - منذ الموت إلى ما يعلم الله - من فضل الله نتيجة أعمالنا بما وعدنا الله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

فالمسابقة إلى مغفرة مسابقة - بالمآل - إلى الجنة، فالدنيا هي ميدان سباق إلى الجنة، يجعلها أهلها سباقاً إلى النار، فأين سباق من سباق، وجنة من نار؟.

ترى وكيف السباق إلى غفران الله، وبأية وسيلة؟ إنها ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات، والإنابة إلى الله، والتوبة النصوح، وتبنّي الحياة إيمانية مهما تسرَّبتها أخطاءٌ صغار، فهنالك الشفاعة، وهنالك قبول التوبة، وهنالك تكفير السيئات، ومن ثَمَّ جنة عرضها الأرض والسماوات، أُعدَّت للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فليست الجنة حصرة على المقربين، وحسرة على مَن سواهم من المؤمنين.

توحي المسارعة إلى مغفرة، أنه كما التوبة واجبة، كذلك السرعة لها والمسارعة إليها واجبة، فإن في تأجيلها قسوة فحسرة وندامة، وفي تعجيلها تنوير للقلب المظلم ورجعة إلى الرب وكرامة.

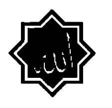
ترى ولماذا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو من فعل الله لا المستغفر؟ ولم يقل: «إلى استغفار ربكم»! لأن كل استغفار لا تتبعه المغفرة، وإنما استغفار التوبة النصوح: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ...﴾(٢).

فالواجب تهيئة الوسائل لغفران الله كما يحق، وبما يشاء الله ويرضى، فـــ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٣) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

(١) سورة الجمعة، الآية: ٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٦.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٩.

ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ. . .﴾[٢] هؤلاء ممن تحق لهم المغفرة فالجنة.

وترى أن الإيمان بالله ورُسله كتقوى عقائدي كافٍ في استحقاق فضل الجنة؟ كلا، اللهم إلا بتقوى عملية وكما في آية آل عمران: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] وإن آية الصدِّيقين والشهداء اكتفت بذكر الإيمان بالله ورُسله، ولا ريب أن إيمانهم قمة الإيمان، وإن كانوا أيضاً درجات.



(١) سورة الحجرات، الآية: ٣.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن

نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾:

فما هي المصيبة المعنية هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو الرباط بين ترك الأسى والفرح وبين المصيبة المكتوبة؟:

المصيبة هي النائبة النازلة التي تصيب دون خطأ، الرامية المصيبة الهدف، وهي الرحمة المصيبة أهلها، من الصّوب: نزول المطر، فهي تجمع إصابة الحسنة والسيئة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1].

وهذه الإصابات كلٌّ بإذن الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] و﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3] ولكنما الحسنة من الله كما هي من عند الله، والسيئة من نفسك وإن كانت بإذن الله ومن عند الله، فالله أولى منا بحسناتنا، ونحن أولى منه بسيئاتنا.

وإصابة السيئات قد تكون لأهلها بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[4] إصابة بذنوبهم: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[5]: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[6].

وإذا تصيب المصيبة السوء غير أهلها، فقد تكون امتهاناً لهم بما لم ينهوا وسكتوا ورضوا، كالتاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم قد تصيبهم ما تصيب أهل السوء من إصابات السوء، وقد تكون امتحاناً وتكفيراً عن سيئات كما لأصحاب اليمين، أو تكون ترفيعاً لدرجات كما

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة الروم، الآية: ٤١.

للسابقين المقربين، وكل ذلك تشمله آيتنا هذه، وآيات الكسب تخص غيرهم ممن لهم يدٌ في السوء مباشرة أم سواها(١).

وأما «كتاب» فيه المصيبات، فهل هو كتاب الإذن التكوين؟ اللهم نعم! إذن التكوين بعد إذن التقدير، وبعدما اختار أهل السوء سوءاً، أم وكتاب الإذن التشريع؟ اللهم لا! فإنه لا يأذن بالشر أو يشرعه، أم وكتاب العلم(٢) بما يأذن ويكون؟ طبعاً، فإنه بكل شيء عليم، فأحرى به أن يعلم بما يأذن.

وبما أن الإصابة - أياً كان - هي من خارج، تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه، وليست من أفعاله، فكونها في كتاب لا يعني الجبر، بل وإذا شملت أفعاله فكتابه المسبق لا ينافي الاختيار في الأفعال التكليفية، لأن كتاب العلم انكشاف عما سيكون، لا تسيير لما يكون، وكتاب التقدير يكون على قدر ما يكون بسوء الاختيار، وكتاب الإذن إبرام لما تتحقق مقدماته بالاختيار، وإن كان كتاب الإذن والتقدير تسييراً بالنسبة لنتائج السيئات وعكسياتها إذ لا مفر عنها، بل وهي أيضاً مختارة، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، اللهم إلا لمن تصيبه المصيبة تذكيراً وامتحاناً، وبأحرى من تصيبه ترفيعاً لدرجاته كالسابقين المقربين.

فأنت وأعمالك ومصائبك حسنة وسيئة، وأرضك، كلها ﴿فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾: الأرض والنفس والمصيبة، فلا يخفى منك على الله

(١) أصول الكافي عن علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام «لما حمل علي بن الحسين عليه السلام إلى يزيد بن معاوية فأوقف بين يديه قال يزيد لعنه الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] فقال علي بن الحسين عليه السلام: ليست هذه الآية فينا، إن فينا قول الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢] فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما أوتينا منها.

(٢) علي بن إبراهيم بإسناده إلى عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية: صدق الله وبلغت رسله كتابه في السماء، علمه بها وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وغيرها، أن ذلك على الله يسير.

شيء، ولا تتغلب على مشيئته في شيء، ولا تُجبر على شيء، اللهم إلا في أجلك المحتوم، أو المعلق على غير عملك وفعلك، أو إصابتك بما أنت السبب، أو ما ليس لك نصيب في السبب، فإنها كلها ﴿فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ وهذا إعلام من الله مسبقاً:

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۝٢٣﴾:

ولماذا الأسى على ما فات ومضى، وهو مقدر كائن بحساب دون فوضى، فإن كان الفوت بسيئة منك فهذا شيء مرتقب، فلا تأس، وإنما غيّر سيرتك، وإن كان من غيرك فاعتبره لك عبرة وذكرى أو تكفيراً عن سيئات، أو ترفيعاً لدرجات، إذاً فلماذا الأسى على ما فات؟!.

ثم ولماذا الفرح والمرح بما آتاك الله، فلعله نعمة تضم نقمة فاستعذ منه بالله، أو تجربة فاستعن فيه بالله، أو كرامة من الله امتحاناً فلماذا الفرح؟ فهل تلهيك نعمة؟ وكثير هؤلاء الذين يلتهون! وليس الامتحان في النعمة أهون منه في النقمة: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[(١)].

فلا تحسبن النعمة لباقة منك ولياقة، ولا النقمة عذاباً وآفة، فقد تكون النعمة نقمة والنقمة نعمة، وقد تكون غير ذلك «والدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر»[(٢)].

وهذه الآية تمثل أزهد الزهد في الدنيا لأهل الدين وكما عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) عن علي أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد أخذ الزهد بطرفيه»[١] .. وما من أحد إلا وهو يحزن أحياناً ويفرح أخرى، فليكن صابراً عند الإصابة السوء، وشاكراً عند الخير، دون جزع ولا بطر.

فليست هذه الآية بالتي تجمد الطاقات، وتدعو للاتكاليات، تعطيلاً للمساعي وإبطالاً لها مغبة الأقدار، لأنها ليست إلا حسب المكاسب، أو المصالح واللياقات، وما الخارج الناتج عن كسبه وسعيه ليخطئه لو قدر له امتهاناً أو امتحاناً، فعليه أن يعيش سعياً وكدحاً إلى خير، وراءَ أقداره العاكسة في كتاب، ولكي تصبح مصائبه خيرات وسيئاته حسنات.

هذه الآية تستجيش الإنسان وتستصلبه في الأحداث لكي لا يجزع ويستطار فتسحقه الأحداث، وتعصف به عواصف الزمن وقواصفه، بل يصمد عند الحوادث فيتغلبها دون أن تغلبه، وليستمر في نشاطه وكدحه تخفيفاً عنها أو قضاءً عليها أم صبراً حيث لا مندوحة إلا إياه، فيتعامل مع الأحداث كأنها مرتقبة طول الحياة، فيعالجها بنفسه لا أن يخالجها في نفسه تقسُّماً وانهزاماً، فالأسى على الفائت تشغل البال، والفرح بالآتي يفسد المآل، وهما من سوء الحال، فليكن المؤمن ثابت الحال في كل مجال، كالجبل الراسخ لا تزيله القواصف ولا تحركه العواصف، وهو عماد الزهد وسناد الكدح.

ولماذا «فاتكم» لفوات الحسنات، و«آتاكم»: الله لما أُوتي من رغبات؟... لأن فوت الحسنات مما كسبت أيديكم، والحسنات مما آتاها الله، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه.

---

(١) في نهج البلاغة عن علي عليه السلام وفي أصول الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن الناس ثلاثة: زاهد وصابر وراغب، فأما الزاهد فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته فهو مستريح.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فالمختال هو مفتعل الخيال والخيلاء والكبرياء، فهو فخور يفخر كثيراً بما خيِّل إليه، يعيش حياة الخيال والفخر والكبرياء، ويأسى على ما فاته من الفائدات والرغبات كأنه حق له مغتصب، ويفرح بما أُوتي منها ويفخر كأنه حق له مرتقب، ومن ثم يبخل عما أُوتي من خير ويتخطاه إلى أمر الناس بالبخل:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾:

فما أجهله وأبخله، وما ألعنه وألأمه هذا النكد الأغود الذي يبخل بمال الله - الذي استخلفه فيه - عن عباد الله، ثم يأمر الناس بالبخل ليكونوا معه سواء، متولياً معرضاً عن الله، و﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ غني عن مالِك ومالَك، غني عنك وعن غناك، غني في ذاته وعن مخلوقاته وهم الفقراء، حميد في ذاته وإن لم يكن له حامدون، فما يناله شيء من حمد الحامدين؟!.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾:

هنا إقامة الناس بالقسط بمثلث: البينات والكتاب والميزان طوعاً، وتقويم لهم بالقسط، بالحديد البأس الشديد كرهاً، لمن ليس له طوعٌ إلى الحق ورغبة إلى القسط، الذين يجهلون أو يتجاهلون لغة الإنسان: البينات والكتاب والميزان، فليواجَهوا بلغة الحيوان: حديد فيه بأس شديد، ومن ثمَّ منافع للناس، لأنه يؤدب النسناس ويوقفهم لحد الناس، فمثلث البرهان حجة الناس، والحديد حجة على النسناس، فما هو الميزان بعد الكتاب؟ وما هي البينات قبله؟ وكتابات الوحي كلها بينات!.

إن القرآن بوحدته بينات وكتاب وميزان، ولكن سواه من كتابات الوحي

كتاب وليست ببينات معجزات، وإنما هي مبيّنات بمعجزات أصحاب الرسالات، ومهما كانت ميزاناً بالمآل، ولكنها بما تثبته البينات.

ومن ثم فحملة الرسالات يحملون معهم بينات تثبت تلكم الرسالات، معجزات كافية وآيات وحجج بالغة وافية لحمل الناكرين على التصديق، من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإلا فليجابه بحديد.

ثم الكتاب الحامل لشريعة الله، ناهج مناهج الحياة في كافة الإطارات، وهل ترى الكتاب والبينات يكفيان لتقويم الناس بالقسط دون ميزان معهم يزنون به البينات والكتاب، ويزنون به الجماعات، فيثبتون الحجة ببيناتهم في قلوب الناس، ويحملونهم على تصديق الكتاب، ومن ثم إلى وعيه وتطبيقه؟.

كلا! إنه لا بد من ميزان: عقلي وعلمي وتطبيقي بوحي، كما الكتاب وحي ليوزن الوحي بالوحي، ويصدق الوحي ويطبق بالوحي!.

فميزان الرسل إضافة إلى البينات والكتاب، هو عقل الرسالة وروحها وعصمتها وقدسيتها وحكمتها وحكمها: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1] وهذه الثلاث كلها نازلة من سماء الوحي: بينة وكتاباً وميزاناً، فلا يحمل الرسل من الأرض إلا قوالب وأجساداً، وأما القلوب والأرواح فهي نازلة بالوحي: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[2] روح القرآن وروح نبي القرآن: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3] ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[4] فهؤلاء الرسل الكرام أرواحهم القدسية وعقولهم وعصمهم موازين لوزن البينات والكتاب والمرسل إليهم، ومن ثم ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾!

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٥.
(٤) سورة النحل، الآية: ٢.

وترى أن الناس يقومون بالقسط - فقط - بالبينات والكتاب؟ كلا! وحتى المؤمنين منهم، فلا بدّ من ميزان لتقويمهم على حكم الكتاب بالعدل كما يقومون بالبينة والعقل، من ميزان الحكم القويم المستقيم على ضوء الكتاب بحجة البينات، فالحكومة الإلهية من الميزان النازل مع الكتاب، وإن كان الكتاب بميزان بيان الرسول يمثل التشريع، فميزان الحكم يمثل التنفيذ، فلا قوام لتشريع بلا ميزان الحكم، كما لا حكم وزيناً بلا تشريع إلهي.

هذه هي القوة التشريعية التنفيذية، وترى أنها تقوِّم الناس أجمعين؟ اللهم لا، إلا المؤمنين بالرسالات، الذين يعقلون فيؤمنون، وأما الذين لا يعقلون أو يجهلون أو يتجاهلون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أما هؤلاء فلا بدّ عليهم من قوة رادعة عن التخلفات، ضابطة عن الهمجيات والفوضويات، وما هي إلا الحديد وبأسه الشديد:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾:

والحديد بوجه عام كل ما فيه حدة وصلابة وحتى حدة البصر: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١)، وبوجه خاص هو الحديد المعروف بأصوله وفروعه ومواليده.

و«إنزاله ذلك خلقه إياه»(٢) لا فقط من السماء فإن الله ليس ماكن السماء وساكنها، حتى ينزل ما ينزله منها، وإنما أصل الإنزال في أمثاله إنزال الرحمة من علوِّ ساحة الربوبية إلى المربوبين الهزلاء النازلين كما أنزلت الأنعام الثمانية، وإن كان ذلك لا يمنع نزوله أيضاً من السماء إلى الأرض كالأمطار.

فلما كانت الأرض شماساً مجنونة محترقة، كانت الفلزات كالحديد

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام في الآية: فإنزاله ذلك خلقه إياه.

وأمثاله سائلات أحياناً وغازات وكبخارات في جو الأرض، أخرى، فلما أخذت تقر وتبرد شيئاً فشيئاً، أخذت السحب الغازية الحديدية وسواها تنزل فترة بعد أخرى فتدخل في شقوق الأرض أو تشقها فتدخلها فتصبح معادن تحت الأرض أو على مناكبها الجبال أحياناً!

والحديد هنا «يعني السلاح وغير ذلك»[١] مما يحد ويقدُّ، ومن بأسه الشديد ما هو عند البأس الشديد، ودور الحديد معروف طول التاريخ في الحروب وغيرها، إضافة إلى منافعها الأخرى.

إن البأس الشديد في الحديد لا يخص الأسلحة وفي حالة الحرب فقط، إنه يعم كل ما فيه الحاجة إلى البأس والقوة والصلابة، من صناعات وبنايات وزراعات وسائر الحاجيات المحتاجة إلى البأس، أو غيرها من منافع للناس:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾: و«يعلم» هنا، كما في أمثالها، من العلم: الميز - دون العلم عن الجهل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٢] فمن ينصره ورسله بالحديد السلاح كما ينصر بسواه فهو الطيب، ومن لا ينصر قاعداً عن القتال في سبيل الله من أولي الضرر فهو الخبيث مهما نصر بسواه، فعَلم الناصرين دين الله عن الخاذلين والمتخاذلين من أهم منافع الحديد، فالله يعلمهم تمييزاً لكم، ليعرف بعضكم البعض في بلوى السلاح الحديد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴿١٦٧﴾﴾[٥].

---

(١) التوحيد للصدوق عن علي عليه السلام في الآية: يعني السلاح وغير ذلك.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

فالحديد السلاح، وموقف الحرب اللزام، إنه بلاءٌ يُبلى به المسلمون، فالجهاد عَلَمٌ: علامة وميز - للمؤمنين، والقعود عن الجهاد، أو الفرار من الزحف دون مبرر، إنه عَلَمٌ على المنافقين أو ضعفاء المؤمنين، عَلَمٌ لنا بأمر الله، لا عِلمٌ لله بعد جهل أم ماذا!.

فمن ينصر الله ورسله «بالغيب»: نصرة الله الغيب، وللرسل الغيب، فإن رسالتهم غيب ولو تثبت بالأدلة الشهود، كما يثبت بها وجود الله، وكذلك من ينصر الله ورسله نصرةً بالغيب، في عمق القلب وحق الرضا، دون نفاق ورئاءٍ كمن ينصر ظاهراً، بلفظة قول أو عمل ما دام الأمل في هذه النصرة: أن تجلب له المناصب والأموال، أو تعطف إليه الأنظار، فإذا جاء الخطر وخاب الأمل فحيدي حياد!

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ ... إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾:

فلأنه قوي الحجة والمهجة، قوي الرحمة والمحبة، قوي اللطف والعناية، جعل الناس تحت ظلال البينات والكتاب والميزان، ولأنه عزيز غالب محمود في غلبه، ينفِّذ شريعته أخيراً بقوة الحديد، فللجهاد الدور الأخير بعد شلِّ الحجج في تقويم الأود وتدعيم العَمَد، رغم أنها بالغة دامغة، فالحديد ببأسه الشديد يفسح مجالات فاسحة للحياة الأمينة النبيلة، بما يكسح ويمسح وصمات العار عن جبين الإنسانية بدحر أعدائها وقهر ألدائها!

ثم الرسالات الإلهية هي رسالة واحدة في جوهرها، في مبدئها ومنتهاها، في معناها ومغزاها، مهما تشطرت في جزئيات هامشية منها، كما وأن أممها أمة واحدة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]: أمة لله، تلتقي في عبادة الله.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

وترى لماذا ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ لا المكلفون أجمع ومنهم الجان؟ هل لأن الرسل أرسلوا للناس فقط؟ وليست الرسالة محصورة لهم!

أقول: ليس إلا لأنهم محور الدعوة الرسالية والجان فروع، كما وأن رسالتهم فرع لرسالتهم، فالرسل الأصول هم من الإنس للمرسل إليهم الأصول، ثم الرسل الفروع الجنُ هم للمرسل إليهم الفروع الجن، والقيام بالقسط على ضوء هذه الرسالات معنيٌ فيهم أجمع.

وقد توحي ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ أنه الأصل في مثلث المنافع للحديد، فـ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ هما نفعان له بطبيعة الحال، قُصدا أم لم يقصدا، ولكن ثالث الأضلاع: «وليعلم» مقصود من الحديد، فالجهاد به خيرٌ من سائر بأسه، وأنفع من سائر منافعه، لأنه يحفظ بيضة الدين، ويؤمّن الحياة ويطمئنها للمؤمنين، كما وأن علم الناصرين منهم عن الخاذلين مما يبصّرهم في مجتمعهم، لكيلا يأمنوا إلى كل من يدعي الإيمان، نعمتان هامتان من بين سائر نعم الحديد!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

إن شجرة النبوة الواحدة الباسقة، تمتد من فجرها وجذرها الأول الأصيل: «نوح» وإلى إبراهيم وموسى وعيسى، وتنتهي إلى خاتم النبيين محمد ﷺ وبين هؤلاء الأصول فروع متشابكة غير متشاكسة، تنبت من تلكم الأصول، ذرية بعضها من بعض ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ وفي مقدمتهم النبيون الذرية ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ فليست النبوة للذرية لأنهم ذرية وارثة، فالنبوة لا تعرف الذرية ولا تورث، وإنما انتجاب من بين الذرية ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ لا أن كلهم أنبياء ذوو الكتاب.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ التقفية هي جعل شيء إثر آخر استمراراً فيه بما كان، فالرسل بعد نوح وإبراهيم إلى عيسى ابن مريم، بعضهم استمرار بعض: كل لاحق لسابقه في رسالة واحدة مهما كانت حملتها كثرة، كقوافي الشعر المتلائمة التي تشد بعضها بعضاً بالاقتفاء.

و﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ مما يؤكد هذه التقفية الاقتداء، وليس اقتداء رسول برسول مما يجعل المقتدي أدنى من المقتدى به وهو أعلى من المقتدي، فـ ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[1] لا هدى النبيين، إلا حملاً لها أمانة وتبليغاً بها، وكما أمر سيد المرسلين أن يقتدي بهداهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[2].

و﴿بِرُسُلِنَا﴾ هنا لا تعم الرسل أجمع، وإلا خرج عنهم نوح وإبراهيم من قبل، والمسيح ومحمد ﷺ من بعد، وإنما هم من بين نوح وإبراهيم والمسيح، مع التصريح بهؤلاء الثلاثة والتلميح أخيراً بمحمد ﷺ: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾: من المؤمنين بالمسيح، فالإيمان الثاني هو الإيمان بالنبي المبشر به في الإنجيل محمد ﷺ، كما ويصرح به وبكتابه في آية تجاوبها: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ...﴾ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾[١].

فلا تعني تقفية هؤلاء الرسل بالمسيح: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ لا هنا ولا هناك إنه خاتم المرسلين، وإنما كتقفية لكل سابق بلاحقه، ومعظمه هنا تقفية الرسل الإسرائيليين بخاتمهم السيد المسيح، ومن ثم يقفى بالرسول الإسماعيلي الذي هو بكتابه مهيمن على الكتب والرسل أجمعين.

فمن الهراء القولة الفارغة أن المسيح المقفى به الرسل هو خاتم المرسلين، خلافاً للتلويح هنا والتصريح هناك أن محمداً ﷺ هو الخاتم لا سواه[٢].

ولماذا لم يذكر موسى عليه السلام بعدهما وقبل المسيح عليه السلام وهو من الخمسة أولي العزم؟ علّه لأن المقام ليس مقام تعديدهم، ولذلك لم يذكر أيضاً سيدهم وخاتمهم محمداً ﷺ إلا تلويحاً. والعناية بذكر المسيح بعد الأولين ليس إلا لاستعراض بعض الأحوال من الذين اتبعوه أو ابتدعوا في شرعته، كما أن ذكر نوح وإبراهيم يعني بيان ذرية النبوة في أصليها.

مثلاً لذلك ترى إنجيل المسيح لا يذكر بعد التوراة مع ذكر القرآن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[٣] إيحاءً بأن الإنجيل هو الكتاب الوحي الفرع، لا يستقل عن التوراة، فليس نبي الإنجيل أفضل من نبي التوراة حتى يترك اسمه قبل المسيح هنا.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) حاول الكاتب المسيحي (الحداد) في كتابه (القرآن دعوة نصرانية) إثبات أن المسيح خاتم النبيين بهذه الآية، بأن الرسل يشمل الكل، فلما قفوا بالمسيح فهو آخرهم وهو زور هراء كما بينا.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٠.

وكون المسيح من ذرية نوح وإبراهيم عليه السلام، ولا ينسب إليهما إلا من ناحية الأم، يؤيد صدق الذرية على أولاد البنات، فالنصوص الإسلامية الدالة على اختصاص سهم السادة بذرية الرسول صلى الله عليه وآله تشمل المنتسبين إليه بالأمهات، وأصرح منها آية «أبناءنا»[١].

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ نص على نزول إنجيل واحد على السيد المسيح عليه السلام، لا أناجيل عدة متناحرة ألَّفه مؤلفون عدة، حُصروا بعد ردح من الزمن وبعد غربلات في أربعة، وهم مع ذلك مجهولون أو مجهولة نسبة هذه الأناجيل إليهم[٢]، وقد نجد اسماً أو ممثلاً عن إنجيل المسيح عليه السلام في بوتقات النسيان والتناسي، يضيء أحياناً لمن شاء أن يستضيء[٣].

---

(١) ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

(٢) راجع كتابنا (المقارنات) وكما اوردنا فيه مقالة (لاردنر) نقلاً عن (فالتس): (إن هذا الأمر تحقق أن هذا العهد الجديد لم يصنفه المسيح ولا الحواريون مطلقاً، بل صنفه رجل مجهول ونسبه إلى الحواريين ليعتبره الناس، وآذى المريدين لعيسى إيذاءً بليغاً بأن ألف الكتب التي فيها الأغلاط والتناقضات) (ص ٤٨).
وتذكر دائرة المعارف الفرنسية عن بعض الأساقفة أن نسبة إنجيل مرقس ويوحنا إليهما زور وافتراء وإنما ألفهما بولس (٥٠). وفي دائرة المعارف البريطانية: (أما إنجيل يوحنا فلا شك ولا مراء أنه كتاب مزور) (٥٠). ويقول المفسر الإنجيلي الشهير (هورن): الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة منقطعة وغير معنية لا توصلنا إلى أمر معين (٥٢).
من مقالات الأستاذ (لن) أن إنجيل يوحنا بكامله تصنيف طالب من طلاب مدرسة الاسكندرية دونما تردد، ونسبه إلى يوحنا زوراً، ولقد كانت فرقة (لوجين) في ق ٢ م تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا (٥٠)...

(٣) إنجيل المسيح كان في العهد الأول في متناول الأيدي، وكما في دائرة المعارف الانجليزية وكتاب اكسهومو، واختاره الفاضل (اكهارن) وكثير من المتأخرين من علماء النمسا، ومال إليه المحققون: ليكلرك - كوب - ميكايلس - ليسنك - نيمير ومارش، وممن ظفر أخيراً بهذا الإنجيل المغفور له حيدر قليخان قزلباش المعروف بسر دار كابلي مترجم إنجيل برنابا إلى اللغة الفارسية. ويقال إن بروفسور (كربن) الفرنسي مندوب الأدباء الفرنسيين في إيران، =

وأما الرأفة والرحمة المجعولة في قلوب الذين اتبعوه، فهما أمر ملموس، لا في المسيحيين أجمع، وإنما الذين اتبعوه، وقد كان رؤوفاً رحيماً، فمن اتبعه، وفي رأفته ورحمته، فالله يجعلهما في قلبه زيادة في هداه.

وهؤلاء المتبعون هم نصارى المسيح عليه السلام الذين نصروه في زمنه وينصرونه بعده. ومن نصرته تصديقه بمن بشّر به: النبي محمد ﷺ وبالمودّة للمسلمين: ﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وهؤلاء هم الذين جعلهم الله فوق الكافرين إلى يوم الدين: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ...﴾[2].

هؤلاء الأماجد، لا المسيحيين الناكرين للرسالة الإسلامية، جاهدين لها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً، أو الكارهين للفحص والتحري عنها، المتجاهلين عناداً الحق فيها، وأما الجاهلون القاصرون منهم، المؤمنون، فلهم أجرهم ولا يُظلمون نقيراً.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

وما هي الرهبانية المبتدَعة؟ وكيف يجمع بين البدعة والكتابة الإلهية؟ وما هو حق رعايتها؟ وهل في الإسلام رهبانية كما في المسيحية؟

= اشترى هذا الإنجيل من مكتبة الكابلي بـ ٥،٠٠٠،٠٠٠ ريالاً إيرانياً وأرسله إلى باريس. ومما يمثل هذا الإنجيل إنجيل برنابا القديس (راجع المقارنات).

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

الرهبانية في أصلها من الرَّهبة: الخوف مع تحرّز واضطراب، والرهبة من الله مأمورٌ بها: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[١] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٢]، وهي من غير الله منهي عنها، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣] و«مَن خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومَن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء».

وترى إذا كانت الرهبانية من الرهبة: الخوف، فكيف تكون مبتدعَة عند النصارى، ومنهية عندنا؟!...

أقول: لأنها شاكلة خاصة من الرهبة، منسوبة إلى الرهبان: المتعبدون الله في الأديرة والصومعات، بعيدة معزولة عن المجتمعات، فالرهبانية مصدر الراهب، ثم تحوَّلت اسماً لما فضل عن المقدار وأفرط فيه، أن تعيش بعيداً عن الحياة والأحياء، شاغلاً عن حاجيات الدنيا إلى عبادة الله، بترك ملاذها والزهد والتقشف فيها، والعزلة عن أهلها وتعهُّد مشاقها وكأنك في قبرك!

فالرهبنة من مبتدعات النصارى وليست من مبتدآت الله في أية شريعة من شرائعه، ولكن الله كتبها عليهم بعدما ابتدعوها، في إطارات خاصة وظروف وزمن خاص وكما يروى[٤]، ففريق رعوها حق رعايتها، وآخرون لم يرعوها.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٤) مجمع البيان عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على الحمار فقال: يا بن أم عبد! هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي=

وقد تكون «رهبانية» بين جعل وكتابة إلهيين على كونها عطفاً لـ«مودّة ورحمة» فالمجعول هو رهبة الرهبانية، جعلها الله في قلوبهم مع المودّة والرحمة: ﴿وَجَعَلْنَا ... وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً...﴾ والمكتوب هو الرهبانية الحقة بعدما ابتدعوها، والمبتدعة هي الانعزالية المطلقة عن الحياة إلى عبادة الله[1].

إنهم حينما ابتدعوا الرهبانية، كتبها الله عليهم ابتغاء رضوانه، رفضاً لما فيها من غايات أخرى، فأصبحوا إذن مرتبطين بها أمام الله أن يرعوها حق رعايتها بما رفضوه عن أنفسهم وحرّم الله، وما فرضوه على أنفسهم وكتب الله، حفاظاً على متطلباتها من تطهُّر وترفُّع وعفة ومناعة وقناعة وعبادة، مما يحقق في نفوسهم حقيقة التجرُّد لله، ولكنها انتهت في الغالب إلى طقوس جوفاء، فارغة عن الروح البراء، تجارة كغيرها من تجارات، إلا أنها بالدين وما أتعسه وأخسره من عناء لعناء!.

فمن حق الرعاية للرهبانية حصرها بزمن التقية، حفاظاً على دين الله وعلى البقية الباقية من المؤمنين بالله، وأما أن يترك فيها اللذات المحلات كأنها محرمات، كالنساء وأمثالها فلا!.

وأما أن يستمر بها في كل زمن كأنها من صلب الدين وحتى زمن القدرة على إظهاره والدعوة إليه، وكما قد يفعله الرهبان المسيحيون، فلا.

ومن حق رعايتها الإيمان بالرسول المبشر به من المسيح والنبيين قبله:

= وعدنا به عيسى عليه السلام - يعنون به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا بن أم عبد! أتدري ما رهبانية أمتي؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة.

(١) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] استثناء متصل كما بينا، وكونه منقطعاً ينافي وجود المفعول (ها) في (ما كتبناها) فلا معنى لكونه منقطعاً إلا على تاويل مستهجن يذاد عنه ساحة كلام الله بل وكل كلام فصيح أو وعادي غير فصيح.

محمد ﷺ كما قال: «من آمن بي وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»، فإن الرهبة الحقيقية من الله تحلّ عقد العصبية، وتشرح الصدر لتصديق ما وصى به الله.

فهؤلاء الكرام هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وصدقوه ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾: الذين كفروا به وجحدوه[1] «فلما بعث النبي ﷺ انحط صاحب الصومعة من صومعته وجاء السائح من سياحته وصاحب الدير من ديره فآمنوا به وصدقوه»[2] وهؤلاء هم القلة القليلة الذين رعوا الرهبانية حق رعايتها ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ كما وهم لا يزالون في الصوامع والأديرة، دكّات التجارات والغايات، وأديرة التحمير والاستثمارات!.

فكثير من الراهبين التاركين الزواج بواحدة، يغوصون في بحر من الدعارات بالراهبات، وكثير من الراهبات التاركات الشهوات، الرافضات الزواج الواحد، يتلوثن بدعارات في الأديرة مع جماعات الرهبان.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٧٧ أخرج جماعة من الحفاظ عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله! قلت لبيك يا رسول الله! ثلاث مرات، قال ﷺ: هل تدري أي عرى الإيمان أوثق؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أوثق عرى الإيمان الولاية في الله بالحب فيه والبغض فيه، قال: هل تدري أي الناس أفضل؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ قال: أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا تفقهوا في الدين، يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً بالعمل، وإن كان يزحف على استه، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها، فرقة وأزرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم حتى قتلوا، وفرقة لم يكن لهم طاقة بمؤازرة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ [الحديد: ٢٧]: الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]: الذين كفروا بي وجحدوني، وروى الذي قبله ابن مسعود عنه ﷺ.

(٢) المصدر أخرج النسائي والحكيم الترمذي في نوادر الإيمان وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في حديث طويل. . .

هذا! ولكنما الرهبانية في الإسلام ممنوعة بكافة صورها، فكان من حق رعايتها للرهبان المؤمنين بمحمد أن تركوها لأنها ممنوعة في الإسلام، كما قال الرسول ﷺ: «رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة»[١] جمعاً بين ألوان الواجبات الجماعية والفردية ومن أهمها الجهاد وكما قال: «رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»[٢] طبعاً ويكل الطاقات: نفساً ونفيساً، قلماً ولساناً وفكراً أم ماذا، دون الرهبانية الانعزالية الصومعية التقشفية، العازلة عن الحياة، المنعزلة عن المجتمعات، ولو كانت محصورة في العبادات، فالإسلام كله حياة، وكله هجرة، وكله جهاد، وكله حج وعمرة وصلاة، لا تختلف إلا في الصورة، وأما السيرة والمسيرة فصيغة واحدة هي: سبيل الله!.

إن الرهبانية حتى الحقيقية منها لم تكتب علينا، وإنما أبدل عنها بالجهاد، وما ألطفه المروي عن الرسول ﷺ حيث يقول: «إني لم أُؤمر بالرهبانية»[٣] «إن الرهبانية لم تكتب علينا»[٤] «وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام»[٥] حتى ولا حالة التقية، دونما حاجة إلى صومعة أو دير، ويروى أن نفراً من الصحابة أخذهم الخوف والخشية حتى أراد بعضهم أن يعتزل عن النساء، وبعضهم الإقامة في رؤوس الجبال، وبعضهم ترك الأكل والشرب فنهاهم النبي ﷺ عنها وقال: «لا رهبانية في الإسلام»، وقال:

---

(١) كما مضى حديثه عن المجمع عن ابن مسعود وفي عيون الأخبار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: صلاة الليل.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٧٨ أخرج أحمد والحكيم والترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي ﷺ قال: لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله.

(٣) أحمد بن حنبل ٣، ٨٢، ٢٦٦.

(٤) سنن الدارمي نكاح ٣.

(٥) أحمد بن حنبل ٦: ٢٢٦.

«رهبانية أمتي في المسجد»، وإن كنت ولا بد، فكن في الناس - إذاً - ولا تكن معهم، وآخر المطاف أن تهاجر بدينك إلى بلد يحملك أو تتحمله، أو القتل أخيراً في سبيل الله، فإن الحياة عقيدة وجهاد.

فبدعة الرهبانية فلتة بين البدع، إذ ليست في النار «وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» فإنهم حفاظاً على إيمانهم لم يجدوا بداً من هذه البدعة، وقد احتفت بجعل إلهي لرهَبَ الرهبنة من قبل مع المودة والرحمة في قلوبهم، وبكتابتها كرهبنة حقيقية بعدما ابتدعوها: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ... مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

ومن ثم المؤمنون أجمع سواء المسلمون وسواهم كالذين اتبعوا المسيح، هم يؤمرون أن يؤمنوا بالرسول ﷺ تكملة الإيمان بالرسالة، أو الإيمان بها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

هنا يبرز الرسول محمد ﷺ بشموخ الرسالة كأنه الرسول لا سواه: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ وأن الرسل قبله قد هيأوا ظروف رسالته العالمية الختمية دون أن يستقلوا بجنبه في شيء، اللهم إلا رسالة للتعريف به وتعبيد المسالك لوصوله، كالصفوف التكميلية المهيأة لقمة الثقافة!.

والمخاطَبون أن يؤمنوا ثانياً بهذا الرسول هم المؤمنون من أهل الكتاب وسواهم، وعد كلاً كفلين من رحمته، فالأولون إذ كانوا مؤمنين من قبل ثم استجدوا الإيمان به فلهم أجران[1] والآخرون إذ آمنوا أولاً ثم ازدادوا إيماناً

(١) الجمع عن النبي ﷺ في حديث: وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ فله أجران.

فلهم كفلان، ومن ثم فمن لم يؤمن من أهل الكتاب تجاهلاً وعناداً فلا كفل له ولا أجر وإنما وزر على وزر، وإذا كان جهلاً قاصراً فله أجر، كمن آمن بالرسول من غيرهم ثم لم يستجد الإيمان فله كفل، والمشركون وسواهم الذين لم يؤمنوا أولاً وأخيراً فعليهم وزر ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[1].

وعلّ هذه الآية الشاملة لفريقي المؤمنين تأمين للمسلمين منهم إذ فزعوا من أجر الآخرين مرتين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

فلما نزلت هذه الآية قالوا يا معاشر المسلمين! أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله هذه الآية: الكفلين[3].

إذاً فالمحور الأصيل فيها هم المؤمنون من غير الكتابيين كما ويدل عليه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ...﴾ فإنهم بحجة آية الأجرين علموا تفوقهم على المؤمنين لو آمنوا، ومساواتهم لو بقوا، فلا يقدر المسلمون على شيء من فضل الله!.

كلا! فهناك إيمان من أهل الكتاب قبل أن يسلموا، ثم إيمان بعده فلهم أجران، وهنا إيمان من غيرهم بداية، ثم تقوّى تحكّم ذلك الإيمان فلهم كفلان، حيث الإيمان الأول للآخرين هو الإيمان الثاني للأولين، فقد فاقهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.
(٢) سورة القصص، الآيات: ٥٢-٥٥.
(٣) الدر المنثور ٦: ١٧٩ أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس، وابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان.

المؤمنون المتقون - إذاً - في تحكيم الإيمان، فطالما لأولئك أجران، فلهؤلاء كفلان إضافة إلى نور يمشون به وغفران، اللهم إلا أن يثلثوا إيمانهم بتقوى الإيمان فهم سواء مع المؤمنين المثنين الإيمان.

وترى ما هما الكفلان، وما هو النور والغفران؟

الكفل هو الكفيل الضامن، والرحمة الكفلان علّها الحسنتان: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١) وعلى النور الذي يمشون به فيهما، وعذاب النار الذي يوقونها فيهما، هما الكفلان أو منهما، فحسنة الدنيا كفيلة لحسنى الحياة فيها، بتحويلها إلى حسنها في الأخرى، وحسنة الأخرى التي هي الأخرى كفيلة بالروح والرضوان، أو الحسنتان هما كفل، والوقاية عن عذاب النار هو الآخر: كفالة إيجابية وأخرى سلبية.

ثم النور الذي يمشون به هو الفرقان الناتج عن تقوى الإيمان، المخرج عن طغوى العصيان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(٣) ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾(٤) في ظلمات الوسواس الخناس ومهابط الأحوال ومخابط الأوحال فلا ينزلق أو يتخبط.

وهذا النور كفلٌ للمؤمنين عظيم، يكفل تنويرهم في الحياتين، ويتحول من الدنيا إلى الأخرى نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ويتممه الله هناك: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة التحريم، الآية: ٨.

ثم دور الغفران هو تتميم نور الإيمان، وكفارة عما ربما يعرضه من نسيان وعصيان.

وكما عرفناه، لا يُكفل الكفلان إلا لمن زاد إيماناً على إيمان، أياً كان وإنما بحساب وميزان، وأجران لمؤمني أهل الكتاب، ثم ولهم كفلان لو زادوا إيماناً على إيمان:

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾:

فـ آية أجرهم مرتين علمتهم أن المؤمنين من غيرهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، ومنهم من زعموا أنهم كأهل الكتاب لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي يؤتاه المسلمون، وآخرون - وهم كثير - تعصبوا كأن الجنة خاصة بهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[1] أو أن النبوة خاصة بآل إسرائيل كأنها محتكرة فيهم، وآية الكفلين هدمت هذا المربع المزعوم بأضلاعه وتبنت صرحاً عالياً بكفلين أعلى من الأجرين، اللهم إلا إذا تحول أصحاب الأجرين إلى حالة الكفلين، أو تحول أصحاب الكفلين إلى حالة الأجرين أو أدنى، فلكل أجره وكفله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

هكذا يحكم الله في آية الكفلين ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾: هم أو المسلمون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ فالمسلمون قادرون على فضل الله وأحرى، كما هم قادرون، دون اختصاص ولا حكرة لفضل الله بقوم خاص، وإنها القدرة بالإيمان والعمل كما يشاء الله ويرضى، لا القدرة بالأمنية والأمل كما يهوون، اللهم إلا الرسالة الإلهية التي لا يقدر عليها أحد إلا صفاءً هي كظرف للاصطفاء.

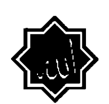
---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

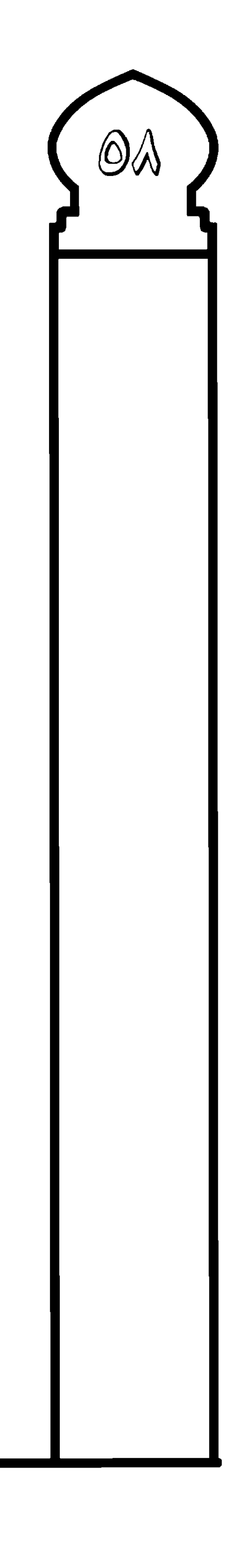
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ...﴾ حال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ تكويناً وتشريعاً، لا بأيديهم كما يهوون، ولا بأيدي الفوضى ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لا من يشاؤون، وبميزانه العدل لا كما يزعمون.

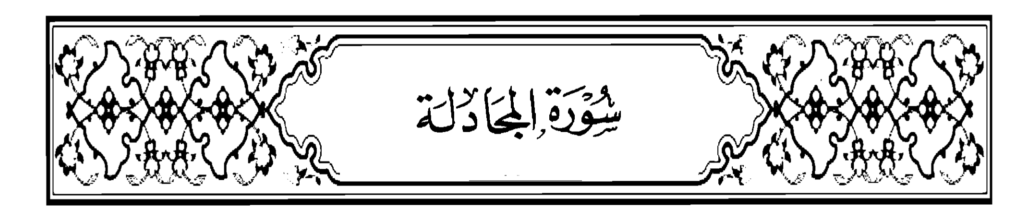
فـ «لا» هنا، كما في غيرها نافية، وقولة القائل إنها زائدة فارغة زائدة، تضم غلطة معنوية إلى غلطتها الأدبية[1] كما الواو في «وإن الفضل» حالية وليست عاطفة تجعل ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ متعلق اللاعلم: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ... وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ نقيض ما يعنيه القرآن من تعليم الحقائق دون إغراء بجهالات وخرافات.



(١) لما عجز جماعة من الناس عن تفسير ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحَديد: ٢٩] نفياً، قالوا (لا) هنا زائدة، فالمعنى إذاً (ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله) وسواء أكان ضمير الجمع لأهل الكتاب أنفسهم أو للمسلمين فآيتا الأجر والكفل تناقضانهما، فكل منهما قادر على شيء من فضل الله بفضل الإيمان وغير قادر بالأماني.



سُورَةِ المجَادلة



مدنية - وآياتها اثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ

تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

سورة تحمل - فيما تحمل - أحكاماً تربوية جماعية أخلاقية، جارفة التصورات الخاطئة، والتصرفات الغالطة، والعادات الجاهلة، مُنشئةً أسساً جديدة، ومبادئ عالية، في نفوس الجماعة المسلمة، ولكي تحمل دعوة الإسلام آمنة مطمئنة لمن يبتغي السلام.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾:

طرف من عَنَت الجاهلية بحق المرأة المظلومة المنكوبة - بين مئات الأعنات - أن الرجل كان يغضب على امرأته فيحرمها على نفسه بالظهار قائلاً: «أنت عليّ كظهر أمي» فتحرم عليه، ولا تطلق منه كالمعلقة: لا أيِّم ولا ذات بعل، ظلماً ما أفحشه بحقها وبحقه أيضاً.

فالإسلام منذ بزوغه في أفق الجزيرة، أخذ يجرف هذه الهرطقات آونات حدوثها، ومن ذلك الظهار: ظاهر رجل من امرأته فأتت رسول الله ﷺ

تجادله في زوجها، وتشتكي إلى الله بأسها وبؤسه، والرسول ﷺ لا يملك حكماً ولا جواباً حتى يأتيه الوحي، فانصرفت آئسة بائسة، فإذا بالوحي يأتيه حاملاً تفاصيل الحكم: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾.

إن الله تعالى يسمع الأقوال لا كما نسمعها، ويبصر الأحوال لا كما نبصرها، فإنه سميع لا بآلة، بصير لا بأداة، فطالما يكلمنا عن نفسه بلغتنا لكي نتفهم، ولكنه لا يعني منها إلا ما يناسب ساحة قدسه دون مناسبات الممكنات، فسمعه وبصره هما علم ما يُسمَع وما يُبصَر، دون سمع ولا بصر كما لسواه.

وهنا سمعٌ أول، يشمل سمع العلم بالشكوى، وسمع إجابتها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ. . .﴾ وسمع ثان علّه يخص الأول: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أو يشمل الثاني، وثالث يعمهما أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾: الدعاء: قولاً وإجابة ﴿بَصِيرٌ﴾ بموارد الإجابة، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

وهل تجوز مجادلة الرسول ﷺ للشكاة على المشكي عنهم، وليس الرسول ﷺ بالذي يتخلى عن الحكم الحق وفصل الخصومات والانتصار للمظلومين؟.

إن الاشتكاء إلى الله هنا يوحي بأن الرسول ﷺ ما كان يملك حكماً حينها، فالمشتكية عن زوجها ما ملكت نفسها حتى جادلت رسول الله ﷺ لا مساً بكرامته، وإنما طبيعة المضطر الذي يضيق عليه المخرج أن يجادل الحاكم ويشتكي إلى الله الذي فوقه لكي يحكم ويحلّ، فالاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه رجاء حلّه، فإذا لم يجد حلاً عند الخلق يرفع شكواه إلى الخالق، وهذه هي السنة السنية أن يُشتكى إلى المؤمن فإنه شكوى إلى الله، فلو قصُر أو قصَّر رفعها إلى الله، توسلاً بالأسباب، ثم إلى مسبب

الأسباب، وهي الطريقة المثلى، دون الاقتصار على الأسباب، أو رفضها بتاتاً والاشتكاء إلى الله في كل قليل وجليل!

ثم الجدال - لغوياً - لا توحي بسوء، فمنها سيّىء ومنها حسن ومنها أحسن، ولم تكن شكوى المظاهر منهما إلى الله على رسول الله، وإنما على المظاهر، ولقد كان النبيون يجادلون الله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[1]: جدال خير، رغم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2]: جدال شر، فإن الجدال أصله المفاوضة للإحكام، من جدلت الحبل: أحكمت فتله: إحكام حق أو باطل، وما كانت المظاهر منها تجادله ﷺ إلا لإحكام حقها وانتصارها على زوجها المظاهر، في محاورة: مرادَّة بينها وبين الرسول: تقول: «يا رسول الله إن فلاناً زوجي، وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته ولم ير مني مكروهاً، أشكوه إليك، فقال: فيمَ تشكونيه؟ قالت: إنه قال: «أنت عليّ حرام كظهر أمي» وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري، فقال لها رسول الله ﷺ: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً أقضي فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسول الله ﷺ وانصرفت.. وأنزل الله في ذلك قرآناً: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾[3].

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٣) القمي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إن امرأة من المسلمات أتت النبي ﷺ فقالت:... (نور الثقلين ٥: ٢٥٤). أقول: وهذه المرأة حسب الروايات هي خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت ومن ذلك ما روته عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل بالآيات، (الدر المنثور ٦: ١٧٩).

وهذه المُنعة والحائطة الرسولية مما تحكم عُقدَ الرسالة وتُطمئن الناس أنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ وكما أمره الله: ﴿... لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾[1] فما هو إلا رسول وليس مشرّعاً!.

ثم الشكوى هذه توحي بأن المرأة في الإسلام لها حق المجادلة بحقها، والمحاورة بشأنها، حتى ومع الرسول ﷺ دون أن يُحكم عليها بالسكوت والخمول، وأنّ إذن الزوج لا يشترط فيما يحق لها من جدال وتراجع لأخذ الحق إلى حكام العدل.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾:

تنديد شديد بالمظاهرين من نسائهم، زاعمين أنهن يصبحن كأمهاتهم بهذا القول الزور المنكر.

فهنا علاجان لمشكلة الظهار: علاج من أساس: إنه منكر من القول وزور كما هنا فليترك، وعلاج ثان: تحليل المظاهر منها بالكفارة كما يأتي.

فالزوجة لن تصبح أماً: لا واقعاً، فهي التي ولدته، ولا شرعاً إلا في التي أرضعته: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾[2] أو نساء النبي حفاظاً على كرامته ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3] ودونهما: فـ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾: حصر الأمومة الواقعية في الوالدة، ثم الشرعية الاعتبارية منها لا تحصل إلا بالرضاع فتحرم مؤبدة وهي مثل الأم إلا في الميراث، وإلا في أزواج النبي ﷺ، وتحصل الحرمة المؤقتة تأديباً في الظهار، فلا أمومة فيه لا واقعاً ولا اعتباراً وتنزيلاً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

فالحصر هنا وإن كان محصوراً في الأمومة الواقعية، ولكنما المنكر والزور موجهان إلى التنزيلية المقصودة من التشبيه.

فالقول: إن المظاهرين من نسائهم إنما كانوا يشبهونهن بأمهاتهم بغية التحريم كما هن، لا أنهن أمهاتهم واقعاً، والآية تنفي الأمومة الواقعية هنا دون التنزيلية، فأين المنكر والزور؟ يرده أن نفي الأمومة الواقعية ينفي التنزيلية والمشابهة في الحكم أيضاً إلا بدليل، والمنكر والزور هنا هو الحكم بالحرمة كالأم، أو الإخبار بها: فالقول «أنت عليّ كظهر أمي» إن كان إنشاء تشريعاً لحكم الحرمة فهو منكر ينكره العقل والعاطفة، وكذلك زور، لأن ذلك من اختصاصات الشارع الإلهي دون سواه، وإن كان إخباراً عن حكم الله فهو زور وغرور.

فـ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ ينفي الأمومة الواقعية، وبما أن نفيها لا يكفي لنفي المشابهة - وإن كان يوحي به - يثنّيه بنفيها أيضاً: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ إذ لا دليل على المشابهة هنا، بخلاف ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾[1] وزوجات النبي ﷺ فهن محرمات كما الأمهات الواقعيات، بدليل هذه الآيات.

فالقول «أنت عليّ كظهر أمي» منكر ينكره الواقع والشرع والضمير واعتبار العقل، وزور يكذبه الشرع والواقع، عادة جاهلية تعرَّقت فيهم كأنها أصل يعتمد عليه.

والظهار من الظهور بمعنى الغلبة والعلو: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾[2]: يعلوه، فالزوج غالب على زوجته يملكها في بُضعها، ويعلوها في أمره وإرشاداته: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[3] ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

عِبَادِنَا﴾[١] كذلك ويعلوها ويركبها حين يطأها، ولذلك قد يعبّر عن طلاقها بالنزول عنها: «نزلت عن امرأتي» إذ كان يركبها، مسيطراً عليها... فليس - إذاً - من الظهر، فإنه ليس أولى بالذكر من الأمام الذي فيه مواضع المباضعة والتلذذ منها، فظهر المرأة ليس أصلاً فيما يرغب منها، بل وفي إتيانها منه قول بالتحريم!.

وإذا كان الظهار منكراً من القول وزوراً فهو محرم قطعاً، ولا ينافيه عفو الله وغفره: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإنه بعد التوبة والكفارة التالية.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾:

صحيح أن الظهار لا تجعل الزوجة كالأم في حرمة مؤبدة وكالمعلقة، ولكنها تحرّمها مؤقتة نكالاً من الله، فالمقصود منه لم يقع، والواقع غير مقصود، وحكم الحرمة المؤقتة الزائلة بالكفارة من الله تعالى تأديب وتأنيب للمظاهرين من نسائهم، وليس إمضاء لسنة جاهلية.

و﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ تعم الدائمة والمنقطعة وملك اليمين خلافاً للأربعة في الثانية إذ لا يعتبرونها زوجة، ولأبي حنيفة والشافعي في الأخير، وعموم النساء للثلاث، وإن المنقطعة زوجة بالكتاب والسنة، حجة عليهم، وكما سويت بين الحرة والأمة في أحاديثنا[٢]. وقد تشمل المطلقة الرجعية فإنها زوجة، فلو ظاهر منها حرم وطأها قبل الكفارة، ولا تشمل قبل التزويج خلافاً لمالك وأبي حنيفة في الأخير، وقولهما يخالف النص: ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٢) الكليني عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الرجل يظاهر من جاريته فقال: الحرة والأمة في ذلك سواء ومثله كثير (الوسائل ١٥ : ٥٢٠).

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: القول هنا هو الظهار، وليس العود له تكراره، فإنه عودٌ إليه لا له، ولا صِرف الندم على الظهار، فإن العود ظاهر في العمل دون النية والحالة، وتجاوبنا الآيتان: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾: من النجوى المحرمة، مواصلة فيها، وإنما يعني العود للظهار، نقضاً له وعوداً إلى حاله قبله، كأن لم يكن ظهار: أن يواقعها، ويوحي به ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وفي الصادق عليه السلام: «إذا أراد أن يواقع امرأته»[2].

إذاً فلا يراد من العود له إلا ثالث ثلاثة: عوداً لنقضه، ورجوعاً إلى حالة ما قبل الظهار، فعود التكرار يكرر الكفارة، وليس موجبها لأول مرة، إذ هو منكر وزور كما في مرات أخرى بعدها، ونص الآية يثبت الكفارة بعد العود.

ثم لا يحرم بالظهار إلا الجماع الذي تحلِّله الكفارة، فغيره من الالتذاذات حلال قبل الكفارة، إلا على تفسير التماسّ بمطلق الالتذاذ جماعاً وسواه، ولكن التماس نفسه ينفيه، فإنه مس من الجانبين كناية عن المواقعة، بل المس أيضاً كذلك في متعارف القرآن فضلاً عن التماس، كما في العلوي[3].

ويحرم على الزوجة ما يحرم على الزوج بنفس سند التماس حيث يحرِّم المس من الطرفين، فيحل لها بكفارة الزوج، والحكمة في هذا الحرمان من جانب الزوجة أن تساعد على حرمان الزوج.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) رواه ابن بابويه في الصحيح عن جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام أنه سأله عن الظهار متى يقع على صاحبه فيه كفارة؟ فقال: إذا أراد أن يواقع امرأته (قلائد الدرر ٣: ٢٧٠).

(٣) الكليني بإسناده عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين في حديث طويل: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣] يعني مجامعتهما (الوسائل ج ١٥: ٥١٠) ورواه القمي في تفسيره مثله، وفيه ص ٥١٨ القمي عن الصادق عليه السلام سألناه عن الظهار متى يقع على صاحبه الكفارة؟ قال: إذا أراد أن يواقع امرأته ورواه الشيخ والصدوق مثله.

ويصح ظهار العبد كما الحر، وعدم ملكه لرقبة حتى يعتق يدخله فيمن لم يستطع، دون أن يخرجه عمن يصح ظهاره، ولكنه لا يصح من المرأة للنص: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ إضافة إلى أن لغة الظهار لا تناسب إلا الزوج كما سبق في أحاديثنا[١].

وهل يصح الظهار قبل الدخول؟ نعم لإطلاق الآية، ولا للأحاديث المقيدة لها بالمدخول بها، خلافاً للأئمة الأربعة، وفاقاً للأئمة الاثني عشر عليهم السلام إذ يروون عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شرط الدخول[٢]، كما رووا اشتراطه بحالة طهر غير المواقعة بحضور عدلين كالطلاق خلافاً للأربعة[٣].

والنص هنا ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ فلو لم يعد فهل تحرم عليه حتى يعود، أو لا يعود فتصبح كالمعلقة؟ قطعاً لا! فكيف يرضى الله بهذا الذي سماه كذباً وزوراً أن يستمر، وإنما يجبر على أحد أمرين: العود مع الكفارة، أو الطلاق فيما إذا رفعت المظاهَر منها أمرها إلى الحاكم، كما في أحاديثنا: إنه يجبر على أحد الأمرين بعد ثلاثة أشهر من المرافعة.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾: إذا كانت عنده رقبة، وإلا فليشترِ ويحرّر، وهل يشترط فيها الإيمان؟ اللهم نعم، كما تدل آيات التحرير وحكمته.

تحرير رقبة جزاءً بما نوى أسر رقبة: أن يحرم زوجته عما يحق لها وقد

---

(١) القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام إذا قالت المرأة: زوجي علي كظهر أمي فلا كفارة عليها.

(٢) الكليني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن رجل مملوك ظاهر من امرأته فقال عليه السلام: لا يكون ظهار ولا إيلاء حتى يدخل بها ورواه الصدوق بسندين عن الصادقين عليهما السلام (الوسائل ١٥: ٥١٦).

(٣) الكليني بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال: لا يكون ظهار إلا في طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين ورواه القمي في تفسيره مثله ومثله كثير (الوسائل ١٥: ٥٠٩).

جعل الله العتق في كفارات متنوعة، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب، وحكم الإسلام بالترقيق لأسرى الحرب، ثم حكمه هنا وهناك بتحريرهم، حكمان عادلان، في الأول تُسلب حرية الأسير الكافر كفاً عن بأسه، وإشغاله كما يجب إسلامياً، وتثقيفه كذلك، حتى إذا أسلم يأتي دور الحكم الثاني: التحرير.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أن تكفّروا فلا ترجعوا لمثله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من ظهار، وعود له، أو وطء قبل الكفارة أو بعدها ﴿خَبِيرٌ﴾.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾:

لم يجد تحرير رقبة، سواء أكان عدم الوجدان لعدم وجود رقبة كما في هذا الزمان، أو لعدم مال يكفيه لاشترائه، أو لأنه هو رقبة فلا يملك رقبة حتى يحررها، أو لحاجة مدقعة إليه رغم وجود المال، أو وجود الرقبة، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. كفارات مترتبة أوسطها صيام شهرين متتابعين، والتتابع هنا كما في كفارة الصيام.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

والنص: ﴿سِتِّينَ﴾ يحكم بعدم جواز إطعام واحدٍ أكثر من واحد، خلافاً لأبي حنيفة: أن «لو أطعم مسكيناً واحداً ستين مرةً يجزي»: خلافاً لنص الآية»[١].

وواجب الإطعام هو المعتاد في الطعام، وإن زاد ففضل، «ذلك» الضغوط النفسية والمالية عليكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فلا تأتوا بتصرفات وأقوال منكرة وزور فإنها خلاف الإيمان ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ لا ما حددتم

(١) ومن الغريب احتجاج أبي حنيفة لرأيه بأن (المقصود دفع الحاجة وهو حاصل) وهذا اجتهاد مقابل نص القرآن!.

لأنفسكم في مثل الظهار إن تكلفتم ما لم تكلّفوا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ عقائدياً أو عملياً بهذه الحدود الإلهية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعدم استطاعة الصوم شهرين متتابعين أعم من العجز عن أصل الصوم، أو الصوم هكذا، أو أن الشَّبَق الشديد والغلمة الهاجمة يطيقانه عن أن يصبر شهرين رغم إمكانية الصوم، شرط ألا يجد طريقاً آخر لإطفاء نائرة الشهوة كزواج متقطع ومثله.

وإذا لم يجد ما يطعم يستغفر الله ويؤدى عنه من بيت المال لو أمكن، وهو ممن يأكل من الكفارة لو كان مسكيناً كما في أحاديثنا[١].

وهل تسقط هذه الكفارات إذا واقعها قبلها؟ كلا! وإنما تثبت كفارة أخرى للوقاع قبلها[٢]. و﴿قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ بيان لظروف وجوبها وأن الوقاع قبلها محرّم، فلو واقع فعل محظوراً، فهل إن فعل المحظور يسقط الكفارة!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾:

المحادة هي الممانعة، والكبت: ردٌّ بعنف وتذليل، وهذا المقطع صورة

---

(١) القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! ظاهرت من امرأتي، قال: اذهب فأعتق رقبة، قال: ليس عندي، قال: اذهب فصم شهرين متتابعين، قال: لا أقوى، قال: اذهب فاطعم ستين مسكيناً، قال: ليس عندي، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا أتصدق عنك فأعطاه تمراً لإطعام ستين مسكيناً، فقال: اذهب فتصدق بها، فقال: والذي بعثك بالحق لا أعلم بين لابتيها أحداً أحوج إليه مني ومن عيالي، قال: فاذهب وكل وأطعم عيالك (نور الثقلين ٥: ٢٥٧).

(٢) الشيخ الطوسي بإسناده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام عن الرجل يظاهر من امرأته ثم يريد أن يتم على طلاقها؟ قال: ليس عليه كفارة، قلت: إن أراد أن يمسها؟ قال: لا يمسها حتى يكفر، قلت: فإن فعل فعليه شيء؟ قال: إي والله إنه لآثم ظالم، قلت: عليه كفارة غير الأولى؟ قال: نعم يعتق أيضاً رقبة وروي ما في معناه عن الحسن الصيقل عنه عليه السلام وعن أبي بصير عنه عليه السلام (الوسائل ١٥: ٥٢٧ - ٥٢٨).

من صور الحرب والنكاية للذين يحادون الله ورسوله: يأخذون لأنفسهم مواقف وحدود مستقلة وِجاه حدود الله، في التكوين وفي التشريع، واقفين عند حدّهم - حسب زعمهم - لحدود الله، يتعدونها في تبجح وغرور، فيختلقون أحكامهم المنكرة الزور، كمن كانوا يظاهرون من نسائهم، إنهم ﴿كُبِتُوا﴾: رُدوا بعنف وتذليل، عن حدودهم إلى حدود الله، كما رُدّ الذين من قبلهم من حماقى الطغيان، وهذه الآيات البينات تكفي بياناً لحدود الله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما أهانوا الله في محادتهم.

إن المحادين لهم كَبْت في الدنيا، وعذاب مُهين فيها وفي الآخرة:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾:

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ كما عملوا، فيُسمعهم ما قالوا، ويُريهم ما عملوا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾: في الشهداء من أنفسهم وأعضائهم وأرضهم وفي نفوس الملائكة الكرام الكاتبين والنبيين، أحصاه: تلقياً منهم وإلقاءً، رغم أنهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: حاضرٌ علماً في تلقيها، وحاضرٌ علماً في إلقائها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون، وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون.

لا فحسب أنه شهيد على كل شيء، فإن له علماً شاملاً بالكون كله، فإلى صورة حية منه تمس أوتار القلوب:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: رؤية العلم كأنها عيان، استفهام تقرير: أن الرسول ﷺ

يرى - فيما يرى - ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من سرٍّ وإعلان، دون أن يكون شيء أقرب له من شيء، أو أبين له من شيء، يعلم ما في الكون على سواء، دون أي جهل أو خفاء، ويعلم من يتناجون ونجواهم و﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية العلم والقيومية، لا معية الكيان والحدّ والعدد ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾: أشخاص رجالاً أو نساء أم مختلطين، تناجياً ومسارة بينهم ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ وليس ثالثهم، إذ لا يتناجى معهم ولا يتناجون معه، وليس داخلاً في أي حد وعدد، وإنما «رابعهم» في علمه بما يتناجون، دون أن تخفى عليه خافية، أجل، وإنه تعالى لا يتمم عدد الكائنات بذاته، فهو «واحد بعدد، ولا عن عدد، ولا بتأويل عدد» فليس رابعاً لهم ككائن محدود بحدودهم، يقارنهم في كيانهم وزمانهم ومكانهم ومكانتهم، وإنما مقارنة المعية العلمية والقيومية «داخل في الأشياء لا بالممازجة، خارج عن الأشياء لا بالمزايلة» ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ بنفس المعنى ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ اثنين أو واحد: كمن يتناجى ونفسه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة وأكثر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾: وهذه المعية المطلقة اللامحدودة تفسير عميق أنيس لكونه تعالى رابع المتناجين أو سادسهم، إنه المعية العلمية دون حجاب، لا والمعية العددية وسواها من المعيات التي لا تناسب ساحة قدسه تعالى، كما وأن ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ يخرجه وينزهه تعالى عن المكان أياً كان، فليس للمحيط على كل ماكن ومكان أن يكون في كل مكان، إلا كوناً علمياً، وكما في جواب الإمام علي عليه السلام عما سأله جاثليق: أين هو؟ وعما سئل عنه أبو بكر[2]

---

(١) سورة طه، الآية: ٧.

(٢) أصول الكافي بإسناده سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني عن الله عز وجل أين هو؟ فقال عليه السلام: هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ... إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] (البرهان ٤: ٣٠٣). =

وكما عن الإمام الصادق والكاظم عليه السلام [(١)].

وإنها لصورة سارية سارّة من الحيطة العلمية الإلهية، بكل شيء، وبنجوى المتناجين، ومعاريض المتخافتين، سامعاً للحوار، وشاهداً للسّرار، تترك القلوب وجلة لا تثبت لها، ولا تقوى على مواجهتها، ثم هي في نفس الوقت أنيسة أليفة لمن يعرفون الله ويرجون له وقاراً.

وكفانا حضوره بما نسرّ ونعلن رهبة منه، ورغبة في طاعته، ولكنه ينبئنا بما عملنا يوم القيامة، رجفة فوق رجفة: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وإنه يعاملنا بما عملنا ويحكم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(٢)].

= وفي إرشاد المفيد: وجاءت الرواية أن بعض أحبار اليهود جاء إلى أبي بكر فقال له: أنت خليفة نبي هذه الأمة؟ قال له: نعم، فقال له: إنا نجد في التوراة أن خلفاء الأنبياء أعلم أممهم فخبرني عن الله أين هو؟ في السماء هو أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر: هو في السماء على العرش، فقال اليهودي: فأرى الأرض خالية منه! وأراه على هذا القول في مكان دون مكان! فقال له أبو بكر: هذا كلام الزنادقة، اغرب عني وإلا قتلتك، فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا يهودي! قد عرفت ما سألت عنه وأجيب عنه به، وإنا نقول: إن الله جل جلاله أيّن الأين فلا أين له، وجل أن يحويه مكان، هو في كل مكان بغير مماسة ولا مجاورة، يحيط علماً بما فيها ولا يخلو شيء منها من تدبيره تعالى... (الى أن قال) فقال اليهودي: أشهد أن هذا هو الحق وأنك أحق بمقام نبيك ممن استولى عليه (نور الثقلين ٥ : ٢٦٠).

(١) تفسير البرهان ٤ : ٣٠٢ عن الكافي بإسناده عن ابن أذينة عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: هو أحدي الذات بائن من خلقه وبذاك وصف نفسه وهو بكل شيء محيط بالإشراف والإحاطة والقدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذات لأن الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذات لزمها الحواية.

وفيه عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

وعلّ تخصيص الذكر بالعددين الفردين بمناسبة النزول[1] وإن الله يحب الوتر لأنه وتر طالما بين الوترين من بون.

ثم التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وما يُحزن الذين آمنوا، إنها محرمة وأحياناً لحد الكفر، كما أن التناجي بالبر والتقوى محللة ولحد الوجوب أحياناً فيما يحمل تحقيق واجب أو الذب عن محرّم، فلا تحرم ولا تجب ذاتياً، إلا بما تحمل من مفروض أو محظور:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾:

أتى ذكر النجوى بخيرها وشرها في سبع سور[2] تندد بالذين يزعمون أن الله لا يعلم سرهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾[3] وأن النجوى لا خير فيها ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[4] ناهية عن نجوى الظالمين: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[5].

ولقد كانت للمنافقين والذين في قلوبهم مرض مؤامرات سرية يتناجون فيها ضد الرسالة الإسلامية ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وضد الرسول: «معصية الرسول» الثالوث المنحوس من نجواهم، رغم ما أمروا بطاعة الله والرسول، فطاعة الله تعم العلاقات الفردية والجماعية سلباً وإيجاباً: محرمات وواجبات، فالإثم المقرون بالعدوان هنا هو التخلفات من القسم الأول التي لا تعدو المتخلف إلى سواه إلا شذراً، والعدوان هو الثاني الذي

---

(١) قيل نزلت في قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين وكانوا على هذين العددين.

(٢) هذه السورة والإسراء، طه، الأنبياء، النساء، التوبة، الزخرف.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٠. سورة التوبة، الآية: ٧٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣.

يعدوه إلى سواه، ومعصية الرسول لا تعمهما، وإنما تخص التخلف عن أوامره ونواهيه الولائية كرئيس للدولة الإسلامية، فطاعته فيها طاعة الله بالعنوان الثانوي ومعصيته معصيته، فلولا أمره أو نهيه لم يك وجوب ولا حرمة.

فالمتآمرون ضد الإسلام كانوا يتناجون في ثالوثهم المنحوس «بالإثم والعدوان ومعصية الرسول» ما ينهار به الإسلام من أساس، ولكن الله كان يخبر الرسول بهذه الخطط اللئيمة، والدسائس الخفية، والتدابير السيئة للجماعة الإسلامية.

لقد نهاهم الله عن نجواهم هذه، ثم يعودون لما نهوا عنه إصراراً في إسرارهم المكائد اللئيمة، فيُطلع الله نبيه والمؤمنين بثالوث النجوى، وأنهم يحيُّون الرسول بغير التحية الإسلامية: «حيوك بما لم يحيك به الله» فهل إنها «السام عليك» كما كان من اليهود قاصدين: «الموت أو المرض عليك»؟ أو أنها «أنعم صباحاً وأنعم مساء»: تحية أهل الجاهلية[1]؟ علّ الآية تشملهما، ولكنها لا تخص الأولى، بل قد تخص الثانية، فإن «ما لم يحيك به الله» توحي بأنهم كانوا تاركي السنة الإسلامية في تحيتهم وهي «السلام عليكم» لا أنهم كانوا يسبون الرسول في تحيتهم ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين كما اليهود كانوا يفعلون.

ويرد عليهم أيضاً قولهم في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: فعذاب الدنيا لا يحسب له حساب بجنب الآخرة، إذ يصلون: يوقدون، جهنم، كما كانوا وقوداً لنيران

(١) القمي في تفسيره.. وقولهم إذا أتوه: أنعم صباحاً وأنعم مساء وهي تحية أهل الجاهلية، فأنزل الله ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨]، فقال لهم رسول الله ﷺ: قد أبدلنا الله بخير تحية أهل الجنة: السلام عليكم (نور الثقلين ٥: ٢٦١).

المؤامرات يوم الدنيا، وحسبهم من عذاب الدنيا أن الله يفضحهم في مكائدهم ومصائدهم ضد الرسالة الإسلامية ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾[1]!.

وطالما لم يؤثر النهي عن النجوى في المنافقين، ولكنه مؤثر في الجماعة المؤمنة التي قد تنجرف في نجوى سيئة فتؤدي بها إلى الإثم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كالتشاور فيما يرتبط بالسياسة الإسلامية، بعيداً عن القيادة، والتجمعات الجانبية، تناجياً هنا وهناك، المنافية لروح التنظيم الإسلامي، فإنها قد تؤدي - وكثيراً ما تؤدي - إلى البلبلة والفوضى، الراجعة ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وإن لم تكن مقصودة! إلا أن مجرد الإثارة للمسائل الجارية، وإبداء الآراء فيها على غير علم، وبعيداً عن القيادة، قد يؤدي إلى هذا الثالوث المنحوس الذي يبغيه المنافقون ضد الإسلام.

فحذار حذار أيتها الجماعة المسلمة أن تعاونوا المنافقين على أنفسكم في تناجيكم الجانبية، فتصبحوا أعداء أنفسكم وسائر المؤمنين!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾:

﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾: في علاقاتكم الفردية والجماعية، ما ثبت أنه برّ: واسع الخير والبركة ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: التجنب عن سخط الله، وعن معصية رسول الله، «تناجوا» فيما بينكم لترك التصميمات الجانبية، فيما يرتبط بالقيادة والتنظيم والسياسة الإسلامية «تناجوا» تخفياً عن الأعداء - لا عن المؤمنين المسالمين - أو تخفياً عن ضعفاء العقول من المؤمنين، الذين يفشون الأسرار جهلاً فتبوء بالخسارة والدمار، «تناجوا» متقين عن محاظير التناجي فردياً وجماعياً.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾:

فقد تكون النجوى خالية عن الإيذاء والإزراء والمؤامرة، وإنما بالبر والتقوى كما في تناجي الرسول والمؤمنين، فهي راجحة أو واجبة، وقد تكون محزنة ومؤذية للمؤمنين وإن لم تكن فيما يضرّهم، فهي محرَّمة تشملها الآية.

وقد وردت الأحاديث النبوية بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة، وتزعزع الثقة، وتبعث التوجُّس، وعلى حدٍّ قوله ﷺ: «... ما هذه النجوى! ألم أنهكم عن النجوى؟»[1].

كما عن الرسول الأقدس ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه»[2]. اللهم إلا فيما لا مندوحة عنه وهو أوجب من وجوب رعاية أشخاص المؤمنين، كالتناجي فيما يهمُّ الدولة الإسلامية، ويجب إسراره لأنه من أسرار الدولة، تقديماً للواجب الأهمّ.

وقد تكون مؤامرة ضد المسلمين ومؤذية للمؤمنين: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[3]، فتشملها الآيات: هذه والمسبقتان، حرمة مضاعفة، سواء أكانت من المؤمنين، أم من المنافقين، مهما كانت مختلفة في دركاتها.

والنجوى اللئيمة لا تضرُّ المؤمنين - كما الشيطان لا يضرّ - إلا بإذن الله، ألا يمنع أذاها، بأن لا يخبر الرسول والمؤمنين بمؤامرات المنافقين

---

(١) الدر المنثور ٦ - ١٨٤ أخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ... وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ يطرقه أمر ويأمر بشيء فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة، حتى إذا كنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى!.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.

السرية، فيقعوا في فخاخهم من غير علم، بلوى وامتحاناً من الله، لا امتهاناً!.

وفي هذه المحن لا سبيل للخلاص إلا التوكل على الله أن يكفى بأسهم، بعد سلوك السبل المستطاعة، فقصورها وكلالها عن كفاية البأس، فالتوكل على الله قادرين وقاصرين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١).

فلا يعني التوكل على الله ترك الأسباب تفريطاً لها، ولا فيما إذا كلّت أو قلّت فحسب، وإنما ترك التوكل على غيره من أسباب، بل التوسل بها لوصول البغية متوكلاً في كل ذلك على الله، دون توهُّم لاستقلال الأسباب وإن كانت كافية حسب الظاهر، فإن له تعقيمها، كما له تتميمها إذا قلّت أو كلّت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

بما أن الدين ليس تكاليف حرفية جافة، ولكنه تحوُّلٌ في الشعور، واستجاشة لمكارم الأخلاق، وحساسية في الضمير، لذلك نرى الآيات تترى في تأديب الجماعة المسلمة بالمثل العليا، وتأنيبها فيما ينافيها، في كل قولة وحركة وسكون.

والتفسح في المجالس هو التوسع فيها، وأحرى المجالس بذلك مجالس النبي ﷺ، كما أنه أفضل القائلين: «تفسَّحوا - انشزوا»، وقد كان المسلمون يتضامّون في مجالسه ﷺ رُكاماً، تنافساً على القرب منه، وتحارصاً على استماع كلامه، فإذا ورد وارد ضنّوا بالتفسح له، فأمرهم

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

رسول الله ﷺ ألا يضِنّوا، ويتفسحوا في المجالس ترحيباً وترغيباً للواردين، ولا سيما إذا كانوا أفضل منهم في الإيمان - هنا - ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ وبأحرى إذا كان الوافد أعلم، ﴿فَٱنشُزُواْ﴾: ارفعوا: قوموا وقدموهم على أنفسكم في المكان كما هم أفضل منكم في المكانة.

نزلت الآية يوم الجمعة ورسول الله ﷺ جالس في الصفّة وفي مكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فقدم جماعة منهم عليه ﷺ، فما فسح لهم في المكان، فأمرهم الرسول ﷺ «تفسّحوا» وأمر بعضهم «فانشزوا»: ارفعوا.

أجل وإن فسح المكان والمجال للأفضل والأعلم فرض من الله إكراماً للعلم والإيمان ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[١] ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٢].

فعلى المؤمنين النابهين أن يفسحوا أو ينشزوا: يقوموا للأفضل منهم، وعلى القائد المسؤول عن تنظيم الجماعة المسلمة أن يأمر الغافلين غير العارفين أن يتأدبوا بهذا الأدب الرائع، ولكي يكون الجو دائماً جو التفضيل للأفضل، فالتنافس في الفضائل، وهذه الفسحة في المكان تتخطاهم إلى فسحة في النفس، ووسعة في الصدر، ورحبة في القلب، فمتى رحب القلب اتسع وتسامح واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة. كما وأن النشوز عن المكان يتخطاه إلى النشوز والرفعة في المكانة.

﴿تَفَسَّحُواْ . . . يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾: في الدنيا أن يخرجكم عن ضيق الحياة وضنك العيش، وفي الآخرة ألا يضيق عليكم في الحساب، فيدخلكم في فسيح جنته ووسيع رحمته.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

إن ذيل الآية ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يتجاوب تماماً وما استوحيناه، أن واجب التوسع والنشوز هو للقادم الأفضل في العلم أو الإيمان، مهما كان راجحاً لغير الأفضل تأدباً، وكما فعله الرسول الأقدس ﷺ بالقادمين من أهل بدر[1]، وفعله الإمام علي بن محمد النقي عليه السلام برجل من فقهاء الشيعة[2]، ولكن هذا لا يعني أنه يحق

(١) الدر المنثور ٦ : ١٨٥ - نزلت الآية يوم الجمعة وجلس رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة وفي مكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان وأنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه فنزلت الآية.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: روي عن الحسن العسكري عليه السلام أنه اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام أن رجلاً من فقهاء شيعته كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته، فدخل على علي بن محمد عليه السلام وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست وأقبل عليه، فاشتد ذلك على أولئك الأشراف، فأما العلويون فعجلوه عن العتاب، وأما الهاشميون فقال له شيخهم: يا بن رسول الله! هكذا تؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟ فقال عليه السلام: إياكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، أترضون بكتاب الله عز وجل حكماً؟ قالوا: بلى، قال: أليس الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ...﴾ [المجادلة: ١١] ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلا أن يرفع على من ليس بمؤمن، أخبروني عنه قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾؟ أو قال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟ أو ليس قال الله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وفقه الله؟ إن كسر هذا فلان الناصب بحجج الله التي علمه إياها، لأفضل له من كل شرف في النسب.

للقادم - ولو كان أفضل - أن يقيم الجالسين فيجلس مكانهم، وكما عن الرسول ﷺ: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا أو توسعوا»[1]، وإنما الأدب الإسلامي للقادم أن يجلس بدون الشرف، كما كان من دأب الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ [2].

ثم ورفع درجات للذين آمنوا والذين أوتوا العلم، ذلك حسب درجات العلم والإيمان - كما للجهال والذين كفروا دركات - درجات في الدنيا ودرجات في الآخرة، ومن درجات الدنيا فرض التفسح لهم في المجالس، والقيام لهم احتراماً وإجلاسهم في مقامهم، ومنها اختصاصهم أو تقدمهم في مناجاة الرسول ﷺ كما فرض في آيته، فالرفعة لهم شاملة للدارين وفي الناحيتين الصورية والمعنوية، وعلى المؤمنين بالله التخلق بأخلاق الله في هكذا ترفيع.

ثم ولا ريب أن لعالم الدِّين درجات على العالم غير الدّين، أو الدّين غير العالم، وفيما إذا جمعا في اثنين واختلفا في الدرجات، فالفضل للعالم الأتقى، فـ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وآية الاستواء ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنما تفضل العالم على الجاهل، فتبقى أفضلية الأتقى بين العلماء - على درجاتهم - ثابتة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: هكذا تؤمرون بتفضيل الفضلاء في العلم والإيمان، ولكي تخلقوا جواً طاهراً يلمس فيه هذا الأدب الرائع، والله خبير بأعمالكم، الموافقة لأوامره، والمخالفة سواء.

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٨٥ - أخرج البخاري ومسلم عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: . . .

(٢) الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل منزلاً قعد في أوفى المجلس إليه حين يدخل. وفيه عنه عليه السلام: من رضي بدون الشرف من المجلس لم يزل الله عز وجل وملائكته يصلون عليه حتى يقوم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يبدو أنهم كانوا يتنافسون متهافتين على تناجي الرسول ﷺ كلٌّ في شأن يخصه، ليسمعه بالانفراد، وكأوسمة شرف، وهذا مما يخلق فوضى، وليس بإمكان الرسول ﷺ أن يقتسم أوقاته بين المتنافسين، وله مهامٌّ جماعية، وأوقاته الشريفة تعم الكل، فلا تصلح مناجاته إلا في صالح الأمة، وليتضح لهم مدى اهتمامهم بنجواه، لذلك كله يقرر الله ضريبة لمن يريد نجواه، كصدقة تصرف في صالح الأمة أيضاً فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾:

وذلك حينما أكثر الأغنياء مناجاة النبي ﷺ وغلبوا الفقراء على المجالس عنده حتى كره الرسول ﷺ ذلك، واستطالة جلوسهم وكثرة مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يأمرهم بالصدقة أمام المناجاة.

أما أهل العسرة فلم يجدوا فعفي عنهم، ولكن الأغنياء بخلوا، بين عاص في مناجاته دون صدقة، وبين من ضنَّ بها وترك مناجاته، فنزلت الآية راشقة بسهام الملام، ناسخة بحكمها حيث أحجم من كان دأبه الإقدام.

وفي هذا الأمر ونسخة تعظيم للرسول ﷺ ونفع للفقراء، وتمييز بين المخلص وغيره، ودفع للتكاثر عليه ﷺ من غير حاجة جماعية مدقعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: كجماعة المسلمين، فإنه لصالحكم جماعياً ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾: لقلوبكم، إذ تدل الصدقة أن النجوى بعدها خالصة لوجه الله، ولكن الفقير ماذا يصنع؟ هل يحرم لأنه فقير المال، فيُضاف إليه فقر الحال؟ كلا: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ غفران يخص المعدمين دون أن يعم الواجدين، مما يجاوب الأمر بالصدقة في الدلالة على وجوبها، فإنها بين أمر وغفر، كما تجاوبه توبة الله عليهم إذ لم يفعلوا. ولقد تواترت الروايات

أنه لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام [(١)] وعلى حدّ قوله: «إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي: آية النجوى.. كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وآله قدمت بين يدي درهماً، ثم نُسخت، فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾[(٢)].

ويروى عنه عليه السلام: إن آية النجوى ما كانت إلا ساعة ويروى عشر ليال، وهذه أوفق بفرصة الامتحان، وغاية الامتهان، وإن ساعة ومثلها لا تكفي للمناجاة عشر مرات[(٣)]! ويروى أنه سأله صلى الله عليه وآله بين الآيتين عن عشر خصال[(٤)] فهل في ساعة واحدة عشر مراجعات في عشر نجوات تحمل كل واحدة استعلام خصلة؟!

---

(١) أورده الثعلبي والواحدي وغيرهما من المفسرين والمحدثين، فمن ذلك ما يقوله الشيخ شرف الدين بعد نقل كثير من أخبار النجوى: (اعلم أن محمد بن العباس ذكر في تفسيره سبعين حديثاً من طريق الفريقين يتضمن أن المناجي للرسول صلى الله عليه وآله هو أمير المؤمنين عليه السلام دون الناس أجمعين) وأخرجه ابن بطريق في العمدة بأسانيد كثيرة عن الثعلبي وابن المغازلي ورزين وغيرهم، وفي المستدرك عن أبي نعيم بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، وباسناده عن مجاهد وعلي بن علقمة عن علي عليه السلام وابن مردويه في المناقب بأربع طرق أحدها يرفعه إلى سالم بن أبي الجعد عن علي مثله، وفي الجمع بين الصحاح الستة قال أبو عبد الله البخاري وروى مثله، وعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، والحافظ أبو نعيم في كتاب ما نزل من القرآن في علي بسنده عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس، إلى غير ذلك من الأسانيد.

(٢) أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي عليه السلام قال: وفي بعض الأحاديث أنه عليه السلام استقرض هذا الدينار لنجوى الرسول صلى الله عليه وآله.

(٣) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي عليه السلام قال: ويروى أنه كان عشر ليال كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٤) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وآله حتى يقدموا صدقة فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه قدم ديناراً فتصدق به ثم ناجى النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن عشر خصال ثم نزلت الرخصة.

فقد ناجاه ﷺ عشر مرات في هذه الفترة، فاستعلمه ﷺ عشر خصال، مما يثير العجب من مدى رغبته في نجواه لحدٍّ تصدق بكل ماله الذي استقرضه، نجوات تترى دونما انقطاع، رغم إهمال من سواه إشفاقاً أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقات، وليس في ذلك تنديد بالأمة أجمع، إنما بمن كان يناجيه تباعاً ثم ترك أو ترك الصدقة قبل مناجاته إذ واصل فيها، وأما من لم يكن يناجيه رعاية للمصلحة الجماعية، أو تقديماً للأصلح في نجواه، أو لم يحصل له سؤال هام يتطلب النجوى في هذه الفترة، أما بالنسبة لهؤلاء فلا[1].

فقد تبين هنا للعامل الوحيد بالآية فضيلتان: أنه ما ترك نجواه بل قد زاد فيها، وأنه الذي يحق أن يناجي الرسول ﷺ بما فيها من صالح الأمة الإسلامية لأنه باب مدينة علمه والصادر عنه، وكم له من ميزات أجمعت الأمة عليها، وهذه منها[2] رغم ما نقم منه الناقمون لحدٍّ أضمروا عن اسمه فقالوا: «رجل من المهاجرين» وأشركوا معه في هذه الكرامة غيره[3] خلافاً لإجماع الرواة والمفسرين.

---

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فلما قال ذلك امتنع كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ...﴾ [المجَادلة: ١٣] لدر المنثور ٦: ١٨٥).

(٢) عنه عليه السلام يقول للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية... فكنت أنا الذي قدم الصدقة، غيري؟ قالوا: (لا) وكما احتج به على أبي بكر بقوله عليه السلام فأنشدك بالله أنت الذي قدم بين يدي نجواه لرسول الله ﷺ صدقة فناجاه وعاتب الله تعالى قوماً فقال: أأشفقتم... أم أنا؟ قال: بل أنت (نور الثقلين ٥: ٢٦٥ عن الاحتجاج للطبرسي).

(٣) كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ينقل القصة إلى أن يقول: فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فمنع بعضهم ماله وحبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى ويزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر فأنزل الله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ...﴾ (الدر المنثور ٦: ١٨٥).

ولما ترك جماعة من المسلمين المناجاة خشية الإنفاق وخيّم عليهم الإشفاق: العناية المختلطة بخوف، نسخ الله تعالى حكم صدقة المناجاة شفقة عليهم ورحمة، وتاب عليهم، فاختصت الفضيلة في تطبيق الآية بالإمام علي عليه السلام لحدّ يتحسر منه الخليفة عمر[١].

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

فهنا ﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾ توحي بأنهم تناجوا الرسول بعد النهي ولم يقدموا صدقات، وهكذا يوحي الإشفاق أيضاً فإنه عناية مختلطة بخوف، عناية في مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخوف من الصدقات، وخوف من الله في تركها، فابتلوا بهذه البلية، ولو استمرت لكانت بلاءً لزاماً، ولكنه تعالى: «وضعها عنهم بعد أن فرضها عليهم برحمته ومنّه» وكما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

لذلك تاب الله عليهم: إن غفر لهم إذ لم يفعلوا، ونسخ الوجوب لكيلا يُبتلوا، توبتان من الله عليهم، شرط أن يواصلوا في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، فيتركوا الإثم والعدوان ومعصية الرسول المسبق ذكرها ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من صالحات وطالحات.

فلم تكن المناجاة واجبة حتى يتوب الله عليهم في تركها، ولا الصدقة واجبة لولاها حتى يتوب عليهم إذ لم يقدموها، وإنما الواجب تقديم الصدقة عند المناجاة ولم يفعلوها: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: ناجيتم ولم

---

(١) تفسير روح البيان ٩: ٤٠٦ - لإسماعيل حقي البروسي عن عمر رضي الله عنه: «كان لعلي رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلى من حمر النعم: تزويجه فاطمة رضي الله عنها وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى».

(٢) الاحتجاج للطبرسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه: فأنزل الله عز وجل ألا يكلموني حتى يتصدقوا بصدقة وما كان ذلك لنبي قط (ثم ذكر صلى الله عليه وآله وسلم الآية وقال): ثم وضعها عنهم بعد أن فرضها عليهم برحمته ومنه. (نور الثقلين ٥: ٢٦٤).

تقدموا صدقات «فهل تكون التوبة إلا عن ذلك» كما يروى عن صاحب النجوى ﷺ[(١)].

وكما أسلفناه لم تكن الخطيئة للجميع، وإنما للمجموع، أن جماعة من الأثرياء ضنّوا بالعطاء وتناجوا، كما كانوا يضنون بإفساح المجال للقادمين الفضلاء لمجلس الرسول ﷺ فوبخهم الله تعالى، دون من ترك المناجاة لعلل مسبقة، اللهم إلا إشفاق الصدقة، فتاب الله على من لم يفعل: الصدقة بعد المناجاة، أو لم يفعل المناجاة خشية الصدقة، وتاب عليهم في فرض الصدقة إن نسخها.

وإبدال صدقة النجوى بهذه الواجبات يوحي بأنها لم تكن من مهام الواجبات، ولا الأصيلة منها، وإنما هي ابتلائية، ولذلك نسخت إذ أطاقها المسلمون وأشفقوا منها، إلا أن طاعة الله والرسول هنا تربطهم برباط التنظيم في نجواهم، وأن يخرجوا عن فوضاها، والاستئثار بها دونما ملزم أو مرجح، فكما الأفضل علماً وإيماناً يُفسح له ويُنشز، كرامةً للعلم والإيمان، فبأحرى يقدم الأفضل فيهما في مناجاة الرسول ﷺ.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾:

حملة قوية على المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان ويسرون الكفر، متآمرين في إسرارهم ضد المسلمين، فـ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفرهم المبطن ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ لإظهارهم الإسلام: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(٢)]

---

(١) الخصال للصدوق في مناقب أمير المؤمنين وتعدادها قال: وأما الرابع والعشرون فإن الله أنزل على رسوله (وذكر آية النجوى والقصة ثم قال): فوالله ما فعل هذا أحد من الصحابة قبلي ولا بعدي فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ (وذكر الآية الناسخة ثم قال): فهل تكون التوبة إلا عن ذلك؟ (نور الثقلين ٥ : ٢٦٥).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٣.

وإن كان كلُّ متولٍ لقوم، منهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]: هو منهم فيما به الكافر كافر وهو كفر القلب والضمير، فالمنافق مؤمن اللسان وكافر القلب، فهو ليس مؤمناً خالصاً، ولا كافراً خالصاً، وإن كان من حزب الكفار أصالة، فالآيتان تتجاوبان دون تهافت واختلاف.

إنهم يعيشون نفاقاً عارماً، وفيما يفضحهم الله، أن يخبر الرسول ﷺ والمؤمنين بمكائدهم اللئيمة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾: أنهم براء مما قيل عليهم، وأنهم مؤمنون حقاً، ويحلفون على الكذب في صدهم المؤمنين عن سبيل الله، علّهم يصدقونهم بجُنة الحلف، فهم يعيشون الكذب على الله وعلى الرسول والمؤمنين علّهم يفلحون في كيدهم، ويُفلحون المؤمنين في ميدهم، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بكذبهم، وهذا الحلف الكذب يعني محاولة استمرارهم في كيدهم، ويوحي بضعفهم وجاه الدولة الإسلامية آنذاك، إذ كانت قوية سائدة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

عذاباً شديداً في الدنيا بفضحهم على رؤوس الأشهاد، وفي الآخرة برضخهم ودقهم يوم تقوم الأشهاد:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾:

يهينهم الله بعذابه كما أهانوا دين الله، وصدّوا عن سبيل الله، بما اتخذوا أيمانهم جُنة: وقاية عما يصيبهم بتجسُّسهم ضد المسلمين، وتحسُّسهم لصالح الكافرين، وهم هنا جماعة من اليهود المغضوب عليهم كما في آيات عدة، تحالفت معهم جماعة من المنافقين ضد الدولة الإسلامية.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فإنما المغني من الله - إضافة إلى فضل الله - عقيدة الإيمان وعمل الإيمان، فأما الأموال والأولاد فلا، إلا إذا استخدمت في سبيل الله... وكما كانوا أصحاب نيران المكائد حياتهم، فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[(١)] مما يوحي بأن النفاق قد مزج قلوبهم لحدٍّ لا يفصلهم عنه فاصل البرزخ والقيامة، وهما يوما بروز الحقائق ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحياة عن العذاب بهذه القولة الماكرة ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ كأن الكذب يخصّهم وهم يخصّونه، فلا كاذب إلا إياهم! كذباً في حلفهم، وكذباً في زعمهم.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

الحوذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنِّف في سَوقه، فاستحواذ الشيطان على حزبه أن يركب أدبارهم معنِّفاً في سَوقهم وكما وعد: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٢)] والاستحواذ أشد ألوان الاحتناك، إذاً فهم سيّقة الشيطان: يسوقهم حيثما يريد، فقد يبدأ اللعين بتمشيتهم وراءه: أن يتبعوا خطواته، ثم يركبهم محتنكاً إياهم، ثم يستحوذ عليهم، وبهذا

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

الثالوث اللعين يفقدهم مشاعرهم كأنهم ظِلاله في ضلاله ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ ولحد الإعراض، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: خالصين له مخلصين، واقفين تحت لوائه، عاملين باسمه، منفذين غاياته، وهو الشر الخالص الواصب الذي ينتهي إلى الخسران الخالص.

وللشيطان في كافة الأحزاب - إلا حزب الله - أعوان بمختلف الألوان وإن كانوا دركات، كما إن حزب الله درجات ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[(١)] ومن دركات حزب الشيطان التفرقات عن الوحدة الإيمانية، عقائدياً وعملياً، ومنها ترك الجماعات في الصلاة، وعلى حد قول الرسول ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدّ ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[(٢)]. وكما أن من ظروفها ومصائدها: «أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً» على حد قول الإمام علي عليه السلام[(٣)].

إن القلوب تحيى وتطمئن بذكر الله، والشيطان يستحوذ على أوليائه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

(٢) الدر المنثور أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(٣) أصول الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: (أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن - إلى قوله - يخالف فيها كتاب الله يتولى فيها رجال رجالاً فلو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى).

وفي خطبة للإمام الحسين عليه السلام خطب بها لما رأى صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل والسيل وفيها: فنعم الرب ربنا وبئس العباد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد ﷺ ثم إنكم رجعتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

ينسيهم ذكر الله، يجعل أعينهم في غشاء وغطاء عن ذكر الله ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾[1]: ذكر الله الذي يذهب بالحجب والأدران عن العقول والصدور والقلوب والألباب، فيعيش ذوو الألباب ذكر الله إسراراً وإعلاناً، عملاً ولساناً، فلا يُعنى من ذكر الله لقلقة اللسان ولا خبر عنه في الجنان، فإنما اللسان آلة لذكر القلب وليس هو ذاكراً في الحق: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2] وأرفع المقامات في ذكر الله أن ينسى الذاكر من سوى الله حتى نفسه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾:

فهناك أذلاء وهم عصاة أمر الله، على مدى عصيانهم، وقد يكونون من المؤمنين، وهناك أذلون وهم الذين ينعزلون إلى حزب الشيطان محادّين الله ورسوله: أن له ولرسوله حَدّه، ولنا حدودنا، كأن لا سلطان له عليهم، وهم آلهة أنفسهم، أم الشيطان إلهم! فبمقدار ما يكون الله وحزبه أعز، فالشيطان وحزبه كذلك - أذلّون - في كافة الحقول، مهما كثرت وطاشت شهواتهم، أذلّون في محكمة الفطرة والعقل والواقع، في الدنيا والآخرة.

فمهما ذل المؤمنون أحياناً في هجمات الكافرين فهم أعزة بإيمانهم، تزول عنهم الذلة الظاهرة: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾[4] ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[5]، ولكنما المحادّين لله ورسوله، الذلة لزامهم إذ لا مولى لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾: غريقون في الذل دائباً لا يزول، ولكنما المؤمن له العز والغلبة مهما بلغت به الصعوبات واصطدمته العرقلات في سبيل الله:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) سورة النجم، الآية: ٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة المطففين، الآية: ٨.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾:

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: إن كتابة الغلبة الإلهية لا تغني نقشاً على ورق: إنشاءً أو إخباراً، إنما هي تثبيت الغلبة بمثبتاتها ومعداتها: غلبة في التكوين والتشريع، وفي التشريع غلبة في الحجة والمهجة، وغلبة في التطبيق، وكل ذلك نتيجة الإرادة الإلهية وتأييده رسله في غَلَبهم بحجج الرسالات وبيناته.

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾: لا «لنغلبن» رغم واقع الجمع، إنما «لأغلبن» لأن الله لا يعد ويردف نفسه المقدسة في عداد خلقه وحتى رسله، وأن غَلَب الرسل من غلبه، فإنهم لا يغلبون إلا بما يحملون من الرسالات وإثباتاتها ومعجزاتها، ولولا فضل من الله ورحمة لكانوا كسواهم من الأذلين المغلوبين ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فرسل الله بقوة الله وعزته يغلبون، وإلا فهم الفقراء لا يملكون شيئاً! ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١).

أجل ﴿وَرُسُلِي﴾ المختصون في تحقيق رسالات الله، حاصرين طاقاتهم كلها في وجه الله، لا يبتغون إلا مرضاة الله فلهم سابق كلمة النصر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(٢) كما والمؤمنون كذلك منصورون غالبون بنصر الله على قدر إيمانهم بالله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(٣) نصرة في الدنيا تناسب الرسالة والإيمان، ونصرة في الآخرة هي تحقيق وعد الله لهم بالجنة، ولقد كتب على نفسه نصرهم حقاً: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

إن الغَلَب والنصر هنا وهناك للمرسلين والمؤمنين ليس في الشهوات

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة الروم، الآية: ٤٧.

والمغريات، وإنما في بلاغ الرسالات وتطبيقها، مهما كانت التضحيات في هذه السبيل الشائكة المزدحمة بالعرقلات.

ففكرة الإله منتصرة في كافة الميادين، بعساكر الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية، تتقدم على تقدمها قُدماً إلى الأمام، مهما حاول الملحدون إطفاء نور الله، ومع صراعهم الطويل، فإن العقيدة في الله ظلت هي السائدة المسيطرة الثابتة، رغم أن الإلحاد إلى زوال مؤكد مهما أبرق وعربد، فالبشرية تهتدي كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي: إن الله هو الحق وإن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ورسل الله والمؤمنون الحقيقيون لا يقفون لحد في تضحياتهم بمبدئهم المجيد: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[1]: نحن من أهل الجنة قاتلين ومقتولين، وأعداؤنا من أهل النار قاتلين ومقتولين، فثباتهم على الدفاع لا يتقيد بقيد الحفاظ على النفس والنفيس، دون حزب الشيطان، فإن مهمتهم التي يعملون لها ويأملونها، هي الدنيا برغباتها وشهواتها، فلو أشرفوا على خطورة أو مهلكة انهزموا مدبرين، أو استسلموا أذلة وآمنوا مقبلين، كما تشهد بذلك غزوات الرسول ﷺ بما أدت إليه من الفتح المبين، رغم كونها سجالاً، لكنها ما انتهت إلا إلى تقدم المسلمين وغلبهم، إلا فيما ضعف الإيمان، فامتحان بامتهان الهزيمة لكي يجدد دور الإيمان، إذاً فهم الأعلون: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] فلم تقف الفتوحات الاسلامية ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا نتيجة ضعف الإيمان، ولا يزال، إلا أن يستحكموا عُرى الإيمان والوحدة الاسلامية فهم الأعلون وأعداؤهم هم الأذلون.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

فليس حرمان المؤمنين عن ملذات الحياة، وزجهم في السجون، وتسفيرهم وتقتيلهم والتنكيل بهم، ليست هذه العقبات الشائكة الصعبة الملتوية، ذلّاً لهم وَغَلباً لأعدائهم، وإنما هي صورة أخرى لانتصار الإيمان في معركته مع الكفر، كما وأن استسلام البعض منهم - وهم ضعفاء الإيمان - لدولة الكفر والطغيان، بغية الحفاظ على أنفسهم ونفائسهم، ليس هذا انتصاراً لهم، فإنما الغلبة الإيمانية تظهر في مختلف وجوه المناضلات في مختلف ميادين النضال: إن قَتلوا انتصروا، وإن قُتلوا انتصروا، فهم أعزة منتصرون قاتلين ومقتولين، شاردين ومشرودين، حاكمين ومحكومين، فقراء ومثرين، كما وأن المحادّين لله ورسوله هم في الأذلين، في ميزان الحق، في كافة الصور، وكفى المؤمنين غَلَباً - بين أسبابه -: إن للحق دولة وللباطل جولة!.

تُرى إن حادثة الطفّ صورة من غَلَب الفيء الطغيان الأموي على أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ؟ كلا، فإن قُتل حسين وذووه في الجسد، فقد قتل يزيد وحزبه في كافة الموازين الإنسانية، يزيد يقتل حسيناً في جسده، وحسين يقتل يزيد في روحه، إذ إن حادثة الطفّ أثبتت للعالم أن يد الإثم والطغيان فيها لم تك يد إنسان، وإنما أيدي وحوش مجانين وأضل سبيلاً، حيث لم ترحم الأطفال الرُّضَّع والنساء والضعفاء: قد غير الطعن منهم كل جارحة، سوى المكارم في أمن من الغِيَر.

أجل وإن صمود المؤمنين في وجه الطغاة، إذ يحميهم إيمانهم من الانهيار، ويحمي زملاءهم في حزب الله من ضياع الشخصية، ومن خضوعها للطغيان، إن هذا الصمود الصارم غَلَبٌ لهم وانتصارٌ على الكفار، بجنب سائر الانتصارات التي تختصهم دونهم.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾:

إن الإيمان الصحيح بالله دخول في حدِّ الله وحزبه، وخروج عن محادَّة الله وحزب الشيطان، فلا ملتقى بينهما، ولا أنصاف حلول ولا موادَّة ولا مواربة ولا مسايرة، فإنهما بين طرفي النقيض فكيف يجتمعان؟.

فأسباب الموادَّة بين الحزبين فاشلة، وإنما الحاكم اللازم بينهما المحادَّة، ولو كانوا مَن كانوا من الأقارب الأدنين آباءً وأبناءً وإخواناً وعشيرة، فإنها المفاصلة القاطعة بين حزب الله وحزب الشيطان، والتجرُّد من كل جاذب وجامع، فروابط الدم والقرابة كلها منهارة عند حد الإيمان، تتقطع هذه الأواصر التي لا ترتبط بعروة الإيمان ولا تنبع منها، فهناك يقتل علي عليه السلام وحمزة أقاربهما في حروب عدة، ويقتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، ويقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، متحللين من أواصر القرابة إلى آصرة الإيمان، فتنزل في شأنهم هذه الآية، فـ«إن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» كما عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم [1].

فما هي حدود هذه الموادة اللاإيمانية الممنوعة للمؤمنين؟ نقول: منها ولاية من يستحبون الكفر على الإيمان: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ

(١) الدر المنثور ٦: ١٨٧ - أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ... وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي فإني قد وجدت فيما أوحيت إلي: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾[١] هذا ولا سيما إذا كان ابتغاء العزة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢] ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[٣] ولكنما الولاية والمودة توحيان بالمحبة وآثارها، فإما أن نعاشرهم بحسن الخلق علهم يؤمنون، أو يميلون إلى الإيمان، أو نأمن بأسهم، فلا محظور بالنسبة لمن لم يحاربنا في الدين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩﴾[٤].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الصامدون غير الموادِّين لمن حادّ الله ورسوله، ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾: ثبّته في قلوبهم وقرّره في ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، والرقوم الثابتة، ولكنها كتابة إلهية ما لها من زوال، فإنها بيمين القدرة والرحمة، فقلبت قلوبهم عن التقلبات إلى الثبات، وإنما تتقلب تدرُّجاً إلى الكمال والأكمل، ولحدٍّ تتهيأ لوحي الرسالة الإلهية لو شاء الله، وليست كتابة الإيمان في قلب فوضى دون شرط، إنما هي بين الإيمان والعمل وِفقه، ومن ثم تأييد الله فكتابة الإيمان، وهذه هي زيادة الهدى من الله بعد الاهتداء بسعي المهتدي: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾[٥] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[٦] فليس لهم صنع في زيادة الهدى، اللهم إلا في سببه بفضل من الله[٧].

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٤) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٧) أصول الكافي عن الصادق عليه السلام سئل عن هذه الآية: هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع؟ قال: لا.

فهذا الإيمان المكتوب في القلوب، المؤيد بروح من الله، إنه صدّ رصين متين يسدُّ عن الإنسان هجمات الشيطان، ويصدُّه عن اتباعه في مزالق الشك واللاإيمان، وكما في زمن الغيبة التامة إذ لا إمام حاضراً نلجأ إليه «فنكفأ تَكَفُّأ السفينة في أمواج البحر، لا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه»[١].

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ تشرق قلوبهم بهذه الروح النورانية، فالروح - بوجه شامل - ما به الحياة، نباتية وحيوانية وعقلانية إنسانية، وإيمانية، وإلهامية مسددة للإيمان، وقدسية بالوحي، فالأخيرة خاصة برسل الوحي، وهي روح في روح الإلهام، كما أن هذه خاصة بالرعيل الأعلى من المؤمنين، وهي روح في روح الإيمان، وهذه عامة لمختلف درجات المؤمنين، وهي روح في روح الإنسان، كما أنها عامة لبني الإنسان العقلاء، وهي روح في روح الحيوان، وهذه عامة لمطلق الحيوان كما هي روح لروح النبات، فالروح القدسية هي روح الأرواح كلها، وقس عليها ما قبلها لما دونها في المكانة من الأرواح، فكل روح كجسد لما فوقه، وهي كروح لما دونه من أرواح.

فالإيمان المكتوب المستقر في القلب هو يستحق روح الإلهام، دون المستودع: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[٢] كما أن الإيمان المستقر الملهم قد يُصطفى لرسالة السماء فيزوّد صاحبه بروح القدس: روح النبوة وروح الوحي.

---

(١) أصول الكافي عن مفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده في البيت أناس، فظننت أنه إنما أراد بذلك غيري، فقال عليه السلام: أما والله ليغيبن عنكم صاحب هذا الأمر وليخملن حتى يقال مات، هلك، في أي واد سلك (وتتمة الحديث في المتن) (نور الثقلين ٥: ٢٦٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

وقد يعبر عن روح الإلهام بفرقان من الله نتيجة التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾[١] وهو نور في القلب يفرق بين الحق والباطل إذا اختلطا وضاق المخرج: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[٢] فهذه الروح - دوماً - شريطتها التقوى وعلى حدّ تفسير الإمام الرضا عليه السلام [٣]. ثم كان عاقبة هؤلاء الأماجد بما آمنوا واتقوا: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ﴾ الله ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ دخول الجنة في الجنة وخلودها فيها ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بما اتقوا وتحللوا عن إنيّاتهم وأنانياتهم، فنسوا أنفسهم دون مرضاة الله ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ حينما اتقوه، وإذ يدخلون الجنة فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ جماعته الخاصون به، الخالصون له، المتجمعون تحت لوائه، المنقادون بقيادته، دون أن يكون للشيطان وحزبه منهم نصيب ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دنيا وعقبى، مهما اختلفت ألوانه وظروفه، اختلاف الدنيا والآخرة.

والإفلاح هو شق الطريق الشاق الملتوي، نحو الهدف المرمي، فحزب الله يشقون أمواج الفتن في معارك الحياة بسفن النجاة، فلا يغرقون، إنما يُفلحون هم ويُفلجون خصومهم، ولأنهم حزب الله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

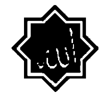
(٣) أصول الكافي بإسناده إلى أبي خديجة قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي: (إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي، ويغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثميناً، رحم الله امرءاً هم بخير ففعله، أو هم بشر فارتدع عنه، ثم قال: نحن نؤيد بالروح بالطاعة لله والعمل له) (نور الثقلين ٥: ٢٦٩).

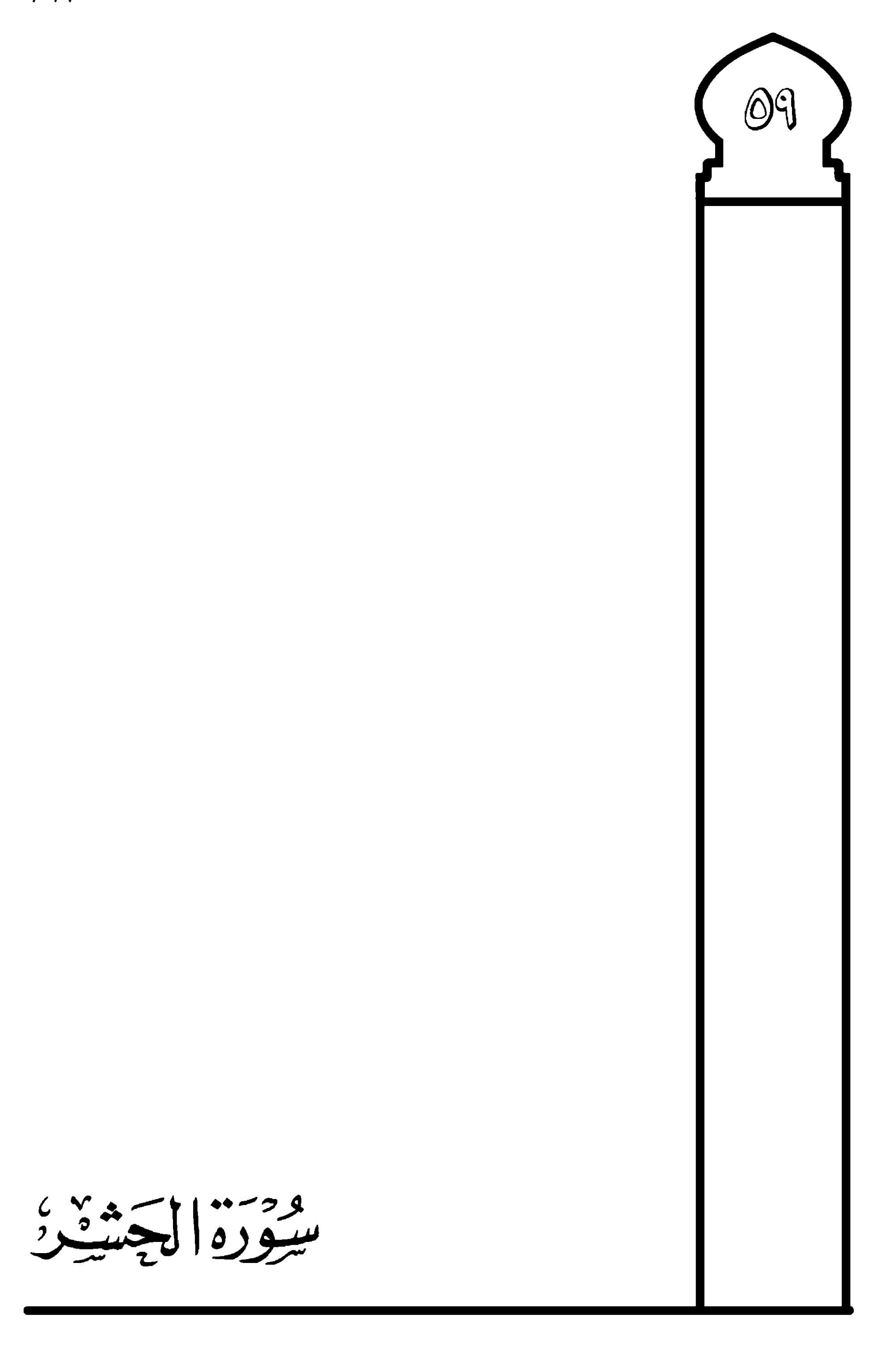
(٤) سورة يوسف، الآية: ٢١.

أجل - ولأنهم أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده، يفوزون بنصر الله من مصارع المحن والمهن، فالله تعالى أسبل على وجوههم نور هيبته، وأعطى لهم أعلاماً من عظمته وكلأهم بحسن رعايته.

إن حزب الله يلتقون في الرابطة التي تؤلفهم، في وحدة متراصّة متينة رصينة، فتذوب كافة الفوارق تحت هذه الراية، دون أن يتحكم فيهم أحدٌ إلا الله، أو يبتغون إلا مرضاة الله، محادين حزب الشيطان.

فهذان حزبان متناقضان لا يختلطان ولا يتميّعان ويستحيل اجتماعهما استحالة اجتماع النقيضين.




٥٩
سورة الحشر



مدنية – وآياتها أربع وعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا
ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ
وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا
قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ
وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ
وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ
ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

حادث جلل رعيب، ونفاق عارم رهيب، ونقض عهد منقطع النظير من بني النضير، نزلت فيه هذه السورة، وتعلقت به نصوصها، مبتدئةً بتسبيح الله ومختتمة به، بدء وختام مسك، يمسك ويربط ما توسطهما بتنزيه الله عن الظلم والضيم فيما فُعِل بالذين كفروا من أهل الكتاب، دمار وبوار لبني النضير عديم النظير، وليعلموا أنهم هم الأذلون بما حادّوا الله ورسوله، والمؤمنون هم الأعزون بما ارتبطوا بحد الله.

تقول الروايات: كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود: بني النضير وقريضة وقينقاع، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ومدة، فنقضوا عهدهم شر نقض وأخطره، والسبب هم بنو النضير[1] فلم يرَ رسول الله ﷺ بداً إلا حربهم

(١) كانت واقعة بني النضير أوائل الرابعة من الهجرة بعد أُحد وقبل الأحزاب، يذهب الرسول ﷺ مع عشرة من كبار أصحابه إلى بني النضير طالباً منهم المشاركة في أداء دية قتيلين، وفق ما كان بينه وبينهم أو مقدمه على المدينة، وأن لا يكونوا له ولا عليه، فاستقبلوه بالبشر والترحاب ووعدوه بأداء ما عليهم، بينما كانوا يدبرون أمر اغتيال الرسول ﷺ ومن معه، ينتدب عمرو بن جحاش بن كعب ليلقي عليه صخرة، فيلهم الرسول بغدرهم فيقوم كأنما يقضي أمراً ثم علموا أنه دخل المدينة، فأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم، إضافة إلى ما كان من كعب بن الأشرف من هجاء الرسول وتأليب الأعداء عليه، وأنه اتصل مع رهط من بني =

وإخراجهم لمّا غدروا وخانوا خيانة مخيفة على كيان الإسلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[1].

وإنهم وعدوه ﷺ أن يخرجوا دون حرب، ثم تحالفوا مع المنافقين نقضاً ثانياً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[2].

مكر تلو مكر، وغدر تلو غدر، يهدفون به المقام في المدينة ثم احتلالها مع إخوانهم المنافقين، ولكن الله يُطلع نبيه عليه، ويخرجهم لأول الحشر، وعلّه أول الجمع بين المتحالفين: اليهود والمنافقين ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾:

إن تسبيح الله وتنزيهه - طوعاً أو كرهاً - هو لزام ذوات الكائنات،

= النضير بكفار قريش اتصال تحالف وتآمر ضد الرسول ﷺ فلما نبذوا عهدهم هكذا نبذ إليهم الرسول على سواء كما قال الله، فتجهز ﷺ وحاصر محلتهم وأمهلهم ثلاثة أيام أو تزيد ليجلوا عن المدينة على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء عنهم على الباقية، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [الحشر: ١١] فتحصن اليهود في الحصون فأمر الرسول ﷺ بقطع نخيلهم والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد ﷺ! قد كنت تنهى عن الفساد فما بالك تفسد هكذا؟ فأجابهم الله ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥] لا للفساد، إنما لدفع الفساد، ولما بلغ الحصار ستاً وعشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد إخوانهم المنافقين وقذف الله في قلوبهم الرعب فكان كما قال الله في هذه السورة.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الحشر، الآيات: ١١-١٣.

فكيانهم كخلق الله تسبح الله عن أي نقص في الخلق ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[(١)] ثم وهي تسبح الله عن شعور ولكن لا تفقهون: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(٢)] ثم العقلاء النبلاء منها يسبحون الله كما يعرفون: تسبيحات ثلاث في الكائنات لا يخلو منها حتى الملحدين الكفار، وإن كفروا به في ثالث ثلاثة: التسبيح الاختياري العقلاني، بما حملوا وخانوا أمانة التكليف.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾:

فلو كانوا مؤمنين بكتاب الله - التوراة - ما خالفوا بشاراته بحق الرسول الإسماعيلي محمد ﷺ وما نقضوا عهودهم معه بعدما أحكموها، ولكنهم كفروا بالكتاب، رغم أنهم من أهل الكتاب، يؤمنون ببعض الكتاب - لصالحهم كما يظنون - ويكفرون ببعض - كتجار الشريعة الإلهية!

هؤلاء اليهود الكفار من بني النضير أخرجهم الله تعالى من ديارهم لأول الحشر، فما هو الحشر هنا؟ وما هو أوله؟.

يقال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، فما هو معنى إخراج بني النضير من ديارهم لأول الإخراج إلى الحرب؟ فقد كان إخراجهم حياداً عن الحرب، وتخلصاً عن كيدهم وميدهم.

ثم نرى عشرات من آيات الحشر لا تناسب لا الإخراج، لا غاية الحرب: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(٣)] أفإخراجاً لحرب الله؟! وإنما الحشر هو جمع خاص، في الدنيا أو في الآخرة، كلٌّ حسبَه وبحسابه، اللهم إلا إذا كان معدّى بـ«على»: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾[(٤)] وليست الحرب والإضرار هنا أيضاً إلا مدلولة لـ«على» دون الحشر، فالحشر أياً

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

كان وأينما، هو الجمع عن تفرق، في الأبدان أو الأرواح أو فيهما، في العقيدة أو العمل أو فيهما، في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، في الخير أو الشر أو فيهما، إلى خير أو إلى شر أو إليهما.

وحشر بني النضير هنا كان في الدنيا، وعلّه أو أنه حشرهم وجمعهم مع إخوانهم المنافقين، وتآلفهم وتعاهدهم ضد الرسول ﷺ، فما أن حشروا حشرهم اللئيم، إلا وأطلع الله نبيه على كيدهم وأخرجهم من ديارهم.

﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: بداية الجمع المؤلّب على الرسول ﷺ، وإن كان إخراجهم الأول من بلاد الإسلام أيضاً، ولكنه لا يغير لغة الحشر عن معناه، وإن وافق واقعه هنا: أخرجهم لأول جمعهم اللئيم، ولأول مرة في تاريخهم اللئيم، ومن أول الحشر الأرض التي منها يحشرون «أرض اليهود» على حدّ المروي عن الرسول ﷺ إذ قال لهم: «اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر»[١]. ف ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ يحشر الحشرين، وما أليقه وأنسبه جمعاً بين المعنيين، من حشرهم الشرير في الدنيا، وإلى حشرهم الشرير في الآخرة، فمهما يكن الحشر الأول مبتدأً يستحق «من» والثاني منتهىً يستحق «إلى» ولكن في «لـ » إيحاءٌ بهما وإيفاءٌ لهما «لأول الحشر».

فقد حشروا حشرهم هكذا بغية احتلال المدينة وعصيان الرسول ﷺ والقضاء عليه، فردّ الله عليهم حشرهم فأخرجهم لأوله ولمّا ينضج أو ينتج، وللأرض التي منها يحشرون.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٨٧ - أخرجه البزاز وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية. . . قال لهم رسول الله ﷺ . . . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير قال: هذا أول الحشر وإنا على الأثر.

﴿... مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾:

إنه لم يكن إخراجهم لضعفهم في عِدَّة أو عُدَّة حيث ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولا لقوتكم أنتم في عِدَّة أو عُدَّة، لحدٍّ: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ ولكن الله تولى مهمة هذا الإخراج: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ نصراً من الله للرسول والمؤمنين المجاهدين.

فرغم عدم توقع المؤمنين خروج هؤلاء من عاصمة الرسالة الإسلامية، ورغم المُنَع المنيعة في حصونهم لحدٍّ أنستهم قوة الله التي لا تمنعها الحصون، ورغم أنهم بالتالي كانوا يحسبون أنفسهم بحكم هذه العُدد الظاهرية ظاهرين على المسلمين، رغم هذا كله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾.

فهنا حساب واحتساب يستطيعه الإنسان ويعرفه ويتبناه لما يهدف، وهناك حساب في ميزان الله يغلب كل حساب واحتساب، لا قِبَل له بأي حساب، فأين حساب من حساب؟

فمهما يملك الإنسان - كما يزعم - كلَّ دوافع الغلبة والظهور، ولكنه لا يملك قلبه الذي هو مصدر أمره ونهيه، قوته ووهنه، سقوطه ونجاحه، فمنه تصدر الأوامر لعساكر العقول والأفكار، والحواس والأعضاء، وعلى حد المروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

فهنا نجد بني النضير استعدوا بُعدَّة عديمة النظير، ولكنما الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا، من حيث قلوبهم التي هي بيد الرحمن ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أتاهم من دواخل حصون القلوب فكسرها، لحدٍّ ساعدوا المؤمنين في خراب حصونهم في القوالب ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ حيث كانوا يخربونها من دواخل حصونها لكيلا تقع في أيدي

المؤمنين، ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ كانوا يهدمونها من خوارج حصونها لكي يخرجوهم ويحتلوها، ولما كانوا هم السبب لهجوم المؤمنين وهدمهم بيوتهم بما نقضوا عهودهم، صحت نسبة تهديم المؤمنين إلى اليهود أنفسهم ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا لما وهنوا بما قذف في قلوبهم الرعب، فسألوا الرسول ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الأسلحة، فأجابهم ﷺ فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به آبالهم، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه، فيحمله على ظهر بعيره، أو يخربه ويكسر الأبواب حتى لا يقع في أيدي المؤمنين. وبما وهنوا استطاع المسلمون أن يهدموا بيوتاً وحصوناً، تناصراً من الجانبين في هدم البيوت مهما كانت الأهداف مختلفة، ولكنما الواقع الذي حصل «هدم البيوت» كان لهم وَهناً وللمسلمين قوةً وعزاً ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: «ولا يصح الاعتبار إلا لأهل الصفا والبصيرة»[1]. ومن هذا الاعتبار ألا يعتمد الإنسان - أياً كان - على أيٍّ من معدات الحياة الدنيا، فليؤمن بالله، وليؤمنٍّ حياته ونجاته بحول الله وقوته.

إن الاحتلال والتخريب وعَيْثُ الفساد في الأرض، إنها من صفات اليهود السيئة طول تاريخهم البئيس التعيس، تأخذ مثالاً منه نعيشه اليوم من سلطات الاحتلال الإسرائيلي في بلادنا المقدسة الزاهرة الطاهرة، أنهم ما أبقوا من قنطرة وقنيطرة من باقية، حينما احتلوهما، وعندما ارتحلوا عنها، بلاداً كانت من أعمرها، فأصبحت في الدمار لحدٍّ إذا زرتها ما عرفتها، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾!.

---

(١) في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾:

إن جلاءهم: تسفيرهم عن أرض الوطن دون رجوع، إنه لونٌ من عذاب الخزي لهم في الدنيا، عذابٌ نفسي أصعب من العذاب الجسدي أحياناً، فلولا أن كتبها الله عليهم لعذبهم بصور أخرى كما عذب الذين من قبلهم باستئصال، أو سبي، أو اقتتال، كإخوانهم بني قريظة، ولكنما المكتوب لا يحوّل، ثم لهم في الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾:

إن مشاقَّة الله وهي اعتباره في شق غير شقهم، هي نكران لربوبيته، كما وأن مشاقة الرسول نكران لرسالته، كأنهم آلهة أو رُسل! فالعقاب الشديد الناشب إلى الدنيا أيضاً، هو لزام المشاقة هذه وتلك.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾:

صحيح أن اللينة: النخلة الناعمة الجيدة - لا ذنب لها لكي تُقطع، ولكنها من خلق الله، قد تقطع بإذن الله، لحِكَم يعلمها الله، استئصالاً لأصحابها، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ليعز المؤمنين، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ففي هذا القطع أهداف حكيمة عدة من أبرزها إخزاء الفاسقين[1].

فقد قطع المسلمون لينات عدة من اليهود، وأبقوا أخرى[2]، فتحرجت

---

(١) الواو هنا كما في أمثالها تدل على معطوف عليه محذوف، يستفاد من المقام أو لا يستفاد، ومن المعطوف عليه هنا إعزاز المؤمنين.

(٢) في التفسير الكبير للرازي ٢٩: ٢٨٣ روي أن رجلين كانا يقطعان، أحدهما العجوة والآخر اللون، فسألهما رسول الله ﷺ فقال: هذا تركتها لرسول الله ﷺ، وقال: هذا قطعتها غيظاً للكفار.

صدورهم من القطع: أنه كان منهياً عندهم لأنه إفساد، ومن الترك أنه يتنافى وهدف التدمير والخراب، فهو تناقض من التصرفات الحربية، هكذا تقوّلوا على المسلمين لما تحرجوا من فعالهم، ولكي يُخسأ هؤلاء الكلاب النابحة، ولكي تطمئن قلوب المسلمين، يأتي هذا التصريح هنا: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فقطعها يخزيهم بالحسرة عليها، وتركها يخزيهم أنهم مضطرون ليتركوها[١]، فهذا من إخزاء الله لهم بأيدي المؤمنين.

ومن الإيحاءات الفقهية هنا جواز قطع الأشجار وإفساد الثمار، إذا اقتضى الأمر ذلك لصالح غَلَب المسلمين وعزهم وإذلال الكافرين وخزيهم، وإن كان الأصل الأول عدم السماح في شيء من ذلك، ولكنما عز المؤمن وذلّ الكافر كذلك هما أصلان أصيلان فوق الأصول من هذا النمط.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾:

تتجاوب آية الفيء هذه وآية السعي: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٢] في أن الأصل في أية فائدة هو السعي والعمل لانتاجها قَدَره دون فوضى، فما أفاء الله على رسوله: «الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة، الراجعة إلى حالة محمودة» إنها ليست للذين كانوا مع الرسول ﷺ فإن الله هو الذي سلَّطه عليهم وعليها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وأن المؤمنين ما

---

(١) في التفسير الكبير للرازي ٢٩: ٢٨٣ روي أنه عليه السلام حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق قالوا: يا محمد ﷺ، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء فنزلت هذه لآية.

وهذا الشيء في الدر المنثور ٦: ١٨٨ - أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية: استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ...﴾ [الحشر: ٥].

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

حاربوا في هذه المعركة، وإنما ألقى الله في قلوب أعدائهم الرعب فأخذوا يخربون بيوتهم ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾: أسرعتم ﴿عَلَيۡهِ﴾: الفيء ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾: أفراس ﴿وَلَا رِكَابٖ﴾: جمال، فلا نصيب لكم إلا مَن ذكره الله.

فالآية تنبه المسلمين أن هذا الفيء الذي خلّفه بنو النضير وراءهم، لم يركضوا هم عليه خيلاً، ولم يسرعوا إليه ركباً، فليس حكمه حكم سائر الغنائم التي لهم أربعة أخماسها والباقي لمن قررهم الله، إنما هو كله للرسول ﷺ يصرفه في وجوه وجهه الله لها.

وأحرى من قرية بني النضير فدك وهي انتقلت إلى فاطمة الصديقة عليها السلام إما نحلة أو لا أقل إرثاً.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾:

إن آية الفيء هذه وآية الأنفال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[1] تتجاوبان في ضابطة اقتصادية إسلامية حكومية: أن الأموال غير الخاصة، والتي لم يعمل ولم يسع لها أحد، بأي من صنوف الأعمال، إنها أموالٌ عامة تختص برئيس الدولة الإسلامية يصرفها لصالح المسلمين، دون أن تكون دولة بني الأغنياء منهم، سواء في ذلك الأراضي والأموال التي ملكت بغير قتال، والأراضي الموات والغابات ورؤوس الجبال وبطون الأودية والبحار والأنهار، وميراث من لا وارث له وما شابه ذلك من الثروات العامة[2].

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٢) وسائل الشيعة ٦: ٣٦٥ ج ٤ - الكافي بإسناده عن العبد الصالح موسى بن جعفر عليه السلام في=

فالفيء - كما أسلفناه - الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة، الراجعة إلى حالة محمودة، من فاء: رجع محموداً محبوراً، والنفل مقابل الفرض، وهو هنا الزائد، زوائد الأموال، وهي التي لم تفرض للأشخاص، إذ لم يفرضها أحد لنفسه بسعي خاص، فالفيء النفل، لا يفيء ويرجع إلا إلى رئيس الدولة الإسلامية ليصرفه في المصالح العامة والخاصة كما أراه الله، وتقرِّره وتقرُّه شريعة الله للحفاظ على الكيان الإسلامي من الانهيار(١).

وفيما إذا سئلنا: إذا كان الفيء والأنفال واحداً، فلِمَ تختص آية الأنفال أموالها بالله والرسول، وآية الفيء تعمها وصنوفاً أربعة أخرى؟

والجواب: إن الرسول إنما له الفيء والأنفال لأنه رسول، لا كشخص من أشخاص المسلمين، إنما كرسول، ورئيس للدولة الإسلامية، فما كان له بحجة الرسالة وجهتها يصرف في محاويج الإسلام والمسلمين، ومنها ما شرحتها آية الفيء: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما وأنه يصرف ما لله في سبيل الدعوة إلى الله، وشيئاً مما له في تحكيم الرسالة الإسلامية.

= حديث: وله (الإمام) بعد الخمس الأنفال، والأنفال كل أرض خربة باد أهلها وكل أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولكن صالحوا صلحاً وأعطوا بأيديهم على غير قتال، وله رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام وكل أرض ميتة لا رب لها، وله صوافي الملوك ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود، وهو وارث من لا وارث له، يعول من لا حيلة له، وإن الله لم يترك شيئاً من صنوف الأموال إلا وقد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه (إلى أن قال) والأنفال للوالي، كل أرض فتحت أيام النبي ﷺ إلى آخر الأبد، وما كان افتتاحاً بدعوة أهل الجور وأهل العدل، لأن ذمة رسول الله ﷺ في الأولين والآخرين ذمة واحدة، لأن رسول الله ﷺ قال: المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم.

(١) الدر المنثور ٦: ١٩٢ - أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله. أقول: ومما يدل على وحدة الفيء والنفل ما رواه الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال في حديث: الفيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل، والأنفال مثل ذلك هو بمنزلته (الوسائل ٦: ٣٦٧ ج ١١).

فليس «لله» هنا تعني أن الله يملك سدساً من الفيء ملكاً ذاتياً، فإن له ملك السماوات والأرض! ولا ملكاً عرضياً بالتمليك أو التملك وحاشاه! إنما تعني أنه يصرف في الإلهيات، كما تعني «للرسول» أنه يصرف في شؤون الرسالة، سواء في ذلك شؤون الرسول ﷺ الخاصة به، أو شؤون رسالته، أو في محاويج أمته، وكما كان يفعل «كما يحب»[(١)] ويجب.

ومن شؤون الرسول ذوو قرابته الملتصقون به، المحرمة عليهم الزكاة والصدقات فإن لهم حقاً مما للرسول، وأقرب القربى هم الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

«وذي القربى»: ذي قربى الرسول ﷺ فقط، شريطة الحاجة، فيمن سوى الأئمة من آله، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وعلّهم أعم من ذرية الرسول، ثم ولا يشترط في اليتامى وابن السبيل المسكنة وإلا لاكتفي بالمساكين، ولو اجتمعت عناوين عدة في واحد منهم استحق حقوق العدة، كهاشمي يتيم ابن سبيل، فله حقوق ثلاثة.

ولا يعني ذكر هؤلاء اختصاص الأنفال بهم، إنما هم من المصاديق الأكثرية في استحقاق الأموال العامة، ولذلك لا تذكر آية الأنفال إلا الله والرسول، إيحاء أن للرسول ما يحب ويستصلحه.

وإذا كانت الفيء والأنفال لله وللرسول ﷺ وكلاهما في تصرف الرسول للمصالح المسبقة، ثم إلى الخلفاء المعصومين من آل الرسول ﷺ [(٢)] فما هو مصيرها بعدهم عليهم السلام زمن الغيبة الكبرى إذ لا نبي ولا إمام ظاهراً؟

أقول: إنها للنواب العامين زمن الغيبة، يصرفونها فيما يحق لتعزيز

(١) الوسائل ٦ : ٣٦٧ عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث: والأنفال لله وللرسول فما كان لله فهو للرسول يضعه حيث يحب.

(٢) كما هو الشأن في كل ما للرسول وعليه ﷺ من تكاليف رسالية، وبذلك استفاضت الأحاديث كما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام (فيما يعد من الأنفال) فهو لرسول الله ﷺ وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء (الوسائل ٦ : ٣٦٤ ج ١) ومثله كثير.

شوكة الإسلام وعيلولة من لا حيلة له[١] وحياطة المسلمين وحيلولتهم عن أعدائهم، فهم ولاة الأمر على الشعوب المسلمة، فليست هي ميراثاً أو مالاً لهم خاصاً، إنما بسبب النبوة أو الإمامة أو الولاية الشرعية، وتجمعها الزعامة الإسلامية[٢] فلا يحق لهم صرفها لمصالحهم الخاصة، إلا بقدر ما يصرف لغيرهم من المسلمين، والأحاديث المحلِّلة إياها للمسلمين زمن الغيبة لا تعني الفوضى في تصرفها لمن يشاء كما يشاء، وإنما عن طريق الوالي العام العادل، تقسيماً عدلاً، دون اختصاص أو زيادة للأغنياء:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾:

قيل الدولة بالفتح والضم واحدة، وقيل: الأول لما يتداول من الحال، والثاني لما يتداول من المال والجمع دُوَل ودِوَل، وعلى أية حال فدولة الأغنياء ودُولتهم طبقية عارمة ظالمة لا يقرها الإسلام ولا أية شريعة من شرائع الله، كما ويندد الرسول ﷺ بذلك قائلاً: «إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين صيروا مال الله دولاً وكتاب الله دغلاً وعباده خولاً والفاسقين حزباً والصالحين حرباً»[٣] والواجب تداوُل الدَّولة والدُّولة بين الناس كل الناس إلا النسناس، كلٌ حسب سعيه وقدره واستحقاقه وقدرته على الإصلاح والاستصلاح، وكما هو صالح الشعوب المسلمة، وأما أن تتنقل دُولة المال ودَولة الحال بين الأغنياء، أو الأقوياء أم من ذا؟ فلا!

---

(١) الكافي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام في حديث الأنفال وأهلها: إن الله لم يترك شيئاً من صنوف الأموال إلا وقد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه... والأنفال إلى الوالي (المصدر ٣٦٦).

(٢) كما في الفقيه بإسناده عن علي بن راشد قال: قلت لأبي الحسن الثالث عليه السلام إنا نؤتى بالشيء فيقال: هذا كان لأبي جعفر عليه السلام عندنا فكيف نصنع؟ فقال: ما كان لأبي بسبب الإمامة فهو لي وما كان غير ذلك فهو ميراث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ (المصدر ٣٧٤).

(٣) القمي في تفسيره عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (نور الثقلين ٥ : ٢٧٨). ومثله، في العيون في باب ما كتبه الرضا عليه السلام للمأمون من محض الإسلام وشرائع الدين، والبراءة ممن نفى الأخيار وشردهم وآوى الطرداء اللعناء وجعل الأموال دولة بين الأغنياء.

إنها قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإسلامي اقتصادياً وجماعياً، تمثل جانباً عظيماً من أُسس الحكم العدل، فرغم أن الملكية الفردية معترف بها فيها، ولكنها محددة بقاعدة عدم اختصاص دُولة المال بين الأثرياء، ممنوعة عن الفقراء فكل محاولة وكل حالة تفضي إلى دُولة المال بين الأغنياء، أو دَولة الحال بينهم أو بين الأقوياء، إنها حالة سيئة ومحاولة سيئة حسب التنظيم الإسلامي الذي لا يؤصّل إلا أصالة الحق والعدل أينما حل، ومن أي حصل.

وبذلك يوحي تحريم التكنيز وإن كان من الأموال الشخصية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)] فدولة المال وتكنيزه وتضخم الثروة، إنها مما لا تتوافق والروح الإسلامية العادلة الفاضلة.

وبما أن النظام الرأسمالي قائم على دولة المال بين الأثرياء، وعلى الحكرة والرباء، وعلى عدم الإنفاق للبؤساء العجزة المعوزين، فالنظام الاقتصادي الإسلامي منه براء.

وبما أن النظام الشيوعي لا يحترم الملكية الفردية العادلة، ولا يعدل بين السعي والمنتوج تماماً، فاقتصاد الإسلام منه براء، طالما كان أشبه به في بنود.

وإنما الإسلام نظام خاص فريد متوازن الجوانب، لا شيوعية ولا رأسمالية مهما تشابهتا معه في جوانب لا محيد عنها في كافة المتخالفات.

فعلى الشعوب المسلمة المحرومة المحطمة المظلومة كفاح صارم ضد دَولة الحال ودُولة المال على ذوي الأثرة والكبرياء فيهما، لإيصال كل ذي حق إلى حقه، ولتسود الجماعات المسلمة دوَلة الإسلام ودُولة لصالح

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

الجماهير كلها، ولن تتحقق هذه الدولة الكريمة إلا على ضوء اتباع الرسول ﷺ والرسالة الاسلامية بكافة بنودها:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

توحي الآية بأن البعض من المسلمين ما كانوا يرضون بتقسيم الرسول ﷺ إذ كان يحرم بعضاً ويؤتي بعضاً، وكان يزيد بعضاً على بعض حسب ما يراه، وكما يُروى عنه ﷺ أنه قسم الفيء بين المهاجرين ونفر من الأنصار المحاويج، فاعترضه الباقون وتساءلوه في ذلك، فصدرت ضابطة عامة أن الرسول ﷺ مفوض إليه الأمر في دَولة الحكم ودُولة المال وكما يروى عنه ﷺ وعن الأئمة من آله عليهم السلام [1] دون أن تختص الآية بإيتاء المال والنهي عنه، مهما نزلت بهذه المناسبة.

فهذه هي النظرية الدستورية الإسلامية أن أصل القانون من الله لا سواه، وتطبيقه من رسول الله ﷺ، لا سواه، خلاف كافة النظريات الدستورية الوضعية طول التاريخ، التي تؤصل الأكثرية في سَنّ القوانين، أو تحصر حق التقنين برئيس الدولة الذي هو بشر كسائر البشر يخطيء ويسهو ويجهل ويميل.

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولاً وعملاً وتقريراً، أنها من سنة الله، وأن ما سنه ليس إلا بما أراه الله.

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى الله: ﴿وَٱتَّقُوا۟

(١) الكافي بإسناده إلى الميثمي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل أدب رسوله حتى قومه على ما أراد ثم فوض إليه فقال عز ذكره: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] فما فوضه الله إلى رسوله فقد فوضه إلينا.

أقول: وهذا المعنى متواتر عن أئمة آل البيت - راجع تفسير البرهان (٤: ٣١٤ - ٣١٦) ونور الثقلين (٥: ٢٧٩ - ٢٨٤).

ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: تقوى في دوُلة المال ودوَلة الحال، فلله الدَول على أية حال، يؤتيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء، فدولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق والمساعي بما قررها الله، ودوَلة الحال وهي الحكم بين الناس، إنها لله ولرسل الله الحاملين المبلغين رسالات الله، ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً.

ثم آية الأنفال تختصها بالله والرسول، وآية الفيء تعمهما والأربعة الباقية، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين... مما يوحي بتفويض الرسول في الفيء والأنفال، وأن النسب ليس شرطاً أصيلاً في استحقاقها:

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾:

﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ علّه بدل عن ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما اللام توحي بذلك ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ...﴾: وللفقراء مهما كانوا من يتامى الهاشميين ومساكينهم وأبناء سبيلهم، أم من المهاجرين والأنصار، كما يروى أن الرسول ﷺ قسم فيء بني النضير بين المهاجرين وثلاثة من فقراء الأنصار، مما يبرهن على عدم اختصاص الفيء بالهاشميين، وللرسول ﷺ وأولي الأمر فيه الخيرة.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ الذين هاجروا أرض الوطن في سبيل الله ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: من وظائفهم وأشغالهم ومصالحهم وأموالهم، تركوها كلها حفاظاً على شريعة الله بدافع الإيمان بالله ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ لا يبتغون من غيره جزاءً ولا شكوراً، وإنما ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أن يعيد إليهم مسكة الحياة الدنيوية، ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ وهو الأصل فيما يبتغون، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الحالات، لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حِماه ﴿وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ حيث يتبعونه فيما يفعل أو يقول، دون تحرُّج مما قضى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم دون شائبة ولا عائبة.

فهؤلاء الكرام لهم نصيب من الفيء، للفقر والإيمان والجهاد، وهم أفضل من يستحقون الفيء، وكذلك من بوّأ لهم دار الهجرة، بواء المكانة والمكان قبل أن يهاجروا:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: دار الهجرة، المدينة المنورة، فإنها من أسمائها العشرة كما يروى عن الرسول ﷺ [(١)] ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ تبوُّءاً لهما على سواء، فكما يطمئن الإنسان إلى داره، اطمأن هؤلاء الأماجد إلى إيمانهم الرصين الحصين واستوطنوه، وطناً أليفاً أميناً للروح، كما الدار مأمن للجسم.

فالتبوُّء من البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النبوّة وهي منافاة الأجزاء، فالتبوُّء هو التكلف في البواء للراحة والطمأنينة، سواء أكان بواءً في المكان والدار، أو المكانة والإيمان، فـ«الإيمان بعضه من بعض وهو دار، وكذلك الإسلام دار والكفر دار» كما في الصادقي عليه السلام [(٢)].

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكاناً يناسب الإيمان، عمّروهما وتهيؤوا لاستقبال الرسول ﷺ والمهاجرين فيها، مكاناً تتساوى أجزاؤه لهم وللوافدين المهاجرين، وهذه هي التبوئة الحقيقية العادلة، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذي فيه كل رواع قلباً وقالباً، بعدما اضطهدوا ولاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة، فإن أهلها

(١) الدر المنثور ٦: ١٩٥ - أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ: (للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار).

(٢) الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: . . .

كانوا يدمرون الدار والإيمان، فهاجروا إلى من يعمرون الدار والإيمان، لهم ولمن سواهم سواء، يملكهم الحب في الله ويملكونه «وهل الدين إلا الحب؟»[1].

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حباً لهم واستقبالاً عديم النظير في التأريخ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم، واحتمال أعبائهم، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ هم، مهما كانوا محاويج في متطلبات عيشتهم، ولا سيما مع الضيوف: الواردين، ولكن نفوسهم الأبيّة، وصدورهم المنشرحة، لم تكن توجد فيها حاجة مما أُوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه، ولا حاجة مما أُوتي المهاجرون من الفيء، بل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الفقراء المهاجرين ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: حاجة مدقعة، والخصاصة في الأصل هي الفُرجة، وهم لم يكن لهم ما يسدُّ فُرج الحياة، ورغم ذلك، ومع حياتهم المعيشية المختلفة، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين: فيما أُوتوا من الفيء، وفي أموالهم الخاصة، تشجيعاً لجنود الهجرة، وترغيباً للتضحية في سبيل الله، والإيثار على النفس، رغم شحّها أو حاجتها، إنه القمة العليا من الإنفاق، وقد بلغها الأنصار في تلك الظروف الصعبة الملتوية، وكم من بون بينهم وبين من يؤثرون الحياة الدنيا وهم أغنياء: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[2].

ولقد قال النبي ﷺ للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، وإن شئتم كان لهم

---

(١) محاسن البرقي بإسناده إلى باقر العلوم عليه السلام في حديث: (الدين هو الحب والحب هو الدين) يعني الحب في الله.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦، ١٧.

الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم، فقالوا: لا، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة، فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾».

وهذه الآية تعمّ جميع الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إلى يوم الدين، دون اختصاص بمن نزلت في شأنهم من الأنصار وسواهم كما في أسباب التنزيل[١].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: بُخل نفسه وتضيّقها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فإن شح النفس، وهو الحالة الرديئة التي تُبخل الإنسان في العطاء وتحرصه فيما بأيدي الناس[٢]، إنه من أصول موانع الفلاح، فواقعه يفلج وزواله يفلح، وداؤه العضال حاضر الأنفس: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[٣]، وحاضر الداء هو دوماً حاضر البلاء، إلا لمن توقى فوقاه الله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وحينما يمدح الله تعالى من يوقَ شحّ نفسه، بوقاية صاحبها وتأييد الله، يندد بمن لا يوقَ، فهو شحيح على المؤمنين وعلى الخير أينما حلّ وارتحل: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾[٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٢٩: ٢٨٧، عن ابن عباس.

(٢) من لا يحضره الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي أنه قال: قال لي أبو عبد الله: أتدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل، فقال: الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٨، ١٩.

وكما أن لشحِّ النفس دركات، كذلك لوقايته درجات، منها ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة وسواها، وكما عن علي عليه السلام [١]، كما وأن منها ألا تشح عن المندوبات كقري الضيف كما عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث مَن كنّ فيه فقد بريء من الشح: مَن أدى زكاة ماله وقرى الضيف وأعطى في النوائب» [٢]، وكلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ما محقَ الإسلامَ محقَ الشحّ شيءٌ قط» [٣]، و«شر ما في الرجل شحٌ هالع وجُبن خالع» [٤]، وإلى غير ذلك من كلماته صلى الله عليه وآله وسلم حول خطورة الشح [٥].

وحدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنده، فالنصف سواءٌ وليس إيثاراً، فضلاً عما دون النصف، وكما في الصادقي عليه السلام [٦] وأرقى الإيثار ما فعله

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٩٦ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه.

(٢) المصدر - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: . . .

(٣) المصدر - أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .

وفي من لا يحضره الفقيه: ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن لهذا الشح دبيباً كدبيب النمل وشعباً كشعب الشرك).

(٤) المصدر - أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٥) كما في المصدر أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

(٦) الكافي عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته فقلت: أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال: يا أبان! دعه لا ترده، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أرد عليه، فقال: يا أبان! تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني، فقال: يا أبان! أما تعلم أن الله عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت: بلى جعلت فداك، فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف.

وفيه أيضاً عنه عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شيء، ويعطف من عنده قوت شهر على من دونه؟ والسنة على نحو ذلك؟ أم ذلك =

مَن ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[١] كما شرحناه في سورة الإنسان.

ولا يعني الإيثار أن يترك الإنسان نفسه وعياله جياعاً عُراة، فإن ذلك تهلكة وليس إيثاراً، وكما في الصادقي عليه السلام نقلاً عن الرسول صلى الله عليه وآله: «خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله وهو أحسنها أجراً»، وقال صلى الله عليه وآله للأنصاري، حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين بترك صبية صغار يتكففون الناس»[٢].

أجل، وكما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٣].

هؤلاء المهاجرون والأنصار الذين مدحهم الله على سواء، وأشركهم في قسمة الفيء والأنفال، فهل إن هذا وذاك يختصهم؟ كلا! بل:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

هذه الآية تلقي ضوءاً عاماً لجميع هؤلاء الذين حياتهم حياة المهاجرة

= كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال: هو أمران أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والأثرة على نفسه، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، والأمر الآخر لا يلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول.

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٢) علي بن إبراهيم القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة في حديث طويل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يشرح فيه حدود الإيثار والإقتار (نور الثقلين ٥: ٢٨٨).

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

والنصرة في سبيل الله والمحبة والإيثار في الله، من كانوا وأيا كانوا وأينما كانوا، فإنما الأصل الأول والأخير هو الإيمان والعمل الصالح، دون اختصاص بسابق أو لاحق، وإن كان للسابقين - بما هم حجر الأساس - لهم فضلهم، ولكنما السبقة والسباق في الإيمان أيضاً قد يحصلان بعد البداية، أو كأفضل منها أحياناً، وفي ظروف أشد خطورة، وأجواء أظلم وأطغى.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: من بعد المهاجرين والأنصار الأولين، جاؤوا للإيمان كما هم، أم جاؤوا إلى الوجود ونشوا في جو الإيمان، بَعدية كونية أم كيانية يجمعهما أنهم مؤمنون، وهذا عطف على الفقراء المهاجرين، يعطفهم على ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)] للعطف بهم في تقسيم الفيء والأنفال، مما يدل على شمول الفيء لكافة المؤمنين الفقراء، وإن كان بنو هاشم أولى إذا ساووهم في الإيمان أو سابقوهم.

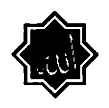
فهذه صورة ثالثة وضيئة عن المؤمن الحقيقي، تطمئنه أنه لو حرم الهجرة والنصرة الأولى، ولكنه لا يحرمهما بعدهما، فلتكن حياة المؤمن حياة الهجرة والنصرة في الله دون أن يخاف أحداً إلا الله.

هؤلاء تشبه حالهم مقالهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: سبْق الزمان أو سبْق الإيمان في درجاته، فهم مهما انفصلوا عن إخوانهم المؤمنين، الأنصار والمهاجرين، زماناً ومكاناً، ولكنهم لا ينفصلون عنهم أخوّةً وإيماناً، فقد تتجلى فيهم الآصرة الباهرة التي تربط هذه الأمة بعضها ببعض، والتي تتخطى الزمان والمكان، وكل ما سوى الإيمان، فلا يحبون لأنفسهم ويطلبون، إلا ويطلبونه ويحبونه لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، وليس تقديم أنفسهم في الدعاء إلا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

تبوُّءاً لها لكي تستجاب دعوتهم لإخوانهم، ومن ثم لأنفسهم، وهذا لون من ألوان الإيثار، بالنسبة لمن سبقوهم أحياءً وأمواتاً.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: الغِلُّ هو العداوة والضِّغن من الغُلّ: القيد، فكما الغُل قيد للأجسام، كذلك الغِل قيدٌ للصدور والأرواح، يجعلها ضيِّقة ضنكاً ضغينة، فالله تعالى ينزع الغِل من صدور من ينتزعه بسعيه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] ﴿... إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[2]، كما وأنه يجعل فيها الغل لمن يغلّ، فيذره في غلِّه يعمه، وفي طغيانه يتردد، فالمؤمنون العاملون لانتزاع الغلّ عن صدورهم يلتمسون من الله تعالى أن يعينهم لزوال الغِل، إذ كلَّ سعيُهم وقلَّت حيلتهم في تواتر الأغلال ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.



(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ من المسلمين المستسلمين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم، هؤلاء يقولون لإخوانهم في الكفر: يهود بني النضير، فليست الأخوَّة في الدم والقرابة فحسب، فالأعمق منها هي الأخوة في العقيدة، فكما أن المؤمنين إخوة فيها، كذلك الكافرون إخوة في الكفر، مهما اختلفت أواصر القرابة والعنصرية واللغة وما شابهها هنا وهناك.

إن الأخوة على ألوان يجمعها الوجه المشترك بين جماعة، يربطهم برباط واحد كجامع الوطن، إذ آخى بين عاد وهود (٧: ٦٥) وصالح وثمود (٧: ٧٣) ومدين وشعيب (٧: ٨٥) ولوط وسدوم (٥٠: ١٣) مهما تناقضوا في العقيدة أو تباعدوا في النسب.

وجامع النسب كما هو ظاهر، وجامع الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١) وجامع الكفر: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(٢) وهذه الآية:

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾: بني النضير، لما قرر إخراجهم من قريتهم لما خانوا ونقضوا عهدهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ إيحاءً لهم بشدة رباط

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.

الأخوة بينهم لحدّ: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ حتى الرسول الذي آمنا به بألسنتنا، فقد نجاهره بالخلاف لصالحكم، وإيحاءٌ ثانٍ هو أشد وآكد: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ بالنفس والنفيس، فقلوبنا معكم، وأسيافنا لكم، ولكن الله يفضحهم أن نفاقهم مزدوج، ينافقون إخوانهم كما نافقوا المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وهذه الشهادة أصبحت ملموسة لبني النضير عن نفاق مدروس من إخوانهم المنافقين.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

فقد كان لا بدّ للمنافقين أن يفوا لإخوانهم بوعدهم في هذا الثالوث المنحوس: فيخرجوا معهم إن أخرجوا، وينصرونهم إن قوتلوا، ولا يوّلوا الأدبار إن نصروهم، تطبيقاً لوعدهم، أو ليكذبوا نبأ القرآن عنهم، ولكنهم ما فعلوا من ذلك شيئاً، وكيف بالإمكان تكذيب القرآن رغم واقع الاختيار لهؤلاء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، ولكن عليهم دائرة السوء وكلمة الله هي العليا، فلقد وقع ما نُبِّئ النبي من كيد المنافقين، كما وقع مئات ومئات من هذه الأنباء الغيبية، التي هي حجج دامغة على الناكرين.

إنهم يجمعهم: ألا عزم لهم ولا حزم إذ لا مولى لهم عليه يعتمدون، فهم يرهبونكم ولا يرهبون الله، رغم حصونهم بعِدتهم وعُدتهم:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾:

هؤلاء الإخوة في الكفر يرهبونكم ولا يرهبون الله كرهبتكم أنتم عبيده! و﴿ذَٰلِكَ﴾: هذا البعيد البعيد من الحالة النفسية الرديئة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: الحقائق فيثبتوا لها، فلم يعرفوا الله حتى يهابوه حق مهابته، ولم يعرفوكم حتى لا يهابوكم «ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم

يخف الله أخافه الله من كل شيء»[١] أجل وإن المرتبط إيمانياً بمصدر القدرة والجبروت يُرهب منه كما يرهب من الله! ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه، إذ لا إله إلا الله، ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله، أو لا يخافونه أبداً، ولذلك تراهم يخالفون وعودهم لإخوانهم رهبةً منكم.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

ومن رهبتهم إياكم أن ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: الكافرون والمنافقون سواء بنو النضير وإخوانهم أم نظرائهم ﴿جَمِيعًا﴾: حال أنكم جميع في قلوبكم، جميع في اتجاهاتكم، وجميعٌ في دفاعكم وهجماتكم في سبيل الله بدافع ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[٢] كذلك ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾: وهم جميع بكافة صنوفهم، تجمعوا على قتالكم أو تفرقوا، ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ فلا يتكلون إلا على العِدة والعُدة، إذ لا إيمان لهم به يثبتون، ولا مولى لهم عليه يتوكلون، فهم يقاتلونكم متكلين على هذه المعدات الحربية، وأما في غير حصار ولا جدر فهم يهربون ويتساقطون رهبة منكم وخوفاً، وكما نلمس هذه الحالة البئيسة من الكفار طوال التاريخ، نلمسها في حروبهم مع المؤمنين الحقيقيين، مهما كانوا قلة وأولئك كثرة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾[٣] وفيما نرى غَلب الكافرين على المؤمنين، نجده من تفرق المؤمنين وابتعادهم عن مبدئهم، كما يشهد بذلك التاريخ.

تشهد الاشتباكات المتواصلة بين الفدائيين والصهاينة بصدق هذه

---

(١) عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

الملحمة القرآنية، فما يقاتلون إلا بتحصنات ومعدات حربية، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولّوا الأدبار كالجرذان، ومن ثم لم تكن نكسات المسلمين العرب إلا قدر انتكاساتهم عن الروح الإيمانية وتفرقهم بينهم.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾: قوتهم فيما بينهم شديد، كما أن: بؤسهم بينهم شديد[1] ومن بؤسهم في بأسهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ فمظاهرهم تخدع إذ نراهم كأنهم متضامنون، وفي معسكرات قوية متوحدة، ولكنما الواقع خلاف الظاهر فإن ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ لتشتت أهوائهم وأهدافهم، فهم يقاتلون ما ظنوا أنهم يقتلون ويحتلون، فإذا ظنوا أنهم يُغلبون أو يقتلون يولون الأدبار ثم لا يُنصرون خلاف المؤمنين الحقيقيين الذين هم جميع في قلوبهم، فإنهم يرونهم منتصرين، قاتلين ومقتولين فلا يوّلون.

فمهما انتصر الكفار في حربهم مع المؤمنين، لم يكن ذلك إلا لتشابههم في قلوب شتى، فتغلب من تزيد عِدَّته وعُدَّته، وإنما يظهر حق هذا النبأ القرآني فيما قلّت عدة المؤمنين وعُدتهم، أو تساوت مع الكافرين، فانتصر المؤمنون، كما في معارك عدَّة، ويعاكسه عكس الأمر أحياناً، فيما كانت القلتان بجانب الكفار دون المسلمين فانتصر الكفار، فليس إلا بتماسكهم بها أكثر من المسلمين - رغم شتاتهم جميعاً - كما في الحروب الإسرائيلية الأخيرة، اللهم إلا حرب رمضان، إلا لمن رفضها عن دوامها حتى النصر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾: فتشتت قلوب العساكر هو الحماقة الكبرى، وعدم الاكتراث بالطاقات المعنوية مع العناية بالمعدات الحربية، من عدم العقل.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

مثل هؤلاء الحماقى كمثل مَن قبلهم كالمشركين يوم بدر، وكبني قينقاع

(١) بأسهم: على أنفسهم هو بؤسهم وعلى غيرهم هو قوتهم، فالمعنيان هما هنا معنيان.

وأضرابهم من الخونَة الناقضين عهودهم مع المسلمين، فقد كانت وقعة بني قينقاع قريبة من وقعة بني النضير بين بدر وأُحد، إذ حقدوا على المسلمين لما انتصروا في بدر، إذ خافوا أن يؤثر على موقعهم في المدينة بزوال معنوياتهم وجاههم، فبلغ الرسول ﷺ تحسّسهم وتهامسهم ضده، فحذرهم من ذلك فاستكبروا قائلين: إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب؟ والله لئن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس! فأخذوا يتهرجون متحرشين بالمسلمين حتى جردوا امرأة مسلمة عن ملابسها في سوقهم، فاندلع الحرب بينهم وبين المسلمين وحاصرهم الرسول ﷺ حتى استسلموا وعرفوا مَن هم الناس ومن هم النسناس! وكان ما كان من خداع المنافقين معهم نظير بني النضير، فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة، على أن يأخذوا أموالهم إلا أسلحتهم، فانجلوا إلى الشام فـ ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الأولى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الأخرى، هؤلاء الكفار مع إخوانهم المنافقين.

ومثل عام شامل عن عمليات المنافقين الخادعة اللئيمة المشؤومة:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

مثل حزب الشيطان هؤلاء، المضلِّلون والمضلَّلون، كمثل زعيمهم الأول، دائباً في تضليلهم، آئباً عنهم أخيراً، متبرئاً منهم، وكما فعل بالمشركين يوم بدر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ﴾[1].

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

وهذا هو دأبه الدائب: يعِد ويخلف، نفاقاً عارماً يعيشه، وعجبٌ من هؤلاء الذين يتبعون خطواته وهم يبصرون، وكما فعل بالمنافقين يوم بدر، وبني النضير، وكم لهما من نظير.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: شيطان الجن والإنس بنوعيهما ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾: نوع الإنسان، يأمره بالكفر بما يزين له ويزخرف فيتبعه من عميت بصيرته وضلت سيرته، يعده في كفره ألوان الوعود الحلوة ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ وحصل ما أراد منه نكص على عقبيه و﴿قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ كأنه أشطن منه وألعن وهو يتقي الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقد يكذّب في قولته: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ كما في أكثر الأحايين، وقد يصدِّق كما في بدر إذ رأى الملائكة النازلين لتعزيز المؤمنين قائلاً: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: الشيطان المضلِّل، والإنسان المضلَّل ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ ابتداء من دار الفرار إذ عاشوا في نار التضليلات، وإلى دار القرار ﴿خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ظلم التضليل وظلم التضلّل، مهما اختلفا في مداه، فإنهما ائتلفا في معناه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾:

إن عقائد التقوى وأعمال التقوى لبناتٌ لتبنِّي شخصية الإنسان للحياتين، فلتنظر نفسٌ إنسانية ما قدمت من صالحات أو طالحات لغدٍ، تقوى تتبنى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

حياته الطيبة، أو طغوى تتبناها مرذولة نجسة، تهدم صرح إنسانيته، فلتنظر لتقدم ما يقدمه دون تأخير، وتنكير «نفس» يوحي بقلة المراقبين لأحوالهم وأعمالهم كما هو الواقع - وبين المتقين أيضاً - فالمعروف الساري بين الناس عدم المراقبة، والإهمال بشأن «غدٍ»، لذلك فلتزوّد نفسٌ التقوى العقائدي والعملي بتقوى النظرة والرقابة لما تقدمه نفسه. فواجب الإنسان أن يقدم كل يوم لغده، وكل غدٍ لما بعده، فيتخطى - هكذا - حياته الدنيا، إلى غد الأخرى، متبنياً صرح الحياتين دائباً «فمن ساوى يوماه فهو مغبون» مقدماً من كل يوم لغده هنا، ومن أيام الدنيا جميعاً لغد الآخرة، سلسلة تقدمية من حياة التقوى ليعيش مع الله حياته كلها، وعلّ تثنية التقوى في الآية بدءاً وختماً، توحي بمفعول التقوى لغد الدنيا وغد الآخرة مهما كانت الأخرى هي الأحرى[1]، وتشيران كذلك إلى تقوى العمل وتقوى المراقبة والمحاسبة كما وأن تنكير «غدٍ» يوحي بعدم اختصاصه بغد الآخرة.

---

(١) فبالنسبة لغد الآخرة يروى عن رسول الله ﷺ قوله: (تصدقوا ولو بصاع من تمر، ولو ببعض صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، ولو بتمرة، ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن أحدكم لاقى الله فيقال له: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سميعاً بصيراً؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى، فيقول الله تبارك وتعالى: فانظر ما قدمت لنفسك، قال: فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يجد شيئاً يقي به وجهه من النار (نور الثقلين ٥ : ٢٩٢) عن أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ:
وفي الدر المنثور ٦ : ٢٠١ - أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جرير قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فأتاه قوم مجتابي النمار متقلدي السيوف، ليس عليهم أزر ولا شيء غيرها، عامتهم من مضر، فلما رأى النبي ﷺ الذي بهم من الجهد والعرى والجوع تغير وجه رسول الله ﷺ ثم قام فدخل بيته، ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر، ثم صعد منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ذلكم فإن الله أنزل في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ - إلى قوله - ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠] تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة، تصدق امرؤ من دينار، تصدق امرؤ من درهمه، تصدق امرؤ من بره من شعيرة من تمره، لا يحقرن شيء من الصدقة ولو بشق التمرة، فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه=

فواجب النظر إلى ما تقدمه أن يكون عميقاً أنيقاً، من نظر البصر والبصيرة نظر العقل والفطرة والسريرة، على ضوء الشريعة الإلهية، دون أن تتخطاها إلى ميول الهوى، والعقل المتحلل عن وحي السماء، وهذه هي المراقبة التي أمرنا بها لكي لا نخسر الحياة[1]، فرب غفلة وغفوة يسيرة تخسرك كثيراً، وتوكل على الله ليكون لك نصيراً و﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾:

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: نسيان الفطرة بما حُجبت ودرنت، فألحدوا في الله، أو أشركوا به، أو نسياناً في عقولهم وفِكَرهم فشكّوا فيه رغم يقظة الفطرة، أو نسياناً لعهده ألا يعبدوا الشيطان ولا يطيعوه ويغتروا به: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[2]، أو نسياناً للقائه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾[3]، أو نسياناً لذكره: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾[4] عصيانات بنسيانات تجمعها نسيان الله عقائدياً وفكرياً وعملياً، ثالوث منحوس يخلف الفسق والبوار، مهما كانت دركات عدة: من خلاف الأولى والفسق والكفر والإلحاد، كما أن ذكر الله درجات، من الإسلام والإيمان والعصمة الإلهية.

= فناولها رسول الله ﷺ وهو على منبره فعرف السرور في وجهه فقال: من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً فقام الناس فتفرقوا فمن ذي دينار ومن ذي درهم ومن ذي طعام ومن ذي ومن ذي فاجتمع فقسمه بينهم.

(١) عن النبي ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر.
وفي الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: ليس منا من لم يحالب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً ازداد شكراً وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١٨.

ومن عقبات وعقوبات نسيان الله أن يُنسيهم أنفسهم، فـ«مَن عرف نفسه فقد عرف ربه» كما أن مَن ذكر نفسه كما هي، ذكر ربه، بما في النفس من آيات ربوبيته وملزمات عبوديته، فمن ينسى ربه يُنسيه ربُّه نفسَه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فلما نسي نفسه فسق عما يحق له وعليه، وخرج عن طوره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ينسيهم أنفسهم بما نسوه فنسيهم: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١).

وليس نسيان الله لمن ينساه أن يجهلهم أو يغفل عنهم، وإنما أن يعاملهم معاملة الناسي لرعيته فيذرهم في طغيانهم يعمهون وفي غيِّهم يترددون، ويكلهم إلى أنفسهم، فهم إلى بوار يتردّون، وإلى شر دار ينهارون، وهذا هو أسّ البلاء الذي يخافه حتى الرسول ﷺ قائلاً: «ربنا لا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً».

إن البليَّة كلها، والرزيَّة كلها أن يجهل الإنسان نفسه وينساها، فيحسب فقره غنىً، وجهله علماً، وتعلقه بالله استقلالاً بجنب الله، إذ نسي أنه فقير الذات والصفات والأفعال إلى الله، فهو يطغى أن رآه استغنى! وهذا هو الفسق المطلق: الخروج عن الطاعة، لما أخطأ نفسه فخرج عن طوره.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

أصحاب النار هم الناسون الله فالناسون أنفسهم، وأصحاب الجنة هم الذاكرون الله فالذاكرون أنفسهم، نار النسيان وجنة الذكر، فهل تستويان، وإنما الفائزون: الظافرون بالخير مع حصول السلامة، هم الذاكرون، فذكر الله جُنّة عن النار، فجَنَّةٌ ونعم القرار: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾(٢) ونسيانه نار وبئس القرار.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

ليس بين الفريقين المتفارقين مفرق طريق ولا أنصاف حلول، لا يلتقيان في أي مفرق ولا أية سمة أو خُطة أو سياسة، في أي من عوالم الوجود!

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿لَوْ﴾ توحي باستحالة مدخوله حيث الجبل ما دام جبلاً ليس ليعي القرآن، فلو كان يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه قلباً وقالباً، ولتصدّع من عظم شأنه على غِلظ أجرامه وخشونة أكنانه[1]، فالإنسان الواعي أحق بذلك وأحرى، إذ كان واعياً لقوارعه، عارفاً ببوارعه، عالماً بصوادعه، فيا للإنسان غير الخاشع ولا المتصدع من قلب قاس دون حراس ولا اكتراس: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] فما أعجب وأخزى حال أهل المشاقة والعناد، وما أكثرهم من عتاد، لا تلين قلوبهم لذكر الله، فلا يخشون ولا يخشعون! ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[3] فالذين يحسون ويلمسون شيئاً من مس القرآن في كيانهم، هؤلاء يتذوقون تلك الحقيقة المشعة التي لا يعبر عنها إلا هذا النص القرآني المجيد، فإن لهذا القرآن سلطاناً على القلوب غير المقلوبة، لا تثبت له إلا أن تتفتت وتهتز هزات وتحوّلات لا قبل لها، يحوِّلها عن قلب التراب إلى مجلى أسماء وصفات رب الأرباب، تخلية لها

---

(١) فالفرق بين الخشوع والخشية أن الأول للقوالب والثاني للقلوب، فلو كانت للجبال قلوب كما للإنسان لخشعت وخشيت.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الزمر، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

عما سواه، فتجلية بالله، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتذكرون بها لما يتوجب عليهم أن يكونوا وجاه هذا القرآن.

إن هذا القرآن شفاء للقلوب وللقوالب أيضاً وكما يروى عن النبي ﷺ: «إن جبرئيل لما نزل بها قال لي ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داءٍ إلا السأم والسأم الموت»[1] ومن أشفى الشفاء لما في الصدور الآيات التي تحمل التعريف بالله وتوصيفه وتعديد أسمائه الحسنى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾:

فإنها والآيتين بعدها تسبيحات مديدات بصفات مجيدة عديدة تمثل صفاته العليا كلها، وكما يختمها بإيحاء عام لها: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ هو: الذات الغائبة من كافة الجهات، محجوبة لأبعد أغوار الحجب، لا يرجى ظهورها لا للبصائر ولا الأبصار في أيٍّ من عوالم الوجود، فـ ﴿هُوَ﴾ هو الاسم الأعظم المحجوب، كما ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الاسم الأعظم الظاهر[3].

فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في أيٍّ من ذات الألوهية وصفاتها ومتطلباتها

(١) الدر المنثور ٦: ٢٠١ - أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال أنبأنا أبو نعيم الحافظ أنبأنا أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف أنبأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد بإسناد عن النبي ﷺ: وفي كتاب طب الأئمة بإسناده إلى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا بن سنان! لا بأس بالرقية والعوذة والنشرة إذا كانت من القرآن ومن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله وهل شيء أبلغ في هذه الأشياء من القرآن! أليس الله تعالى يقول جل ذكره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ . . .﴾ [الحشر: ٢١]. وبإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام أن رجلاً شكا إليه صمماً فقال: امسح يدك عليها واقرأ عليها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ . . . هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ إلى آخر الحشر. وبإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي عنه عليه السلام قال لي: يا جابر! اقرأ على كل ورم آخر سورة الحشر (نور الثقلين ٥: ٢٩٤).

(٢) سورة طه، الآية: ٨.

(٣) راجع تفسير سورة التوحيد في ج ٣٠.

أجمع، تذكر منها هنا ثلاث: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: كل غيب لنا وشهادة عندنا، يعلمه علماً يُعتبر الكل بالنسبة له شهادة، فإنما الغيب والشهادة، بالنسبة لمن يجهل بعضاً ويعلم بعضاً، وأما الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا غيب عن علمه، فالكل له شهادة، يشهد الغيب الكائن، والذي لم يكن بعد فإنه من أغيب الغيب لحدّ كأنه الغيب فقط[1]. وعلّه لأن الغيب الكائن هو في مظان الشهود بعضاً للبعض من أهل الشهود، ولكنما الغيب الغيب: غير الكائن، مختص بالله، وإن كان يظهر على بعضه من ارتضى من رسول، وفي تقديم الغيب على الشهادة إيحاءٌ لطيف ألا فرق بينهما عنده تعالى لحدٍّ كأنه أعلم بالغيب من الشهادة!

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بجميع خلقه فإنها الرحمة العامة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين خاصة فإنها الرحمة الخاصة، وهما تشملان كافة الصفات الإلهية ذوات الفاعلية والعلاقات العامة أو الخاصة بالكون، على علم نافذ فيهما دون عزوب عن أية خافية.

توحي هذه الصفات الثلاث بعد تصريحة التوحيد، بوحدانيته تعالى في علمه ورحمانيته ورحيميته، ما يشمل توحيده في كافة صفاته وأسمائه الحسنى.

ومن ثم تبرز هذه الثلاث، بعد الحياة العقلانية العقيدية للإنسان، تبرز في حياته العملية، في كمال منهجه تفكيراً وشعوراً وسلوكاً، أنه مراقب من الله، وغريق في رحمانيته ورحيميته، فلا يغفل ولا يطغى.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أسماء أخرى ثمان بعد الثلاث، وهي كلها بعد توحيده الذي هو أم

---

(١) مجمع البيان عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

الأسماء، وهذه الثمان تفاصيل لتلكم الثلاث، إذ إنها من شؤون علمه ورحمانيته ورحيميته، كما أنها كلها بسائر الأسماء لزامات توحيده تعالى - فـ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وعلّ هذه الثمان حملة عرش الأسماء والصفات، وكما أن لعرشه تعالى يوم القيامة حملة ثمان.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: وحيد في ملكيته ومالكيته، لا يشركه فيها أحدٌ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾(١) ولا يشبهه ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾(٢) فهو مالك المُلك لزاماً لألوهيته لا سواه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾(٣) مُلك المبدأ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾(٤) ومُلك المصير: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٥) إذاً فليس للخلق سيد سواه.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: مبالغة في القدس، حقاً في الله الملك، فلا قدس يحق ويجب في الملك إلا وفيه حقه غير المحدود، لا يملك إلا بقداسة، ولا يحكم ويحاسب إلا بقداسة، ولا يعذب إلا بقداسة، فالقداسة المطلقة اللانهائية مشعة في الملك الإله دون من سواه، ومن قدوسيته سلامه:

﴿ٱلسَّلَـٰمُ﴾: سلامٌ في ذاته، عن كل نقص ورين، وفي صفاته عن كل ظلم وشين، سلام في دعوته: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾(٦) وفي هدايته لمن يتقبل دعوته: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾(٧) وفي جزائه للسالكين سبل السّلام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٨) ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٦) سورة يونس، الآية: ٢٥.
(٧) سورة المائدة، الآية: ١٦.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[(١)] لذلك يحق له التسليم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[(٢)] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

أجل إنه سلام دون سأم، وليس السأم إلا بما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير فعذابه السأم سلام في حساب الحق والعدل، وكما أن سلامه لغير أهله - والعياذ به - سأمٌ في هذا الحساب، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه، فإنه يؤمن ولا يؤمَن عليه:

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: يؤمن بذاته المقدسة الملك القدوس السّلام، ويؤمن خلقه أجمع مما تتعرض لهم من بواعث البوار، به وبما يرسل عليهم حفظة: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[(٤)] ويؤمن المؤمنين ويؤمِّنهم عن الزلة والانحراف يوم الدنيا، وعن ذلة العذاب والانجراف في النار يوم الدين، فهو مؤمن بعد له وفضله من يستحق الأمن أو لا يستحقه، فضلاً منه لمن يستحقه.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: سلطانٌ على خلقه رقيبٌ، كما وأن كتابه مهيمن على ما قبله من كتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾[(٥)] هيمنة حكيمة لا نفاذ فيها ممن سواه ولا نفاد، وإنما سيطرة الملك القدوس السّلام المؤمن:

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالب - عزيز في ملكه وقدسه وسلامه وهيمنته، عزيز في ذاته وصفاته وأفعاله، عزيز في حكمته (٢: ٢٢٠) عزيز في انتقامه (٣: ٤) عزيز في قوته (١١: ٦٦) عزيز في رحمته (٢١: ٩) عزيز في غفرانه (٦٧: ٢) فلا عزة إلا له وبه ومنه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٦)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٦) سورة المطففين، الآية: ٨.

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾: والجبر هو إصلاح الشيء بضرب من القهر، فالجبّار هو كثير الجبر لكل كسر من كل كسير، كسراً في الخَلق أو الخُلق، في القلب أو القالب، فهو جبار في الإصلاح، لا تحمله إلا هذه الآية، ثم أهل الطغوى جبارون في الإفساد، بين جبار عصي (١٩ : ١٤) وجبار شقي (١٩ : ٣٢) وجبار عنيد (١١ : ٥٩) في بطشة جبارة: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾[١] فهذا الجبار العصي العنيد الشقي يقابل الجبار المصلح الوفي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[٢] فهناك جبار يجبر الكسير[٣]، وهنا جبار يكسر الجبير، فأين جبار من جبار سبحان العلي القدير، ولا يوجد جبار في الإصلاح إلا الله، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا في بلاغ الرسالة، لا في التكوين ولا التشريع! ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾[٤].

وكل جبره تعالى إصلاح، سواء جبره الخلق في ذواتهم والبعض من أفعالهم، أو في أحوالهم المنكسرة التي تتطلب الجبر، وللعارفين نصيب من هذا الاسم المجيد لأنفسهم مهما حرموا عن كامله[٥].

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾[٦] ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[٧] فلا كبير إلا الله، فمن سواه صغار في صغار «والكبرياء ردائي فمن شاركني في ردائي ألبسته ثوب الذلّ»[٨]، فهنا تكبُّر بالحق بمعنى التعظم وإظهار الكبرياء، وآخر

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٩.
(٣) من أدعية الإمام علي عليه السلام: (يا جابر كل كسير ومسهل كل عسير).
(٤) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٥) من حظه أن يقبل على نفسه، مجبراً نقائصها باستكمال الفضائل، فيحملها على ملازمة التقوى ومجانبة الطغوى، ويكسر منها الهوى الطائشة والشهوات الفاحشة، ويترفع عما سوى الله، متخلياً عنهم متحلياً بالله، لا يزلزله تعاور الحوادث.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٩.
(٧) سورة الحج، الآية: ٦٢.
(٨) حديث قدسي.

بالباطل لمن ليس له: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١) والمتكبر من يرى غيره حقيراً صغيراً بالنسبة لنفسه وهذا لا يحق إلا لله(٢).

وكما الجبار في الله تحمله فقط هذه الآية، كذلك المتكبر، فسائر الآيات تعبر عنه بالكبير، فالمتكبر الكبير غير المتكبر الصغير، فهذا باطل يتظاهر بالكبرياء وليست له ولن تكون، وذلك حق تظهر الكبرياء في صفاته وأفعاله، مما تدل على كبرياء الذات، دون تكلُّف ولا ادِّعاء، فهو متكبر: يظهر الكبرياء، لأنه كبير عليّ متعال، وإنما التواضع كمال لغير الكبير، ونقصٌ للكبير، وبديله فيه هو العدل والفضل والرحمة، متكبراً عما لزامه الصغار، وعلى من سواه فإنهم كلهم بجنبه صغار.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في هذه الأسماء والصفات.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾:

صفات أخرى ثلاث، تمثيلاً عن أسمائه وصفاته الفعلية الظاهرة في خلقه، صفات مترتبات في المظاهر الخارجية، خلقاً، ثم برءاً لما خلق من: برأ العود، فهو يخلق عود الخلائق ثم يبرئها: بريئاً هو من تفويت وتنقيص، وبريئة هي كخلقه من التفاوت والتهافت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾(٣) والتخلق بهذا الاسم هو أن يبرئ العبد أعماله عن الاتجاهات غير الإلهية، وعن التناقضات والاختلافات، ثم تصويراً بإعطاء الملامح المميزة، والسمات

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٢) الكبير خاص بمن له حق الكبر أياً كان، والمستكبر خاص بمن لا يتكلفه ولا يستحقه، والمتكبر أعم منها ويتبع في معناه القرينة كما هنا.
(٣) سورة الملك، الآية: ٣.

المتميزة التي تمنح لكلٍّ شخصيته الخاصة المائزة له عما سواه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[١] فالتسوية والتعديل من البرء والتقدير وقبلهما الخلق وبعدهما التصوير، سبحان العليّ القدير.

ومهما كانت هذه الصفات مترتبات زمنياً في الخلق، ولكنها موحدة في ذات الله، فإنه خالق إذ لا مخلوق، وبارئ إذ لا مبروء، ومصوِّر إذ لا صورة!

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: وهي هي صفاته العليا، صفات الذات وصفات الفعل، وحسنى الأسماء والصفات هي التي تليق بهذه الذات، والقبيح كل القبيح أن ندعوه بغيرها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

والإلحاد في أسماء الله أن تختلق له أسماء لم يسمِّ بها نفسه، أو تفسر أسماءه بما لا يليق بذاته المقدسة، وعلى المؤمن أن يستوحي من أسماء الله الحسنى فيصوغ نفسه وفق إيحاءاتها واتجاهاتها، تخلُّقاً بأخلاق الله ما أمكن، لا تشبُّهاً إذ لا يمكن، وفي المروي عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ أن الأسماء الحسنى مائة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة[٣]، إحصاءً في القلب وإحصاءً في القالب، في عقيدة الإيمان وعمل

---

(١) سورة الإنفطار، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٣) التوحيد للصدوق بإسناده إلى علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهي: (الله. الإله. الواحد. الأحد. الصمد. الأول. الآخر. السميع. البصير. القدير. القاهر. العلي. الأعلى. الباقي. البديع. البارئ. الأكرم. الظاهر. الباطن. الحي. الحكيم. العليم. الحليم. الحفيظ. الحق. الحسيب. الحميد. الحفي. الرب. الرحمن. الرحيم. الذارئ. الرازق. الرقيب. الرؤوف. الرائي. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. السبوح. الشهيد. الصادق. الصانع. الظاهر. العدل. العفو. الغفور. الغني. الغياث. الفاطر. الفرد. الفتاح. الفالق. القديم. الملك. القدوس. القوي. القريب. القيوم. =

الإيمان، ويُروى عنه ﷺ أنها أربعة أرباع على حدِّ قوله: «أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب»[1].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

فألسنة الكائنات من الأرض والسماوات ناطقة - بياناً أو برهاناً - عما لا يليق بالألوهية، وعن أن يكون له شريكٌ في الملك أو وليٌ من الذلِّ فكبِّره تكبيراً.



= القابض. الباسط. قاضي الحاجات. المجيد. الولي. المنان. المحيط. المبين. المقيت. المصور. الكريم. الكبير. الكافي. كاشف الضر. الوتر. النور. الوهاب. الناصر. الواسع. الودود.
الهادي. الوفي. الوكيل. الوارث. البر. الباعث. التواب. الجليل. الجواد. الخبير. الخالق. خير الناصرين. الديان. الشكور. العظيم. اللطيف. الشافي).
أقول: هذه الأسماء بين مذكورة في القرآن ومستفادة من القرآن، وهي تجمع بين صفات الذات: الحياة - القدرة - العلم - وبين صفات الفعل الراجعة كلها إلى صفات الذات (راجع كتابنا: حوار بين الإلهيين والماديين).

(١) تفسير روح البيان للآلوسي ج ٩ ص ٤٦٨.

٦٠

سُورَةُ المُمتَحِنَةِ



سُورَةُ المُمتَحنَة(١)

مدنية - وآياتها ثلاث عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ
وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ
رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم
بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم
بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ
إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ
وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ

---

(١) تسمت السورة بـ (الممتحنة) بمناسبة آية النساء المؤمنات المهاجرات، فللامتحان مكانته، كما للنساء مكانتهن، فسورة النساء ومريم والممتحنة والمجادلة، إنها مما توحي بعطف الله ولطفه الخاص بالنساء، بدل ما أهينوا طوال التاريخ، وكما لا نرى سورة تتسمى باسم الرجال إلا بعض رجالات الوحي: محمد - نوح - إبراهيم - يوسف - هود - يونس - ثم واسم يشملهم أجمع (الأنبياء).

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾:

ملامح هذه الآية وما بعدها، ومصارحها أيضاً، تشهد أنها نزلت تنديداً ببعض المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأهليهم، وظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناك من الأهلين، فاتخذوا مشركي مكة أولياء، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم، ومنهم - كحاطب بن أبي بلتعة - مَن ألقى إليهم بالمودّة، فلم يكتف هذا الذليل الهزيل الإيمان بموادتهم، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبي ﷺ إليهم بالمودة، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة، فإلقاء المودة شيء، والإلقاء بالمودة شيء آخر يتطلب مفعولاً به محذوفاً، وما هو إلا أسرار النبي ﷺ

وكما تقول الروايات[1]، كما وأن نفس الإلقاء إيحاءٌ بكيان هذه الولاية، أنها ملقاة مفصولة عن القلب، بمكتوب أو سواه بعث لهم سراً.

ف ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تقتضيان أدبياً أن جماعة منهم ألقوا إلى المشركين مسرِّين شيئاً من الأسرار، وقد فضحهم الله كما يفضح المنافقين، لأنهم اعتملوا عملية النفاق، وإن لم يكونوا منافقين، ولكنه ضلال عن سواء السبيل، فما دور الأرحام والأولاد بجنب الإيمان إلا دور الأغارب البعيدين سواء، فلماذا الاعتياض بإلقاء الأسرار بهم بالمودة؟ إعلاناً أو إسراراً ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾؟.

يقف الإنسان هنا حائراً من فعلة حاطب وأضرابه، وهو مسلم مهاجر، فيا للنفس البشرية من منحنيات عجيبة، قد يحتمي لمن يعانده حفاظاً على قرابته وأحمَّته، وبينه وبين الذين يلقي إليهم بالمودة ثالوث المفارقات: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ ﴿كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٠٣ - أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن علي عليه السلام قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: اخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما هذا يا حاطب؟ قال: (تجد الجواب في المتن).

وروى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكان عياله بمكة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصاروا إلى عيال حاطب وسألوا أن يكتبوا إلى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا إلى حاطب يسألوه عن ذلك، فكتب إليهم حاطب: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد ذلك، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية فوضعته في قرونها ومرت، فنزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام . . .

إنهم عادوا الله إذ أشركوا به، وعادوا الرسول ﷺ إذ كذبوه، وكفروا بالحق الذي جاءكم من الله يحمله رسول الله ﷺ، وأخرجوا الرسول والمؤمنين مغبّة إيمانهم بالله ومحبة إدخالهم في الكفر كما هم: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ لا تتخذوهم أولياء ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ فمفاصلة أعداء الله من شروط الإيمان الذي يدفعكم للخروج عن الأموال والأهلين جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله.

فكيف يوادهم ويلقي إليهم بالمودة أسراراً، مَن هم رجال الله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض المغبرة، ويمثلون شاشة الحق في مصارح ومسارح المجتمع المتصارعة؟.. إنه ليس إلا ضعف الإيمان ولمّا ينضج، وإنه من عقبات رواسب الأواصر القريبة، والعصبيات الصغيرة، والقرابات التافهة، التي يجب أن تذوب في بوتقة الإيمان ولمّا تذبْ!

ولئن سأل سائل: إذا كان هؤلاء أعداء الله وأعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم والإلقاء إليهم بالمودة، والقلب لا يتحمل المتناقضين؟ فالجواب: إن الموالاة هنا ليست هي القلبية، وإنما ظاهرية دفاعاً عن شرٍّ يُزعم، وشاهداً عليه - إضافة إلى شاهد الإلقاء - ترجّي المودة في المستقبل إذا زال الكفر: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

ثم هذه الآيات وإن كانت تنديداً شديداً من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكراء الخائنة، ولكنها من زوايا أخرى بين محذرة الكفار المستغلين، ومربية البعض من المؤمنين المستغَلين الضالين هنا سواء السبيل.

فهنالك نقف مرة أخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الرباني بشأن هؤلاء إذ يخاطبهم خطاب المؤمنين، لا المنافقين، رجاء رجوعهم عما فعلوا، وندمهم عما افتعلوا كما فعلوا، وكذلك العطف النبوي المعطوف إلى العطف الرباني بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل: «ما حملك

على ما صنعت؟» بكل رحابة صدر وحنان، فلما صارحه بما قصد مجيباً عتاب الرسول ﷺ: «لا تعجل عليّ يا رسول الله ﷺ! إني كنت امرءاً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني» «والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيّرت ولا بدّلت، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً»(١).

هنا يكف الصحابة عنه بقوله ﷺ: «صدق، لا تقولوا إلا خيراً»، ولينتهضه من عثرته من فوره، دون مطاردة ومشاردة.

ونجد خلاف هذا الحزم في الخليفة عمر، إذ ينظر إلى العثرة ذاتها، دون أن يفكر في علاجاتها قائلاً: «إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه»، فأين علاج من علاج فيه كل فجاج وحراج!

وفي أحاديث عدة أن النبي ﷺ أجاب عمر: (إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، ولكنه لا يوافق الأصول الإسلامية لا كتاباً ولا سُنة، فمن أعجب العجاب أن يرفع قلم التكليف عمن أتى بواجب الجهاد! ولا يرفع عن النبي الذي كلُّ حياته جهاد! ومن أقرب ما يعارض هذه الفرية الفاتكة نفس الآية ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ثم هذا الخطاب اللطيف العتاب يجعل من هذا المؤمن الجاهل الضعيف مؤمناً عارفاً قوياً نادماً على ما افتعل، وينبّه سائر المؤمنين ألا يفعلوا فعلته، مبيناً مع الآيات التالية أخطارها:

(١) الفقرة الأولى في الدر المنثور، والثانية في تفسير القمي.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾:

إن عداء هؤلاء الأعداء لكم مركوز في كيانهم وقلوبهم المقلوبة، مهما تظاهروا بالولاية، بغية مساندتكم إياهم، إلقاءً بالمودة لهم أسرار الرسول ﷺ، ولكنه يظهر لكم ببسط أيديهم وألسنتهم بالسوء إليكم ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: يظهروا عليكم، وهذه الصيغة المضارعة بعد أداة الشرط «إن» تشير إلى التحذير من مستقبل الثَّقف الذي يعدُّه المؤمن على نفسه بجهالة التصرفات الفوضى، كما أن مضيّ ﴿وَدُّوا﴾ إيحاءٌ إلى تعمُّق هذا الودّ قديماً في نفوسهم - دون رباط بشرط الثقف -، إلا أن ﴿لَوْ﴾ الدالة على امتناع مدخولها، تكافح هذا الخطر الكامن، ما دام المؤمنون متمسكون بعروة الإيمان.

وبما أن البسط مقابل القبض، فبسط الألسن هو إظهار الكلام السيئ فيهم بعد زمٍّ الألسن عنهم، فيكون الكلام كالشيء الذي بُسط بعد انطوائه وأظهر بعد إخفائه، وكذلك بسط الأيدي، وإن كان هذه ضررها بالإيقاع وتلك ضررها بالسماع.

والثَّقف: الحِذق في إدراك الشيء وفعله، فإذا أدركوكم وسيطروا عليكم بحذقهم الكافر الماكر، حينذاك يظهر لكم مدى عدائهم لكم لحدّ: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: جمعاً بين العداء في القلب وفي القالب، وعداء القلب إن: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هي أمرّ وأدهى، إذ توحي بكافة ألوان المحاولات والحيل ليردُّوكم ويرجعوكم عن الإيمان، ولحدّ المستحيل الموحى به بـ«لو».

فهم دائماً ينتفعون ولا ينفعون مهما تظاهروا بالوداد، وإنما هم شداد في عدائهم العارم، فكيف تتولونهم؟.

ثم ولو يتولونكم في التخفيف عن أرحامكم وأولادكم ولن يخففوا، فـ :

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾:

إنهم لن ينفعوكم وإن كانوا مؤمنين، فكيف ينفعونكم وهم كافرون؟ فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم، المشتجّرة في زوايا قلوبكم، إنها قد تنسيكم ما يتوجب عليكم في ظل الإيمان بالله، فإنه الوشيجة الدائبة التي لا انقطاع لها ولا فصال، لا بد أن تنسي المؤمن سواها من الوشائج على طول الخط، فكل وصال إلى فصال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ إلا وصال في الله واتصال بالله، وعلى المؤمنين أن يتأسوا في صمود وشيجة الإيمان بالرعيل الأعلى ليذيبوا سائر الوشائج ولا يُذابوا فيها.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾:

الأسوة كالقدوة، هي الحالة التي يكون عليها الإنسان في اتباع غيره، إن حسناً أو قبيحاً، ولذلك تقيد هنا وأشباهه بـ ﴿حَسَنَةٌ﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ تعمُّ أحواله وأفعاله وأقواله، وهي أشمل وأكمل من الأسوة بإبراهيم، وإنما أمرنا هنا بأسوة حسنة في إبراهيم بما كان منه في آزر «عمه أو جده لأمه»، ولم يكن هكذا للرسول ﷺ، وأسوة إبراهيم - هذه الخاصة - تخصص بغير قوله لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ ربي، وأسوة الرسول ﷺ تلكم الشاملة نافذة المفعول دون استثناء، فأين أسوة من أسوة؟!

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ. . .﴾ توحي بأن هذه الأسوة لها كينونة عريقة مسبقة في المؤمنين، حسب التشريع الإسلامي، وكما هي شريطة الإيمان دوماً وخريطة مستملكات الإيمان كذلك: «التولي في الله - التبري في الله» وشيجته مشيجة بقلوب المؤمنين.

﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: الإبراهيميون في هذه السنة السنية، سواء أكانوا معه في عصره، أم بعده بعصور، وإلى زمننا، وإلى يوم الدين، فإن النص ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مما يوحي بالمعية غير المتقيدة بزمان ولا مكان، لا «والذين كانوا معه» لكي يختص بالغابرين، وبهذا المعنى يكون محمد ﷺ والمسلمون الذين معه إبراهيميين، مهما سبقه الرسول الأقدس ﷺ في هذه السنّة حقها ومظاهرها، فإن المعية لها درجات، قد يكون المعطوف أقوى من المعطوف عليه، كما أن آية الأسوة في محمد ﷺ. الشاملة، تشهد - بقرنها بآية الأسوة في إبراهيم الخاصة المقيدة - تشهد له بهذه الأفضلية، إنها شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين إبراهيم الخليل عليه السلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد ﷺ!

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ براءة بريئة عن كل شين ورين، صامدة في وجه القرابات الكافرة، قاطعة وشائجها مهما تشجرت واستطالت وحتى الأبوة والعمومة، لحد الكفر بهم ونكرانهم كأن لا قرابة ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ كفر البراءة[1] والنكران والمفاصلة، لا كفر الإيمان، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقاً حتى يكفروا بهم عن إيمانهم لاحقاً، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا

(١) أصول الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل، قال عليه السلام: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه (إلى أن قال) والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة وذلك قول الله عز وجل يحكي قول إبراهيم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ. . .﴾ [المُمتَحنَة: ٤].

وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فالإيمان هنا هو نهاية العداء وبداية الولاء، فإذا آمنوا زال هناك كفران: كفرهم بالله، وكفر المؤمنين بهم براءة وعداءً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾ قاله قبل أن يتبين له أنه عدو لله، لا تحتمل هداه، إذ أمره بهجره ملياً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[1] هنا يستلهم إبراهيم من هجره ملياً: مدة طويلة، لا دائماً، إنه يتروى في أمره فيها، فقد تجوز هدايته، لذلك يسلم عليه ويعده الاستغفار: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[2] فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الاهتداء، فلما طال الأمد وظن إبراهيم أنه اهتدى حقق وعده: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[3] استغفر له وهو بعد حيٌّ ظن إنه اهتدى، أو سوف يهتدي، وكان فيما مضى من الضالين المعاندين، ولما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما في آية الاعتذار حيث تفسر آية الاستغفار: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[4].

فليس وعد الاستغفار في آيته، إلا نتيجة احتمال الاهتداء المشيرة إليه آية الاعتذار: ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: موعدة آزر التي وعدها إبراهيم بقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[5] لا التي وعدها إبراهيم آزر بدافع القرابة فإنها محظورة قطعاً كما في آيتي الاعتذار والاستغفار.

فالمحرم قطعاً هو الاستغفار ووعده للمشركين من بعدما تبين أنهم

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.
(٤) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٦.

أصحاب الجحيم، ولا يتبين هكذا إلا ممن ثبت عداءه للحق بعدما جاءه كمن صرح بهم القرآن ومن تثبتنا عليه ذلك ولا نحتمل هداه.

وأما المشرك المرجو هدايته، كآزر في ظن ابراهيم، إذ أمره بهجره ملياً، الملهِم لتروِّيه فيه، فقد يجوز الاستغفار له قبل هدايته، وكما فعل إبراهيم.

وإذ لم يكن في استغفاره لآزر محظور، فلماذا الاستثناء فيه عن أسوة إبراهيم؟ علّه رعاية الواقع، فإن آزر كان عدواً لله لا يستحق الاستغفار، مهما أخطأ إبراهيم في ظنه وكان معذوراً، ولم يكن استغفاره محظوراً، فالأسوة تشمل حق العلم والواقع، وحاشا الله أن يأمرنا بأسوة تخالف الواقع، مهما كان صاحبها معذوراً ظنّ الواقع، ولكنها محظور حسب الواقع.

إبراهيم يعد أباه الاستغفار مشفِّعاً له بأنه لا يملك من الله إلا الافتقار: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: لا قبول الاستغفار، ولا أن تأهل الاستغفار، إنما دعاء معه رجاء: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تسليم لله بلا حدود، وتسلُّم لأمره بلا قيود، سمة إيمانية بارزة في إبراهيم طول حياته، ولأنه يحتمل مكيدة أبيه في ملامح وعده من هجره الملي، يلوذ بربه أن ينجيه:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾:

يستغفر ربه لو جُعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره، فسناداً إلى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة، وإلى حكمته المغفرة لو افتتن، فيا لهذه العبودية الخالصة من سموٍّ وعلوٍّ! ومع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة، غير العامدة، عن أسوته: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية! إذ لا ترضى من الأسوة إلا الحسنة علماً وواقعاً، لا السيئة - ولم تكن في إبراهيم - ولا بينهما: حسنة في ظنه، سيئة معذورة كما فعله إبراهيم، إنما حسنة خالصة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾:

فيا لها من تربية رابية على الإبراهيمية الحنيفة، تختص الأمة الإسلامية، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عبر الرسالات كلها، كما أن رسالتها خالصة الرسالات كلها، أو أنها الرسالة الإلهية وحدها، وما سواها إنما تُحضِّر لها وتهيئ كبذرات لإنماءاتها ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ أن يلاقيه في الدنيا والآخرة معرفياً ورضواناً ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهو آخر المطاف وغايته، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن هذه الرسالة، فيتولى مناوئيها ممن يتربصون له ويترصدون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: غني عن إيمانكم، وهو يحمد على أية حال، توليتم له أو توليتم عنه، سواء، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر[1].

﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾:

تلميح بفتح مكة المكرمة بصيغة الترجي: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾: هنا موضع رجاءٍ لكم، لا أن الله يرجو، وإنما يُرجي المؤمنين بما كانوا يأملون علهم لتحقيقه يعملون، وهو بشارة لفتح مكة، الذي سبب دخول الناس في دين الله أفواجاً: طوعاً أو كرهاً، فـ ﴿عَسَى﴾ هنا وفي أمثاله حتمٌ من الله، يكلّل

---

(١) من صحاح الأحاديث القدسية: (يا عبادي! أنكم لن تبلغوا ضرري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيهما لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (تفسير روح البيان للحقي ج ٩ ص ٤٧٩).

بالرجاء، ولكي يحيى المؤمنون حياة الرجاء، ليكونوا دائبي الحراك والسعي لتحقيق الرجاء ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١]!

عسى الله أن يعوضكم عن أرحامكم المشركين، بأرحام لكم مؤمنين في مكة، منهم، ومن سواهم بقرابة مستقبلة، فيجعل بينكم مودة ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تحقيق هذه الأمنية ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمشرك إذا آمن ﴿رَّحِيمٌ﴾ له، وللمؤمن، المتقاربين نسباً أو صهراً.

ولقد وقع هذا الأمل بعد أمد قصير، إن فتحت مكة، فأسلمت قريش، ووقفت مع المهاجرين والأنصار تحت لواء التوحيد، مهما كان فيهم منافقون.

وهكذا يعالج الإسلام وشائج القرابات، ولكي يتخطاها إلى وشيجة الإيمان، خطوات وخطوات، ولكي يجتمع الجميع في حزب الله، والأخوة في الله، في جو عطر رائع لا خبر فيه عما سوى الله ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾!

من مظاهر المودة الموعودة بفتح مكة تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان حيث أصبحت من أمهات المؤمنين، رغم ما كان من أبيها من عداء عارم، إلا أنه الآن عريكة أبي سفيان، فاسترخت شكيمته في عداء الرسول ﷺ[٢].

إن المفاصلة بين المسلمين والكفار قاطعة شاملة، ثم بينهم وبين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب، ثم بينهم وبين فرقائهم في الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة، والمودة الموعودة تشمل المواصلتين.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) قد أسلمت أم حبيبة من قبل وهاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة فتنصر وراودها على النصرانية فأبت وصبرت على دينها ومات زوجها فبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه وساق إليها أربعمائة دينار وبلغ ذلك أباها فقال: ذلك الفحل لا يفدع أنفه.

إن حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين، دون الكفار المسالمين، فعاشروهم بالمعروف وأقسطوا إليهم علّهم يؤمنون:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾:

فهؤلاء، برهم، والإقساط إليهم غير محظور، بل هو محبوب، وإنها من أسس شرعة الحق والعدل، إن الأصل للمسلم مع من سواه البر والخير والعدل إلا مع المحاربين المعتدين، دفاعاً عن الحق، وحفاظاً على الحقوق.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾:

إنها مقاتلة في الدين وتشريد ومظاهرة على إخراجكم في الدين، هي التي تمنعكم عن موادتهم، وتفرض عليكم عداءهم، لا أصل الكفر وكما تشهد له الروايات[١]، ولا أية مقاتلة ولا أي إخراج، فلو قاتلك الكافر على نفسه وماله وحقه، وأخرجك من داره التي اغتصبتها، فلا عليك ولا لك معاداته، ولا تحرم لك موالاته.

إنه نظام سياسي ثابت صامد للمسلمين ما عاشوا، دون اختصاص بمن مضى من مشركي العرب، فهناك كانت امبراطوريتان قويتان الفارسية والرومانية تحيطان بأرض الإسلام، بدأتا تجمعان له، إذ تشعران بخطورته،

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٠٥ - أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وإقط وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ فسألته فأنزل الله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [المُمتَحنَة: ٨] إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها.

تؤلبان عليه الإمارات العربية وسواها، من مستعمراتها، كذلك وأضرابها من الدول المستعمرة المعادية للإسلام طول التاريخ، فلم يكن بد من تطهير المعسكر الإسلامي من أعدائه الجهال أو المعاندين، وتخليصه من المرتزقة، ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

لا فحسب الرجال في عسكر الإسلام هم الذين يجب امتحانهم، فامتهانهم وتأنيبهم أو تأديبهم، بل النساء كذلك يدخلن في هذه البوتقة.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات، تبتدئ بامتحانهن وتحرِّي أسباب هجرتهن، ألا تكون وراء حب فردي في دار الإسلام، أو تخلصاً عن زواج مكروه في دار الكفر، وإنما هجرة في الله، خالصة في دين الله، وتنتهي بشرط قبول رسول الله ﷺ مبايعتهن، وبذلك يكمل إيمانهن.

تقول الروايات إن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: (على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا) زعماً من

المشركين أنه يشمل النساء أيضا[١]، أو إذا شملهن يرضى الرسول ﷺ بردِّهن إلى الكفار فيرجعن كافرات! فلما كان الرسول ﷺ - والمسلمون معه - بأسفل الحديبية، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، فجاءت قريش تطلب ردّهن، زعم تنفيذ المعاهدة، فنزلت الآيتان تمنعان ردّ المهاجرات المؤمنات بعد الامتحان والعلم بإيمانهن كيلا يكنَّ منافقات فترجع هجرتهن بالخسار على دار الإسلام.

﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾:

وكيف الامتحان؟ هل إنه الإقرار بالشهادتين[٢]؟ وليس امتحاناً، فإنه محنة ولا محنة في لفظة القول، وقد أقرَّ بهما المنافقون، ثم النص تفرض الإيمان موضوعاً للهجرة قبل الامتحان ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، والشهادتان من أقل الإيمان! لحدٍّ قد لا تسمَّيان إيماناً ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾[٣].

أو أنه التحقق من واقع الشهادتين في قلوبهن؟ فهذا حق، ولكنه كيف يتحقق؟ فهل بالاشتراط عليهن ألا: ﴿يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي

---

(١) عن الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، ولم يجر للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها إلى المدينة وسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما، فقال ﷺ: إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما، وفي الدر المنثور ٦: ٢٠٦ - أخرج ابن سعد عن ابن شهاب - مثله - وفيه: جاء أخواها يريدان أن يخرجاها ويرداها إليهم، فأنزل الله... أقول: وفي أحاديث عدة (إن الله نسخ العقد بالنسبة للنساء) ولكنها تخالف جوهر الإسلام الذي يفرض رعاية العهود مع من لم ينقضوها، وإن رد النساء المؤمنات خلاف المصالح الإسلامية جماعية وفردية، فكيف يعاهدهم الرسول ﷺ هكذا، ويمضيها الله تعالى ثم ينقضها؟ رغم التصريح في الآية: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ...﴾ [المُمتَحنَة: ١٠]، إذ تلمح بأنه حكم ثابت على طول الخط.

(٢) خلافاً لما في الدر المنثور ٦: ٢٠٧ - أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله..

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

مَّعۡرُوفٖ﴾ فذلك حق كله وهي من أصول الإيمان العملي الذي يدل على تعرُّق الإيمان في قلوبهن، ولكن مجرد قبول الشرط لا يكفي شاهداً على الالتزام به ويواقعه!.

إذاً فليكن الامتحان في أمثال هذه عملياً بعد الاشتراط، ليجمع بين عمل الإيمان وعقيدة الإيمان، طالما لا يحصل منه اليقين، وإنما العلم العادي، وقد اكتفى الله للمؤمنين به: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ دون أن يحمّلنا العلم الحقيقي كما الله يعلم:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾:

إن حصيلة الامتحان هذا هي العلم بأنهن ما خرجن طامعات، وإنما مؤمنات، فليركز الامتحان - أياً كان - على ركيزة الهجرة، امتحان الحلف: (بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله) ثم يتمم بامتحانهن عملياً فيما هي شريطة قبول بيعتهن، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن، إذاً:

﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ...﴾:

إن رجَع المؤمنات المهاجرات، بعد العلم بإيمانهن، إنه محرَّم عليكم وعليهن وعلى أزواجهن، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن إلى الكفر، وعليهن كذلك، ولأنه سبيل للكافر على المؤمن، وعليهم إذ انقطعت الصلة بينهم وبينهن، والزوجية حالة اندماج فاستقرار، ولا اندماج بين الكفر والإيمان فلا استقرار، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع، حفاظاً على صالح الإيمان، ولا الواقع يجاوبه إذ لا سكن ولا اطمئنان بين المؤمن ومَن ليس له إيمان.

وهل الكفر المانع من زواج المؤمنة هو الشرك فحسب؟ كما المشركون فقط هم شأن نزول الآية، إذ كانوا هم فقط في مكة المكرمة، أم أن الكفر

هو المانع إطلاقاً، كفراً بالله أو كفراً بالإسلام، كما هو موضوع الحكم بالحرمة هنا ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلم يقل «إلى المشركين»، وهو كالصريح في موضوعية مطلق الكفر، وشأن النزول لا يخص الآية بنفسه.

وتدل عليه آية البقرة أيضاً، إذ تعلل حرمة نكاح المؤمنة للمشرك بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] فعموم الكفار هنا وفعلة الدعوة إلى النار في المشرك، المعممة له إلى مطلق الكافر أيضاً، يثبتان عموم التحريم على الكافر مشركاً أم كتابياً، فسبيل الكافر على المؤمن، الممنوعة، ودعوته الزوجة المؤمنة إلى النار، يساندان عموم التحريم على الكفار، دون المؤمن والكتابية، إذ تعكس بينهما الدعوة والسبيل، وآية المائدة تسمح بزواج الكتابية للمؤمن، دون زواج الكافر بالمؤمنة كما يأتي.

وهل أن المؤمنة المهاجرة أو غير المهاجرة، غير العريقة في الإيمان، الساقطة في الامتحان، هل يحل رجعها إلى الكفار، أو زواجها به بدواً؟ هنا الآية لا تحرّم، وعلّه للظروف الخاصة السياسية آنذاك، التي تتطلب تخليص دار الإسلام عن عناصر غير صالحة، حفاظاً على صالح الدولة الإسلامية، إلا أن رجعها إلى الكافر لا يجوز مبدئياً، بسند دليل الدعوة والسبيل، وعموم آية البقرة في تحريم المؤمنة على الكافر، إذ تشمل كافة مراتب الإيمان، كما تشمل كافة مراحل الكفر، ولا أقل من نسخ آية البقرة في عموم التحريم، آيةَ الممتحنة في خصوصها على المؤمنات الممتحنات، ولنا إلقاء خصوصية الامتحان وكمال الإيمان للأدلة المسبقة، وأن ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ حكم مستقل عن ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، ففي رجع الممتحنة حرمة مغلَّظة، وفي رجع غيرها من المؤمنات حرمة عادية، وقد تؤيده السنة[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٢) في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن لامرأتي أختاً=

إذاً فلا تحلُّ المسلمة - وحتى المقِرَّة بالشهادتين فحسب - على الكافر، وحتى الكتابي الموحد، لا استدامة، ولا ابتداءً.

وإذ لا يحلُّ رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا، فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدراً؟ كلا! إن الإسلام أعدل من هذا ولو بالنسبة للكفار المعاهدين:

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾:

سواء أنكحتموهن أم لا، ما أنفقوا في أصل الزواج، دون النفقات الأخرى، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعة وسواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات، وإنما على المسلمين رجع نفقات الزواج إلى الأزواج، ثم وما هو دور نكاحهن:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

لا محظور في نكاحهن شرط أن تؤتوهن أجورهن، دون أن تحاسبوا عليهن ما آتيتم أزواجهن من أجورهن، فإنه زواج ثانٍ لا يحكم عليه بحكم الأول وقد مضى.

إن إيمان زوجة الكافر يفصلها عنه دون طلاق، فهل تعتد عدة الطلاق، أم عدة الوفاة، أم لا عدة وإنما تريّثٌ لاستبراء رحمها، أم ولا تريّثَ إطلاقاً؟

إن آيات العُدد وفاةً وطلاقاً مختصة بهما، لا تتخطاهما إلى غيرهما إلا بحجة قاطعة، وآيتنا هذه تنفي الجناح عن نكاحهن شريطة المهر دون ذكر عدة ولا تريُّث، إذاً فلا عدة هنا لعدم الحجة، اللهم إلا لأولات الأحمال منهن: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[1] اللهم إلا أن يختص

= عازمة على ديننا وليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل، فإن زوجها لا يرى رأيها، قال عليه السلام: لا - ولا نعمة، أن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٤.

الحكم بالمطلقات، لأن الآية بما قبلها، في بيان أحكام الطلاق، ثم التريُّث أيضاً لا دليل عليه، إلا أن لحوق الولد بالفراش أقل ما يفرضه هنا هو التريث، لكي لا يختلط أمر الولد بين الزوجين، طالما لا حرمة للزوج الكافر تعتد هي لأجلها، ففي العدة حِكَم عدة، منها حرمة الزوجية وقد انتفت هنا، ومنها عدم اختلاط المياه، والحفاظ على النسب، ويكفيه التريث للتعرُّف إلى كونها حاملاً أم لا.

والخبر الدال على عدة الطلاق[١]، إضافة إلى أنه من الآحاد، يختص بالنصراني، فلا ينهض حجة لإثبات حكم لا يلائم القرآن، إلا أن الأحوط هنا الأخذ بأقل العدد: عدة الطلاق.

وكما أن المرأة المؤمنة تنفصل عن الكافر دون طلاق، كذلك الكافرة تنفصل عن المؤمن دون طلاق، لانفصام العلاقة هنا وهناك:

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾:

فلا يحل إمساك نسائكم اللاتي بقين على الكفر، والعصمة ما يُعتصم به، وهي بين الزوجين علقة الزوجية الحاصلة بالعقد، فـ : لا تقيموا على نكاح الكافرات وخلاطهن كأزواج، بعدما انقطعت عصمة الإيمان وعلقته بينكم، بإيمانكم وبقائهن على الكفر.

وحرمة الإمساك بعصمة الكافرة - وقد كانت زوجة - تتخطاه إلى حرمة النكاح البادئ - وأحرى - فلا تحل الكافرات للمؤمنين على أية حال، بداية واستدامة.

---

(١) فروع الكافي ج ٢ ص ١٣٣ والتهذيب ج ٢ ص ٢٧٤ حمران عن الباقر عليه السلام في أم ولد لنصراني أسلمت أيتزوجها المسلم؟ قال: نعم، وعدتها من النصراني إذا أسلمت عدة الحرة المطلقة ثلاثة قروء، فإذا انقضت عدتها فليتزوجها إن شاءت. ورواه الشيخ بإسناده عن الحسن بن محبوب مثله.

وهل إن الكافرات هنا المشركات، كما الآيات نازلة فيهن وفي المشركين؟ أم هن والكتابيات، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها، وإنما المتبع فيها عموم اللفظ: ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ لا خصوص المورد: «المشركات»؟ وجهان أشبههما ثانيهما، فلا تحل - إذاً - نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية.

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا، وآية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات، فهي ناسخة آية الكوافر، ومؤكدة أن المشركات في البقرة لا تعم الكتابيات، أو إذا عمت بما تعلِّل فهي أيضاً منسوخة بآية المائدة، فتحل الكتابيات على المؤمنين، وتبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين، على قوتها، في عموم آيتي الممتحنة والبقرة.

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ مشركين وكتابيين، وحرمت الكافرات على المؤمنين ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك، رغم أنه مورد نزولها.

ثم آية البقرة، وإن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

هذا - ولكن الغاية التي تزيل الحرمة: «حتى يؤمن.. حتى يؤمنوا» إنها تضم الكتابيين والكتابيات إلى جماعة الشرك، إذ لم يؤمنوا ولم يؤمن،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

واحتمال أن الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابي، أنه - على بُعده - تدفعه حكمة الحكم أو علته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾[١] مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين والكتابيين، وعلّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل في الحرمة، التي لا علاج لها ولا استثناء فيها، دون الكتابي.

وأخيراً تأتي آية المائدة - وهي آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة - تأتي ناسخة لعموم الحرمة في الكتابيات فقط: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ...﴾[٢] فصدرها يدل على سابق الحرمة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾[٣].

فإنما خرجت عن حرمة الزواج الكتابيات، على شروط فصلت في الروايات دون الكتابيين على المؤمنات، فهم باقون على قوة الحرمة بعمومها في آية الممتحنة، ويما يقرب النص في آية البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ فسيطرة الزوج على الزوجة في مختلف الطاقات والإمكانيات والمتطلبات تجعل لدعوته إياها تأثيراً، دون العكس، إلا بالمغريات والملهيات، فدعوة إلى النار لها زوجها المؤمن، أو ولدها، فهذا الزواج أيضاً محظور، وكما تؤيده الروايات.

وما ألطف التشريع في هذه الآيات الثلاث، إن الأولى تعم الحرمة في الكافرات، مشركات أم كتابيات، والثانية تعتبر موضوع الحرمة المشركين والمشركات، مع التلويح - لمكان الغاية والتعليل - إلى حرمة الكتابيات، والثالثة الناسخة تحلل الكتابيات، وتبقي الكتابيين في عموم التحريم،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

والروايات الناظرة إلى الآيات، والمفسرة لها متضاربة، بين ما يوافق هذه الآيات الثلاث وما في مجراها فمقبولة[(١)] أو لا توافقها، أو تخالفها فمضروبة عرض الحائط[(٢)] أو مردودة إلى أهلها.

وحكمة الحرمة أو علتها في آية البقرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ ليست بالتي تنسخها آية المائدة أو أي ناسخ، وإنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة، مع بقاء الحرمة في موارد الدعوة إلى النار، فلا تحل الكتابية التي تدعوه للضلالة أو أولاده[(٣)]، ولا تزويجها على مسلمة، فإن لزامه سبيل

---

(١) الوسائل ١٤ ب ٢ ص ٤١٣ ج ٦ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً عن تفسير النعماني بإسناده عن علي عليه السلام قال: وأما الآيات التي نصفها منسوخ ونصفها متروك بحاله وما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٢١] وذلك أن المسلمين كانوا ينكحون في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وينكحونهم حتى نزلت هذه الآية نهياً أن ينكح المسلم من المشرك أو ينكحونه ثم قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المَائدة: ٥] فأطلق الله مناكحتهن بعد أن كان نهى وترك قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ على حاله لم ينسخه. أقول: وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكراً وأنثى. ومما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما رواه عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: (وما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر).

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعاً عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال: إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقلت له: يكون له فيها الهوى، قال: إن فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه في دينه غضاضة.

(٢) كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة، ففي الوسائل ج ١٤ ص ٤١٠ عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المَائدة: ٥] فقال: هي منسوخة بقوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [المُمتَحنَة: ١٠]، وآية المائدة خاصة وناسخة، لأن المائدة آخر ما نزلت، وإلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة وهي من اوليات المدنيات؟.

(٣) انظر صفحة ٢٨٨ هامش رقم (١).

الكافرة عليها بالمشاركة في حقوق الزوجية، وتسوية بينهما فيها[١]، ولا أن يتزوج مسلمة على كتابية وهي لا تعلم لأنه مسٌّ من كرامتها، اللهم إلا برضاها[٢]، فلو أمن كل ذلك جاز نكاحها على كراهية، إلا البله المستضعفة، فلا كراهية[٣]، وإلا التي يرجى إسلامها فراجحٌ أو واجب، والضابطة العامة هي حرمة نكاح المشركين والمشركات إطلاقاً، وكذا الكتابيين، وحلّ الكتابيات كحكم ثانوي على الشروط المسبقة، وعلة الحرمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ تتخطى غير المسلمين إلى فساق المسلمين الذين يدعون إلى الفسق، أو لا يؤمن عليهم، ففي الحرمة هنا وهناك مراتب عدة حسب مراحل الأخطار التي يجلبها الزواج المتخلف.

وبعد إجراء هذه التفاريق بين المؤمن والكافر في الزواج يأتي دور إجراء التعويض على مقتضى العدل والمساواة:

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ١٠﴾:

فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي فارقته

(١) المصدر ص ٤١٨ - محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا تتزوج اليهودية والنصرانية على المسلمة. وعن أبي عبد الله عليه السلام في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال: يفرق بينهما ويضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطاً ونصفاً، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد ولم يفرق بينهما.

(٢) المصدر ص ٤٢٠ - أبو بصير المرادي في حديث عن أبي جعفر عليه السلام: فإن تزوج عليها (يهودية ونصرانية) حرة مسلمة ولم تعلم أن له امرأة نصرانية ويهودية ثم دخل بها فإن لها ما أخذت من المهر، فإن شاءت أن تقيم بعد معه أقامت، وإن شاءت أن تذهب إلى أهلها ذهبت، وإذا حاضت ثلاثة حيض أو مرت لها ثلاثة أشهر حلت للأزواج، قلت: فإن طلق عليها اليهودية والنصرانية قبل أن تنقضي عدة المسلمة، له عليها سبيل أن يردها إلى منزله؟ قال: نعم.

(٣) المصدر ص ٤١٤ - عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: إني أخشى أن لا يحل لي أن أتزوج ممن لم يكن على أمري، فقال: وما يمنعك من البله؟ قلت: وما البله؟ قال: هن المستضعفات من اللاتي لا ينصبن ولا يعرفن ما أنتم عليه.

لإيمانها، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي ظلت كافرة أو ارتدّت، وهكذا يكون حكم الله بعيداً عن الجور حتى بالنسبة للكافرين، ضامناً للعدل حتى مع الظالمين: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفيما إذا لم يدفع الكافر مثل نفقة زوجة المؤمن - الفائتة - إليه، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع ولا سيما إذا أراد الزواج:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾:

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن إليهم كافرات، أو أسرهن عندهم مؤمنات، ثم تحصل المعاقبة، فعلى الآخرين - ممن بأيديهم أزمة أمور المسلمين - أن يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل ما أنفقوا، فما هي المعاقبة؟ وممن هي؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم، فإنها الوصول إلى عقبى الشيء وهي هنا زواج بعد الأولى تعقبها، وكما عن الإمام الرضا عليه السلام: «أن يتزوج أخرى»[1]، أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن، أو معاقبتهم - بسائر جنود الإسلام - الكفار، ولكي يحصلوا على ما أنفقوا ولم يحصلوا.

---

(١) وفي علل الشرائع بإسناده عن يونس عن أصحابه عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قال قلت: رجل لحقت امرأته بالكفار وقد قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا﴾ ما معنى العقوبة هاهنا؟ قال: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة أخرى غيرها يعني تزوجها، فإذا هو تزوج امرأة أخرى غيرها فعلى الإمام أن يعطيه مهر امرأته الذاهبة، فسألته: فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها؟ وعلى المؤمنين أن يردوا على زوجها ما أنفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال: يرد الإمام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا، لأن على الإمام أن يجبر حاجته من تحت يده وإن حضرت القسمة فله أن يسد كل نائبة تنوبه قبل القسمة وإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بينهم وإن لم يبق لهم شيء فلا شيء لهم.

ولفظ الآية يتحملها جمعاء، والقدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما أنفق، إذا لم يحصل عليه من الكفار، وأراد معاقبة الزواج، سواء غنمَ المسلمون منهم شيئاً أم لم يغنموا، والمتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال، ما إذا حصل على ما أنفق ولم يرد الزواج، وأما إذا لم يرد الزواج ولم يحصل على حقه ففيه تردد، وإطلاق المعاقبة يشمله فيؤتى من بيت المال.

ثم الخطاب الأول ﴿فَـَٔاتُوهُم﴾ للأزواج، والثاني ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ يعمّهم وغيرهم حسب المحتملات، والثالث ﴿فَـَٔاتُوا﴾ يخص غيرهم، فإن الإنسان لا يؤتي نفسه ولا يعوض عن نفسه، ومزج الخطاب هنا وهناك يوحي بأن المسلمين إخوة لا يفرق بينهم أي فارق.

ثم يأتي مرة ثانية مكملة للأولى، دور المؤمنات في تفاصيل البيعة وموادها الأساسية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[1]:

مهاجرات وغير مهاجرات، مجيئاً إليك لغاية المبايعة الإيمانية، المسرودة إليهن موادها الأصيلة مسبقاً:

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢١١ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال: قل لهن إن رسول الله يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، وكانت هند متنكرة في النساء، فقال لعمر: قل لهن ولا يسرقن، قالت هند: والله إني لا صيب من مال أبي سفيان الهنة، فقال: ولا يزنين، فقالت: وهل تزني الحرة؟ (في نقل آخر: فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية) فقال: ولا يقتلن أولادهن، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، قال: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن. . .
وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأحمد وابن مردويه عن أنس قال: أخذ النبي ﷺ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن، فقلن يا رسول الله، إن نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام؟ فقال النبي ﷺ: لا إسعاد في الإسلام ولا شطار ولا عقر في الإسلام ولا خبب ولا جنب، ومن انتهب فليس منا.

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾:

كحلقة أولى من مقومات الحياة الجديدة، وهي كلها هنا سلبية توحي بأن لترك المنكرات عقائدية وعملية سبقاً على فعل واجباتهما، فتلك تزكية وهذه تحلية، والأولى هي أساس للثانية.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ الأموال والنفوس والأعراض، من أزواجهن وسواهم.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ كما كان من دأب الجاهلية وأد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا؟

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾:

من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زوراً وافتراء، فقد كانت المرأة في الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة وتجارة، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه وهي تعلم مَن أبوه، وعلّ بهتان «بين أرجلهن» يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها، ثم هي تفتريها على زوجها.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾:

ف «ك» هنا تصريح وتلميح، تصريح للرسول خاصة، ف ﴿فِى مَعْرُوفٍ﴾ قيد توضيحي، فإن كل أوامره معروفة، فلا يتقيد أمره بشيء لأنه يصدر عن الله، وكما لله طاعة مطلقة دون شرط، أصالة، كذلك للرسول طاعة مطلقة ولأولي الأمر المعصومين عليهم السلام الصادرين عنه دون قصور أو تقصير، رسالة عنه.

ثم وتلميح الخطاب يعمّ غير الله والرسول وأولي الأمر، الذين يحكمون بين المسلمين، فلا تجب طاعتهم إلا ﴿فِى مَعْرُوفٍ﴾، وهذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية في نظام الإسلام: أن لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا في المعروف الذي تقرره شريعة الله، إلا في الله ورسوله وآله، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ ولا جهل ولا جور فيها إطلاقاً.

وإنما نسب العصيان إلى الرسول ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ دون الله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾[١] وإن كانت طاعة الرسول هي طاعة الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢]، لأن طاعة الرسول تعني ما سنّه، كما أن طاعة الله تعني ما فرضه في كتابه، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله الله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[٣] فلا يُطلب الرسول ﷺ فيما يأمر أو ينهى كولي الأمر، بحجة من كتاب الله، لأن سنته حجة بعد كتاب الله، والكل راجع إلى الله مهما اختلفت كيفية الصدور عن الله[٤].

ومن ثم، إذا أكملن هذه الشروط: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ كما تناسبك، «وقد قالت أم حكيم: يا رسول الله ﷺ! كيف نبايعك؟ قال: إنني لا أصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال: أدخلن أيديكن في هذا الماء»[٥].

بايعهن حتى يستقبلن حياةً جديدة طاهرة زاهرة، وأما بالنسبة لما مضى:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

فلاستغفار الرسول ﷺ - حيث يُشفع باستغفار المذنبين - أثر عظيم

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦. (٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٤) لذلك ذكرت في الأحاديث من المعروف هنا ما لا يعرف من كتاب الله، فقد سألت أم حكيم رسول الله ﷺ: ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطمن خداً ولا تخمشن وجهاً ولا تنتفن شعراً ولا تشققن جيباً ولا تسودن ثوباً ولا تدعين بويل... فبايعن رسول الله ﷺ على هذا.

وفي بعضها أضيف البعض من أوامر الله ليدل على شمول ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ لما أمر الله به، كما رواه عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [المُمتَحنَة: ١٢] قال: هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير.

(٥) في الكافي بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ...﴾ [المُمتَحنَة: ١٢].

في الغفران، شفعاً عزيزاً لا يردّه الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١].

وهنا السورة تنتهي بما بدأت به من النهي الشديد عن تولي المغضوب عليهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾:

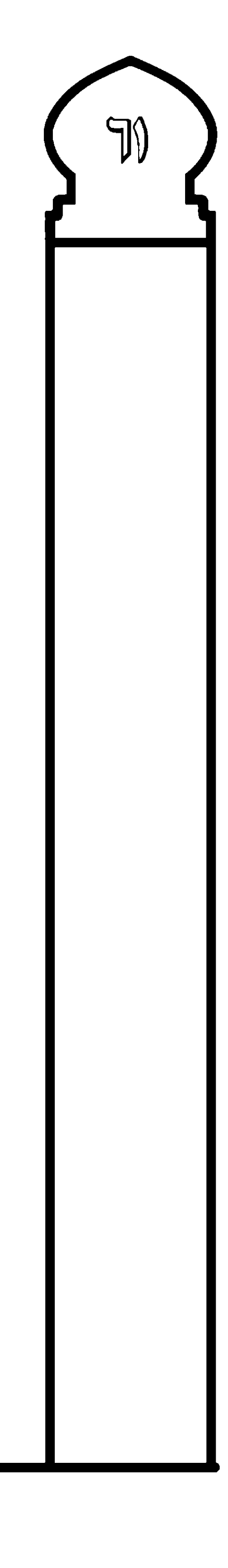
علّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود وكما في آيات عدة، وقد يشهد له تنظيرهم في يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور، وهم المشركون الناكرون للآخرة، ولقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين في نكران يوم الدين، أو عدم المبالاة به: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: من ثوابها بما قدمت أيديهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢].

فهذا يأس بحساب عدم الثواب، ولهم يأس آخر بنكران الحساب، وهو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور، إذ يئسوا من حياتهم ومن حسابهم بعد موتهم، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة، رغم أن المعاد من أصول دينهم.

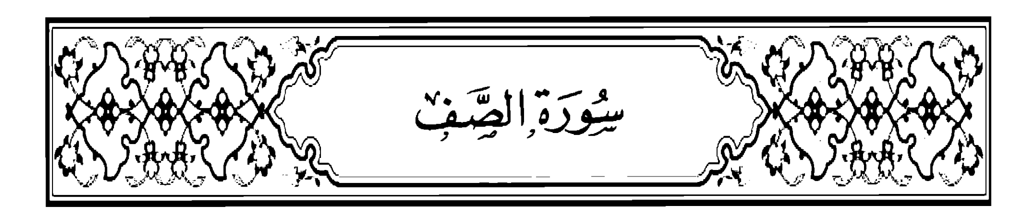
---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٩٤-٩٦.



سُورَةِ الصَّفِّ



مدنية - وآياتها أربع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ

جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١)﴾:

مضى التسبيح في فعله: ﴿سَبَّحَ﴾ للتدليل على أنه لزام الخلائق في ذواتهم منذ خلقوا، كما أن مضارعه: «يسبح» في سواها، للدلالة على استمراره دون انقطاع ما وجدوا، فالخلق، بما أنه فعل الله، إنه تسبيح لله بذاته وصفاته الخلقية، يسبحه عما ينافي العزة والحكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومن ثم فهذه التسبيحة الشاملة من الكون كله في مطلع السورة توحي بأن شريعة الإسلام - وهي الأخيرة من شرائع الدين - إنها تشمل كل ألوان التسابيح لله العزيز الحكيم، فالأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي - إذاً - أمانة الكون كله، وإنها تتجاوب ما في السماوات وما في الأرض إذ سبح ويسبح لله كله، فالتنديد بالمؤمنين بهذا الدين، لو تركوه أو بعضه، يكون أشد مما على الخلق كله، وهنا التنديد بآية شاملة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾:

تقول الآيات والروايات إنها نزلت في جماعة من الذين آمنوا، يتمنون أن لو كتب عليها القتال، فلما كتب كرهوه وتمنوا خلافه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1] ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾[2].

هذا وكما توحي به التالية لآية المقت أيضاً: آية البنيان المرصوص، ولكنما النصوص القرآنية أبعد مدى من الحوادث المفردة الماضية التي تنزل الآيات لمواجهتها، فعلينا أن نسير في مسيرات مدلولاتها العامة والمرسلة، دون أن نختصها بمناسبات نزولها فنموّت القرآن بموتها وهو كتاب الحياة الخالدة يجري كجري الشمس.

فآية المقت تعلمنا ضابطة عامة أن القول المنافق للفعل مقت كبير، كما أن القول الموافق له واجب كل مؤمن، فليكن المعني من القول هنا هو المطلوب فعله، سابقاً أو لاحقاً أو على أية حال، فمن الأقوال ما يطلب تركها كالمنكرات، ومنها ما لا فعل لها، فليساهما داخلين في نطاق الآية التي تندد بالذين يقولون ما لا يفعلون.

ثم القول هنا يشمل الوعد الحسن فيجب الوفاء به، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيجب على الآمر الائتمار بما يأمر به، وعلى الناهي الانتهاء عما ينهى عنه، وكذلك سائر الأقوال الحسنة الواصفة للحسنات، أو المخبر بها، فلتُصدّق في فعلها من قائلها، فإذا كان القول الحسن هنا وهناك وهنالك لا يجاوبه الواقع، فليترك هذا القول فإنه تقوُّل انقلب سيئاً ومقتاً كبيراً عند الله إذ ينافق فعله، مهما كان حسناً عند الله لو يوافق فعله، إذ لا قيمة لقول لا يسنده ويسانده فعله، فإما السكوت عن هكذا قول، أم ضم الفعل إليه كما يستطاع.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨١.

فخلف الوعد مقت ولو مع الكفار غير الناقضين عهودهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقت لمن لا يأتمر فيما يأمر أو لا ينتهي عما ينهى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] فهذا النفاق في الأمر والنهي إفساد، وإن كان القصد منهما الإصلاح، وكما يشير إليه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ...﴾[2] فتارك المعروف المأمور من قبل تاركه، وفاعل المنكر المنهي من قبل فاعله، إنهما يزدادان جرأة وهتكاً في حرمات الله، ووهناً في عقيدة الإيمان إن كانت لهما، وإن ذلك يكشف عن أن الآمر الناهي كأنه مستهزئ بشريعة الله، فهو «كالذابح نفسه» على حدّ المروي عن الإمام الصادق عليه السلام[3] كما ويذبح غيره.

وحاشا الله أن يأمر، أو يسمح بأمرٍ ونهيٍ فيهما الفساد، وهو يصرح أنه خلاف العقل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأنه ممقوت عنده مقتاً عظيماً ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فهو يستجر اللعنة بدل الرحمة كما عن الإمام علي عليه السلام: «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به» و: «فانهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي».

فالتقوُّل في عدم اشتراط وجوب أو جواز الأمر والنهي بفعل ما يأمر وترك ما ينهى، إنه خلاف العقل، وخلاف النقل كتاباً وسنة، ونشبع البحث كما يجب في آياته الخاصة إن شاء الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٣) البرهان ج ١ ص ٩٣ العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ...﴾ [البَقَرَة: ٤٤] قال: فوضع يده على حلقه - قال: كالذابح نفسه.

كذلك وسائر الأقوال الحسنة المخبرة عن أفعالك، أو الواصفة لحسنات الآخرين، يجب أن تجاوب أفعالك أنت، أو تكون كذباً ومقتاً كبيراً عند الله[١]، فإنما القول تعبير عما في الضمير، أو ما تضمر من نية أو عقيدة أو فعل، فليجاوبها كما يمكن ويُرام، وهو لزام الإيمان، ولذلك يخاطب به المؤمنون:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إيحاءٌ بأن عقيدة الإيمان تستلزم عمل الإيمان، وإلا فلا إيمان، إلا صورته وخياله، وهذا مقت كبيرٌ عند الله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فمهما كان ترك الفعل الحسن لمن لا يقول مقتاً، فهو ممَّن يقول أشد مقتاً.

وفي تقسيم حاصر بين القول والفعل، قد يفعل الإنسان قبل أن يقول، ففعله هو قوله قبل قوله، وإذا يقول فليس بدافع التشهر والفخر، وإنما توجيهاً للآخرين، فهذا هو العليين من القول والفعل، وقد يقول ولا يفعل، بل ويضاد فعله قوله، وهذا هو السجين منهما، ثم بينهما متوسطات من زيادة القول على الفعل دون رئاء، أو قول يجاوب الفعل ولكنه رئاء، أم ماذا، فإنما يحسن من القول ما يعتقده القائل ويفعله تماماً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾:

إن سبيل الله في كافة مجالاتها، هي سبيل مرضاة الله، وهي سبيل مصلحة الإنسان ديناً ودنياً، مجتمعاتٍ وأفراداً، وفي كل متطلباته كإنسان، فسبيل الله - إذاً - هي سبيل صالح الإنسان، والله هو الغني عن عباده وهم

---

(١) ومن ألطف ما ورد في نفاق الكذب ما رواه أحمد بن حنبل وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: (وما أردت أن تعطيه)؟ فقالت: تمراً، فقال ﷺ: (أما أنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة).

الفقراء إليه، وهكذا يفسر نصرة الله وصراط الله، وكل ما لله مما يؤمر به الناس.

ثم المقاتلة في سبيل الله ليست فوضى دون نظام وقيادة صالحة، فكما لا قتال إلا في سبيل الله، متحللاً عن الأطماع التوسعية، كذلك لا قتال في سبيل الله إلا ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في تضامن عن قيادة ونظام بين الجماعة المسلمة، داخل صفوف متراصة: برية وبحرية وجوية، متضامنة منضمة كل مع بعض، كما يتضامن كلٌّ مع صفيفه، وكلٌّ صف واحد، فإنهم يقاتلون تحت قيادة واحدة ونظام واحد ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ تتضامن أبعاضه في صميمه، مهما اختلفت شكلياً ومن حيث الوظائف في تصميمه.

ولو كان المسلمون أجمع، أو المسلمون العرب على أقل تقدير، لو كانوا هكذا في مواجهة ثالوث الاستعمار الصيهوني الأنكلوأمريكي، والاستحمار الروسي المناوئ له شكلياً، والمساند إياه ضد المسلمين واقعياً، لو كانوا مقاتلين في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، لما انهزموا واصطدموا من دويلة العصابات الصهيونية وعملائها المرتزقة داخل البلاد.

وكما الله يحب هكذا مقاتلين، فإنه كذلك يبغض غيرهم، ممن لا يقاتل هكذا في ظروفها الموجبة، بين من يترك القتال الواجب، أو يقاتل في غير سبيل الله، أو في سبيل غير الله، أو يقاتل في سبيله منعزلاً عن صف كبنيان مرصوص، كالهجمات والمدافعات الفوضى، دون نظام وقيادة، اللهم في الدفاع الفردي، دون الجماهيري، فمنذ اليوم الأول قام مجتمع إسلامي ذو قيادة مفترضة الطاعة هي قيادة الرسول محمد ﷺ وقبل أن تقوم دولة الإسلام في المدينة المنورة، فتلك القيادة الجزئية الصغيرة الحجم ظاهراً، كانت حجر الأساس للدولة الإسلامية في المدينة وعلى طول الخط.

والقرآن - دائماً - يبني أولاً أفراداً، كما لمسناه من الآيتين الأوليين،

أن يكونوا مؤمنين صادقين غير منافقين، وأن تكون حياتهم تسبيحات لله، ثم يتبنى هؤلاء - كلبنات لبناء هيكل الإسلام - يتبناهم جماعة موحدة مسلمة رزينة رصينة متراصة، فطالما الشر عارم، والباطل متبجح، والشيطان يقود، من ثم يتعين على حَملة الإيمان وحرّاسه أن يكونوا نبهاء أقوياء ليغلبوا عملاء الشيطان، ولكي يقاتلوا في سبيل الله وحده، فيما لا سبيل للحراس على كيانهم إلا القتال وحده، فالله سبحانه وتعالى لا يتشهّى القتال، ولا يُشهّي المؤمنين - فيه، وإنما يفرضه فيما يحتمه الواقع، ولدافع مدقع، حفاظاً على الكرامة، وحسما لمواد الفساد التي لا يحسمها إلا القتال، ممن يقاتلون في سبيل الله ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾: بنيان تتعاون لبناته، وتتضامُّ متماسكة، تؤدي كل لبنة دورها وتسد ثغرتها، ولكي يسدوا ثغور الإسلام عن هجمات الكافرين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾:

﴿وَإِذْ قَالَ...﴾ علّها عطف على أذى الرسول من بعض المؤمنين، وهم الذين يقولون ما لا يفعلون، أم وعلى سائر الأذى طوال تاريخ الرسالات من قبل المناوئين ضد رجالات الله، وفي هذه التذكارات تسلية لخاطر النبي الأقدس محمد ﷺ أنه ليس وحده يؤذى بين المرسلين، وثانية بما يزيغ الله قلوب الزائغين، ثم في آية البشارة التالية يبشره أنه مبشر به من قبل السيد المسيح، ويخبره بكيد الفاسقين المتخلفين عنها، ذاكراً فيها رسالة عيسى التي هي امتداد لرسالة موسى، وممهد للرسالة الأخيرة المحمدية.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى...﴾: فقد آذوه ألوان الأذيات ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وأذية رسول الله ﷺ هي أذية لله، وهي تستجر اللعنة في الدنيا كإزاغة القلوب، وفي الآخرة بألوان

العذاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾: مالوا وانحرفوا عن حق الطاعة، وانجرفوا إلى باطل العصيان، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: إن ترك هدايتهم، إذ أبعدهم عن جنابه وخلاهم وما يختارون، ووكلهم إلى أنفسهم، كما ويجاوبه ذيل الآية كتعليل للإزاغة: إن الله ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: فالذي يفسق عن أمر ربه، ويزيغ بعناد وعتاد عن طاعته، إنه لا يستحق الهداية الإلهية، التي هي جزاءٌ لقبول الهداية واستقبال الهداة، اللهم إلا تسييراً للهداية وهو مذموم، كما التسيير للضلالة مذموم.

فإذ ينسب الله الإزاغة بعد الزيغ إلى نفسه، لا يعني منها الدفع إلى ضلال أكثر، وإنما ترك التوفيق والهداية الثانوية، فإنها خاصة بالمهتدين: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[2].

وإذ يسترجي الراسخون في العلم أن لا يزيغ الله قلوبهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[3] فالمعني منه: أدم لنا ألطافك وعصمَك لتدوم قلوبنا على الاستقامة، ولا تزيغ عن مناهج الطاعة، دعاء مستجاب للمؤمنين بفضل الله ورحمته وكما وعدهم ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4] وكان الرسول ﷺ يقول: «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً».

فالهداية الأولى: دلالة الطريق - أوجبها الله على نفسه عدلاً، والثانية: إيصال الطريق فضلاً، فهذه تستوجب الدعاء دون الأولى الحاصلة دون دعاء.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾:

آية بينة عديمة النظير في القرآن من حيث البشارة الصريحة التي تحملها عن السيد المسيح عليه السلام، تؤيدها عشرات من آيات البشارات العامة في القرآن، وفي سائر كتابات الوحي، تنقبنا عنها في مؤلفنا الخاص بها[١].

ومما يجلب النظر في هذه الآية أنها تحصر رسالة السيد المسيح في مهمتين اثنتين أو أنهما من أهمها: تصديق التوراة، التبشير بخاتم النبيين، وفي الحق لم تكن الرسالة الإنجيلية مستقلة عن شريعة التوراة، وكما يصرح في آيات أنه بعث بشريعة التوراة وزيادات أخلاقية وتحليل بعض ما حرّم على اليهود تأديباً[٢] ثم البشارة الأحمدية - التي يلمح لها في الإنجيل ببشارة الملكوت - هي المهمة الثانية، طالما هي الأولى في الدعوات الرسالية لأنها الأساس في الرسالات الإلهية من آدم إلى السيد المسيح ومن بينهما.

وبما أن التبشير هو الإخبار السارُّ، وليس مجيء رسول بذهاب آخر بشرى سارة إلا إذا كان أفضل منه، وشريعته أكمل من شريعته، فآية البشارة هذه تفضل المبشَّر به على المبشِّر، وكما أن «أحمد» في نص البشارة تدل على ذلك: إنه أحمد وأفضل من المسيح ومَن قبله من حملة الرسالات.

«و» أذكر بين ذكريات الرسالات المعرقلة من قبل المناوئين، والبشارات المكذوبة بهم ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وطالما النبيون وغيرهم لا يذكرون بنسبة الآباء والأمهات في القرآن، لأن بناء شخصية الإنسان ما يتبناه هو لا سواه، نرى السيد المسيح ينسب إلى أمه، لا لإثبات شخصية روحانية له من قبلها،

(١) رسول الإسلام في الكتب السماوية وهو يضم تسعاً وخمسين بشارة من الكتب السماوية بصورة المناظرة مع علماء أهل الكتاب، ولقد بشر فيها ب: (أحمد - محمد - بمئد مئد - قدوس) كما ذكر مولده وصفاته ودعوته وسائر ميزاته.

(٢) راجع سورة الجن في الآية ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وإنما لإثبات آية خارقة إلهية هي ولادته دون أب، وللذود عن ساحة مريم عليها السلام إذ نسبت إلى الزنا، فليس المسيح ابن رجل لا حلالاً ولا حراماً، إنما ابن باكرة طاهرة!

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾:

ولا تعني ﴿إِلَيْكُم﴾ تخصيص الرسالة الإنجيلية ببني إسرائيل، وإنما هم المحور والمنطق الأول لهذه الرسالة، يجب أن تتخطاهم إلى العالم كله، كما تناصرت بذلك الآيات القرآنية والإنجيلية سواء ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لا «ما بين أيديكم» فأين ما بين أيديهم من التوراة المحرفة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1]، أين هو مما بين يدي المسيح من خالص وحي التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2] وإن كان فيما بين أيديهم الشيء الكثير مما بين أيدي السيد المسيح، وبذلك يحتج عليهم، وبذلك يستقر بهم إلى دعوته.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾:

إن (أحمد) هو (محمد) في نص البشارة ومعناها، فإنها حسب النص اليوناني (بيركلتوس): كثير الحمد - المترجم إلى (أحمد ومحمد) سواء، فإن الأفعل والمفعّل من مادة الحمد، أو أية مادة، يفسران بمعنى واحد رغم اختلاف الصيغة، وإن كان أحمد أفضل بحكم (أفعل) ومن القريب أن اسم المبشر به على لسان السيد المسيح كان (أحمد) ثم يوحنا الذي ألف إنجيله باللغة اليونانية، ترجمه إلى ما يفيد معناه في لغة (بيركلتوس).

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

هذا - وإن كان المحرفون الكنسيون حرفوا (بيركلتوس) أيضاً إلى (باراكلتوس) ليحولوا محمداً إلى المسلّي، ولكنما ألفاظ البشارة نفسها تتأبى إلا أن تكون بشارة برسول بعد السيد المسيح عليه السلام هو أعظم منه وأكمل - كما وأن البشارة لغوياً تلمح بأنه أكمل منه وممن قبله أيضاً، فهو إذاً رسول، لا روح القدس الذي كان معه، وهاكم نص البشارة حسب الأصل السرياني المترجم عن الأصل اليوناني:

في يوحنا ١٤: ١٦ (وَأَنَا بِتْ طالِبنْ مِنْ بَبِي وَخِينَ پارَقليطَا بِتْ يَبِلُ لو خُونْ هَلْ أبَدْ).

(وأنا أطلب من الآب (الخالق) فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد - روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم).

وفي يوحنا ١٥: ٢٦ (إِيْنَ إِيْمِنْ دِأتِيْ پارَقليطا هُودِ أنَا شادوِ رِونْ لِكِسْلَوْ خُونْ مِنْ لِكِسْ بَبّي رُوخاذْ سَرَ سْتُوتا هَوْدِ مِنْ لِكِسْ بَبَّي پالِتْ هَوْ بِتْ يَبْلِ سَهُدوتْ بَسْ دِيّى).

(ومتى جاء (بيركلتوس) الذي سأرسله أنا إليكم من الآب (الخالق) روح الحق من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء).

وفي يوحنا ١٦: ٧ - ١٥ (إلا أنْ سَرَ سْتُوتا بِمَرِونْ إلّوْ خُونْ وِصْپَايلا قَتَوْخُونْ دِأنْ لا أزِنْ سَبَبْ دِ أنْ لا أزِن پارَقليطا لِي أتِىْ لِكَسْلَوْ خُونْ إِيْنَ إنْ أزِنْ بِتْ شاذْرِنّهْ لِكسْلَوْخُون).

«لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (البيركلتوس)، ولكني إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء يبكت العالم على خطيَّة وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطيَّة فلأنهم لا يؤمنون بي.

وأما على بر فلأني ذاهب إلى خالقي ولا تروني أيضاً. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين: إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ويمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ما للآب هو لي، لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم»[١].

إن (بيركلتوس) هنا وهناك، نصاً ومواصفات، لا تنطبق إلا على الرسول الأقدس (أحمد) محمد بن عبد الله ﷺ مهما حاول المحولون المحرفون الكلم عن مواضعه، أن يحرفوها عنه ﷺ فالحق يتجلى كالشمس بين ظلمات الأباطيل وزخرفات الأقاويل.

ولقد صرح بعض الخبراء باللغة اليونانية من المستشرقين[٢] ومعهم بعض الكتاب المسيحيين المبشرين[٣] أن (بيركلتوس) اليونانية تعني: الذي له حمد كثير: (أحمد - محمد)، مهما حاول الآخرون أن يجعلوها (باركلتوس) لكي

(١) نقل الترجمة عن اللغة اليونانية سنة ١٩٠٦ - الكتاب المقدس - ونحن نقلناها هنا حرفياً إلا ترجمة البارقليطا، والترجمة هنا تزيد عن الأصل السرياني، إذ المقصود من نقل الأصل الإشارة إلى نص (بارقليطا) وإلا فالأصل الأولي يوناني، وقد ترجمنا (الآب) بـ (الخالق) حسب ما تعنيه في اللغة اليونانية خلاف الترجمات الإنجيلية التي تطلب من (الآب) أن يكون (الأب) لكي يصبح المسيح ابنه.

(٢) كالدكتور (كارلونلينو) المستشرق الطلياني إذ يسأله فتحي عثمان - كما في كتابه (مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص ٣٤٨) قلت له: ما معنى بيركلتوس؟ فأجابني بقوله: إن القسس يقولون معناها المعزي، فقلت: إني أسأل الدكتور (كارلونلينو) الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، فقال: إن معناه: الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل حمد؟ فقال: نعم - فقلت إن رسول الإسلام من أسمائه أحمد!

(٣) كعبد المسيح في ينابيع الإسلام ص ١٥٢ حيث يقول: زعم العرب أن فارقليطا معرب بريكليطوس ولكنه من بار اكليطوس، وكالأستاذ الحداد في كتابه مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

تعني المسليَّ حتى يتخلصوا عن محمد الرسول ﷺ ويتسلوا إلى روح القدس المزعوم الذي يوحي لهم كما يشتهون، فيصبحوا أنبياء يوحي الكنيسة من الروح، إلا أن تواجد الأولى في الترجمات الإنجيلية قبل الإسلام، ثم تحرُّفها إلى الثانية بعد الإسلام مما يكشف عن مدى ميدهم عن حق البشارة إلى باطل يهوونه، غلطة عامدة تجرهم إلى غلطات.

ومما يدلنا تاريخياً أن المبشر به هنا نبي بعد السيد المسيح لا روح القدس المسلي دعوى جماعة من المسيحيين أنهم (بيركلتوس) الموعود المنتظر[1].

ومن ثَم مواصفات المبشر به في آياتها تحيل أن يكون هو روح القدس المسلي، فإنه: (بيركلتوس آخر) (يوحنا ١٤: ١٦) وروح القدس واحد ليس معه ولا بعده آخر، فإنما هو نبي آخر، حيث الحمد الكثير يحمله النبيون أجمع فهم كلهم معنوياً: (بيركلتوس): أحمد، وإن كانوا في ذلك درجات، ثم النبي الآخر له من معناه النصيب الأوفر، لحدّ خص باسمه دونهم (أحمد - محمد) مهما شاركوه في درجات أدنى من معناه: الحمد الكثير!

ولئن سئلنا لماذا بُشر بأحمد؟ ومحمد أشهر! فالجواب: إن (بيركلتوس) اسمٌ وصفي عُني به محمد وصفاً في: (بيركلتوس آخر): نبي آخر، فإن النبيين كلهم محمَّدون أوصافاً إذ يحملون الحمد الكثير، مهما حمله محمد الأخير اسماً ووصفاً وكما في نص سليمان عليه السلام (وِكُولُو مَحمَّد يم): وكله

---

(١) يقول وليم ميور في كتابه لب التاريخ ط ١٨٤٨ - إن (منتنس المسيحي الذي كان رجلاً تقياً شديد الرياضة ادعى في آسيا الصغرى أني فارقليط موعود المسيح الذي تنتظرونه فآمن به طائفة منهم، ويقول أيضاً: إن اليهود والنصارى زمن محمد كانوا بانتظار النبي الموعود فارقليطا فاتخذه محمد ظرفاً صالحاً للادعاء أني أنا فارقليطا موعود المسيح.
وفي التواريخ والآثار: أنه لما كتب الرسول محمد ﷺ كتاب الدعوة إلى الإسلام للنجاشي، أنه لما وصله الكتاب قال: أشهد بالله أنه هو النبي الذي ينتظره أهل الكتاب وكتب في جوابه: أشهد أنك رسول الله ﷺ.

محمد: اسماً ووصفاً وخلقاً وديناً وفي كل شيء[١]، ثم وعني به أحمد في سواه[٢] إذ قصد تفضيله على السيد المسيح وسواه كما في النص الثالث الآتي شرحه، فأحمد هو الأفضل إطلاقاً في حمل الحمد، وكما هو حامل لواء الحمد يوم القيامة.

ومما يفضل به هذا المحمد الآخر أنه الأخير من مواكب الرسالات الإلهية أيضاً: «فيعطيكم بيركلتوس آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ١٤: ١٦) فـ(كم) هنا لا يعني - ومحال أن يعني - الجماعة المخاطبين زمن المسيح فقط، إذ لم يكونوا مؤبدين بأشخاصهم، وكما أن أبدية المحمد الآخر هي أبدية الشخصية الرسالية لا الشخص، فهو خاتم النبيين.

وسمة أُخرى لـ(بيركلتوس) يعني فيها (أحمد) «أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (بيركلتوس)» فهل أن روح القدس خير من السيد المسيح حتى يصبح ذهابه لمجيء الروح خيراً لهم؟ أم وإذا كان خيراً منه، أينفصل عنه ولحد استحالة الجمع بينهما؟ «إن لم أنطلق لا يأتيكم» وهذه تصريحة بينة أن المبشر به كائن مستحيل الاتصال بالسيد المسيح، وإذا كان هو روح القدس المتصل بالنبيين أجمع، استحالت نبوة السيد المسيح، فالذين يحاولون في تحويل أحمد إلى روح القدس، إنهم يحيلون نبوة السيد المسيح في الوقت ذاته، إذ أحال المسيح مجيء (بيركلتوس) لو لم يذهب هو، وجنَّد ذهابه لمجيء (بيركلتوس) فهل هو إذاً روح القدس ملازم النبيين، وملازم السيد المسيح طوال رسالته؟!

---

(١) في نشيد الأناشيد ٥: ١٥ (حكو ممتقيم وكولو محمد يم زه دودي وزه رعى بنت يرشالام)، أي: فمه حلو وكله محمد هذا محبوبي وهذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم.

(٢) إذاً فلا يتم في (أحمد) رغم ما يتقوله الأستاذ حداد في (مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي) بقوله: اسم النبي العربي في القرآن هو محمد كما يرد في أربع آيات: (٣: ١٤٤) (٣٣: ٤٠) (٤٧: ٢) (٤٨: ٢٩) لذلك فوروده بلفظ أحمد مرة يتيمة مشبوه ولا يعرفه الواقع التاريخي.

إنه أفضل من السيد المسيح إذ اعتبر ذهابه خيراً لغاية مجيء (بيركلتوس) ولأنه (أحمد) أفضل منه محامد وممن سواه، فليكن من أفضل أولي العزم من الرسل، ومن شهود هذه الأحمدية: «ولكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يوحنا ١٦: ١٣) مما يوحي أن السيد المسيح لم يرشد إلى جميع الحق، ولأن حامل هذا الإرشاد الشامل، شرطه أن يحمل الحمد الشامل: أن يكون (أحمد) ليرشد العالم مع الأبد إلى كل خير، كما وأن لفظ البشارة (أحمد) يوحي بهذه الأفضلية الأحمدية.

لذلك، وأن المبشر به يحمل الرسالة الأخيرة التي هي الرسالات كلها وزيادة نرى السيد المسيح يردد تأكيده به في توصيات: «الآن قلت لكم قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون» (يوحنا ١٤: ٢٩).

وأنه يعتبر حفظ وصاياه من شروط مجيء (بيركلتوس): «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الخالق فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ١٤: ١٥ - ١٦).

ولقد عبر عن أحمد في نص يوناني آخر بـ(ايودكيا) كما في (لوقا ٣: ١٤): «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله ويقولون: الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض (إسلام) وللناس (أحمد)، رغم أن التراجم تقول: «وعلى الأرض السّلام للناس الذين بهم المسرة» وكما هو دأبهم في تحريف الترجمات عن البشارات المحمدية.

فهم يترجمون (ايريني) بـ(سلام) و(ايودكيا) بـ(مسرة) رغم أنهما (إسلام وأحمد) حسب الأصل اليوناني واقعياً ولغوياً.

واقعياً لأن الأرض لا تحمل السّلام التام ما دام فيها تضارب العقائد والأحكام.

فهذا هو السيد المسيح عليه السلام يقول عن سلام الأرض: «ما جئت لألقي

سلاماً على الأرض بل سيفاً» (متى ١٠: ٣٤) «جئت لألقي ناراً على الأرض أتظنون أني جئت لألقي سلاماً؟ كلا! أقول لكم بل انقساماً» (لوقا ١٢: ٥٣).

إذاً فـ(إيريني) على الأرض ليس سلامها، وإنما هو إسلامها الذي سوف ينتهي إلى سلامها التام في دولة القائم المنتظر عليه السلام: ملكوت الله الذي يلتمسه المسيحيون في صلواتهم ليل نهار، والملائكة تعني بهذا الهتاف أن (أحمد) سوف يؤسس الإسلام على الأرض فيشملها كما الحمد لله شامل في الأعالي.

ولغوياً: الحق أن (ايودكيا) مركبة من (ايو - دكيا) ايو بمعنى: حسن، جيد، صالح، مرجي، حقيقي، حسن ملاحة - و(دوكيا) لم نجدها هكذا في كتب اللغة وإنما (دوكوثه) أي: الحمد، الاشتهاء، الشوق، الرغبة، البيان، الفكر، ثم الصفات المشتقة من (دوكسا): وهي، حمد، محمود، ممدوح، نفيس، مشتهي، مرغوب، مجيد، والمركب من هذين هو «محمد وأحمد».

كما وأن الأصل العبراني (شلم حمد) هو الإسلام وأحمد، لا السّلام والمسرة، وإن كان الإسلام وأحمد سلاماً ومسرة للمؤمنين[١].

هذان الأحمدان طرف من البشارات الإنجيلية بجنب العديد من البشارات المحمدية في التوراة والإنجيل نتحدث عنها في طيات آياتها إن شاء الله تعالى ومنها ما في كتاب أشعياء (٤٢: ١٠) «يسبحون الرب تسبيحاً جديداً ويبقى أثر سلطانه بعده واسمه (أحمد)»[٢].

هكذا يترجم الآية القسيس أو سكان الأرمني، بعد الآيات السابقة لها، المبشرة برسالة عالمية من نسل قيدار بن إسماعيل، وأحمد صلى الله عليه وآله وسلم من ولده.

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل القول حول (بيركلتوس) و(ايريني ايودكيا)، نقله عن الأب عبد الأحد الآشوري العراقي من كتابه (الإنجيل والصليب) ط القاهرة ١٣٥١ هـ نقله عن التركية إلى العربية مسلم عراقي.

(٢) راجع (رسول الإسلام) ص ٥٨ - ٦١.

وهكذا يبشر السيد المسيح بني إسرائيل والحواريين بالرسالة الأحمدية المحمدية، مفضلاً له على نفسه وسواه، وأنه يستقل بشريعة عالمية خالدة فيها تبيان كل شيء: كما بشر به النبيون من قبل:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

بينات فيما بشر به من اسمه وسماته وصفاته، وآيات بينات في كتابه تبين بوضوح أنه من عند الله العزيز الحكيم، وبينات في تشريعاته وتصرفاته، بحيث أصبح كله بينات، ولكنهم لحقدهم العصيب ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ترى كيف تكون الحقيقة إذا كانت البينات الأحمدية سحراً؟!

إن صيغ البشارة بالنبي الآتي، التي نعهدها من حملة الرسالات الإلهية، تصور لنا حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي وحدة متماسكة في أصلها واتجاهها، مهما اختلفت في شكلياتها حسب المقتضيات، إنها ممتدة من السماء إلى الأرض، وبشارة السيد المسيح ثابتة بهذا النص، سواء تواجدت في الأناجيل الحالية أم لا، ولكنها موجودة كما عرفناه وإن كان عليها سمة التحريف فإن نور الله لا يطفأ مهما حاول الكافرون في إطفائه.

وبشارة السيد المسيح لا تختص باسم (أحمد) وإن كانت أفضلها إذ يحمل تفضيله ﷺ. . فالنص «وإذ قال» مما يدل على أنه من بشاراته، لا «إذ كان يقول» حتى تدل على أنه كان (أحمد) دائماً، بل و(محمد) أيضاً.

هنا نلفت أنظار الذين يقولون: إننا مسيحيون، ثم لا يؤمنون بمحمد ﷺ أنهم ليسوا بمسيحيين أيضاً إذ رفضوا بشارته وتركوا وصيته في محمد ﷺ.

وأما الذين آمنوا به فهم حقاً مسيحيون ومسلمون إذ آمنوا به تطبيقاً لوصية السيد المسيح عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾:

المفترون على الله الكذب فرق شتى، بين مفترٍ لا يعلم، ومتجاهل يعلم، وعالم لا يجهل ولا يتجاهل، وإنما يفتري علماً وعناداً فلا أظلم منه، ومنهم من يُدعى إلى الإسلام، بحجة البشارات الصادقة لرسول الإسلام، وبسائر الحجج القاطعة للأعذار، ورغم كل ذلك يفتري على الله الكذب، في تكذيب رسوله المبشر به من قبل، وتكذيب رسالته التي تحمل كافة بينات الصدق، فمن أظلم منه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ لا يريدون الهداية ويرفضون الهداة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾:

نور الله هنا هو الرسول محمد ﷺ، فإنه نور الأنوار الرسالية، وهو القرآن: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢).

والفرق بين ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ و«أن يطفئوا» أن في الأول الإرادة واجهة لأمر يتوصلون به إلى إطفاء نور الله، كنكران البشارات، وتسحير المعجزات، ولكي يُطفأ النور المحمدي، وفي الثاني القصد إلى إطفاء نور الله بالقضاء على النبي ودعوته قصداً بالذات.

فرغم محاولات الكافرين وحيلهم في إطفاء نور الله، إن الله حتم على نفسه إبقاء نوره وإتمامه، وكما نرى البشارات المحرّفة بأيدي الدس

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

والتحريف، إنها تدلُّ على تحرُّفها، وتدلُّ من خلاله دلالات بيّنة على صاحب الرسالة السامية محمد ﷺ وتفضح المحرفين، فالذين حوَّلوا (بيركلتوس): أحمد - إلى (باركلتوس): المسلي، لكي يحوّلوه عن أحمد الرسول إلى مسلي الروح، فهل باستطاعتهم تحويل صفاته وسماته إلى غيرها؟ لذلك ظلّت هذه البشارة الأحمدية مشرقة دائبة خارقة ظلمات التحريف والتجديف! وهي الإرادة ليطفئوا نور الله، وكذلك إطفاءه بالقضاء على الدعوة الإسلامية، فإنها مطلّة على العالم أجمع وطالعة ما طلعت الشمس وغربت، لا تطفئ نوره ولا ذاته وصفاته.

إنه نص يرثي الكافرين مستهزئاً بهم، فما قولهم بأفواههم ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ إشارة إلى المعجزة التامة الكافلة، إلا كمن يحاول إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه، فما أفضحه وأعجزه من هؤلاء الضعاف المهازيل!.

فالنار هي التي تُطفأ مهما طالت زبانيتها، ولكنما النور، المستمدة من نور الله وإرادته، إنها ليست بالتي تُطفأ، وإنما تزداد إشراقاً وتماماً رغم تطاول الإطفائيات الطائلة الجاهلة، مهما يخيّل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصطنعين بأيدي وعلى أعين الصليبيين والصهاينة المجرمين، أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد.

ترى إن الله تطفأ ذاته النورية بإطفاء الكافرين؟ فكذلك نوره، فإنه طالع من مطلع ليس له أفول وهو الحضرة الإلهية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ومن أرجَل وأبطَل هؤلاء الرجال الأنوار، الرسولُ الأقدس محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرون المعصومون كما وردت بذلك متواتر الآثار.

إنه ليس إتمام النور المحمدي بإبقاء شخصه حيّاً، ولا ببقاء دينه حيناً سليماً عن النقص والنقض، وإنما هو إظهاره على الدين كله: أن يحكم العالم أجمع ولو كره الكافرون والمشركون:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ . . . وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: كأنه الرسول لا سواه، فمن هكذا إضافة يستفاد الحصر، ولأنه يحمل الرسالات الإلهية وزيادة خالدة ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: كل الهدى التي تتطلبها وتحتاجها الحياة العقلانية وأضرابها على طول الخط، دون نقص أو نسخ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: دين للحق: الثابت - لا «الدين الحق» لأن رُسل الله كلهم مرسلون بالدين الحق، فـ«دين الحق» هو الثابت من الدين الذي ليس له دور خاص ولا جماعة خاصة، فدوره شامل ما دامت هذه الحياة قائمة، وجماعته هم المكلفون أجمعون، حقٌّ بكافة معانيه: ثبوتاً وجاه زلازل التشويهات والتمزيقات والتحريفات، وثبوتاً تجاه النسخ بشريعة أخرى إلهية، فإنه لا شريعة بعده، فهو حق يجري في مجاري الحياة جري الشمس.

فلقد حرفت الكتب الإلهامية الأخرى، وانتهت لحال لا تصلح معها لشيء

---

(١) سورة النور، الآيات: ٣٥-٣٧.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

من قيادة الحياة، وحتى لو ظلت سليمة عن التحريفات، فهي نسخة سابقة مؤقتة لأدوارها المحددة لها، لا تشمل كافة طلبات الحياة المترامية الأطراف، المتجددة دائبة، فليست هي «دين الحق» مهما كانت «الدين الحق».

و«دين الحق» هكذا يستحق الظهور على الدين كله، وكما جعل غاية لحقه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: على الدين الباطل كله: الطاعة الباطلة، وهي شرعة الشيطان، وعلى الدين الحق كله[١]، إذ ينسخ الشرائع كلها، ويكمّلها، فلا يبقى دين إلا دين الإسلام، وكما وُعدناه في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

إن جذور ومؤهلات هذه الغاية متواجدة في شريعة الإسلام، مهما لم تتحقق زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه حتى الآن ظهوراً على الأديان، ولكنها سوف تتحقق في الدولة المحمدية الأخيرة التي يبتدىء بها مؤسساً لها حفيده المهدي المنتظر عليه السلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾: ظهوراً وغَلَباً شاملاً بدينه وكتابه، وبشخصيته الرسالية، مهما قضى شخصُه نحبَه، وانقضى دوره كشخص، ولكنه مستمرٌ في دعوته، في كتابه وكيانه، في خلفائه الأوصياء الأوفياء، فيمن تخضع له الأمم كما بُشرنا به في كتابات السماء[٢].

إن الديانات الأخرى، من حق وباطل، ليست لها مؤهلات الغلبة الشاملة، وتأسيس دولة موحدة عالمية، لا في ذواتها، ولا في زعاماتها، ولكنما الإسلام يملك هذه الأهلية فيهما معاً، فدستوره العالمي هو قرآنه الكامل، الحافل لكافة متطلبات الحياة، وقيادته العالمية هي الظاهرة في

---

(١) تفسير البرهان ٤: ٣٣٠ - عن أبي الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام في الآية قال: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام.

(٢) راجع (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه بشارات عدة بشأن القائم المهدي عليه السلام.

رسوله وأوصيائه، والباهرة أخيراً في القائم المهدي عليه السلام ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾: الذين يشركون بالله في طاعته وعبادته، في دينه وحكمه، فليحكم دين الله وحده، ظاهراً على الدين كله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ إذ يشهد في كتاباته ببشارات تتلاحق بحق هذا الدين وهذا الظهور، وإذ يشهد بما يؤيد أهل هذا الدين فيما يأملون، من كانوا يعلمون ويعملون، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

إن الإسلام ليس فكراً أو نظرية في بطون الكتب، تترسمها الأجيال فيعيشوا الخيال بعيداً عن الواقع، إنما هو دين الحياة الواقعة، حقيقة في عالم الواقع، ما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين حين وآخر، وتنبض وتنتفض قائمة على جذورها المجردة عن الأباطيل، رغم كل ما جرّد على الإسلام والمسلمين من كيد وحرب وتنكيل، وظهرت قوة وحقيقة ونظاماً على سائر الدين قدر ما أظهرتها جماعتها، فدانت لها معظم الرقعة العامرة مدى قرون من الزمن.. وإلى أن يدين لها كل المعمورة طوعاً أو كرهاً بقوة النور والنار، طوع الأبرار وكُره الأشرار ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

إن إتمام نور الإسلام ليس إلا في زمن يشمل العالم كله، فيرتفع فيه علم الإسلام مرفرفاً لا ندّ له ولا ضد، وكما سمع علي عليه السلام يقول تفسيراً لهذه الآية: «كلا والذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا ويُنادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بكرة وعشياً»[2].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) تفسير العياشي بالإسناد عن عمران بن هيثم عن عباية أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول في الآية: أظهر ذلك بعد؟ قالوا: نعم. قال: كلا...

وعن ابن عباس في الآية قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا صار إلى الإسلام، حتى تأمن الشاة والذئب والبقرة والأسد والإنسان والحية، حتى لا تقرض فارة جراباً وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، وهو قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وذلك يكون عند قيام القائم عليه السلام. =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾:

هنا إيمان أول هو رسمه وصورته قبل أن يتعرّق في القلوب، وهو الإيمان التقليدي، فهو لا ينجي - بمجرده - من عذاب أليم، إنما هو رأس مال يتجر به، والتجارة تصرف في رأس المال طلباً للربح، وهذا الإيمان الأول هو رأس مال لربح الإيمان العريق بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس، ثم هذا الربح أيضاً رأس مال لتجارة ثانية وربحها النجاة من عذاب أليم، تجارة متسلسلة ترجع لآخر المطاف إلى نجاة قاطعة عن حياة بئيسة في الدنيا وفي الآخرة، دون اختصاص بالأولى، مهما كانت في الآخرة أتمّ وأولى.

إنها تجارة من رأس مالها أنفس المؤمنين وأموالهم - وهي من الله -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ... فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾[1].

فبأنفسهم يؤمنون بالله ورسوله ثانياً، ويفتدون بهما في سبيل الله مجاهدين، وبأموالهم كذلك يجاهدون صرفاً لها في سبيل الله، ولكي تصبح حياتهم المؤمنة كلها قنطرة وسبيلاً لله دون أن يكون لغير الله فيها نصيب.

في آية التجارة تُقدَّم الأموال لتقدُّمها في تقديم المجاهدين بالعُدَد المكافحة، ثم إذا نفدت الأموال أو ما كفت أو ما أفادت لحسم جذور الفساد، فلتقدَّم الأنفس فداءً بعد الأموال في سبيل الله، وفي الآية الثانية تُقدَّم الأنفس لأنها الأصل في الجهاد، وإذا قُدِّم الأصل فتقديم الفرع - وهو المال - سهل.

= وعن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: يظهره الله عزّ وجلّ في الرجعة (تفسير البرهان ٤: ٣٣٠).

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

ومن عوائد هذه التجارة غفر الذنوب ودخول الجنة، إيجاباً للرحمة بَعد البُعد عن العذاب:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

فغفر الذنوب كلها ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ الغابرة والحاضرة - وهي صغائر المعاصي - إنه رهين هذا الإيمان العقائدي والعملي التام، فإنه يضم كبائر الطاعات فعلاً: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[1] وكبائر المعاصي تركاً: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2]، ثم بقية حاضرة بجنب أمثالها والمستقبلة:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾:

وتجارة وعائدة أخرى، تحبونها هنا ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذ تنصرون دينه ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فتح مكة المكرمة وهو فتح الفتوح فيما مضى، وفتح القائم المهدي عليه السلام[3]، وهو أشمل، وإن كان متأخراً بزمن، فكل آتٍ قريب. فقد تربحكم هذه التجارة في الحياتين ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الفتوحات والأرباح الدائبة، وإنما المؤمنين المجاهدين بكل ما لديهم من إمكانيات، لا القاعدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

هذه المقالة من السيد المسيح هي لما أحسَّ منهم الكفر: «فلما أحسَّ

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) القمي أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: يعني في الدنيا بفتح القائم عليه السلام، وأيضاً فتح مكة.

عيسى منهم الكفر قال مَن أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

كون الإنسان من أنصار الله والأنصار إلى الله لا يعني أن الله بحاجة إلى نصرة في ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى عباده الضعفاء المهازيل، وإنما يعني نصرة الإنسان نفسه في صالحه الحيوي بكافة مجالاتها، الذي لا يصلح إلا بإرادة الله ودلالته، فليس بإمكان الإنسان أياً كان أن ينصر نفسه إلا على ضوء شريعة الله المسنونة لصالح الإنسان، وتوفيقه الذي يرافقه فيه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(٢). ومن نصرة الله نصرة رسوله الدال عليه، السالك سبيله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(٣) كما والتنظير: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يوحي بأصالة هذه النصرة في نصرة الله، فكونوا أنصاراً لرسول الله في الدعوة والاتجاه إلى الله، وتطبيق ونشر شريعة الله، في صفوف متراصّة رزينة رصينة صامدة لا تنفصم: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤) وتُعاكس نصرة الله هكذا أن ينصر ناصريه، مما يدلُّ على أن نصرته تعالى هي نصرتهم أنفسهم بدلالته وتوفيقه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٥) ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٦).

والحواريون الأنصار هم تلاميذ السيد المسيح، الأخصاء، منطلق دعوته الذين كانوا يلوذون به ويأخذون عنه، منقطعين عمن سواه من معلمين

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٥) سورة محمد، الآية: ٧.
(٦) سورة الحج، الآية: ٤٠.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أنصارك إلى الله، بما أنك وسيط في هذه السبيل، لا أصيل ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالمسيح أو بنصرته إلى الله ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ كذلك ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الكافرين والتاركين لنصرته «فأصبحوا» بإيمانهم بالله ومن ثم بتأييد الله ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين على عدّوهم، ومن ذلك أنهم ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1] في محاولة صلبه إذ صلب من أُلقي عليه شبهه ورُفِع هو إلى سماء رحمة الله، وهكذا يكون دور الإيمان والمناصرة في الله، عالياً ظاهراً على الأعداء مهما كانت جولة الباطل، فإن للحق دولة!.

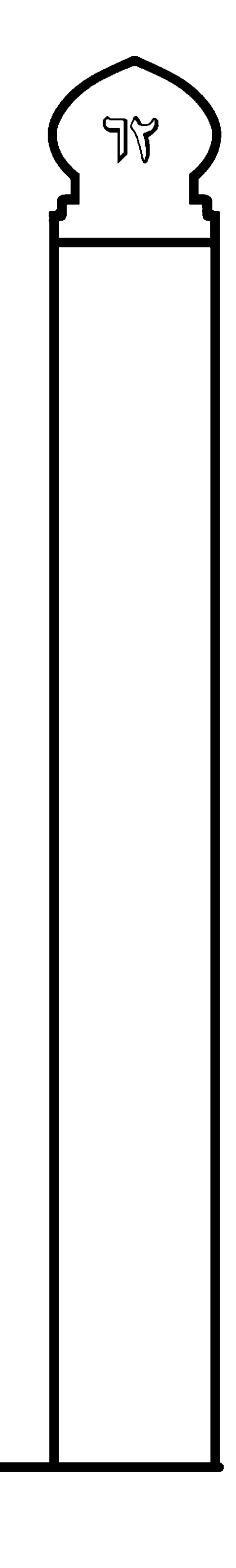
والعبرة المستفادة عبر نصرة الحواريين والذين حذوا حذوهم، هي استنهاض همّة المؤمنين بالشريعة الأخيرة من دين الله، المختارين لهذه المهمة الكبرى، أن يقوموا قومة رجل واحد لنصرة صاحب الرسالة السامية الأخيرة، ليؤدّوا هذه الأمانة الكبرى إلى الأمم سليمة عزيزة، ولكي تحكم العالم أجمع في جولته الأخيرة.

ولعمر الله أن نصرة المؤمنين بهذه الرسالة كانت عالية غالية، إذ نصروا الرسول ﷺ وآله عليهم السلام في مختلف الأخطار الحاسمة[2]، خلاف ما نُبِّئنا عن أنصار السيد المسيح، إذ كانوا قلة وهم لم ينصروه إلا قليلاً حتى رفعه الله!.

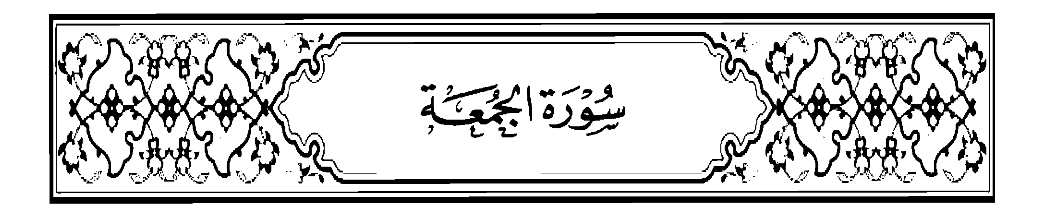
---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٢) أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن حواري عيسى كانوا شيعته وإن شيعتنا حوارينا وما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى للحواريين من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله عزّ وجلّ رسوله ينصروننا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون من البلدان، جزاهم الله عنا خيراً. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا، والله لو آويت مبغضيه أو حبوت لهم من المال ما أحبونا.



سُورَةُ الجُمُعَةِ



مدنية - وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

سورة تسمى باسم أفضل أيام الله الذي يؤتى فيها بأفضل فريضة من فرائض الله، المشرف بها المسلمون، المفضلون بها عمن قبلهم كما يروى عن النبي ﷺ، كما وأن سورة الحج تسمّت باسم هذه الفريضة العظمى التي تزامل صلاة الجمعة في فرضها وفضلها، بل وهي أفضل منها فإنها مؤتمر سنوي عالمي تشكل مملكة الحج، وهذه مؤتمر أسبوعي بلدي.

ثم لا نجد سورة أخرى تتسمّى باسم أية فريضة إسلامية سواهما، مما يوحي بمدى أهمية هذين الفرضين الجماعيين اللذين هما كمفتاح لسائر الفرائض، يجمعان بين شتات القطاعات المسلمة التي تفصلها فصالات الأمكنة واللغات والطائفيات والقوميات.

فصلاة الجمعة سيدة الفرائض، كما يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله من يوم الأضحى والفطر، فإن له من سابق الفضل وواقعه ولاحقه عبر الزمن ما ليس لغيره من الأيام:

فإنه يوم جمع الله فيه الخلق بعد الأدوار الستة للخلق، فالجمعة في هذا الأسبوع العالمي هو يوم الجمع العام، كما أنها لغوياً كثير الجمع، ولذلك جعل عيد الإسلام الأسبوعي لأنه جماع الشرائع، ولكثرة الجمع المفروض في فرضها.

ثم هو يوم خلق الله فيه آدم حيث أتمَّ جمع روحه إلى جسمه، وفيه جمع له زوجته، وفيه أسجد له ملائكته، وفيه أدخله وزوجه جنته، وفيه تاب الله عليه عن خطيئته، وفيه أهبطه إلى الأرض، وفيه قال الله للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وفيه فدى الله إسماعيل بذبح عظيم، وفيه كشف الله عن أيوب كربه، وفيه استجاب الله ليعقوب دعاءه، وفيه حملت السيدة مريم

السيد المسيح، وفيه خلق الله تعالى الأنبياء والأوصياء، وفيه جمع الله تعالى لمحمد ﷺ أمره، وفيه قام الإمام الحسين عليه السلام قومته الثائرة، وفيه يقوم القائم المهدي عليه السلام، وفيه - بين الظهر والعصر - تقوم القيامة الكبرى.

ليلتها غرّاء، ويومها زاهر، وليس على وجه الأرض يوم تغرب فيه الشمس أكثر معافىً من النار منه، يضاعف الله عز وجل فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات، ويكشف فيه الكربات، ويقضي فيه عظام الحاجات، ما دعا الله فيه أحدٌ من الناس وعرف حقه وحرمته إلا كان حتماً على الله أن يجعله من عتقائه وطلقائه من النار، فمن وافق منكم يوم الجمعة فلا يشتغلن بشيء غير العبادة، كما وردت بذلك الأخبار عن الرسول الأقدس ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام [(١)].

ولأن صلاة الجمعة هي القمة في فرائض الله، جعل وقتها هذا اليوم المبارك الميمون، طالما تكسب الجمعة من صلاة الجمعة فضلاً عظيماً على فضائلها.

إن فريضة الجمعة مؤتمر أسبوعي يهيئ الجو للمؤتمر العالمي السنوي - الحج - تجمع من المسلمين لأدائها والاستماع إلى خطبتيها السياسيتين الإسلاميتين آلافاً من المسلمين العائشين في الدائرة التي تقام في مركزها الجمعة، وقطرها على أقل تقدير (٢٢) كيلومتراً.

الآيات الأولى في هذه السورة هي تقدمات وتهيئات لآيات فرض الجمعة، فإنه ذكر الله الجامع مجامعه، الحافل محامده، ولذلك نرى مطلع السورة كيف يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من الكائنات كلها، فإنها جمعة في تسبيح الله، فلتكن الجمعة جمعة في ذكر الله وتسبيحه:

---

(١) راجع البحار الجديد المجلد ٨٩ ص ٢٦٣ - ٢٨٦، فإن ما نقلناه متون الأحاديث مع زيادات شارحة.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾:

﴿يُسَبِّحُ﴾ لمضارعتها توحي باستمرارية التسبيح لله من كائنات الأرض والسماوات، والصفات الأربع هي كدعائم لهذا التسبيح الشامل:

فلأنه ﴿الْمَلِكِ﴾: يملك الكائنات مدبراً لها - يسبَّح، فما كل ملكٍ يسبح، إنما ﴿الْقُدُّوسِ﴾ الذي كله قداسة ونزاهة: ذاته وصفاته وأفعاله، ولا كل ملك قدوس يسبح، إنما ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره، فإن المغلوب على أمره قد يضطر لما لا يسبَّح وينزه، ولا كل ملك قدوس عزيز يسبح، فقد لا يكون حكيماً في ملكه وقدسه وعزته، وإنما ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: الذي هو حكيم في ملكه، حكيم في قدسه، حكيم في عزته، فهو الذي تسبحه الكائنات وتنزهه، ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، عن كل شين ورين، تسبحه طوعاً أو كرهاً، فإن الكائنات بما هي مخلوقة، إنها بألسنة الذوات والصفات تسبح خالقها من كل نقص وتفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾(١).

هذا الإله العظيم يبعث لخلقه رسولاً، ترى كيف يكون هذا الرسول وهو البقية الباقية من رسالات الله واللامتناهية من رحمات الله:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾:

ترى من هم الأميون هنا، والرسول منهم ومبعوث فيهم؟ أهم غير الذين أوتوا الكتاب من موحدين ومشركين وماديين، فالكتابي ليس محط الدعوة الإسلامية؟: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾(٢) وهؤلاء الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ومَن سواهم الذين لم يؤتوا الكتاب، هؤلاء وهؤلاء تشملهم الدعوة الإسلامية!: ﴿وَقُل

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾(١) استفهام تقرير لمن أسلم وإنكار على من لم يسلم، فلا تخص الرسالة الإسلامية هؤلاء الأميين!

أم هم العرب من أم القرى «مكة المكرمة» ولأنها سميت أم القرى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؟ ولكنهم اللبنة الأولى في بناية هذه الدعوة ومنطلقها إلى من حولها: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٢): الجنة والناس أجمعون، والمكلفون سواهم إن كانوا، فإن «القرى» جمع محلى بلام الاستغراق تستغرق كافة القرى والمجتمعات، فهي المكلفون أجمع، المحتفون حول العاصمة الرسالية الأم، مهما كانوا بعيدين مكاناً وإن في السماوات، فضلاً عن هذه المعمورة الصغيرة: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٣): من بلغه القرآن، إنساناً وغير إنسان، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٥) لا تختصه بالناس، وكما تدل ثنائية الخطابات في الرحمن، ثم و«من بلغ» تعمها وسائر من يبلغه.

فـ «الأميين» في آية الجمعة قد تعني المكلفين أجمع والرسول منهم، لأنهم أجمع أميون بالنسبة للقرآن قبل نزوله، كما الرسول كذلك: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾(٦) فقومه هم المرسل إليهم أجمع: طول العالم وعرضه! ثم وله خاصة وبأحرى لغيره: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾(٧) ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾(٨) ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٩).

إن الأمية - وهي النسبة إلى الأم - تعني الجهل واقعياً أو نسبياً، واقعياً

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٦) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٨) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٩) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

لمن يجهل كل شيء وحياً وسواه: أن ظل لا يعلم شيئاً كما ولد من أمه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[١] وهذه هي الأمية المحضة.

ثم النسبية فهي درجات: ممن درس علوماً غير كتابية، فإنه أُمي بالنسبة للوحي الكتابي مهما كان مثقفاً في سواه ولأعلى درجات الثقافة، فهو من الأميين وجاه الذين أوتوا الكتاب وإن لم يدرسوا ما درسه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾[٢].

ومَن أوتي الكتاب ولا يفهمه إلا أماني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[٣] فهو أمي في علم الكتاب رغم أنه كتابي.

ومَن أُوتي الكتاب وعلمه، ولكن لم يؤمن بالوحي الأخير «أم الكتاب: القرآن الكريم» فإنه أُمي بالنسبة لعلم القرآن مهما كان عبقرياً في سائر الوحي قبل القرآن، وفي سائر العلوم سوى الوحي، وهذه هي حالة المكلفين أجمع ومنهم الرسول الأمي، ومعه ملائكة الوحي وجبريل، حالتهم قبل وحي القرآن: إنهم كلهم أميون، الموحدون منهم والمشركون.

فالرسول محمد ﷺ أمي كسائر الأميين بالنسبة للقرآن قبل وحيه، إضافة إلى أنه لم يقرأ على أي مقرئ ولم يكتب عند أي كاتب قبل نزول القرآن، وإن كان موحداً يلهم بواسطة أفضل ملك من ملائكة الوحي ليلة ونهاره يرشده سبيل المكارم ويعلمه أحسن أخلاق العالم.

إنه أمي مبعوث في الأميين وهم كافة المكلفين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، في السماوات والأرضين: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾!

ولئن كان الأميون في آية الجمعة هم أهالي أم القرى، فهو رسول

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

فيهم، لا إليهم خاصة، وإنما «فيهم» وهو رسول العالم أجمع، لأنه ولد فيهم، وأنهم محط الدعوة الأولى ومنطلقها إلى العالم أجمع.

ثم وبعد أن نزل عليه القرآن زالت أميته وأصبح أقرأ القراء بما يقرأ أم الكتاب حافظاً له غير ناس، معلماً فيه للجنة والناس، ومن أكتب الكتاب، حيث الأمية هذه خاصة بما قبل نزول القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[١] وأما بعده فأنت تتلو وتخط بما أوحى الله[٢]!

كما وزالت الأمية ممن أرسل إليهم، كلٌّ حسب وعيه، فأهل القرآن درجات في علمه والإيمان به، كما أن غيرهم دركات في أميتهم علماً وإيماناً به.

فـ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾: في الذين أماتتهم الجهالة الجهلاء، وأرقدتهم عن النهوض بأعباء الحياة: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: العالمين أجمع، ولقد كانت أميته عن أي علم أكثر من بعضهم كتابة وقراءة: وحي الكتاب وسواه، اللهم إلا في معرفة الله وطاعته بإرشادٍ مباشر من ملك الوحي ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ في البشرية والأمية أم ماذا: ﴿يَتْلُوا۟...﴾:

ثم المهمة من هذه الرسالة السامية في المرسل إليهم ثلاثية هي: تلاوة آيات الله، وتَزْكيَتهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وكما في دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ﴾[٣]

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) بصائر الدرجات عن الإمام الصادق عليه السلام: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب وفي علل الشرائع عن الإمام الباقر عليه السلام لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً (نور الثقلين ٥: ٣٢٢) أقول: يعني بعد وحي القرآن.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩.

ولذلك يقول الرسول ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم» ولقد سمع الله دعوته في محمد واثني عشر إماماً من عترته كما في التوراة[١].

وهل تتقدم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في الأهمية، أو في واقع التربية؟ اختلاف الترتيب بينهما في الآيتين يوحي بعدم التقدم وهو الحق، فإنهما معاً يتساوران متعاونين في التربية الإسلامية، دون أن تكون لكلٍّ مدرسة على حدة، فالتزكية التي لا تحمل التعليم جاهلة دنسة، والتعليم الذي لا يحمل التزكية جاهل دنس، فرب عالم لا عقل له، فالإسلام لا يريد علماً بلا تزكٍ ولا تقوى بلا علم، فليس بإمكان المسلم أن يحلِّق على المثل العليا إلا بجناحي العلم الحكيم والتقوى، وكل منهما يساند الآخر، كلما ازداد العلم والحكمة بآيات الله ازداد التزكي كالعكس تماماً.

ثم التلاوة لا تعني القراءة اللفظية فحسب، فإنها من الرسول المعلم المزكي قول بليغ في الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٢] ولا يبلغ القولُ الأنفسَ إلا إذا خرج من حاق النفس، مازجاً فطرة القائل وفكرته وعقله وأعماله، وهذه هي التلاوة حقاً، وكما هي لغوياً: المتابعة: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[٣] تلاها: تبعها، فالرسول يتلو القرآن اتباعاً له في كافة المجالات، ويتلوه عليهم كما تلاه هو في نفسه، اتّباعاً له، وإتْباعاً لهم، وهكذا تلاوة له عليهم تجعلهم علماء حلماء حكماء أزكياء، إضافة إلى ما يعلّمهم ويزكيهم.

ثم تعليم الكتاب - القرآن - له درجات، لفظياً وتعبيرياً وفي إشاراته ولطائفه وحقائقه، على حد قول الإمام علي عليه السلام: «كتاب الله على أربعة

---

(١) سفر التكوين الفصل ١٧ - الآية ٢٠ - تجده بالنص العبراني في تفسير دعاء إبراهيم في البقرة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء» فقرينة الإشارة التي هي بعد المعنى تفسر العبارة، بالمعنى الأولي الحرفي للآيات، وقبله علم ألفاظها، وبعده الثلاثة الأخرى، الناتجة عن التأنق والتعمق والحكمة في نضد معانيها ونضج مواضيعها.

هكذا يعلمهم الكتاب، كلًّا حسب فهمه ووعيه، و«يعلمهم» كذلك «الحكمة»: في علم الكتاب، كيف يفسر بعضه ببعض، والحكمة في هذه المعاني الحكيمة من الكتاب، والحكمة العقلية، والحكمة العلمية، والحكمة الأخلاقية، والحكمة العملية، والحكمة النظرية، والحكمة عن كل فصل يفصل الإنسان عن الصواب.

إن الحكمة هي الوصل الحكيم: كيفية خاصة في وصل المفصول، توصل الإنسان إلى الغاية المطلوبة، فمجرد علم الكتاب، بألفاظه ومعاني آياته فرادى لا يغني، إلا بحكمة في ترتيب آياته، لكي تفسر بعضها بعضاً، وينطق بعضها على بعض، فإن الفوضى في تفسير الآيات، جهلاً عن ارتباطاتها، تخلق ارتباكات وتظهر تناقضات، وكما نراها من الكثير ممن لا حكمة له في تفسير الكتاب، فلا سبيل ناجحة في تفسير الكتاب إلا تمسكاً بالكتاب، بالحكمة التي علمنا الرسول ﷺ إياها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1] فمن الإفساد في الكتاب التمسك بغيره في تفسيره، من أهواء ضالة، وآراء فاسدة، وأقاويل مبعثرة، اللهم إلا الكتاب كأصل، وما روي عن حملة الكتاب كفرع إذا وافقه كما تواتر عن الرسول ﷺ: «لقد كثرت عليّ الكذابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فما جاءكم من حديث يوافق كتاب الله وسنتي فأنا قلته، وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله - وسنتي - فلم أقله».

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.

إن هذه الحكمة وسواها من الحكم هي كلها في القرآن، وقليل من يعرفونها فـ«ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال» اللهم إلا رجالات الوحي ومن يحذو حذوهم: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[1].

نرى الكتاب والحكمة مقرونين في عشرات من الآيات، مما تؤكد أن الكتاب المنفصل عن الحكمة فيه، أو الحكمة في تفسير معانيه، هذا الكتاب لا يكفي هدًى، بل وقد ينقلب ضلالاً ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2] والقرآن ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾[3] لكل فصل فيه تباب، وبعد الحكمة في تفهم الكتاب يأتي دور الحكمة في سواها مما يتوجب على المسلم في صالح الحياة، علمية وعملية وأخلاقية، سياسية واقتصادية، وكل ما تتطلبه الحياة الحكيمة السليمة كأفضل ما يمكن.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: في الحق ليست التزكية إلا من الله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[4] إلا أنه لا يزكي إلا من تزكى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[5] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ...﴾[6] ولكنما التزكية من الله والتزكي من المكلفين لا يكونان إلا بوسيط وهو رسول الوحي، إذ يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة فيزكيهم: تزكية للضمير والشعور، تزكية للعمل والسلوك من الأساطير الغامضة الحمقاء، إلى اليقين الواضح، ومن رجس الفوضى الأخلاقية إلى طهارة الإيمان السليم، تزكية للفرد والجماعة المسلمة سواء:

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: فإنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد، وهم من بعث فيهم وإليهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٦) سورة طه، الآية: ٧٦.

الرسول ﷺ من الأميين، لا ونفسه المقدسة، فإنه كان قبل القرآن مسترشداً بأعظم ملك من ملائكة الله، منذ كان فطيماً، إلى أن اهتدى بهدي القرآن.

فمهما كان ضلالهم مبيناً، كان هداه ﷺ مبيناً لحد سمي بمحمد الأمين، وإن كان ضالاً عن هدي القرآن قبل وحيه، ولكنه لم يكن ضلالاً عن أصل الحق، وإنما عن كمال الحق وتمامه، والأنبياء كلهم - على هداهم - كانوا ضالين عن وحي الكتاب قبل قضائه، فضلالهم هذا أهدى من هدى مَن سواهم، فإن كلاًّ درجات.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾:

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ الأميين ﴿ءَايَٰتِهِۦ...﴾ ويتلو على ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، كما ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بعثه ﷺ فيهم، وإن جاؤوا بعده، حيث البعثة ابتدأت به، ثم استمرت بحملة رسالته[1].

فمهما كانت تلاوته وتعليمه وتزكيته مدى حياته بنفسه القديسة، أصالة، وبوكلائه وكالة، فهذه المهمة الإسلامية الخالدة يحملها أولو الفضل والعلم بعده والى يوم القيامة الكبرى، دون وقفة عن هذه المسيرة الفاضلة، فمن حُمِّلها ولم يحملها فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً وأولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[2].

إن أئمة الدين - المعصومين - والعلماء الربانيين، هم - على درجاتهم - خلفاء الرسول ﷺ في هذه المهمة الثلاثية الإسلامية، فمن يتركها ولم يفعل ذلك يلق أثاماً، ويلاقي ربه مهاناً.

---

(١) فـ(آخرين) عطف على كلا (بعث) و(يتلو).

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لحوقاً في الأمية وفي التكليف كما هم، وفي الزمن وهم الجنة والناس أجمعون إلى يوم يبعثون ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يعرقل السير عن هذه المسيرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ في غَلَبه وفي إتقان هذا الكتاب والحكمة والتزكية لحد تشمل طول العالم وعرضه(١).

ومن ثم فهذه الرسالة السامية الخالدة من نسل إسماعيل أورثت ضغينة وشكيمة في إسرائيل الذين كانوا ينتظرون النبي الموعود، مؤولين بشاراته بنبيٍّ إسرائيلي، ظانين أن فضل الله يختصهم، لا يتخطاهم إلى سواهم، رغم أن الله تعالى أنذرهم في التوراة بزوال النبوة عن بيت إسرائيل، واستقراره في محمد الإسماعيلي، وقد كادوا له مكائد، وتربصوا به دوائر ومن مكائدهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾(٢):

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الرحمة التامة البعيدة الممتد والمدى ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾: كل فضله الممكن إيتاءه للخلق، فلم يقل «من فضل الله» حتى يفيد التبعيض، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وقد شاءه لمحمد وسائر الأميين ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على محمد ﷺ والمسلمين برسالته العالمية.

إنهم ظنوا متجاهلين، خلود النبوة في إسرائيل، وضنوا عن انتقالها إلى

(١) الدر المنثور ٦: ٢١٥ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: إن في أصلاب وأصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم قرأ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجُمُعَة: ٣] أقول هؤلاء من الآخرين وليسوا كلهم، فالأميون كما قلناه هم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، وإنما ذكرهم الرسول بغية ترغيب أصحابه.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

إسماعيل، كأنهم المقتسمون فضل الله، المختصون بأفضله لأنفسهم! وقد خاب أملهم كما خاب عملهم:

ففي التوراة (التكوين ٤٩ : ١٠) (لا تنهض عصا السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم).

والأنبياء الإسرائيليون كلهم من نسل يهودا، فليكن شيلوه غير إسرائيلي، فإن به تنهض عصى السلطنة من يهودا[١].

وفي (التثنية ١٨ : ٧) حسب الأصل العبراني (نابِيءْ آقيمْ لا هِم مِقِرِبْ إِحيحِم كموشِهْ وِناتّى دبِاري بِفيُو ويِدِبرْ إلوهيمْ إتْ كالْ أشِرْ أَصّونُو).

(نبيٌّ أُقيم لهم من أقرباء أخيهم وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به).

فـ (أخيهم) هم - حسب نص التوراة[٢] - بنو عيص أخو إسرائيل، وأقرباء بني عيص هم بنو إسماعيل، لمصاهرة بين عيص وإسماعيل، وقد بعث محمد ﷺ من بني إسماعيل، وكما تؤيده آيات أخرى[٣].

وقد صرحت باسمه الآية التوراتية التي تحمل إجابة دعوة إبراهيم في إسماعيل كما في الأصل العبراني.

(وُلِيشمَعيل شِمَعتيخَا هِينّه بِرَختي أُوتو وَهِيفْرتي أوتو وَهِيرْبتي أوتو بِمْئُدْ مِئْدْ شِنِم عَاسار نِسِيئِيم ونِتّيّوُا لِغُويَ غادُل).

(ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأُنمّيه وأُثمره كثيراً

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٢٣ - ٣٢ - ففيه تفاصيل الآيات الدالة على انتقال الشريعة من إسرائيل إلى غيره.
(٢) وأمر القوم وقل لهم انكم لحد إخوانكم بني عيص.. (تثنية ٢٨ : ٨).
(٣) راجع (رسول الإسلام) ٣٣ - ٤٠).

وأرفع مقامه كثيراً بمحمد ﷺ واثني عشر إماماً يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة)[١].

فما أحمق المحمَّلين التوراة، التاركين المؤولين لها، الماحقين بشاراتها، التاركين شريعتها:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

بنو إسرائيل هم ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: تكليفاً بهذه الأمانة الإلهية، حفظاً وعلماً وعملاً ونشراً ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ضيّعوا هذه الأمانة وخانوها إذ لم يحفظوها، حيث حرفوها ولا سيما بشاراتها بحق النبي الإسماعيلي، ولم يتعلموها، أو تجاهلوا عما علموا منها، ولم يعملوا بها ولا نشروها سليمة، وهذا تكذيب شامل بآيات الله وظلم فاحش بحقها.

فمثل هؤلاء الخونة الظالمين كمثل الحمار يحمل أسفاراً: كتباً سافرة ظاهرة مسفرة عن الحقائق دون ستار، كما أن كتب السماء كذلك كلها، ولكنه حمار سافر لا يفهم ماذا يحمل مهما كان سافراً ظاهراً، فلا يدرك مِن حَمل الأسفار إلا حملاً، وأما هم فكان بإمكانهم تفهُّم ما حُمِّلوه، وحمْله كما أُمروا، فهم أضلُّ سبيلاً من الحمار، ضلالاً عامداً عن تقصير، مهما كان ضلال الحمار عفوياً عن قصور، فالإنسان الحمار يحمل حِمل الأسفار على ظهره كزميله الحمار، والإنسان الإنسان يحملها في قلبه وقالبه وعمل الواقع، فأين حِمل من حِمل، وأين حمار من حمار؟! ومن ميزات هذا الحمار عن زميله أنه ذلول سلس القياد، لين الانقياد، يوصل حِمله إلى ذويه، والحمر الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، حرّفوها وخانوها شرسين شَمِسين، وغيَّروها كما اشتهوا، وشروا بها ثمناً قليلاً.

---

(١) المصدر ص ٤٠ - ٤٣.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أيّ قوم كانوا، هوداً أو نصارى أو مسلمين، وكلما كانت الآيات المحمّلة أعظم وأرقى، فتاركو حملها أظلم وأطغى، إذاً - فمثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه كمثل الحمار وأضلّ منه مضاعفات بمئات المئات، مدى أفضلية القرآن من التوراة، فليس مجرد الانتساب بكتاب وشريعة بالذي يفضل متنسبيه على غيرهم، اللهم إلا بحمله كما حُمِّلوا.

ومن ضلالات اليهود أنهم - على تكذيبهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وبغيهم وظلمهم كثيراً - كانوا ولا يزالون يزعمونهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: شعب الله المختار:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾:

إنها مباهلة بأهل بها الرسول ﷺ اليهود فنكلوا عنها خوف نكال الموت الذي بَعده العذاب، ولم يقبلوا التحدي فيها، كما نكل نصارى نجران، ويروى عن الرسول ﷺ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار» فلو لم تكن هذه مباهلة لتمنوا الموت ليكذبوا كلام الله: إنهم ليسوا من أولياء الله، ولكنهم ما فعلوا.

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾: لقد ذكروا بهذه الصيغة في آيات عشر، وسموا أنفسهم هوداً متفاخرين: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾[1] ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ﴾[2] وسمّوا أيضاً يهوداً: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾[3].

والهَود هو الميل، سمّوا أنفسهم هوداً إذ مالوا عن عبادة العجل إلى

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

الله، ولكنهم في الحق مائلون عن الله كما تشهد بذلك حياتهم، و﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ علّه تعريض لهم أنهم لو كانوا مائلين إلى الله فلماذا هذا الميل البعيد إلى غير الله؟ ومن خلاله تعريض أنهم في الحق مائلون عن الله لا إليه! وهكذا يُعنى من ﴿هَادُوٓاْ﴾ فيما يسميهم الله.

﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ فطالما يتقولون هذه القولة الجاهلة الجوفاء، لكنها لا تتخطى الزعم، وزعمهم كذلك داحض بهذه المباهلة التي هادوا عنها محيداً بعيداً.

﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: ولاية تخصهم دون سواهم، فهم أولياؤه وأبناؤه وشعبه المختار، فلو صحّت هذه المزعمة فلتحبوا لقاء الله، والانتقال إلى دار كرامة الله ورحمته عن هذه الفانية الزهيدة الظالمة الفاتكة!

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم هذا، تمنياً في أعماق الضمائر كمبدأ، وكبداية للحياة، إن كنتم صادقين في ولايتكم، فإن الموت سبب للقاء مولاكم!.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾:

لا يتمنون الموت أبداً، خوفاً مما فرط منهم من الطالحات، وما انفرط عنهم من الصالحات، وتنسب الأفعال إلى الأيدي لغلبة الأيدي عليها، وإن كان فيها ما يعمل بالقلب واللسان، وسواهما من جوارح الإنسان.

وهذه الأبدية المنفية عنهم هي من ملاحم الغيب القرآنية، فمن ناحية تثبت صدق القرآن، ومن ناحية أخرى كذب الذين هادوا في زعمهم المدعى، فلا وحسب أنهم لا يتمنون الموت، بل ومن أُمنياتهم البعيدة خلود الحياة لكي يزحزحهم عن العذاب: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ

وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾[١]، فهم أحرص الناس على حياة بئيسة تعيسة وأحرص من المشركين، فإنهم ناكرو الحياة الحساب، واليهود يقرُّون بها، فخوفهم من الموت أكثر من المشركين، فحرصهم على حياة أشد من المشركين! أية حياة كانت كما يوحي بها تنكير الحياة «حياة».

وطالما هم يفرُّون من الموت إلى الحياة، ولكن الموت لاقيهم لا محالة: فـ (كل امرىءٍ لاقٍ في فراره ما منه يفرّ، والأجل مساق النفس إليه، والهرب منه موافاته)[٢]:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾:

أنتم تفرُّون منه وهو راكض وراءكم، وهو أسرع ركضاً مهما أسرعتم فراراً ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ﴾ لقاءً مثلثاً: ثالثها الموت إلى الحياة البرزخية، ومن ثَمّ بَعد الموت، وبعد انقضاء الحياة البرزخية ﴿تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ غيب النيّات وغيب الطويّات ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ والكون كله له شهادة، لا يغيب عنه غائبة: تردُّون إلى الله مولاكم الحق ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ علماً وجزاءً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإنها لفتة لطيفة تلفت الفالتين عن الله أن مردّهم لا محالة إلى الله، فلا ملجأ إلا إليه، ولا مهرب عنه إلا إليه، حقيقة يتناساها الناس، فيتذكرها من سوى النسناس.

ثم لقاءان آخران أحدهما لزام كل أحد، فإن الإنسان - أياً كان - هو كل يوم في نقصان من الحياة، وزيادة من بواعث الموت، يلاقيه طول حياته، ولقاء

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٩٤-٩٦.

(٢) القمي في تفسيره عن أمير المؤمنين عليه السلام.

آخر هو موت الروح والضمير الإنساني، وهو لزام من يفرّ من الموت الثالث بما قدمت يداه، يفرّ من موت هو يعيشه طول حياته الشرّيرة[1]، والفرق بين الموتين أن أحدهما في عاجل التكليف، والآخر في آجل الجزاء.

وهل إن تمني الموت من صالحات التمنيات، فليعرِّض وليّ الله نفسه للموت بغية لقاء الله؟ وإلا فهو من أعداء الله! أقول: نعم وكلا!.

نعم: في الموت الذي يأتي ببواعثه الخارجة عن خيرة الإنسان بإذن الله، أجلاً محتوماً، أم معلقاً على ما ليس له فيه عمل ولا أمل، يتمناه المؤمن تمنياً للقاء الله، وكما يروى عن علي عليه السلام: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه» فهو يأنس الموت أُنسه بألذ الحياة فإن فيه لقاء الله، ولكنما الفاسق لا يتمنى هكذا موت، لأنه له لقاء عذاب الله!.

وكلا: في الموت الذي يأتيه باختياره إياه فالمؤمن لا يتمناه - اللهم إلا في الدفاع والجهاد في سبيل الله - إذ يأمل أن يسعى ويعمل من الصالحات أكثر مما مضى، حتى تزيده درجات، فيلاقي ربه عند موته بنفس مطمئنة راضية مرضية، داخلة في عباد الله وفي جنة الله. والفاسق لا يتمناه خوفاً من استعجال عذاب الله، أو رجاء أن يعمل صالحاً فيما ترك، ويترك ويجبر طالحاً فيما فعل، للفساق الذين يرجى رجوعهم إلى الله.

وأما الذين هادوا فلن يتمنوه أبداً، لا هذا ولا ذاك، وإنما يفرّون منه، معلقه ومحتومه، فراراً بما قدمت أيديهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾:

الآيات المسبقة بعمومها في تسبيح الله، وشمول الرسالة المحمدية،

---

(١) هذا التوسع مستفاد من ﴿مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ الدال بصيغة الفاعل على الاستمرار، لا (يلاقيكم) الدالة على المستقبل.

والتنديد بمن حُمِّل الشريعة ثم لم يحملها، إنها تقدمات وتنبيهات لفريضة الجمعة، إنها جامعة شاملة للمكلفين أجمَع من تواجد زمن الوحي، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، إلا المعذورين - إلى يوم الدين.

تبدأ الآية بخطاب شامل للذين آمنوا بهذه الرسالة - أجمع - اللهم إلا من لم يؤمن، فكيف يخاطب بما هو من فروع وملازمات الإيمان؟!.

وفي هذه البداية تنبيهات ثلاثة: «يا» «أيّ» «ها» ولينتبه المؤمنون في مثلث التنبيه مدى أهمية هذه الفريضة الإلهية.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هم المؤمنون كافة، وجاه الكافرين كافة، المؤمنون في كل عصر ومصر، طول العالم وعرضه، من الجِنة والناس أجمعين، ومن معهم من المكلفين، وإلى يوم الدين، فالسعي إلى فريضة الجمعة هو من لوازم الإيمان، وكما في خطبة لرسول الله ﷺ يوم الجمعة: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه بالجمعة: يوم الجمعة»[١].

كما وأن هذا الشمول هو من طبيعة الفرائض الإسلامية. فـ«حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»، ثم لا توجد أية حجة تختص فريضة الجمعة بالمؤمنين زمن حضور المعصومين، ولو كانت لضربت عرض الحائط لمخالفتها الكتاب والسنّة الثابتة، ومنها ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ أنه خطب لأول جمعة أقامها في المدينة المنورة فقال: «إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافاً بها، أو جحوداً لها، فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حج له، ألا ولا صيام له، ألا ولا برّ له، ألا

(١) بحار الأنوار ج ٨٩ ص ٢١١ نقلاً عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

ولا بركة له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه»[١]. ولم يُستثنَ - في مَن استثني - المؤمنون زمن غيبة الإمام المعصوم رغم استثناء المجنون والصغير اللذين لم يشملهما قلم التكليف[٢].

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾: فما هي الصلاة من يوم الجمعة والنداء لها؟ هل إنها صلاة غير فريضة الظهر أو الجمعة؟ ولا نعرف إسلامياً صلاة أخرى غيرهما يوم الجمعة، فهي إذاً بينهما، فهل هي الظهر؟ ولا يختص فرضها بيوم الجمعة، ولا يجب الاجتماع فيها بنداء أو غير نداء! إذاً فهي صلاة الجمعة، كل ذلك إضافة إلى الإجماع والضرورة أن آية الجمعة نزلت بشأن صلاة الجمعة، وكما يؤيده متواتر السنة من طريق الفريقين عن النبي ﷺ وعن آله الكرام عليهم السلام.

وأما النداء لها - فهل هي القول: (الصلاة)؟ وليست إلا لصلاة الأموات والعيدين! أو (إلى صلاة الجمعة)؟ ولا نعرف إسلامياً نداءً كهذه لصلاة الجمعة، ولم تسبق من أئمة الجمعات هكذا نداء!.

أو أنها إقامتها كما عن بعض المتفقهين المشترطين في وجوب الحضور

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣١٨، وسائل الشيعة ج ٣ ص ٧ ح ٢٨، وعوالي اللآلي عنه ﷺ مثله، والشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره عن جابر عنه ﷺ، ورواه الشهيد الثاني في رسالة الجمعة، وفي سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٣٣ باب فرض الجمعة.

وروى القطب الراوندي في لب الألباب أن النبي ﷺ خطب يوم الجمعة وقال فيها: واعلموا أن الله فرض عليكم الجمعة إلى يوم القيامة...

(٢) ففي الخصال وغيره بأصح الأسناد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنما فرض الله عزّ وجلّ من الجمعة إلى الجمعة خمساً وثلاثين صلاة فيها صلاة واحدة فرضها الله في جماعة وهي الجمعة ووضعها عن تسعة: عن الصغير والكبير والمجنون والمسافر والعبد والمرأة والمريض والأعمى ومن كان على رأس فرسخين - الحديث.

أقول: لو كان حضور المعصوم أو إذنه من شروط الجمعة لكان يذكر هنا، والحديث في مقام بيان كافة الشروط، ويؤكده ذكر الصغير والمجنون غير المكلفين، فالذي لا يحضر الجمعة لا يخلو حاله عن الصغر أو الكبر أو الجنون أو السفر أو أنه مملوك لغيره أو امرأة أو مريض أو أعمى أو هو على رأس فرسخين، ثم لا يوجد استثناء بعدها عن فرض الجمعة إطلاقاً.

لها إقامتها بشروطها؟ ثم يأتي دور البحث عن المقيم لها، هل هو المعصوم؟ أم والمأذون من قبله خاصاً؟ أم العدول القادرون على إلقاء الخطبتين؟ وكل هذه الترديدات في: المقيم لها، نابعة من مجهولية الفاعل ﴿إِذَا نُودِیَ﴾ فعلّه المعصومون لا سواهم، أو علّهم والمأذونون أم ماذا؟.

وهذه الاحتمالات المسلسلة غريبة في نوعها من الحلقة الأولى: ﴿إِذَا نُودِیَ﴾ أي: إذا أُقيمت! وليست إقامتها نداءً لها، وإنما هي تطبيق لفرضها، والنداء لشيء غير المنادى له بالضرورة، فهل تقام الجمعة نداءً لنفسها، تحصيلاً للحاصل! إضافة إلى أن شرط إقامتها لوجوب حضورها خلاف الضرورة: فإن الجمعة كانت منذ بزوغها واجبة دون هذا الشرط، قبل نزول الآية وبعدها، فكيف دخل زمن الغيبة فأصبحت الجمعة مشروطة بإقامتها بعد إطلاقها؟! إذاً فـ ﴿إِذَا﴾ هذه ليست شرطية ينتفي جزاؤها بانتفاء فعلها، إنما وقتية توحي بأن صلاتها يوم الجمعة تفرض عند الأذان، ولا صلاة هكذا إلا صلاة الجمعة.

ثم لو كانت هي إقامتها، فمجهولية المقيم لها في ﴿نُودِیَ﴾ تجهّل وتسفّه المترددين في: من يقيمها؟ فلو كانوا أشخاصاً خصوصاً لأشير إليهم، فالفعل المجهول هنا علامة الإطلاق، وأن المقيم لا شرط فيه، اللهم إلا الشرط العام لأئمة الجماعات: «العدالة» إضافة إلى الخاص بالجمعة: «القدرة على الخطبتين».

أقول: إنما النداء هنا كما في غيرها من الصلوات اليومية هي: الأذان، ولا نعرف إسلامياً نداءً للصلوات سواه إلا للعيدين والأموات، فهو نداءٌ حقاً، ولمكان الحيعلات الثلاث، التي تحيّي وتحرّض المسلمين لحضور الصلاة وإقامتها، وبالضرورة الإسلامية لم يعهد نداءٌ لصلاة الجمعة غير الأذان، وضرورة أخرى أن الأذان ليس شرطاً لوجوب الصلاة.

ولكي يخفق الكفار هذا الصوت المدوي العالي من على المآذن - كانوا ولا يزالون - يتخذونه هزواً ولعباً، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(١) وقد أطبق المفسرون على أنها الأذان، يتخذه الكفار هزواً ولعباً إهانة لها وللصلاة، ومهانة في تصميم المسلمين لها.

فآيتا النداء - إضافة إلى إجماع المفسرين والروايات - تدلاننا أن ليس النداء هنا إلا الأذان المؤذِن لوقت فريضة الجمعة عند الزوال، فهل إن الأذان شرط لوجوب السعي إلى صلاة الجمعة لمن يسمعه؟ أم الشرط هو واقع الأذان، وإن لم يسمعه، إذا علم بدخول الوقت؟ أم الشرط هنا ليس إلا دخول الوقت، وليس الأذان إلا إيذاناً له، سواء أكان بنية فريضة الجمعة أو سواها؟ فـ ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ لا يعني إلا حلول الوقت المعلوم بالأذان غالباً، إذ لم تكن الشواخص وقتئذٍ منصوبة في كل مكان، ولا أية وسيلة أخرى تؤذنهم بحلول الوقت إلا الأذان، والجاهل بالوقت لا يكلف بالفريضة الوقتية، ولا أظن فقيهاً يظن أن واقع الأذان أو سماعه أو نية كونه للجمعة، شرط لوجوبها، فلم يقل «إذا نودي لصلاة الجمعة» ولكي لا تختص النداء بها، نيةً أو هيئةً خاصة للنداء، وإنما نداء للصلاة، الكائنة يوم الجمعة: أذاناً للإيذان بدخول وقتها، وقد اتفق عليه الجمهور(٢) وإلا الشاذ منا.

فلا يعقل أن يفرض الله تعالى فريضة هامة كهذه، شرط خيرة المكلفين، فإن أذّنوا وجبت وإلا فلا! فضلاً عن نية الجمعة في الأذان، فكيف يعرفها السامعون؟!.

ثم المؤمنون المخاطبون بالسعي هم الأئمة والمأمومون أجمع، فـ ﴿إِذَا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٨.

(٢) فتح الباري ٣: ٣٦ - وقال عطاء: إذا كنت في قرية جامعة فنودي للصلاة من يوم الجمعة فحق عليك أن تشهدها، سمعت النداء أو لم تسمعه، وقال: وبهذا صرح أحمد ونقل النووي أنه لا خلاف فيه.

نُودِىَ﴾: أُذِّن: دخل الوقت، فليسعَ الأئمة لإقامة الجمعة، وليسعَ الباقون لحضورها؟ فعلى الأئمة جمع المأمومين ورعايتهم في أداء فرض الجمعة، كما عن النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيَّته...»(١).

فليس وجوب الجمعة مشروطاً بأيٍّ من شروط: إقامتها، أو نداء خاص لها، ولا الأذان ولا الاجتماع، وإنما بدخول وقتها، فيجب السعي إليها على المؤمنين أجمع - أئمة ومأمومين - إلا المعذورين كما يأتي.

فهنا نداءان لفريضة الجمعة، إلهيٌّ هو نداء الله، وبشريٌّ هو الأذان للتحريض لها والإيذان بدخول وقتها، ومن أسخف الأقاويل إناطة الفرض في الأولى بالثانية، أصالةَ نداء المؤمنين وفرعية نداء الله!.

فواجب السعي إلى فريضة الجمعة - إقامة وحضوراً - لا يُناط إلا بحلول وقتها:

ولماذا لم يقل «إذا نودي لصلاة الجمعة»؟ إذ ليست لها نداء خاص!

ولماذا لم يقل «للصلاة في يوم الجمعة»؟ لأن «يوم» ظرف يفيد ما تفيده «في»! ولكن «من» هنا، لها موقعها:

فهل إنها تبعيضية، أو بيانية، أو نشوية، أو اختصاصية؟.. ثم الظرف: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ هل هو مستقر يتعلق بـ ﴿نُودِىَ﴾ أم لغو بـ «كائن» المقدر؟ احتمالات تتحملها الآية، إلا ما تجعل الصلاة بعضاً ليوم الجمعة،

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٣: ٣١ - عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته).

ولا تباعض بين الفعل والزمان! أو ما تختص النداء بصلاة الجمعة، ولا نداء يختصها!.

ثم بقية الاحتمالات تحرِّر النداء إلا عن كونها أذاناً كائناً يوم الجمعة، وتحرر صلاتها إلا أن تكون بنية الجمعة ولها كالتالي:

«إذا نودي للصلاة - نداءً بعض يوم الجمعة: ظهراً، لا كل نداء لصلواتها كلها، أو نداءً يوم الجمعة: أن تكون «من» بياناً لموقع النداء، أو نداء ناشئة يوم الجمعة، للصلاة الكائنة للجمعة، الناشئة للجمعة».

نداءٌ محررة إلا عن وقتها الخاص «ظهر الجمعة»، وصلاة محررة إلا عن كونها صلاة الجمعة.

إذاً فلا صلاة ظهراً يوم الجمعة إلا صلاة الجمعة، هي ركعتان بعد خطبتين مع شرائطها، وهي هي أربع ركعات كصلاة الظهر لولا الشرائط أو إمكانيتها، يجهر في الأوليين كما في ركعتي الجمعة، بنيّة الجمعة لا الظهر، وكما في المعتبرة المستفيضة(١).

إذاً فالنداء: الأذان - الكائن ظهر الجمعة، هي نداء لصلاة الجمعة على أية حال، نويت أم لا، نودي لها بغير الأذان أم لا، إلا أن السعي إلى ذكر الله فيها، والاجتماع فيه، ليس إلا عند اجتماع الشرائط: عدداً ومسافة، وعدالة للإمام، وقدرة على إلقاء الخطبة، ثم ما دونها هراءٌ مختلق كاشتراط حضور المعصوم أو إذنه الخاص، فلا أثر له إسلامياً عندنا.

وعند فقد الشرائط أو بعضها فأربع ركعات، بنيّة الجمعة أيضاً كما سبق.

---

(١) منها موثقة سماعة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصلاة يوم الجمعة، فقال: أما مع الإمام فركعتان، وأما من يصلي وحده فهي أربع ركعات بمنزلة الظهر (وسائل الشيعة ج ٣ ص ١٣ - ١٤) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: فما هو السعي هنا؟ وما هو ذكر الله؟.

السعي هو عدْوٌ دون شدٍّ، وعمل مقصود مهتم به، وهو العمل الذي يؤتى به على همامة وعناية، سواء أكان في إصلاح: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾[1] أو كان في خراب: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾[2] أي: المساجد.

فالسعي إلى الجمعة - خطبة وصلاة، إقامة وحضوراً - هو القصد والعناية الخاصة لها، دون أن يشغل الإنسانَ عنها أيّ شاغل دنيوي أو أخروي، أن يعدّ لها عدتها، فيستعد، دون إهمال ولا إمهال، فتكون هي بين أشغاله كلها أصلاً يقصد، فيسعى في إزالة الموانع عنها، وفي كمال الاستعداد لها، فلا يسافر يومها[3]، ولا يتعب نفسه بما يضعفها عنها، بشرب دواء أو صوم أو حجامة[4] أو سواها، ولا يشغلها بما يؤجلها، بل يعجل فيها قاصداً لها بهمام بالغ، وقلب فارغ عن سواها.

والسعي إلى الجمعة درجات، كما التكاسل عنها دركات، فلكلٍّ سعيٌ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٣) ففي المغني ج ٢ ص ٣٦٢ عن النبي ﷺ: من سافر من دار إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة لا يصحب في سفره ولا يعان على حاجته، وفي وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٧٣١ والمستدرك بـ ٤٤ من صلاة يوم الجمعة مثله.

وفي نهج البلاغة من كتاب له عليه السلام للحارث الهمداني: لا تسافر يوم الجمعة حتى تشهد الصلاة، إلا ناضلاً في سبيل الله أو في أمر تعذر به (ج ٣ ص ١٤٣)، راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة) ص ١٢٥ - ١٢٨.

(٤) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٤٧ عن علي عليه السلام: لا يشرب أحدكم الدواء يوم الخميس، فقيل يا أمير المؤمنين! ولم ذلك؟ قال: لئلا يضعف عن إتيان الجمعة.

ونهى النبي ﷺ عن صوم يوم الجمعة (صحيح البخاري صوم ٦٣ - مسلم صيام ١٤٥ - ١٤٦، سنن ابن ماجة صيام ٣٧، الترمذي صوم ٣٩) وكذلك نهى عن الحلق قبل صلاة الجمعة (سنن أبي داود صلاة ٢١٤ - ابن ماجة إقامة ٩٦)، وعنه ﷺ: (اجتنبوا الحجامة يوم الجمعة) (سنن ابن ماجة طب ٢٢).

لها حسب ظروفه ومكانه وزمانه وإمكانه، وقد يحسب الإعداد لها قبل يومها، كما وأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يتجهزون للجمعة يوم الخميس لأنه يوم مضيق على المسلمين[١]، وقد لا يجب إلا وقتها كمن حضرها، أم هو جارٌ لها قريباً إياها.

فواجب السعي تأكيد لوجوب الجمعة، وتحصيل مقدماتها، وإزالة موانعها دون اختصاص بالعدو أو الركض إليها.

ثم السعي هنا - كما أسلفناه - لا يخص المأمومين أن يحضروها، بل يعمّ كافة المؤمنين غير المعذورين، أئمة ومأمومين، فعلى كلٍّ أن يسعى سعيه، فالإمام يحضِّر حاله لإقامتها، ويحرِّض المؤمنين لحضورها، والمأموم يستعد لحضورها، ويعدّ غيره لها، فتحصيل العدد (خمسة أو سبعة) هو أيضاً داخل في نطاق السعي، كما وأن تحريض مَن سوى العدد واجبٌ ثان.

فعلى الأئمة والمأمومين التواصي بحق صلاة الجمعة، فلو تكاسل الإمام عنها، وجب على المأمومين السعي في دفعه إليها، ولو تكاسل واجب العدد من المأمومين أو الزائد عليه، فعلى الإمام السعي في دفعهم إليها، تعاوناً في هذا البر العظيم والتقوى الهامة من المؤمنين أجمع.

وما يزعم دلالته على اشتراط حضور المعصوم بين ضعيف مخالف للكتاب والسنة المتواترة، التي أنهيت إلى مائتي حديث[٢] وبين ما لا يدلُّ

---

(١) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٤٦ عن الإمام الباقر عليه السلام: (والله لقد بلغني أن أصحاب النبي ﷺ . . .).

(٢) المولى محمد تقي المجلسي والد صاحب البحار في رسالة الجمعة: (فصار مجموع الأخبار الدالة على الوجوب مائتي حديث، والذي يدل على الوجوب بصريحه من الصحاح والحسان والموثقات وغيرها أربعون حديثاً، والذي يدل على المشروعية في الجملة تسعون حديثاً، والذي يدل بعمومه على وجوب الجمعة وفضلها عشرون حديثاً، والذي يدل على عدم اشتراط الإذن بظاهره ستة عشر حديثاً.

عليه أبداً[١] ويعترف الفقهاء غير القائلين بالوجوب التعييني بقطعية دلالة الكتاب والسنة عليه، وإنما ذهبوا إلى التخيير جمعاً بينهما وبين الإجماعات المنقولة، وهذا غريب من نوعه، فإنه خروج عن الكتاب والسنة وعن الإجماعات المزعومة[٢].

﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: وهل إنه ركعتا الجمعة فحسب؟ لأن الصلاة أفضل الذكر، والنداء هي (للصلاة من يوم الجمعة)؟ فواجب الحضور هو حضور الصلاة دون الخطبتين! كلا، فإن الخطبتين من الصلاة، فـ«إنما جعلت ركعتين لمكان الخطبتين»! وذكر الله أعمّ من الصلاة، فقد ذكرت الصلاة بلفظها فيما عنيت بخصوصها: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا (فإذا قضي ذكر الله) ولأن القيام ليس من شرط الصلاة كلها، والآية تندّد بالذين تركوا الرسول قائماً - لا مصلياً -: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ وليس المحظور ترك الصلاة والإمام قائم فيها، بل فيها

(١) منها ما يروى عنهم عليه السلام: (لنا الخمس ولنا الأنفال ولنا الجمعة ولنا صفو المال) وقد جمع فيها ضعف السند والدلالة، فلو أن (لنا) تختص الجمعة بهم، فالخمس إذاً خاص بهم أيضاً، فهل يلتزم به هؤلاء الناكرون لوجوب الجمعة زمن الغيبة؟.

ثم وما يذكر فيه الإمام يعني به إمام الجمعة لا الإمام المعصوم، ففي صحيحة زرارة (قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: على من تجب الجمعة؟ قال: تجب على سبعة نفر من المسلمين، ولا جمعة لأقل من خمسة أحدهم الإمام، فإذا اجتمع سبعة ولم يخافوا أمهم بعضهم وخطبهم) (الوسائل ج ٣ ص ٨ ح ٤)، فقد أهمل البعض الذي يؤمهم هنا تدليلاً على عدم اشتراط العصمة، وكما في صحيحة فضل بن عبد الملك قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (إذا كان قوم في قرية صلوا الجمعة أربع ركعات فإن كان من يخطب لهم جمعوا إذا كانوا خمس نفرات) (المصدر ص ٨ ح ٦).

(٢) كما في الجواهر أن أحداً لا يشك في دلالة الكتاب والسنة القطعية على وجوب الجمعة، وإنما الذي يحملنا على القول بالتخيير وجود الإجماعات المنقولة على حرمتها زمن الغيبة، والجمع بينهما يقضي بالتخيير بينها وبين الظهر.

أقول: وهذا رفض للكتاب والسنة والإجماعات جميعاً، مع أن معارضة الإجماع - ولا سيما المنقول منه - لدليل الكتاب والسنة، هذا أمر غريب!.

كلها، فليس القيام هنا إلا في الفرض الذي يجب فيه القيام كله وهو الخطبتان، فليكن ذكر الله هنا شاملاً للخطبتين.

وليس المعني من ذكر الله هنا خصوص الخطبتين، لأنه يعمهما والصلاة، وهي أهمه، ولأن الأمر بالسعي لو كان يخصهما لانتهى الفرض بانتهائهما، والآية المحددة لانتهائه تنهيه بانقضاء الصلاة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾!.

فالصلاة أولاً ﴿لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ وهي أخيراً ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ تعني مجموع الخطبتين والركعتين، كما وذكر الله في هذا البين تشملهما جميعاً، وهو إجماع المفسرين والروايات، فقد ذكر ذكر الله بين الصلاتين مع واجب القيام فيه للتدليل على أن خطبتي الجمعة من صلاتها، وقد يجب فيهما كثير مما يجب فيها، كوجوب السكوت في الخطبتين، ويوحي به ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فما فائدة السعي إلى الخطبتين من دون إصغاء، ويؤيده مستفيض الأحاديث[١].

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾: وهل البيع هنا يعني المعاملة الخاصة، فهي المحرمة وقت النداء والصلاة لا سواها؟ فلو اشترى، أو آجر واستأجر، أو رهن وارتهن لم يفعل محظوراً؟! ونحن نعلم بيقين أن النهي عن البيع هنا ليس إلا لمنافاته فريضة الجمعة، وهذا يعم كلّ مناف فعلاً أو تركاً، بيعاً أم سواه.

أو أن البيع رمز إلى كل ما يشغل عن الفريضة، وإنما ذكر كأهم ما يُرام

---

(١) ففي حديث المناهي عن النبي ﷺ أنه نهى عن الكلام يوم الجمعة والامام يخطب، فمن فعل ذلك لغى ومن لغى فلا جمعة له (الوسائل ج ٣ ب ١٤).

وفي الفقه الرضوي قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا كلام والامام يخطب، ولا التفات إلا كما يحل في الصلاة، وإنما جعلت الجمعة ركعتين من أجل الخطبتين جعلتا مكان الركعتين الأخيرتين فهي صلاة حتى ينزل الإمام (المصدر) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة) ص ١٠١ - ١٠٧.

من الأشغال الدنيوية، فغيرها أحرى بالمنع، وإن كانت من الأمور الأخروية وأحرى، إذ لا دافع لها إذ تُمانع فرضاً أهم منها، اللهم إذا كانت أهم منها كحفظ النفس والناموس والدين، فالمؤمن المأمور مؤكداً بصلاة الجمعة، المنهي عن أهم مهامه الدنيوية، أحرى له دينياً ألا ينشغل عنها بسائر الأمور حتى الأخروية التي هي أدنى منها إن كانت مضيقة، أم تساويها أو هي أهم منها إن كانت موسعة، فالوقت خاص بالجمعة لا تعدوها إلى سواها.

فهنا دلالتان على حرمة ما سوى الجمعة: الأمر بالسعي إليها، والنهي عما يمانعها، فلا تجوز - إذاً - صلاة الظهر والجمعة مقامةٌ، أو يمكن إقامتها على شروطها، ولا سائر الفرائض، ولا تركها إلى بدل أو لا إلى بدل، فالذي يصلي الظهر مقارنة الجمعة، وهو على بُعدٍ منها أقل من فرسخين، وهو على علم من إقامتها، وهو لا يرى الإمام فاسقاً بسند مقبول شرعاً، كانت صلاته باطلة، اللهم إلا المعذورين.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: وهل يعني الخير هنا الأفضل، أن صلاة الجمعة خير من تركها، أو خير من اللهو ومن التجارة؟ ولا فضل في اللهو حتى تكون الجمعة أفضل منها! وليس «خير» أفعل التفضيل دائماً: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾[1] فلا خير في مشرك، إلا الشر و﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[2] ولا خير في هكذا صدقة، هذا، رغم وجود «من» هنا فيهما، الدالة بطبعها على أفضلية ما قبلها، فضلاً عن خير الجمعة هنا، الخالي عن «من» التفضيل، ثم و«من» في: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أيضاً لا تثبت أفضلية الجمعة على اللهو والتجارة، لمكان اللهو الذي لا فضل فيه بل هو حرام، ولأن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

﴿خَيْرٌ﴾ وإن عديت بـ «من» ليست ظاهرة في التفضيل، اللهم إلا إقناعياً وادعائياً، أن لو كان غير الجمعة خيراً فهي أفضل منه.

إذاً فلا مقابل لهذا الخير إلا الشر، بل التقابل بينهما دائماً مما تعنيه اللغة، فليس الخير موضوعاً للتفضيل، فاستعماله فيه مجاز إطلاقاً، ولو كان فهنا مستثنى لوجود اللهو الذي لا خير فيه، وهو شر كله.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾:

إذا قضيت الجمعة بخطبتيها اللتين هما منها، رجع ما كان يمانعها إلى حكمه قبلها، إن واجباً أو مستحباً أو مباحاً، فالأمر بالانتشار لا يعني وجوب الانتشار، وإنما رفع الحظر عن ابتغاء فضل الله بعدها، ثم تُتبع الأحكام السابقة على الجمعة، فعُطلة الجمعة ليست من الواجبات، وإنما قدر من وقتها تشغله الجمعة بمقدماتها ومتطلباتها، ثم ليأخذ المؤمنون حرياتهم في ابتغاء فضل الله، أياً كان من مبتغيات الحياة، وليذكروا الله كثيراً بعد الانتشار، كاستمرار لذكر الله في فريضة الجمعة، فحري بالجمعة أن تعيشها بذكر الله وإن كنت في شغل دنيوي بعد الانتشار ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الحصول على فضل الله، وتُفلجون من يصدكم عنه.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾:

تنديد شديد بهؤلاء الذين كانوا ينشغلون عن فريضة الجمعة بتجارة، وإن كانت تربحهم دنيوياً، ولكنها تخسرهم بترك الجمعة، وأضل منهم هؤلاء الذين ينشغلون عنها بلهو لا يربحهم ولا دنيوياً وإنما خيالياً وشهوانياً، فقد منعوا عن التجارة وهي من العبادات لولا الجمعة، فكيف باللهو وهو من المحرّمات، ولولا الجمعة ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾: الذي تخلفه فريضة الجمعة

﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ﴾ الذي لا خير فيه وكله شرٌّ، ﴿وَمِنَ التِّجَرَةِ﴾ وإن كان فيها خير ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ وليس هو اللهو، وليست هي التجارة.

هناك تتقدم التجارة لتقدُّمها على اللهو فيما يبتغيه الإنسان لصالح حياته، وهنا تتأخر، لكي تثبت أن ما عند الله خير، وحتى من التجارة، لا من اللهو فقط.

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، ويمتاز عن سائر المناهج، توازناً بين متطلبات الحياة الأرضية، الجسدانية، وما يتوجب من الحياة الروحية السماوية، متداخلين مع بعض، ومتآزرين مع بعض، أو متلاحقين، فذكر الله واجب أثناء ابتغاء المعاش، ثم هناك ذكر آخر متحلل متجرد عن المعاش: صلاة الجمعة وسائر الصلوات.

إن أحاديث الحث على الجمعة تجعلها قمة في الفرائض وكما استوحيناها من آيات الجمعة، ولحدّ فُرضت قراءة سورة الجمعة في الركعة الأولى، حثاً على فرضها، وسورة المنافقين في الثانية تنديداً بتاركها: إن عليه وصمة وطبعة النفاق[1]، وكما عن باقر العلوم عليه السلام: «من ترك الجمعة ثلاث جمع متوالية طبع الله على قلبه»[2]، وليس ترك الجمعة بين الشيعة،

(١) مستدرك الوسائل ج ١ ص ٤٠٧ عن الشيخ الفقيه أبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي في كتاب العروس عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام، وفي الكافي والتهذيب عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن الله أكرم المؤمنين بالجمعة فسنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشارة لهم وتوبيخاً للمنافقين، ولا ينبغي تركها متعمداً، فمن تركها متعمداً فلا صلاة له).
وفي الدر المنثور ٦: ٢٢٢ - أخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين. وهنا أحاديث عدة تدل على وجوبهما في صلاة الجمعة، كما في الكافي قال أبو عبد الله عليه السلام: من صلى الجمعة بغير الجمعة والمنافقين أعاد الصلاة في سفر أو حضر، وعنه عليه السلام: من لم يقرأ في الجمعة الجمعة والمنافقين فلا جمعة له.

(٢) وسائل الشيعة ج ٣ ب ٤ صلاة الجمعة، ومثله أحاديث كثيرة كما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: من ترك الجمعة ثلاثاً متتابعة لغير علة كتب منافقاً (المستدرك ج ١ ص ٤٠٧).

وذهاب جماعة من المتأخرين إلى التخيير بينها وبين الظهر، ليس ذلك مسنوداً إلى أي دليل شرعي، اللهم إلا التقية في تركها، وقد تسرّبت التقية فعلاً إلى الفتاوى، فأصبحت كأنها ليست فريضة تعيينية! رغم النصوص القاطعة من الكتاب والسنة عليها، وما شرطُ حضور الإمام إلا خيالاً خيّل إلى جماعة، لا نجده في نصوص الجمعة إطلاقاً، ولفظة الإمام في البعض منها لا تعني إلا إمام الجمعة كما في غيرها من الصلوات، أو يشترطوا حضور المعصوم في صلاة الجماعة إطلاقاً! على سواء، فإن الإمام فيها على سواء، إضافة إلى صراحة الكثير من النصوص أن ليس المقصودُ من الإمامِ المعصومَ، والأحكام الإسلامية تعمّ المسلمين أجمع إلى يوم القيامة دون نسخ أو اختصاص بجماعة أو شروط، إلا عامة لهم.

فلعمر الله لا نجد مبرراً لهؤلاء الذين يتركون الجمعة ولا تقية فيها، أو يفتون بعدم فرضها التعييني سناداً إلى ما يزعمون من إجماعات منقولة، ولو كان لها أصل فهي معارضة للكتاب والسنة! وقد أطبق الفقهاء والمحدثون القدامي على وجوبها التعييني، إلا من يشذ عنهم غالباً كالسلّار، وأفتى به كثير من متأخريهم[1].

إن الجمعة تضاهي الحج في أنها مؤتمر إسلامي ثان: أسبوعي - يدفع المسلمين للاجتماع في مؤتمرهم السنوي: الحج، فهي الصلاة الجامعة التي تعني صِلاتٍ بين مختلف الطبقات ممن آمنوا بالرسالة الإسلامية، فلا تصح إلا جماعة، فهي ذات دلالة منقطعة النظير، على طبيعة العقيدة الإسلامية.

فليست أهميتها - إذاً - لأنها صلاة كسائر الصلوات، وهي تنقص عن أكثرها ركعتان! وإنما لخطبتيها الهامتين التوجيهيتين السياسيتين، اللتين توطدان أركان الدولة الإسلامية، وتوجّهان الأمة إلى ما يتوجب عليهم كسادة العباد، وقادة البلاد، وأُمناء الرحمن وأركان الرشاد والسداد.

---

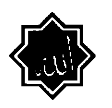
(١) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

فإمام الجمعة يمتاز عن سائر الأئمة بميزات معرفية وعقائدية وأخلاقية، ومن حيث بلاغة الكلام وفصاحته، وأن يكون شجاعاً صارماً صامداً قوياً في دين الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، وخبيراً عارفاً مطّلعاً متضلعاً فيما جرى ويجري للمسلمين وعليهم.

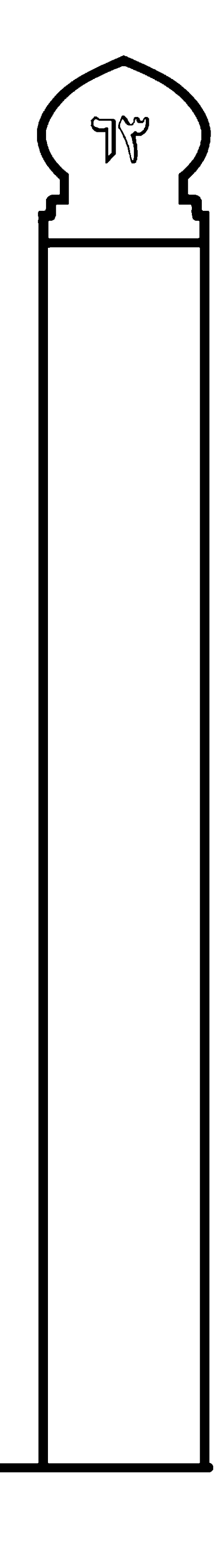
ذلك الإمام الخطيب دون الموظفين ووعّاظ السلاطين، الذين يستغلون هذه الفريضة الإلهية لتوطيد أركان عروش الظالمين المستبدّين، المسيطرين على الشعوب بالسيف والنار.

ودون الخطباء الضعفاء الذين يحسبون الجمعة اجتماعاً للبكاء والدعاء، رغم أنها للبكاء على حالة المسلمين المتخلفة، ولإبكاء من يتدخل في شؤونهم مستعمراً لهم ومستحمراً إياهم.

فلبس البرد وشبه الأكفان لخطيب الجمعة رمزٌ للاستماتة في سبيل الله ودحر الشياطين، كما الاتكاء على سيف أو قوس، أو سلاح اليوم، رمز لإماتة الأعداء، كما ويجب على كل مسلم أن يعيش مميتاً مستميتاً، ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى[١].



(١) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).



سُورَةُ المنَافِقُونَ



مدنية - وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

سورة تحمل اسم المنافقين ثم وصماتهم وسماتهم، كما أن سورة أخرى تحمل اسم المؤمنين، ثم لا تحمل ثالثة اسم المسلمين، ولأنهم بين مؤمنين - بمختلف درجاتهم - ومنافقين - بشتات دركاتهم - فالمسلم إما منافق: ينافق ويناقض باطنُه ظاهرَه، أو مؤمن يوافق باطنُه ظاهرَه، هذا يعيش وفاقاً وذاك نفاقاً، فأين منافق من موافق؟.

فالمنافقون يندد بهم في مئات الآيات القرآنية بمعاصيهم وأخطارهم ومكائدهم ومآسيهم ضد الإسلام والمسلمين، منها سبع وثلاثون آية، مصرِّحة بنفاقهم، أكثرها في ثلاث عشرة سورة[١] تكر عليهم كرات عنيفة بتكرار مخازيهم والفتن التي أقاموها ضد الرسول ﷺ والرسالة الإسلامية، وتحذِّر المؤمنين عنهم أكثر من سائر الكفار والمشركين، إذ كانوا عملاء وهمزات وصل بين مختلف الفئات الكافرة، ولحدّ تحصر العداء فيهم «هم العدو» كما هنا، وتخلدهم في الدرك الأسفل من النار في غيرها.

فقد انسلّوا من الجند الإسلامي يوم أُحد، التحاقاً بعدوهم، وتوهيناً لعزمهم، وعقدوا أحلافاً مع اليهود استنهاضاً على المسلمين، وبنوا مسجد ضرار تفريقاً بينهم وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، واختلقوا وأشاعوا حديث الإفك، وأثاروا الفتنة في قصة السقاية والعقبة، وأرجفوا المدينة ضد الرسول والمؤمنين، وإلى غير ذلك من تحركاتهم المنافقة ضد الرسالة

(١) وهي سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، الحشر، التحريم، المنافقون.

الإسلامية، فهم كانوا أُصلاء في هذه المؤامرات من جهة، وعملاء من أُخرى، قاتلهم الله فأنى يؤفكون.

إن كفار مكة لم يكونوا لينافقوا الرسول ﷺ إذ لم يكن المسلمون فيها من القوة بحيث يُرهبون، فيُتملَّق لهم في الظاهر، فإنما كانوا يناوئونهم جهاراً، ويقاومون الدعوة بكل ما لديهم من طاقات دونما تحرز أو تحفظ، وأما في المدينة فقد كان للنبي أنصارٌ أقوياء إضافة إلى من هاجر من المؤمنين الأصفياء، فلم يكن - إذاً - من الهيِّن أن يقف البقية الباقية من الكفار، في وجه الدعوة، إلا بألوان النفاق والمكيدة - وكما هي شأن التغلب وجاه الأسد - لذلك تجد آيات المنافقين مدنية كلها، إلا ما يلمح للنفاق بمعنىً أوسع.

ولكي يكيدوا الرسول ﷺ والمؤمنين، ويشاركوهم فيما يدر عليهم الإسلام ويحذروا عما يتحذّرون، كانوا إذا جاؤوا الرسول ﷺ يشهدون بأنه رسول الله ﷺ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

شهادة السر والعلن وهي أثبت لهم من العلم «نعلم أنك لرسول الله ﷺ» فإن المنافق يعلم الرسالة وينكرها وقولة الشهادة منهم تعني أننا لسنا بمنافقين: أن نعلم الحق ثم نخالفه، ومما يشهد لميزة الشهادة هذه اتخاذ أيمانهم جُنة، إذ كانوا يُرمون بالنفاق.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾:

فإنه الذي بعثك برسالته فعلمه بها كاف لك كرسول، وإن كان الله يشهد لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة السامية، بمختلف الشهادات القاطعة، فما لك وشهادتهم الزور والغرور.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾:

يخفون ما لا يبدون، ويبدون ما لا يخفون، فعلمه تعالى في نفسه بكذبهم لا يكفي تكذيباً لهم، وإنما يشهد، وكما في آيات تفضحهم، فهم حذرون دائماً أن تنزل آية أو سورة تنبئهم بما في قلوبهم، وهذه هي الحكمة الموسِّطة للعلم بين الشهادتين: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ...﴾[1] ولعلها هذه السورة «المنافقون».

فالقول الكذب هو المخالف المنافق، إما للواقع، أو للعقيدة، أو لهما، ثالوث الكذب والنفاق وجاه الصدق والوفاق، فمن صدقٍ مطلق وهو الموافق لهما، ومن كذب مطلق يخالفهما، ومن صدق من جهة وكذب من أخرى، فالمقالة الموافقة للواقع، المنافقة للعقيدة، وإن كانت صدقاً وجاه الواقع، ولكنها كذب لمنافقة العقيدة، وهي من أخطر الكذب: كذب المنافقين، والمقالة المنافقة للواقع، الموافقة للعقيدة، إنها دونها في الخطر، سواء من الكافر الذي يشهد بعقيدته الكافرة، أو المؤمن الخاطئ الذي يشهد بما يؤمن به ولكنه خلاف الواقع، وإن كان بين الكاذبين بون، كذبٌ كافر عامد، وكذب مؤمن غير عامد، فأحرى أن يسمى هذا جهلاً لا كذباً.

فالقولة غير الموافقة لواقعي العقيدة والحقيقة معاً، وأنها قولة منافقة كاذبة تماماً، والموافقة لهما صادقة تماماً، ثم بينهما متوسطات، وإن كانت المنافقة للعقيدة، الموافقة للواقع أخطرها مسّاً من كرامة الحقيقة.

فموقع الجملة المعترضة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ هو الحفاظ على صدق شهادة المنافقين وجاه الواقع، فشهادته ثانية بكذبهم المؤكد بأداته: «إن.. لـ» لتثبت كذبهم بالنسبة لواقع العقيدة، لا واقع الحق.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

وهكذا يكون دور المنافقين في كذبهم أنه أخطره إذ يغرُّ غير النابهين.

ولأن المؤمن ينظر بنور الله فلا يصدِّق قولة الزور المنافقة، لذلك يتشبث المنافقون بأيمانهم المغلظة علَّهم يصدَّقون فعن سبيل الله يصدون، نفاقاً على نفاق وكذباً على كذب:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾﴾:

توحي الجُنة أن نفاقهم كان يظهر أحياناً من صفحات الوجه وفلتات اللسان أو بما يظهر الله - نبيه والمؤمنين - عليه، فيضطرون إلى جُنة: ترس - يدافعون بها عن أنفسهم، وكما تصرح بذلك آيات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾[1] ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾[2] ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[3] ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ...﴾[4] ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[5].

وهكذا نرى حياتهم الشريرة المنافقة حياة الكذب، والحلف الكذب، ليتخذوه جُنة، فيصدوا عن سبيل الله بجُنة الله (الحلف) ولا يصدون إلا أنفسهم، وجهّالاً بُلهاً لا يعرفون، والله يعرِّفهم كيانهم ليُفضحوا على رؤوس الأشهاد، ولكي يستوي المؤمنون النابهون والبله في التعرف إلى كذب هؤلاء

(١) سورة النساء، الآيات: ٦١-٦٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٤.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ١٤.

المناكيد، ولذلك نراهم حذرين عن الآيات والسور التي تفضحهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[(1)].

وقد أخرج الله ما كانوا يحذرون بهذه السورة، حاملة الثورة الماحقة كيانهم الساحقة معنوياتهم، الفاضحة مكائدهم: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ... سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكذب البعيد البعيد في شهادتهم، وذلك السوء البعيد في عملهم ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ إذ أظهروه، إن عقد به قلوب البعض منهم، وإن طبّقه عملياً كذلك البعض منهم، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ارتجعوا عما تقدموا فيه من الإيمان، أياً كان، وهذا الكفر العامد المعاند بعد الإيمان طبع على قلوبهم المقلوبة، طبع الله عليها بكفرهم، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بعد الطبع، وقد كانوا يفقهون قبله، وإنما زال عنهم فقه الحق وإدراكه فالتعلق به، بما اختاروه من الكفر بعد الإيمان، فجازاهم الله بذلك الطبع المظلم في قلوبهم، امتناعٌ للفقه بالاختيار، دون تسيير وإجبار: أجل: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿... فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(2)] ﴿... فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(3)] فكما القلب إمام لسائر المدارك والحواس والأعضاء، كذلك طبعه طبعٌ عليها جمعاء فـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[(4)].

إن الكفر بعد الإسلام هو الخروج عن الشهادة باللسان بإنكاره كذلك باللسان ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[(5)] وهو بعد الإيمان خروج عنه، إما إلى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٤.

الكفر المطلق، أم إلى الكفر النفاق، وهو المعني هنا، فمن المنافقين من يسلم منذ البداية نفاقاً، أو هو غير مؤمن بقلبه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(١) والمسلم الخاوي قلبه عن الإيمان قد يتدرج إلى الإيمان، فهو مسلم غير منافق ولا مؤمن، وقد يثبت على الكفر على علمه بالإيمان، فهو منافق، وقد يؤمن ثم ينافق، وهو أخطر النفاق، فإن إيمانهم الأول يطمئن المؤمنين أنهم منهم، ثم خروجهم خفية إلى النفاق يرجع لهم بأخطر الأضرار وهم لا يعلمون، ثم خروجهم إلى الكفر المطلق يوهن ضعفاء الإيمان عن إيمانهم. وأنهم إضافة إلى مظاهرهم الخلابة الجلابة، ومقالاتهم الحلوة البراقة، التي تغر مَن لا يعلم السرائر:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾:

إن حياتهم الظاهرة، بأجسامهم: أعمالهم الجسدانية وأقوالهم وأموالهم وأولادهم، إنها حياة الإعجاب والإغراء: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾(٢) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾(٣).

فأجسامهم هي التي تعجب، دون أرواحهم وضمائرهم الخاوية من كافة معاني الحياة والإنسانية، أجسام وقوالب نضرة، كأنها على قلوب رائعة عطرة، ولكنها خشب مسندة خاوية، وحتى كأنها عن الأرواح النباتية أيضاً، ولا يعنى من عُجاب أجسامهم سِمنها وجمالها فقط، فكثير من المؤمنين لهم أجسام حسنة، وإنما يُعنى أن المعجِب فيهم - إذا كان - ليس إلا أجسامهم وأعمالهم الجسدانية.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

ثم وأقوالهم التي تنبئ عن الضمائر والحقائق، هي أيضاً معجبة لحدّ تسمع - أنت الرسول - لقولهم، لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم، إضافة إلى أيمانهم الجُنة التي تصد عن سبيل الجَنة، فكلامهم يوحي الصُّم الصلاب، وفعلهم يطمع فيكم زملاؤهم الأعداء، ولكنما الظاهرتان هاتان ليس وراءهما إلا كل خواء وبلاء، كالخشب المسندة: فهم أشباح بلا أرواح، وتجار بلا أرباح، ونساك بلا صلاح، قوالبهم قوالب الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين.

فكما الخُشب المسنَّدة - وهي الخشب النخرة المتآكلة البالية الجوفاء، كثيرة السناد[1] إلى غيرها لتقوم كالأخشاب السليمة أو كالأشجار - كما أنها يحسبها الجاهل أشجاراً كأنها مثمرة، رغم موتها وجمودها عن الروح النباتية، وحتى عن الفوائد الجمادية أيضاً، فالخشب السليم ينتفع به في سقف أو جدار، ولكن الخَشب المسنَّد لا نفع فيه اللهم إلا حرقه، أو يسند إلى أسناد ليخيَّل إلى الجهال أنه خشب أو شجر، كذلك هؤلاء المعجَب بأجسامهم، المسموعة أقوالهم، يحسبون أوتاداً وأوتاراً للحركة الحيوية الإنسانية، وإذا بقلوبهم نتنة ميتة، لا تحكم فيها أرواح الحياة وحتى النباتية، فإنها تنمو لصالح الحياة، وهم ليسوا إلا عراقيل دون الوصول إلى الحياة!

فهم أجسام تُعجِب، لا أناسي تتجاوب، هم خشب مسنَّدة ملطوعة بسواها من جدار وسواه، لا حراك لها، وإنما حياتهم التجسس عن كل حركة، والتوجُّس من كل صوت عال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ لما ترقبهم من فضيحة بأعمالهم، وما يفضحهم الله به، كالقصبة المرتجفة في مهب الريح، التي تجعل كل ريح عابرة صوتاً في قلبها، كذلك هؤلاء الخشب المسندة الجوفاء، يحسبون كل صيحة ضدهم.

---

(١) كثرة السناد مستفادة من (مسندة) فإن التسنيد تكثير الاسناد بكثرة المحال.

وإذا أردت أن تعرف العداء كل العداء فـ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾: العدو الأكثر خطورة، الكامن داخل المعسكر الإسلامي، ومجتمعه السامي، وهو أخطر من العدو الصريح الخارج، فكأنما العداء محصور فيهم[١]، ثم هم على كثرتهم كأنهم عدو واحد ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾، لتحالفهم على عداء الحق دون تخالف، عداوة موحدة تصدر عنهم في كافة مواردهم ومصادرهم، حلّهم وترحالهم، حالهم ومقالهم ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ بكل ما يستطاع من وسائل وأسباب ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قتالاً نفسياً بسحق معنوياتهم، وتكذيب مدعياتهم، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وكما يستحقون دعاءك والمؤمنين: أن يقاتلهم الله على طول الخط هكذا.

فـ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كأمثالها، ليست دعاءً من الله، وإنما إخبار أنه يكفيهم قتالاً، وإن كانت تتحمل بضمن الإخبار دعاءً: إن الله ينقل حال المؤمنين وجاه هؤلاء المنافقين أن يقولوا: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هذه المقاتلة الواقعية، والمستدعاة أيضاً، هي دائبة ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي زمان وفي أي مكان يعيشون الإفك والزور والغرور، وقد تكون «أنى» استفهاماً توبيخياً: أنى يصرفون في الإفك؟ فمن يكرس حياته في سبيل الإفك والصرف عن الحق، فالله هو مقاتله، وجملة الإفك تتحمل كليهما.

ثم إنهم - بعد فضحهم - يطالبون بالاستغفار، وأنى لهم الغفر؟ وهم مستهزئون مستكبرون:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾:

إن الاستغفار يتطلب حالة خاذلة بجنب الله، راجعة عما فرّط في جنب

---

(١) الحصر مستفاد من تقديم (هم) على (العدو) ولمكان (ال) الاستغراق.

الله، وإذا كان أمر الذنب متفاقماً فليُشفع باستغفار رسول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١].

ولكنهم على تفاقم كفرهم بنفاقهم العارم، وأنهم طولبوا بالاستغفار وأن يستغفر لهم الرسول، يلوون رؤوسهم مستهزئين، إشارة الصدِّ والاستكبار، صدّاً وإعراضاً عن الاستغفار، واستكباراً على الله، وعلى إتيان رسول الله ﷺ، رغم اتخاذهم أيمانهم جُنة عما يُعرف عنهم من الكفر والإدبار، وكان لزام تلكم الإيمان تقبل الاستغفار وإن في نفاق، ولكي يستحكموا وثائق مكرهم وأوتاد نفاقهم، ولكنهم قوم لا يفقهون، وبما أن قبول الاستغفار هداية إلهية، والله لا يهدي الفاسقين المصرين على فسقهم، لذلك:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾:

سواء عليهم استغفار الرسول وعدمه فلن يغفر الله لهم، وإن استغفر لهم ما يشاء: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢] فسواء هذا وذاك عليهم، اللهم إلا المنافق التائب، كغيره من الكافرين، أو الفاسقين التائبين، فإن الله يتوب عليهم إن شاء: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾[٣] أو يتوب عليهم إن شاء ولكن منافقي هذه السورة ليسوا منهم، فإنهم الثابتون على نفاقهم ويزدادون عتواً ونفوراً، ف ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: فهل إنه سواء على الرسول أو له، أيضاً؟ فهل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.

يسمح له بالاستغفار لقوم منافقين مستكبرين، وهم أخطر وأشر من المشركين بعدما تبين له أنهم أصحاب الجحيم؟ كلا! فـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[١] ولم يكن المطالِب منهم، أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ هو الرسول نفسه، حتى يكون طلباً للمحظور، وإنما هم «عشائر المنافقين إذ قالوا لهم: لقد افتضحتم ويلكم فأتوا رسول الله ﷺ يستغفر لكم فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار»[٢].

وعموم التعليل في عدم قبول توبة ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعمه لكل من ثبت على فسقه وإن أتى بلفظة الاستغفار، من كافر أو منافق أو فاسق غيرهما، دون اختصاص الحرمان بالمنافقين، فكل خارج عن طور العبودية، منفلت عن طاعة الله، إنه لا يهديه الله بغفر ذنوبه، ما دام ثابتاً على فسقه لا يغيِّر، فالخروج عما يستغفر عنه، هو من أصول قبول التوبة، وهي التوبة النصوح.

ثم ومن مكائدهم ضد الرسول ﷺ محاولة انفضاض المؤمنين عنه بالضغط المالي:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾:

هذه الخطة المنافقة في المدينة سبقتها خطة كافرة في مكة، وهي تقاطع بني هاشم في شعب أبي طالب ليظلوا جياعاً حرجين في لزامات الحياة، حتى ينفضوا عن رسول الله ﷺ، ولكنها كانت خطة خاسرة، ما استطاعت أن تزلزل من إيمان المؤمنين قيد شعرة وهم تحت وطأة الضيق والجوع وألوان النكال العضال.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام.

فليس المؤمنون بالرسالة حقاً ممن ينفضون عن الرسول ﷺ فراراً عن الجوع، وطلباً للشبع، طالما قدموا أنفسهم وأموالهم وهاجروا معه في سبيل الله، اللهم إلا منافقون أسلموا مغبة المال، كهؤلاء الأوغاد.

ثم هذه المقالة الخسيسة اللئيمة من المنافقين لمن تتجه؟ ألأمثالهم؟ وهم لم يكونوا من المنفقين على من عند رسول الله ﷺ! أم للمؤمنين الأثرياء؟ فأقوياؤهم في الإيمان لا يتأثرون بمقالات المنافقين! أم الضعفاء منهم؟ علّهم! ولكن عدم إنفاقهم لا يؤثر إلا في ضعفاء كأمثالهم، ثم الله الذي له خزائن السماوات والأرض: من مواضع أرزاق العباد، ومدارٌ السحاب، ومخارج الأعشاب وما يجري مجراها من الأرفاق: ما خزن فيهما وبطن، والله مخرجه بقدر معلوم، وينزله بقدر معلوم، إنه لا يعجز عن جبر كسرهم وفقرهم، وعن تأييدهم في صبرهم، وهو الرازق لمن آمن وكفر، فهل يحصر رزقه للمؤمنين بالأثرياء الضعفاء في الإيمان؟ ومن خزائن الله يرتزق هؤلاء وهؤلاء، فليسوا هم رازقي أنفسهم، وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فالذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه، فليست هذه الخطة اللئيمة إلا لأنهم لا يفقهون: إن خزائن الأرزاق بيد الله، وإن الله ناصر المؤمنين، وإنه خاذل المنافقين، وإنه موهن كيد الكافرين، ولأنهم لا يفقهون بما طبع على قلوبهم، فهم لا يزالون يحاولون في إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الفاسقون.

فالفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، ولم يتوصل المنافقون بشاهدهم على غائب معرفة الله، وأن له ما في السماوات وما في الأرض.

ثم هم من غيِّهم واستكبارهم، وإن حسبوا أنفسهم أعزة غالبين، والمؤمنين أذلة مغلوبين:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

هناك «لا يفقهون» لفقدهم العلم الغائب، وهنا «لا يعلمون» لفقدهم العلم الحاضر أيضاً إذ لا يشعرون، وكأنهم لا يحسون أنهم الأذلة وهؤلاء الأعزة، والعلم أعم من الفقه وهم يفقدونهما بما طبع على قلوبهم.

أهؤلاء الخشب المسندة، والحمر المستنفرة أعزة، ثم أولئك الأولياء المكرمون أذلة؟! كلا! ولكن المنافقين لا يعلمون، جهلاً عن تقصير.

توحي الآية بأن جماعة من المنافقين كانوا وقتئذ خارج المدينة، فأخذوا عدتهم - في زعمهم - لإخراج المؤمنين عنها لئن رجعوا هم إليها، معتبرين أنفسهم الأعز، والمؤمنين الأذلَّ، والعزة هي الغلبة بحق بالمنعة التي تمنع أن يمسه ذلٌّ، فليست إلا للحق وأهله، دون ناكريه والمكذبين به، وأية عزة لمن ينافق ويماكر كالثعلب لضعفه وخوفه؟ وأية ذلة للمؤمن الصامد الصريح الذي لا يخاف إلا الله، فيخافه ويهابه من لا يعبد الله، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1] ولقد أراهم الله تعالى عكس ما ادعوا، فلم يدخلوا المدينة هؤلاء الأذلة المنافقون، إلا بإذن الأعزة المؤمنين وقد سلّ مؤمن عزيز سيفه على منافق بباب المدينة - وهو أبوه: رأس المنافقين - قائلاً: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل[2]!

وما أعز المؤمن إذ يثني بعزة الرسول ﷺ وما أعز الرسول والمؤمنين إذ يقرنها الله بعزته، ولأن عزتهم مستمدة من عزته، فلا تهن ولا تهون، ولا

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٢) إن رأس المنافقين هؤلاء هو عبد الله بن أبي ابن سلول إذ أراد أن يشعل نيران الحرب بين المهاجرين والأنصار وهم خارج المدينة في غزوة بني المصطلق بقيادة الرسول ﷺ فأخذ ابنه سيفه بمدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ليعكس مقاله: ليخرجن الأعز منها الأذل، فيوقفه خارج المدينة حتى يأذن الرسول ﷺ بدخوله.

تزايل صاحبه في أحرج العقبات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«وإن الله تعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يذلَّ نفسه، فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، المؤمن أصلب من الجبل، إن الجبل يستفلُّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستفلُّ من دينه شيء»[1]، «ومن إذلاله نفسه أن يتعرض لما لا يطيق»[2]، «ويدخل فيما يعتذر منه»[3]، وليس من الذلِّ أن يؤخذ ماله، أو يضيق على معيشته، أو يقتل في سبيل الله، وإنما ذلّه خروجه عن طاعة الله.

ولتستحكم عرى الإيمان في المؤمنين وجاه عراقيل الأموال والأولاد التي تلهي عن ذكر الله، يوصيهم الله ألا تلهيهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾:

فمن الملهيات عن ذكر الله ما تلهي على أية حال كالغناء والرقص وموسيقاه، فهي لا تستعمل بحال، ومنها ما تلهي بطبيعة الحال، وللإنسان أن يحوِّلها إلى أحسن حال، كالأولاد والأهلين والأموال التي تعتبر جسراً يعبر عليه في سبيل الله، وهكذا يكون دور المؤمن مع المغريات والملهيات أنه يحوّلها إلى مذكرات بالله، ويخطو بها خطوات في سبيل الله، فليست الأموال والأولاد مَلهاة لمستيقظي القلوب النابهين، الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة عبرة وعابرة، يبصرون بها الحياة الآخرة، وإنما هي ملهاة ومزلات لمن يبصرون إليها نظرة قاصرة لا يعدوها إلى مغزاها ومنتهاها.

---

(١) الكافي بإسناده إلى الحسن الأحمسي عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير آية العزة.

(٢) الكافي بإسناده إلى داود الرقي قال قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: . . .

(٣) الكافي بإسناده إلى مفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله عليه السلام: . . .

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ التصرف البعيد البعيد في أمواله وأولاده ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: يخسرون سمتهم الإنسانية، فيخسرون كل ما للإنسان في دنيا الحياة وعقباها، مهما ربحوا حيوانياً لفترة قصيرة زهيدة!.

ومن آثار الأموال والأولاد غير الملهية عن ذكر الله، إنفاقها في سبيل الله، دونما ابتغاء جزاء أو شكور ممن سوى الله، بإزالة كافة التعلقات بالأموال والأولاد، إلا ما يحصل بها مرضاة الله:

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾:

وطالما الإنسان بنفسه ونفيسه، بما له وأولاده، وبكافة معطياته، إنه هو من رزق الله، فليكن كله كذلك إنفاقاً في سبيل الله، فلا يملك هو لنفسه شيئاً، وإنما هو مستخلف فيما رزقه الله، فإذا أنفق فإنما ينفق من مال الله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1].

وليكن الإنفاق قبل أن يأتي الموت، فإن الإنفاق عنك بعد الموت، وإن كان بوصية منك، هذا لا يزيل تحسُرك بعدم الإنفاق، إلا قليلاً لا يُغني، وإن كان الوصي والمنفق عنك رسول الله ﷺ بمئات الأضعاف مما لو كنت تنفقه.

فإذا أتى أحدَكم الموتُ ولم ينفق واجبه، طلب متحسراً تمديد أجله، بقدر ما يتصدق فيكون من الصالحين، ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لكي أصلح ما أفسدت، وبقدر ما أنفق واجبي، فلتتصدق أنت بنفسك قبل الموت تكن من الصالحين دون تحسُّر بعده ولا تأثُّر.

أنت تموت ولم تنفق ما عليك؟ وتترك كل شيء وراءك؟ فتنتظر بعد

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.

الموت أن ليس معك شيءٌ مما ادَّخرت؟ وهذا من أحمق الحمق وأخسر الخسران! وأنت تطلب تمديد أجلك:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾:

فالأجل المحتوم المسمّى لن يؤخر لأيٍّ كان، صالحاً أم طالحاً، والأجل المعلق لن يؤخر للطالحين الذين ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾[1] فيجاب ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾[2] ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[3] فالعادلون لهم نصير، ينصرهم الله إن شاء في تأجيل آجالهم المعلقة ليزدادوا خيراً، فعدم الإجابة في تأجيل الأجل المعلق ليس إلا لعدم أهلية المستأجل وأنه كاذب فيما يقول ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إن عملكم لا يصلح ما عمِّرتم وأُجِّلتم ما شئتم.

وبما أن المخاطبين هنا المؤمنون، فهنا إيحاء أن المقصرين منهم في الإنفاق سوف يطلبون الرجعة ولن يرجعوا، وكما يروى عن الرسول ﷺ[4]، وإن كان بين هؤلاء وبين الكفار بونٌ بعيد.

وكما أن هنا إيحاء أن المؤمن الصالح، غير المقصر، قد يستجاب له في تمديد الأجل المعلق، لا ليعمل صالحاً فيما ترك، بل ليحقق الأمل في تكميل الإيمان، وكما أن الراجعين بالاستدعاء، في دولة المهدي عليه السلام يُجابون في إحيائهم بعد موتهم، وليستكملوا بمناصرة المهدي عليه السلام.

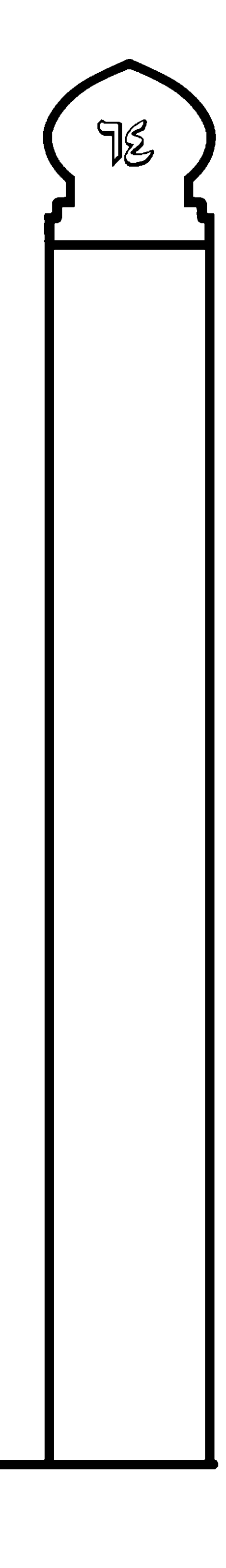
---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

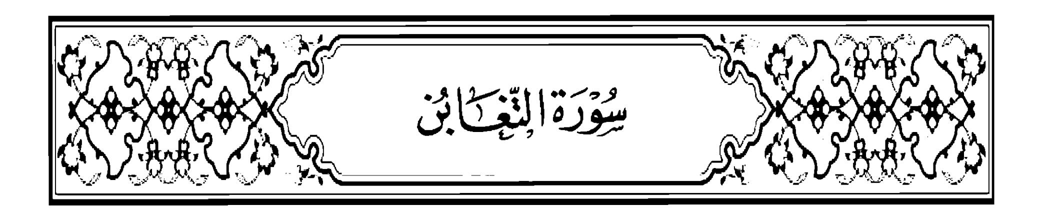
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٢٦ - عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت).



سُورَةُ التَّغَابُن



مدنية - وآياتها ثماني عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾:

﴿يُسَبِّحُ﴾ دائماً لزام الذات تسبيح الحال والمقال، الإشارة والعبارة، ﴿لِلَّهِ﴾ لا سواه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾: كل الكائنات العلوية والسفلية سواء فهي كلها كخلق لله تسبيحات لله طوعاً أو كرهاً، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ عليها دون ضد ولا ند ولا وكيل ولا شريك، فلا ملك لغيره إلا ما هباه، ملكاً ضئيلاً زائلاً، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ إليه يرجع الحمد كله، فإنه الثناء على الوصف الجميل والفعل الجزيل، ولا جميل ولا جمال ولا جزيل إلا من الرب الجليل وإليه، أينما كان، فلا ثناء إلا له، رغم ما ينكره الناكرون، ويمكره الماكرون، وكما التسبيح لله يعمُّ الاختيار واللااختيار، التكوين وسواه، كذلك الحمد، فسواء بلسان التكوين الحال بمحامد الصنع في الخلق، أم بلسان المقال ممن آمنوا بالله، فالكائنات كلها تحت ملك الله، وكلها تسبيح وحمد لله، إذ لا قصور في ملكه ولا تقصير، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دون حد ولا تقدير، وإن كان خلاف العدل والفضل والحكمة، ولكنه لا يفعله رغم قدرته، وهو اللطيف الخبير[1]. فمن عرف هذا الملك الحميد القدير، خشي من سطوته، وأمل لطائف نعمته من كرمه ومنّته، وفي حين يركن المؤمن إلى الله، فإنما يركن إلى المَلِك المسبِّح المحمود، القادر على كل شيء، فيطمئن في الحياة كل الحياة، وبعد الممات.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فلا خالق إلا هو ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ﴾ والفاء

---

(١) راجع الجزء ٢٩ من هذا التفسير كلام في القدرة.

هنا لا تعني تفريع الكفر والإيمان على الخلق، أنهما من خلق الله كما سائر الخلق، وإنما تعني تأخرهما عن الخلق: الكفر والإيمان الاختياري منذ التكليف.

ومهما كان الإيمان الفطري مخلوقاً مع المكلفين أجمع: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾(١) فلا يعقل أن الاختياري منهما، أو الكفر المجبول، مخلوق مع الإنسان، إذ لا تكليف قبل حدِّه حتى يكون كفر أو إيمان قبل حدِّه، ولو كان معقولاً فهو ظلم وتسيير «وما الله بظلام للعبيد».

فالخلق كلهم خُلقوا على فطرة الإيمان، وكما في الحديث القدسي: «خلقتُ عبادي كلهم حنفاء»(٢).

ومهما كان الإيمان مبدئياً أقدم على الكفر، ولأن الإنسان مفطور عليه منذ يخلق، ولكنما الكفر أقرب إليه واقعياً، تقدم واقع اللاإيمان في الأكثرية الساحقة من الناس النسناس، على مبدأ الإيمان الفطري، ولذلك قدم الكافر هنا على المؤمن، لأن الآية بصدد استعراض صنفي الخلق بعد الخلق، فيما هم صائرون إليه من الكفر والإيمان، ثم نرى الآيات المستعرضة لما يتوجب اختياره منهما، تقدَّم الإيمان، ولأنه قضية الفطرة وأمان من العذاب: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾(٣) تقديماً لمشيئة الإيمان.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: تصريحة بعد تلويحة أن الكفر والإيمان، هما من أعمالنا، لا من خلق الله، ولكن الله لا يخفى عليه شيءٌ منهما، والعمل هنا يعمُّ عمل القلب والقالب، فهو بصير بهما، وأنتم فيهما أمام بشير نذير.

هذا - فما يروى أن الإيمان والكفر من خلق الله، إنه مخالف لكتاب

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الله ودليل العقل والواقع وأحاديث الفطرة، فيضرب عرض الحائط أو يؤوّل(١).

وكما الله خلقكم، كذلك أحسن صوركم في الخلق، ومنها صورة الفطرة، فلتؤمنوا استجابة لنداء الذات الحسنة:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③﴾:

إن خلقهما حق وللحق وبالحق، لا باطل فيهما من حيث الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٢) ذلك لأنهم ليست لهم ألباب، فمقالة أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٣) فلا باطل في الخلق من لهو أو لعب أم ماذا: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(٤) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٥).

ومن حق الخلق تصويركم بالصورة الإنسانية قلباً وقالباً خَلقياً وشعورياً ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ في أحسن تقويم، قوام الروح والجسم، فلا صورة في الخلق أحسن من صورة الإنسان، مهما تماثلها صُوَر لا نعرفها، وقد توحي

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٢٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: (العبد يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، والعبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، وإن العبد يعمل برهة من الزمان بالشقاوة ثم يدركه الموت بما كتب له فيموت شقياً، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاوة ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً).
أقول: حاشا الرسول من هكذا قولة تخالف كتاب الله!.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

(٥) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

بها آيتان متجاويتان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2] فمَن هذا القليل الذي لم يفضَّل عليه الإنسان، فتقويمه كالإنسان أحسن تقويم؟ لا ندري!.

ومن ثَمّ فهذا الخلق الحق، وهذه الصورة الحسنة، مصيرهما إلى الله، فهو المبدء ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ولولا الرجوع إلى الله في حياة الحساب لكان خلق الكون لغواً ولهواً وباطلاً، أفهذا الخلق العريض الطويل لا يهدف إلا هذه الحياة الزهيدة الهزيلة؟ فهذا هو اللهو والباطل، سبحان الرب الجليل!.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾:

إن المرجع ومَن إليه المصير، هو عليم خبير بما تكنُّ صدوركم وما تعلنون، لا يعزب عنه ما نخفي وما نعلن، ولا يغرب عنه ما عَلِم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: صاحب الصدور، وإذ هو عليم بذوات أصحاب الصدور فأحرى أن يكون عليماً بالصدور، فهل يخفى عليه - إذاً - ما تكنُّ الصدور؟ كلا! ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[3]: السرّ الخفي الكامن، والأخفى غير الكائن، الذي يستقبل ذوات الصدور وهم عنه غافلون، فماذا يصنع هذه الحشرة الصغيرة، الهزيلة الذليلة، في مصيرها إلى الله، الملك القدُّوس العليم، العليُّ القدير، الخبير البصير، الذي إليه المصير.

إن للإنسان مذكرات لو تنبَّه عن غفوته، منها حاضره كالمسبقة من مذكرات خلق الله وعلمه وقدرته، ومنها غابرة حلَّت في التأريخ وقد أتتنا في كتابات الوحي:

(١) سورة التين، الآية: ٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٣) سورة طه، الآية: ٧.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾:

إن نبأهم هذا كسائر الأنباء: خبر ذو فائدة، تفيدكم عن جهلكم إذ تفيقكم عن غفلكم، وإنه ينبئكم بما ذاقوا ولاقوا من عذاب ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: تبعة السيئة: كالوابل: المطر الثقيل القطار، مقابل الطلّ وهو خفيفه، فذوق الوبال هو نيل الطلّ، فعذاب الاستئصال هو طلٌّ من العذاب، ثم يليه وابله منذ الموت، فهم ذاقوا في الدنيا وبالهم بعذاب الاستئصال، فإنه - حقاً - دون ما يستحقونه، فذوق العذاب غير نيله - كما أن ذوق الموت غير الموت - ثم لاقوا في البرزخ عذاباً برزخياً، وسوف يلاقون عذاب النار يوم القرار ولات حين فرار، فالعذاب الأليم يعني الأخيرين، كما أن ذوق الوبال يخصُّ الأوّل.

ألم يأتهم هذا النبأ؟ بلى! فلماذا استغفلوا عنه؟ لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها! وقد كانوا يتناقلون أنباء بعض الهلكى كعاد وثمود وأصحاب الرسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً، ولكن لا حياة لمن تنادي! ولماذا هلكوا هنا ويتألمون بالعذاب هناك؟:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾:

فالأصل هو تكذيب الرسل برسالاتهم، رغم البيِّنات القاطعة الظاهرة الزاهرة لمن يعرف لغة الإنسان، ويسمع ويبصر كإنسان، فكانوا يعتذرون بعذر غير عاذر، ويكفر غادر: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[1].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.

وليست هداية الرسل إلا هداية الله، بما يحملون من رسالات الله، فهل ينظرون أن تأتيهم ملائكة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(١) أو ينظرون أن يأتيهم الله بنفسه؟ أم ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾(٢)؟ كلا.. وإنما هي الحجة القاطعة الإلهية يجب أن تتَّبع، وإن حملتها أشجار أم أحجار، فكيف وقد حملها أبرار مصطفون أخيار!.

فعجب من هؤلاء الأوغاد أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً! وفي هكذا معبود مهانتهم، وبهؤلاء الرسل كرامتهم، ولكنهم دوماً يعترضون ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ كأنما الهداية الإلهية لا تتمثل في البشر، لأنه لا يؤهل لهذه الكرامة! وقد يرفضها الجاهل النكد، فيعبد الحجر ويترك الرسول البشر، جهلاً أو تجاهلاً بحقيقة الرسالة وكرامة الإنسان: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٣). رغم أن الرسالة منهج إلهي لا بد أن تتمثل للبشر في ذوي نوعه، ليصوغهم على مثاله قدر المستطاع، ولكي لا تكون للناس حجة على الله بعد الرسل.

﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن الله ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾: عنهم وعن إيمانهم: إن أظهر غناه وفقرهم، وقوته وضعفهم، بما دمّرهم تدميراً حيث أذاقهم وبال أمرهم، فلو كان بحاجة إلى إيمانهم لألجأهم إليه، أم لو كان فقيراً إليهم على كفرهم لأبقاهم، ولكن: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(٤).

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن إيمانكم ﴿حَمِيدٌ﴾ في كفركم، فليس حمده بإيمانكم، لأنه حميد بذاته، مجيد بأفعاله وصفاته، فلا يرجع عائد الإيمان إلى الله، ولا مضرّة الكفر إليه، وإنما إلى أهله وعليهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧.

والكفر بالله ورسالاته يعني دائماً التحلل عن أسر شريعة الله، ومما يريحهم ويحوِّلهم إلى إباحية مطلقة هو نكران البعث والحساب زعماً على زعم:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ⑦﴾:

إن الزعم دائماً كنية الكذب وزاملته، سواء أكان خلاف الاعتقاد أو خلاف الواقع أو خلافهما، والظن - إذاً - لزامه، إذ لا يركن إلى أيٍّ دليل، فهم يزعمون إحالة بعثهم ﴿لَّن يُبْعَثُواْ﴾ وليس سنادهم في زعمهم إلا استبعادات، فلا جواب إذن إلا تأكيد البعث قسماً بربِّ محمد ﷺ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ فالتربية الإلهية الظاهرة في محمد ﷺ الزاهرة بأخلاقه وتصرفاته وتفكيراته، إنها دليل لا مردّ له أن ربه قادر على بعث هؤلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثهم ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: حسيّاً وعلمياً وجزاءً وفاقاً ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والإنباء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ إذ فعل ما هو أقوى منه وأولى كأن صنع محمداً ﷺ وربّاه، الذي يوازي صنع العالم كله وأعلى!.

فـ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ ليس قسماً خاوياً عن الدليل، مقابلة اللادليل باللادليل! وإنما تعليل لطيف واستدلال بأقربية الغائب (البعث) من الحاضر (واقع التربية المحمدية) بواقع رسالته الإلهية المبرهنة، فليصدَّق قوله عن الله، فبعثهم أيسر على الله من صنع محمد ﷺ، وهو بشخصه الكريم هو العالمون أجمع وزيادات لا يعلمها إلا الله هذا - وكذلك ربوبيته العالمية تقتضي البعث للحساب، فلولاه لكان تسوية بين المطيع والعاصي، بل تفضيلاً للظالم على المظلوم، إذ لا نرى هنا انتقاماً كما يجب، فالظالم يظلم ويتبختر، والمظلوم يُظلم ويُكسر، فهل إن رب العالمين جاهل بما يحصل؟ أم عاجز عن الانتقام هنا؟ أم سوف يفصل بين عباده يوم الفصل؟ وهو الحق! وهذا مقتضى ربوبيته! ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ...﴾ وهو قدير بما تقتضي ربوبيته.

نرى دائماً أن نكران وجود الله وتوحيده، ونكران الرسالة والبعث، لا يستند إلى أي دليل، ثم نرى الآيات البينات كيف تعالج ما يخالج في صدورهم من ظن وزعم، بمختلف البراهين القاطعة: فطرية، فكرية، عقلية، حسية واقعية، ولكنهم ما كانوا ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾(١) و﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢).

ومن لطيف التعبير عن قولتهم الكافرة، هو الابتداء بتكذيبهم: ﴿زَعَمَ﴾ والانتهاء إلى تزييفهم بالبعض من براهين البعث.

ومن ثم، بعد هذه التنبيهات، والتذكيرات بما فعل الذين كفروا وما فُعِل بهم، يأمرهم أن يؤمنوا:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾:

هنا إيمان بالله كأصل الإيمان وموضوعه، وهناك إيمان برسول الله ﷺ هامشياً لرسالته الإلهية، وهنالك إيمان بالنور المنزل مع الرسول لينير الدرب على متحرِّي الحقيقة، وليتثبت إيمانه الكامل فيثبت عليه، وليسترشد إلى مغزى الإيمان الأصل بالوحي الذي يحمله الفرع.

فالنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره مادياً، وأحرى منه معنوياً، فـ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٣) ظاهر بآياته للقلوب غير المقلوبة، والبصائر غير الكليلة، ومظهر لسواه، من العدم إلى الوجود، ومن الظلمات إلى النور.

فرسول الله ﷺ نور من الله، إذ يحمل نوراً ويصدر عن نور وكله نور: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(٤)، فإنه حجة بأفعاله وتصوراته، ومعجزة في ذاته، كما في كتابه المبين.

وهناك استمرارية نور الرسول نجدها في عترته الطاهرة، الذين هم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٤.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٥.

إشعاع من تلكم الشمس[(١)] و«كلهم نور واحد»، وكما عن صادق آل محمد ﷺ: «أولنا محمد، آخرنا محمد، أوسطنا محمد، كلنا محمد».

وكتاب الله نور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[(٢)]، فبرهان الرب هو الرسول ﷺ، والنور هو القرآن الذي يزداده برهاناً ونوراً، فإنه يهتدى به في ظلم الكفر والضلال، كما يهتدى بالنور الساطع، والشهاب اللامع، وضياء القرآن أشرف من ضياء سائر الأنوار، لأنه يعشو إليه القلب، وهي يعشو إليها الطرف، والقرآن النور ظاهر بنفسه أنه إلهي، ومظهر لغيره ولرسالة من أُوحي إليه: نور على نور من نور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[(٣)].

ترى من يترك النور إلى الظلمات هل له بصر؟ أو هل يبصر وهو ينكر؟: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[(٤)] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[(٥)] ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾[(٦)] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[(٧)].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالجوانح كفراً وإيماناً، وبالجوارح طاعة وعصياناً ﴿خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا تعزب عنه عازبة، فأنتم مكشوفون له يوم الدنيا، ومكشوفون له يوم يكشف عن ساق، يوم التغابن، وأين كشف من كشف؟:

---

(١) قد وردت أحاديث أن الأئمة من آل محمد هم النور، وهذا من التأويل والجري، لأنهم يحملون النور: القرآن، ونور الرسالة المحمدية بالخلافة الحقة:
ففي الكافي سئل الباقر عليه السلام عن ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] فقال: النور - والله - الأئمة، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١٩.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٤٠.
(٧) سورة النمل، الآية: ٦٦.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: وقد تكرر هذا الجمع في القرآن، وإنه لفصل القضاء: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(١): يجمع الله فيه المكلفين بمختلف درجاته، بكل الدواب، سواء من هذا النسل الأخير، إنسانياً وسواه، أم سواه من الأنسال المنقرضة قبله.

وهنا يومان وجمعان كما في النص، يوم جمعٍ أول هو جمعهم في الإحياء: قيامة الإحياء: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾، ويوم جمع ثانٍ هو الهدف الأصيل للأول، جمع الإحياء للحساب والجزاء الوفاق، فالقيامة أيام ثلاثة: قيامة الإماتة، وقيامة الإحياء، وقيامة الحساب الجزاء، وفي كلٍّ منها جمع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم العظيم المحتد، البعيد المدى، الذي لا حاكم فيه إلا الله ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ والغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينكما بضرب من الإخفاء، فالتغابن هو التباخس خفياً، فمن هم المتغابنون يوم الجمع، وكيف يتغابنون؟

هل إنهم رؤوس الضلالة وأتباعهم، أن يحاول كلٌّ أن يبخس صاحبه فيتبرأ؟: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾(٢) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٧. (٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦، ١٦٧.

مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[1].

فهذا يوم التغابن بينهم في النار يوم القرار، كما تغابنوا يوم الدنيا، إذ أضل المضلون أتباعهم غبناً وحيلة، وأضلهم أتباعهم باتِّباعهم فازدادوهم استكباراً وغيلة، فكانت حياتهم بينهم حياةَ التغابن، ولكنه يظهر يوم الدين دون خفاء، مهما كان خفياً يوم الدنيا.

أو أنه التغابن بين الله والكافرين به؟ فهم كانوا مبتهجين يوم الدنيا بتخلفاتهم، حاسبين أنفسهم أنهم السابقون؟ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[2] ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[3]، فهم أرادوا أن يبخسوا الحق وأهله، فبُخسوا وخسر هنالك المبطلون.

أو إنه التغابن بين الأخيار والأشرار، إذ يحاول الشرِّير غبن الخيِّر، ويخفي عليه خيره وشرّ نفسه، فيحسب أنه يحسن صنعاً، ثم يوم القيامة يظهر الخافي من أمرهما؟: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[4]، وكأنما الفريقان كانا متعاقدين ومتبايعين، المؤمنون ابتاعوا دار الثواب، والكافرون اعتاضوا منها دار العقاب، فتفاوتوا في الصفقة، وتغابنوا في البيعة، فكان الربح مع المؤمنين، والخسران مع الكافرين.

أقول: كلٌّ محتمل، والجمع أجمل، مهما كان الغبن من الله والمؤمنين حقاً، ومن الكافرين باطلاً، ولكن الكل مباخسة على خفاء، خفاء المبطل حيلة وغيلة، وخفاء المحق نتيجة كفر المبطل، أو جزاء كفره: غبناً بغبن، جزاءً وفاقاً.

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.
(٤) سورة ص، الآيات: ٦٢-٦٤.

وقد تلمح الآية نفسها بالتغابن الأخير في تقسيمها الثنائي ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ . . . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ. . .﴾ فحياة الإيمان والكفر مغابنة، فإن حالة الكافر المَرِيحة المرحة تغبن ضعفاء الإيمان، وحياة المؤمن الملتوية الصعبة تغبن حمقاء الكفر والطغيان، ثم تظهر حقيقة الأمر في الحياتين يوم التغابن.

وقد يزعم الكفار أن المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، سوف يدخلون النار كما هم يدخلون، فهم يغتنمون مزيد الكفر والطغيان، ويسخرون من هؤلاء المؤمنين الضعفاء: ماذا يفيدكم هذا الإيمان، وأنتم كأمثالنا من أهل النار؟

فالجواب: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾ تعني فعل كبائر الصالحات وترك كبائر الطالحات: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[2] وهذا الصالح العظيم سلباً وإيجاباً، يكفر السيئات: الأعمال السيئة غير الكبيرة، وترك الحسنات الصغيرة، وهذا غبن من المؤمنين على الكافرين الظانين بهم ظنّ السوء الظالم: أنهم وإياهم سواء.

كما وأن الكافرين ليسوا على سواء، فمنهم من يخلّد في النار أبداً، ومنهم من لا يؤبّد، وبما أن ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تعمُّ الفريقين، لم يذكر أبد النار لهم، رغم ذكره للمؤمنين فإنهم في الجنة آبدين.

فهذه الفوارق بين المؤمنين الخاطئين، وبين الكافرين المختلفين في الكفر، إنها تغابن بينهم، لمن يجهلون موقف الحساب وميزانه، تغابن في الدنيا بجهالة الشاردين، وفي الآخرة بظهور حقيقة الغبن وباطله وأهلهما، لأنها يوم الدين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١. (٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

إن المصيبات كلها لا تصيب أهليها إلا بإذن الله، وإن كانت بما كسبت أيدي الناس، المصابين وسواهم: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[1] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[١] مما كسبت أيديكم، أم ما تستحقونه دون كسب كمصيبة الموت في أجله المحتوم: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٢] أو ما كسبت أيدي غيركم فتصيبكم ظلماً، لا جزاءً، وإنما ابتلاءً سيئاً ليزدادوا أجراً وغفراً.

فإذن الله هنا وهناك هو السماح تكويناً بالإصابة، فلولاه لاستحالت، سواء أكانت بحق، من موت محتوم، ومن سيئة بما كسبت أيديهم أنفسهم ومنه بعض الآجال المعلقة، أم بظلم، كالحوادث الظالمة التي لا نصيب للمظلوم في أصلها، وهي الصادرة عن الظالمين، فما لم يأذن الله لا يصاب المظلوم، وإذ يصاب فليس ظلماً من الله أو جزاءً، وإنما تحقيقاً للتخيير، ورفضاً للتسيير في الخير وفي الشر سواء.

فليس الإذن - كما يزعم - هو السماح التشريعي فحسب، أو لفظة القول التكويني فحسب، وإنما هو التنفيذ عن علم، الشامل للقول المؤذن بالسماح، أو الآمر به، والفعل المنفِّذ له: تكويناً ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[٣] أو تشريعاً ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٤].

فالألوهية المطلقة الشاملة لكل مألوه، لزامها أن لا يصدر شيءٌ من الأمر إلا بإذن الله، دون استقلال لسواه، ثم الإذن تكويناً فيما نهى الله عنه، يعني أنه لا يحول بينه وبين فاعله، ويريد حصوله منه بعدما اختاره، دون إجبار، فهو أولى بسيئاته من الله، والله أولى بحسناته منه، إذ يأمر بها ويريدها ويوفق لها ويزيد، ولكنه ينهى عن السيئات ولا يوفق لها ولا يزيد.

والصبر المأمور به في المصائب لا يشمل تلك التي تصيب ظلماً من الظالمين، فالواجب مكافحتها قدر المستطاع، وإنما يختص بالتي أذن الله

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

بها جزاءً وفاقاً، أم حتم الله كالأجل المحتوم، وهذا هو مقتضى الإيمان الصحيح ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هكذا ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، ويشرح صدره، ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة، ويصله بأصل الأشياء والأحداث، فيرى مناشئها وغاياتها، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن ثم يطمئن فيزداد إيماناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيزوِّد المؤمن من علمه، ويُطمئنه من فضله.

وهداية القلب هنا هي زيادة الإيمان جزاءً من الله على الإيمان الاختياري، وما أحلاه جزاءً في الدنيا، وليستعد لجزائه الأوفى في الآخرة!.

وفي عموم إذن الله للإصابات كلها إيذان للكافرين القائلين: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم ربهم عن المصائب، إيذان بأن الإصابات كلها بإذن الله وحكمته، لا يعرفها إلا من هدى قلبه، وإيذان للمؤمنين أيضاً أن لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، وليؤمنوا بقضاء الله في إصاباتهم، بحكَمِها المجهولة أو المعلومة لديهم بما يعرفون بنور الإيمان.

وبما أن أغلب إصابات المؤمنين مادية في قوالبهم - وهي محسوسة - والأغلب في غيرهم معنوية في قلوبهم - وهي غير محسوسة - ففي نوعي الإصابة تغابن بين الفريقين يوم الدنيا، يظهر حقه يوم الدين، وأين إصابة من إصابة؟ بلاءٌ لا يُلمس فيغتر صاحبه كأنه غير مبتلىً على كفره، وبلاءٌ ملموس يدفع صاحبه للعلاج، أو يصبر على قضاء الله فيزداد أجراً، أو يعرف أنه جزاء وتنبيه على سيئاته، ولكي ينجو عن بلاء الآخرة، ويقدم على التوبة في الدنيا!.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾:

هنا طاعة الله، وهناك طاعة رسول الله، تجتمعان أنهما طاعة الله ﴿مَّن

يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[(١)] وتفترقان أن الأولى هي الأصل والمبدأ، والثانية فرع، فلا يطاع محمد ﷺ إلا كرسول يصدر من الله، ثم الأولى تتمثل في تطبيق كتاب الله، والثانية في سُنة رسول الله ﷺ، الثابتة غير المفرقة، وفي أوامره ونواهيه الولائية والسياسية كقائد للدولة الإسلامية، فإنه الحاكم بين الناس بما أراه الله، فمن اختص الطاعة بكتاب الله ورفض سُنة رسول الله ﷺ فقد غوى، ومن أطاع الرسول تاركاً لكتاب الله فقد هوى، فهما متلازمتان لا تفترقان ولا تتفارقان، الكتاب الأصل، والسنة المفسرة الموافقة له.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن الطاعتين أو إحداهما ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ - وعلينا الحساب - فإذا بان بلاغه أنه من الله، فمن يعصيه إذاً فإنما يعصي الله، ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[(٢)].

فهذا تهديد شديد للذين يتولون، وتسكين لخاطر الرسول الأقدس، كيلا يحزن، بلاغاً من:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾:

يتوكلون عليه في كل قليل وجليل، ما يستطيعونه وما لا يقدرون عليه، فالفاء في أمر التوكل تفرِّعه على الألوهية الموحّدة، ولا بد لهذا الإنسان الضعيف الهزيل أن يتوكل في الحياة الفوضى، فمن هو أحرى وكالة من الله؟

ثم من هنا تختص الخطابات في السورة بالمؤمنين، خطابات تحذرهم عما يفتنهم ويلهيهم ويضلّهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾:

الأزواج هنا يعمُّ الزوج والزوجة، كما أن الذين آمنوا يعمُّ الذكر

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

والأنثى، فقد يكون الزوج عدواً لزوجته في سبيل الإيمان، كما قد تكون الزوجة عدوة لزوجها في هذه السبيل.

فعلى المؤمن أن يعيش الإيمان بكل دوافعه ووقائعه، مواصلة من يعينه في قضيته، ومفاصلة من يفصله عنها وإن كانوا من أزواجه وأولاده، فالأزواج والأولاد الذين يعادونك في سبيل الإيمان، لا سبيل لهم إلا مفاصلتهم والحذر عنهم كجزاء عما يقترفون، بعداً عنهم في العِشرة والصحبة، أو - إذا لا يخاف ضرّهم، أو يرجو خيرهم - أن يعفو عنهم ويصفح ويغفر، حتى يغفره الله ويرحمه.

إن دور العلاج المثلث (العفو والصفح والغفر) ليس إلا ظرف رجاء الإصلاح، أو - على أقل تقدير - عدم خوف الإفساد: أن يمشُّوه معهم في صرفه عن الإيمان.

فالعفو هو قصد إزالة الذنب صارفاً عن المذنب، وأفضل منه الصفح وهو ترك التثريب والتعييب، ولذلك يأتي بعد العفو، فقد يعفو الإنسان دون صفح، ثم يأتي دور الغفر وهو إلباس ما يصونه عن الدنس.

إن هذه الآية ونظائرها تعالج مشاكل وعقبات وعرقلات في سبيل الإيمان، تدفعها عواطف القرابة، وعواصف النسبة، فقد يتخلص الإنسان عن الأغلال المتصلة به في سبيل الإيمان، ثم تبقى أغلال منفصلة عنه صعبة الفكاك، كالأزواج والأولاد الأعداء في سبيل الحق، إذ يدفعون ذويهم للتقصير في واجبات الإيمان، يقفون له في الطريق فيمنعونه عن النهوض بواجبه[1]، عداءً للإيمان، أو اتقاءً لما يصيبهم من جرّائه، فهذه الحالة

(١) تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم =

المعقدة المتشابكة تقتضي إثارة اليقظة في قلوب المؤمنين، والحذر من تسلسل عواطف القرابة، المانعة من مواصلة التضحية في سبيل الله، فاحذروهم، أو عالجوهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

والفتنة - وهي الامتحان - أعم من فتنة الخير وفتنة الشر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1] ومن فتنة الخير الوُلد الخيِّرون، كما يروى عن الرسول ﷺ بحق الحسنين عليهما السلام[2].

فليبتغ المؤمن النابه من الله الأجرَ العظيم، فيجعل أمواله وأولاده وحياته كلها ذريعة للوصول إلى مرضاة الله، فيعيش تقوى الله كما يستطيع:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾:

والتقوى المستطاعة هي حق التقوى بحساب العبد، دون حساب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3] ترى أن الله يأمرنا نحن الضعفاء فوق المستطاع، المستحيل الحصول: حق تقوى الله

= بشيء أبداً، فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله أن يسوق بحسن وصله فقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٢٨ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: صدق الله إذ قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

بحساب الله؟ و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ و«... إِلَّا ما آتاها»، والرسول الأقدس وهو أول العابدين يقول: «ما عبدناك حق عبادتك»! فما أسطورة التناسخ بين الآيتين إلا أكذوبة وقصور فهم ممن لا يفهمون مرادات الله، فهل يعقل التناسخ بين الممكن والمحال؟.

فالآيتان تتجاوبان في حقيقة واحدة: تقوى الله المستطاعة حقها، فالتقوى الحقة - دون الباطلة - المستطاعة، دون ما لا يستطاع - هي التي يؤمر بها المؤمن: أن يكرس طاقاته كلها في التقوى ومكافحة الطغوى، وأن يسلك سبيل الحق فيها دون ملل ولا فشل.

وكما أن التقوى الواجبة هي المستطاعة الحقة، كذلك مخلفاتها من سماع الحق وطاعته وإنفاق الخير في سبيله دون شح وبخل:

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ من الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ الله ورسوله ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا﴾ في سبيل الله، فلا يرجع إلا ﴿لِّأَنفُسِكُمْۗ﴾ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ﴾[1] ﴿... يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[2] ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ﴾[3] - والله غني عن عباده - فسبيل الله هنا وهناك ليست إلا سبيل مصلحة الإنسان، الحقيقية، على ضوء وحي الله، فهي سبيل الله لأنها بأمر الله ودلالته، وهي سبيل الإنسان لأنها بفعله ومصلحته، وإن كانت بتوفيق الله، فإنفاق الخير وإن كان إفناءً للمال حسب الظاهر، ولكنه نفقة مباشرة لذواتهم وفيها مزيد هو وعد الرحمة الإلهية لمن أنفق خيراً لنفسه.

والنفس الإنسانية وأضرابها، هي دائماً شحيحة في الإنفاق، فمفلجة صاحبها عن سلوك سبيل الله، إذاً فلا فلاح إلا بوقاية شح النفس: ﴿وَمَن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ. . .﴾[١] ﴿يُوقَ﴾ لا «يقي» لأن الواقي ليس الإنسان فحسب، كما ليس هو الله دون سعي من الإنسان، فمبدأ الوقاية في توقّي النفس وسعيها أن تقي شحها، وهي لا تكفي! ثم الله يتمم له الوقاية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[٢] فلنسأل الله تعالى كما سأله الطاهرون (اللهم قني شح نفسي)[٣].

إلى هنا أُمر المؤمنون بالإنفاق خيراً لأنفسهم، ومُنعوا عن شح النفس، ثم نرى تزويدهم رغبة في الإنفاق برحمة وعناية تتخطى التصور، إذ يسمى إنفاقهم لأنفسهم قرضاً حسناً لله فيعدهم المضاعفة!:

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾:

فتبارك الله ما أكرمه وأرحمه، ينشئنا، ثم يرزقنا، ثم يسألنا فضل ما أعطاه، خيراً لأنفسنا، ثم يسميه قرضاً لنفسه رحمة بنا وتشجيعاً لنا، ثم يشكرنا! سبحان الله العظيم! فحق لهذا العبد الهزيل الذليل أن تزهق نفسه شوقاً للقاء هذا الرب الجليل، فضلاً عن ماله القليل القليل، سبحان الرب الجليل!.

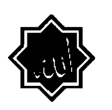
وكما الإنفاق هو الإفناء، أن يؤتي ماله دون ابتغاء شيء ممن سوى الله، فيرى كل شيء عند الله، كذلك الإقراض هو الإقطاع، أن تقص وتقطع وتختص من مالِك ومالَك: الله، قرضاً حسناً: بنيّة حسنة، من مالك الحسن

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) القمي عن الفضل بن أبي مرة قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: اللهم قني شح نفسي، فقلت: جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء! فقال: وأي شيء أشد من شح النفس؟ إن الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

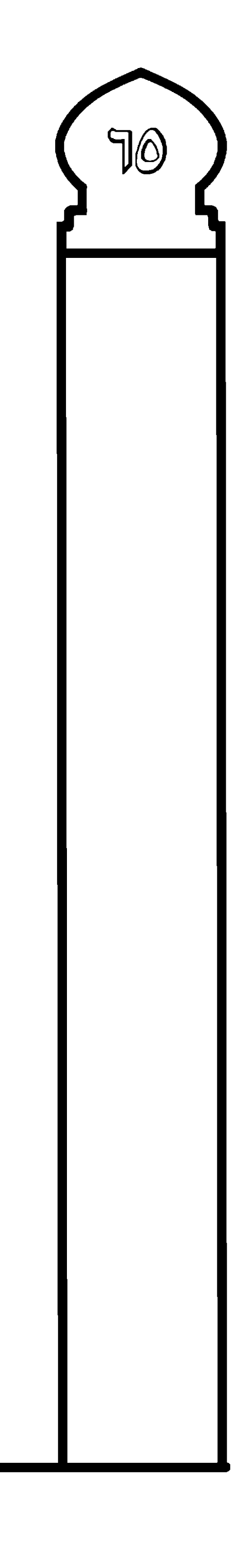
دون الـرديء: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١) ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾(٢).

والقطع الحسن: دون رئاءٍ ولا منٍّ ولا أذىً: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾(٣) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾(٤).

إن تنفقوا هكذا وتقرضوا ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ من سيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ لما أنفقتم ﴿حَلِيمٌ﴾ عما أسأتم ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ فالكل له شهادة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء، فلا يغلبه شيء، ولا يحتاج إلى شيء من إنفاق وقرض ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن حكمته ورحمته يسمي إنفاقكم خيراً لأنفسكم، قرضاً لنفسه.



(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.



سُورَةُ الطَّلَاقِ



مدنية – وآياتها اثنتا عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ
بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ
لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ
لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ
يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ
حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي
يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ
يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ
مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا
تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ
حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ

فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

هنا يختص النبي ﷺ بالخطاب في البداية، رغم أن الحكم عام للمسلمين، لأنه أمر هام، بالغ الأهمية والخطورة، لحدّ كأنه بحاجة إلى رعايته باهتمام جماهيري من المسلمين، يرأسهم صاحب الرسالة، ففيه من الترغيب والتأكيد ما ليس في سواه، وفيه من توعيد المتلكئين المضارّين ما ليس في سواه، مما يدلُّ على أن الطلاق أبغض الحلال عند الله، والمحرمات فيه أبغض الحرمات عند الله.

إنها سورة كاملة في القرآن، كلها موقوفة على تنظيم حالة الطلاق وقبله ومتخلفاتها، حالة تهدّم وانتهاء، كأنها أضخم من هدم دولة، ولأن دولة الإسلام متشكلة من التجمعات الجزئية، فالانفصام والفراق فيها يتخطى إلى تهدّم الدولة، ولذلك ترى أن فراق الطلاق إسلامياً نظِّم بحيث كأنه وفاق آخر بعد الطلاق يخلفه، وفاق هو من مخلفات العدل في الفراق، لحدّ يحبب بعضهم إلى بعض رغم الطلاق: «وائتمروا بينكم بمعروف».

وبما أن الإسلام يعني من التقاء جسدين في الزواج خلق الخلية الأولى من جسد الأمة أي: التقاء قلبين، لا قالبين فحسب، إنما التقاء إنسانين كأنهما إنسان واحد، لذلك يراعي في باب الطلاق أن يبقى الالتقاء الإنساني بوحدة القلبين باقياً، رغم فراق القالبين، كأنهما شريكان مسلمان متسالمان في تجارة، عرفا بعد التجربة ردحاً من الزمن أن ليس بينهما انسجام فيها، لعلل خارجة عن طوقهما، ففضلا الفراق فيها، لكيلا تتخطاهما إلى الفراق عن الأخوة الإسلامية، أو التخلف عن شرعة الله، فإنهما الأصلان الجذريان في كافة القوانين والأنظمة الإسلامية.

لذلك ترى الآيات في باب الطلاق هنا وفي البقرة وسواهما، تتشدد على من يستغل الطلاق للمضارة: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾(١) وإنما ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾(٢) ثم بعد الطلاق لهن زيادة حق في المعروف ليزيل عنهن بغض ووصمة الفراق: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(٣) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾(٤) - كما في طلاق الخلع والمبارأة - ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾(٥) ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(٦).

مضارة ممنوعة على أشراف الطلاق، ومتاع بالمعروف حينه، ثم يستمر المعروف بعده متجلياً في تحريرهن في الزواج: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾(٧) زواجاً بمن طلقهن، فأحرى! أو زواجاً بغيرهم فلا جناح، ولماذا العضل؟!

هذه جولة مختصرة في شروطات الطلاق ومخلفاته، تجعله فراقاً قالَبياً، مع الحفاظ على الوفاق قلبياً قدر المستطاع، وهذا هو الطلاق في الإسلام، لا الذي يهدم البيوت، ويهدر النفوس والنفائس والأعراض، ممن لا يتقيدون بحدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

تنزل سورة الطلاق(٨) هنا وآيات الطلاق هناك، لا لثورة نسائية عربية أو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.
(٨) وتسمى أيضاً سورة النساء القصرى، قال ابن مسعود في حديث العدة: من شاء باهلته أن سورة النساء القصرى نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

عالمية، ولا لأن المرأة دخلت الندوات أو الشوراءات، ولا لأنها سيطرت زمنياً على الزمن ورِجاله ورَجّاله، وإنما كانت هي شريعة الإسلام وعدالته وإرادته بحق المرأة المظلومة المنكوبة التي كانت حيوانة وأردأ منه ردحاً بعيداً من الزمن، فأصبحت على ضوء الشرعة الإسلامية: وليدة لا تُوأد ولا تهان، ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها، وزوجة لها حقوقها وكراماتها، وأُمّاً لها ضماناتها الكريمة، فارتفعت حياة هذه الهزيلة الذليلة، من تلك الهوة والوهدة، إلى حياة عزيزة أمينة رفيعة.

ترى أن هذا الدين المتين الأمين يعرض عنه أو ينكره إلا مطموس منكوس موكوس، وفيه ضمانات الحياة كلها! وكراماتها كلها!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾:

تجعل الآية من النبي وأُمته وحدة متماسكة، كأن النبي هو هو ومن معه، ولأنه لا يستقل عنهم، فكيانه هو الرسالة، والسفارة الإلهية لهم: لا يأخذها إلا ليعطي.

وطلاق النساء هو فراقهن عن نكاح دائم، دون المنقطع وملك اليمين، فإنه الهبة فيهما دون طلاق، و﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ وإن كانت تدل بمفردها على مضي الطلاق، وهو ينافي إمضاءه بعده: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ ولكن «إذا»: الشرطية الزمنية يَسلخها عن المضي إلى المشارفة: عند تصميم الطلاق فطلقوا هكذا.. إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن لعدتهن، ليس إلا، فالطلاق لغير العدة لا يجزي ولا يجوز للائي لهن العدة - إذاً - فلا تشمل «النساء» هنا غيرهن، لمكان ذكر العدة، فما هي العدة؟ وما هو الطلاق للعدة؟

العِدة هي هيئة خاصة من العَدَد، وبينهما عموم مطلق، فكل عِدة عدد ولا عكس، فمن الأعداد ما هي مجهولة غير محصيّة، ولكن العدة هي المعلومة من العدد، سواء أكان المعدود زماناً، أو مكاناً أو أشخاصاً أم ماذا؟

ومن عدة النساء أشهر تربصهن بأنفسهن نظرة زواج جديد، أو التحلل عن الأول، كذلك وتريث أزواجهن رجاء الرجوع إليهن قبل انقضائها، إلا في عدة الطلاق البائن فإنه تربصٌ بهن للزواج ورعاية لحرمة الزوجية، اللهم إلا في المختلعة والمبارأة إذ تصبح رجعية باسترجاع حقها. ومنها عُدد الطلاق المسنون في الإسلام، وهو من الواحد إلى التسعة، دون زيادة ولا نقيصة[(١)]، و﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ تتحمل العِدتين: أن يطلّقن العدد المعلوم، ولزمن معلوم: عِدة الدفعة وعدة الزمن، وعدة الزمن هي مجموعة زمن التربص بداية ونهاية، فـ «لعدتهن» دون: من عدتهن، أو إلى عدتهن، أو في عدتهن، إنها تشملها بدأً وختماً.

فليس الطلاق بذلك الفوضى في العدد، ولا في تطبيق العدد، ولا في العِدة الزمنية بداية ونهاية، وكما نعرف عدة المرات وكيفية تطبيقها من السنة: أنها واحدة إلى تسعة، لا تتحقق إلا واحدة لوقت واحد، كذلك نعرف العدة الزمنية أن بدايتها في المدخول بها، غير الحامل ولا الصغيرة أو اليائسة، هو طهر غير المواقعة، فالطلاق لا يجوز ولا يجزي في طهر المواقعة، وفي حيض غير الغائب ولا الجاهل، لأنه خلاف عدتهن المفسرة في السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ[(٢)] و من الحكمة في هذا التوقيت،

---

(١) أصول الكافي عن جعفر بن محمد عليه السلام قيل له: أخبرني عن رجل قال لامرأته أنت طالق عدد نجوم السماء؟ فقال: ويحك؟ أما تقرأ سورة الطلاق؟ قلت بلى - قال: فاقرأ، فقرأت: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، قال: أترى هاهنا نجوم السماء؟ قلت: لا . .

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٢٩ - أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر =

إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي ثارت فيها النفس للفراق، فقد تسكن إن كانت طارئة وتعود إلى الوئام، فليتربص حتى تطهر، ثم إن ملك نفسه وأراد الطلاق قبل الوقاع، فهذا دليل تمكن الإرادة، وقليل هؤلاء، وكثير أُولاء الذين تتوق أنفسهم إلى الوقاع بعدما صبرت أيام الحيض، فتؤجل الطلاق لطهر آخر إذا كان تصميماً غير تام، ومن ثم ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ وهذه أولى المحاولات لدفع المعول عن ذلك البناء الرصين: الزوجية، ثم تتلوها محاولات أخرى.

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: طلاقاً، وعدة للطلاق، وإنما يؤمر الأزواج بإحصائها، مع أنه لصالح الزوجات أيضاً، نظرةَ الزواج الثاني، لأن مصلحتهم هنا أكثر من مصلحتهن ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ فأراد الرجوع، فإذ لم يحص العدة لم يضبط معه الرجوع، وكذلك النفقة الواجبة عليه زمن العدة، فهنا مصلحة المنفق تقتضي ضبط العدة، لكيلا تزيد عن الواجب عليه، ومن مصالحها في الإحصاء ألا يطول عليها الأمد فيطول

= وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال ﷺ ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وفي وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٢٧٢ ح ١ بإسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: والله لو ملكت من أمر الناس شيئاً لأقمتم بالسيف والسوط حتى يطلقوا للعدة كما أمر الله عز وجل وفي ج ٣ عنه عليه السلام لو وليت الناس لعلمتهم كيف ينبغي لهم أن يطلقوا ثم لم أوت برجل قد خالف إلا أوجعت ظهره ومن طلق على غير السنة رد إلى كتاب الله وإن رغم أنفه وفي ج ١ ص ٢٧٣ عن عمرو بن رياح عنه عليه السلام قال قلت له: بلغني أنك تقول من طلق لغير السنة أنك لا ترى طلاقه شيئاً فقال عليه السلام ما أقوله بل الله يقوله... وفي ص ٢٧٤ الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الطلاق لغير السنة باطل.

أقول: فما ورد من صحة الطلاق لغير العدة زخرف يضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ المتواترة الثابتة عنه.

الانتظار للزواج الثاني، فإنه يضم النفقة أيضاً، وألا ينقص الأمد فتقل النفقة ويكون النكاح الثاني نكاحاً بالمعتدة وهي من المحرمات الأبدية.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ في طلاقهن لعدتهن، فلا يكن لغيرها، وفي إحصاء العدة، فلا تزيدوا فيها نظرة الرجوع، أو المضارة، ولا تنقصوا عنها تنقيصاً للنفقة، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كذلك في إخراجهن أو خروجهن عن بيوتهن:

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾: «بيوتهن» لكي تعم البيوت التي سكنَّها كبيوت الزوجية، لا «بيوتكم» فليست النساء كلهن في بيوت أزواجهن، فبيت الزوجية المقرر لها بنفقة الزوج، هو حق لها إلى نهاية العدة الرجعية، فإن كان هذا البيت عارية أو مستأجراً وانتهت مدته، كان عليه تبديله بغيره، كل ذلك رجاء الرجوع، فإخراجهن عنه محرّم مهما كلف الأمر، وكذلك خروجهن، وليس لهما المصالحة على خروجها لأن بقاءها ليس حقاً لهما فحسب، إنه حكم الله، لا يقبل المصالحة، وحق المجتمع، وحق الزوجين، فإن أردن الخروج كان عليهم المنع نهياً عن المنكر، فأحرى للزوج هذا النهي لأنه لصالحه، وإن أراد إخراجه كان لها النهي والتمنع، وإلا فعلى الحاكم الشرعي منعهما عن ذلك، كما على كل مسلم، ولها أن تتزين وتتجمّل لزوجها وتحاول في جلب نظره كما وردت به أحاديث سناداً إلى الآية[1].

فلا يجوز إخراجهن ولا خروجهن لأي أمر اللهم إلا الواجب المضيق شرعاً كالحج، أو لضرورة أخرى يتطلب خروجها وتفوت بمضي العدة، فتخرج قدر الضرورة.

وهل الإخراج والخروج الممنوعان هما إخلاء بيت الزوجية عنهن

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٤٣٧ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المطلقة تكتحل وتختضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١].

للنهاية؟ أم وخلوه أكثر من العادة الجارية قبل الطلاق؟ أم مطلق الإخراج والخروج ولو ساعة؟ أقول: إن الإخراج قرينة على المعني من الخروج أنه لا يشمل القليل، فالأول هو القدر المتيقن، ويلحقه الثاني استيحاءً من حكمة البقاء، والثالث غير محتمل، إذ لا يصدق عليه الإخراج، ولا يضر برجاء الرجوع، فلا إخراج ولا خروج هكذا إلا لضرورة قدرها، وإلا:

﴿أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾: مبينة أنها فاحشة: تجاوزت الحد، ومبينة للبينة، أو للزوج، ومبينة أنها لا تصلح للعودة:

مثلث التبيين: من زنا ومساحقة، أو نشور لا يتحمل، أو إيذاء، الأمور التي تبين ألا رجاء للرجوع، وأما الفاحشة غير المبينة، من الثلاث أم سواها، أو غير الفاحشة من المعاصي والتخلفات، وبصيغة جامعة، التي لها علاج عاجل أو آجل، فهي لا تسمح للإخراج أو الخروج، بخلاف المبينة التي تصارح ألا علاج إلا الفراق، فالحكمة في إبقاء المطلقة في بيت الزوجية هي إتاحة الفرصة للرجوع، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، وقد زالت كلها بفاحشة مبينة، إذ ارتكست في حمأة الزنا وهي بعدُ في بيت الزوجية، أو بغيرها من فاحشة: معصية متجاوزة حدها، مبينة أنها تتعمدها لكي تتحلل، وهل يبقى بعد هذا البيان الصريح مجال لرجاء الرجوع؟

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ المحددة للطلاق والعدة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أياً كان التعدي، كمن يطلق حالة الحيض، أو في طهر المواقعة، أو يخرجها عن بيت الزوجية دون مبرِّر ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ إذ قطع عنها رجاء الرجوع في الفترة المسموحة له، وظلم زوجه التي هي كنفسه، ظلماً مزدوجاً هنا، وسوف يراه في الأخرى.

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ وإن كنت دريت من نفسك عدم

ميل الرجوع، ولكن مقلب القلوب قد يحدث في هذه الفترات أمراً مرغوباً، فتتغير الأحوال البئيسة إلى هناءة ورضى، فالنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، وتغلق عليها منافذ المستقبل، فتزعم اللحظة سرمداً، رغم أن المستقبل قد يحمل ما لم يكن بحسبانه، يحمل أمر الله المقلب للقلوب والظروف والملابسات، فيجعل الله بعد عسر يسراً، فربَّ محتوم عندك بما تراه، متغير عند الله بما يراه، فغيِّر حتمك في نظرك القاطر، إلى ما يراه الله القادر، ولا تمض فيما حكمت إلا متربصاً متريثاً راجياً رحمة الله، فطلاقك حالة الحيض، وهي حالة كريهة، وفي حالة طهر المواقعة، وقد قضيت حاجتك منها، وإخراجك زوجك عن بيت الزوجية، زمن العدة، كل ذلك استعجال لما رأيت، وصدّ عن استئناف الرأي ورجاء الرجوع، وعن أن يحدث الله بعد ذلك التصميم العاجل الجاهل - أمراً، هو لصالحك وزوجك!

هذه الحكم والعلل في تأجيل الفراق تأتي برهاناً بيناً على طلاق الطلقات الثلاث في مجلس واحد، وكذلك كل لعبة تزيل رجاء الرجوع، فإنها استهزاء بآيات الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾[1].

وهذه هي المحاولة الثانية لدفع معول الطلاق - بعد وقوعه - عن اجتثاث البناء، فإن المطلقة رجعية زوجة ما دامت في العدة.

ثم وفي نهاية العدة ومشارف الفراق يؤمر بالتلطف معها إمساكاً أو فراقاً:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٖ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٖ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾:

الأجل البالغ لغير الحامل وغير المسترابة، ثلاثة قروء: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾[2] كضابطة عامة للمعتدات إلا من استثني.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

والإمساك بمعروف هو الرجوع إلى بلوغ الأجل، فإذا بلغ وخرج فلا رجوع، والفراق بمعروف يحصل بعدم الرجوع حتى يخرج الأجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾[1] ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾[2].

﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو الرجوع إلى عصمة الزوجية، ويتحقق الإمساك الرجوع بالقول والفعل والإشارة، الدالة عليه، ومعروفه ألا يكون ضراراً واعتداءً، تضييقاً عليهن نقمة، أو رجاء الأخذ مما آتوهن شيئاً و«لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ بأن يصبر إلى قبيل النهاية فيراجعها لا لغرض العود إلى عصمة الزوجية، وإنما ليطول تربصها، وتذوق وبال الرجوع في سجن هكذا رجوع، ثم يطلقها ثانية ويضارها كالأول، فهذا الإمساك الضرار لا يجوز وقد لا يجزي، وهو من اتخاذ آيات الله هزواً، فآيات الإمساك والرجوع تعني الإصلاح، وأنت تعني الإضرار! وإنما الإمساك المعروف هو المسموح الذي يعرفه الضمير الإنساني الطاهر، والفطرة السليمة الإسلامية، وهو العود إلى حياة سليمة أمينة متينة، وإلا فلا مجال إلا الفراق والتسريح بإحسان، فراق جسدي لا فراق ودّي، فراق لا يفارق الإحسان: خلقياً ومالياً، أن تؤدي ما فرض الله لهن وزيادة: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4].

فَصِلة الزوجية - إسلامياً - تقوم بمعروف وتنتهي بمعروف، استبقاءً لمودَّات القلوب مهما افترقت القوالب، فقد تعود بعد الفراق إلى عشرة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

حسنة وأحسن مما مضى، فلا تنطوي على ذكرى رديئة، أو شائبة تعكّر صفاءها عند ما تعود.

﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وهل إن اشهاد ذوي عدل يختص بالطلاق؟ إذاً فلماذا لم يأت بعده دون فصل به أن يقول: فطلقوهن لعدتهن وأشهدوا . . ! أو أنه يعمه والإمساك والفراق، شهادة مثلثة: للطلاق والرجوع أو الفراق؟ وليس الفراق عند بلوغ الأجل إلا استمرار الطلاق فلا يحسب له حساب مستقل عن الطلاق، إلا أن نقول: الطلاق يتطلب شهادتين مرتين! أو أنه للطلاق والرجوع؟ وهذا هو الظاهر من هذه الشهادة المتأخرة ذكراً عن الإمساك، فكما الطلاق بحاجة إلى شهادة حفاظاً على المواريث والأنساب، وانسراحاً للمطلقة في زواج آخر، كذلك الرجوع، ولكي تثبت حقوق الزوجة من جديد، فقد يعلم الناس بالطلاق، ولا علم لهم بالرجعة، فتثور شكوك وتقال أقاويل، إلا أنّه قد يكتفي بشهادة الرجعة بعدها، إذ لا تتيسر غالباً عندها، ويحصل المقصود، فإنها لفظة قول أو عمل لا تعلم إلا من قبلهما، ولكن الطلاق بحاجة إلى شهادة حينه، لكيلا يلتبس الأمر، ويكون عن بينة[1].

ولا تكفي ذوات العدل عن العدلين مهما كثرن وطمئنّ، ولا حجة في القياس ولا في غيره وإن كان حجة، لمخالفة الآية، فإثبات ذوي عدل للشهادة هنا ينفي ما عداهما، ولو كفت النساء فلماذا تختصها الآية برجلين، ولا تذكرهن بدلاً كما ذكرن في الدّين: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[2]، فعدم ذكر البدل في شهادة الطلاق يجعل الآية صريحة في اختصاصها بعدلين.

---

(١) مما يدل على الإشهاد للرجعة ما رواه في الكافي عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن طلاق الحبلى (إلى أن قال) قلت: فإن طلقها ثانية وأشهد ثم راجعها وأشهد على وعد رجعتها ومسها. . إذ يدل على أن الإشهاد للرجعة مركوز في أذهان المتشرعة كالإشهاد في الطلاق.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾: أقيموا أيها المستشهدون، والشهداء، ومن يعلم الشهادة، أقيموها في محاكم الشرع عند الحاجة «للّه» لا لصالح الزوج أو الزوجة أو الحاكم أم ماذا، إنما «لله» فلا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا توعيد واعد، ولا رغبة في جاه أو مال، فالقضية هي قضية الله، والشهادة فيها إنما هي لله، هو الآمر بها، والرقيب عليها، والمجازي بها، فأقم الشهادة لله ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾:

ذلكم الحدود كلها، إنها قضية الإيمان بالمبدأ والمعاد، فمن يتعداها فقد تعدى الإيمان:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هنا وفي غيرها من حدود الله ومحارمه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: «من الفتن ونوراً من الظلم»[(١)] ومخرجاً من مضايق التقوى وعقباتها وعرقلاتها، فـ «من اتقى الله يُتقى، ومن أطاع الله يطاع»[(٢)] ومن لم يتق الله اتقى من غير الله، فـ «من خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلِّ شيء»[(٣)] ومن مخرجه أن يعلم من قبل أو حينه أمر الله، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه، وقد قال الرسول ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

ومن مخرجه في الطلاق أنه يخرجه عن عقباته ويرزقه من حيث لا يحتسب من الطيبات.

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام.
(٢) أصول الكافي عن أبي الحسن عليه السلام.
(٣) في الخصال عنه عليه السلام أيضاً.

ومن المضايق في سبيل التقوى مضايق الجهل بالواجب، وإضلال الضالين، وإغراء المبطلين، فهي بحاجة إلى فرقان ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١]: تفرقون به بين الحق والباطل، فتقوى الله تعالى يخلفها مخرج وفرقان من الله، نور يمشي به في الظلمات.

وكلا المخرج والرزق من حيث لا يحتسب، يعمان الدنيا والآخرة، كما يروى عن الرسول ﷺ أنه قرأ الآية وقال ﷺ: «من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة»[٢].

وقد يظن المؤمن أن لو اتقى عاش ضنكاً، فيضنُّ بالتقوى أحياناً ويمارسها أخرى، زعماً منه أن أسباب الرزق محصورة فيما يحتسبها، ولكن الله:

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: رزقاً عقلياً وعلمياً وعملياً، ورزقاً نفسياً وضميرياً ورزقاً مادياً وما إليها من صنوف الأرزاق، غير المحتسبة، الداخلة في حساب الله لمن اتقاه.

هذا، ولكنه ليس يكتفي بتقوى الله من الرزق المحتسب الواجب تحصيله بالسعي، لكي يكتفي بها عن طلب الرزق[٣]، وإنما الله يطمئن

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٢) أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لعلي بن عبد العزيز: ما فعل عمر بن مسلم؟ قال: جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: ويحه! أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له، إن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ لما نزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ . . .﴾ [الطلاق: ٢] أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم قال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله ﷺ! تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، قال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب. وفي عوالي الآلي فعلم النبي ﷺ بذلك فعاب ما فعلوه وقال: إني لأبغض الرجل فاغراً فاه إلى ربه: اللهم ارزقني ويترك الطلب.

(٣) الدر المنثور ٢٣٢ - أخرج أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس عنه ﷺ.

المتقين أنهم لا ينقصهم ما قدِّر لهم بالتقوى، التي تحول بينهم وبين شيء من الرزق المحتسب، فإن الله يبدلهم بغير المحتسب، وفيما إذا اقتضت التقوى ترك الطلب، فحشرت الأوقات كلها في سبيل التقوى الواجبة، كالجهاد، وطلب العلم، والدعوة إلى الله، فهنالك يكون الرزق كله من حيث لا يحتسب(١) وقد قال الرسول ﷺ: «لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» و«اتخذوا تقوى الله تجارة يأتكم الرزق بلا بضاعة ولا تجارة» ثم قرأ الآية(٢).

---

(١) القمي - عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: قال: هؤلاء قوم من شيعتنا ضعفاء ليس عندهم ما يتحملون به إلينا فيسمعون حديثنا، ويقتبسون من علمنا، فيرحل قوم فوقهم وينفقون أموالهم ويتعبون أبدانهم حتى يدخلوا علينا فيسمعوا حديثنا فينقلوه إليهم فيعيه هؤلاء ويضيعه هؤلاء فأولئك يجعل الله عز وجل ذكره لهم مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون (نور الثقلين ٥: ٣٥٥). أقول: هذا من أبرز مصاديق الآية دون اختصاص لها به.

وفيه بإسناده عن أبي جعفر الخثعمي قال: لما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة شيعه أمير المؤمنين عليه السلام وعقيل والحسن والحسين عليهما السلام وعمار بن ياسر رضي الله عنه فلما كان عند الوداع قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا ذرّ! إنما غضبت لله عز وجل فارج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فأدخلوك على الفلا وامتحنوك بالقلاء، والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله جعل له منها مخرجاً، لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٣٣ - أخرجه الطبراني وابن مردويه عن معاذ بن جبل عنه ﷺ. وقد ورد في سبب نزول الآية أحاديث عدة نذكر منها التالي:

الدر المنثور ٦: ٢٣٢ - أخرج الخطيب في تاريخه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في الآية - قال: نزلت هذه الآية في ابن لعوف بن مالك الأشجعي وكان المشركون أسروه وأوثقوه وأجاعوه فكتب إلى أبيه أن ائت رسول الله ﷺ فأعلمه ما أنا فيه من الضيق والشدة، فلما أخبر رسول الله ﷺ قال ﷺ له: اكتب إليه وأخبره ومره بالتقوى والتوكل على الله وأن يقول عند صباحه ومسائه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩] فلما ورد عليه الكتاب قرأه فأطلق الله وثاقه فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم وغنمهم فاستاقها فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إني اغتلتهم بعدما أطلق الله وثاقي فحلال هي أم حرام؟ قال ﷺ: =

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(١)] بعدما اتقاه بالمستطاع دون بتل ولا فشل ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ عما سواه من الأسباب، فإنه مسبّبها ومالك أمرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ - و﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] - ولا أمر: من الأشياء أو الأمور، أو الأوامر، إلا صادراً عنه وفاعلاً بإذنه، فهو بالغ أمره تشريعاً وتكويناً، بلا قصور ولا تقصير ولا فتور ولا تقتير، فليس بحاجة في إنفاد أمره إلى أسباب، وإنما الأسباب بحاجة إليه في كيانها وآثارها، فهو البالغ للأمور كلها لا سواه، وهو الغالب عليها لا سواه، فعليه التكلان وبه المستعان لا سواه، ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: بمقداره، وبزمانه وبمكانه وبملابساته ونتائجه وأسبابه، دون صدفة ولا فوضى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(٣)] ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[(٤)] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[(٥)] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[(٦)]، فلا فوضى في أمره، ولا بلوغه أمره، وإنما كلٌّ حسب الحكمة العالية.

= بل حلال، إذا شئنا خمسنا، فأنزل الله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

(١) معاني الأخبار للصدوق رحمه الله بإسناده عن أحمد بن أبي عبد الله قال: جاء جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرائيل! ما التوكل؟ فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله، فهذا التوكل.

وفي الدر المنثور ٦: ٢٣٤ عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

وفيه عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢١.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٧.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٨.

فإذ يأمر الله بأمر فهو إلى رشد وصلاح مهما كانت العقبات والعرقلات، وعامله إلى نجاح، والله هو حسبه في الإنجاح، فإنه بالغ أمره، دون أن يحجزه حاجز، أو يعجزه معجز!

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾:

هذه والمسبقة عليها تختص بعُدَد الطلاق دون الوفاة، وبالمدخول بها غير اليائسة دون غيرها، فالمطلقة المدخول بها إذا كانت في سن من تحيض وهي تحيض فعدتها ثلاثة قروء، وإذا لا تحيض فثلاثة أشهر، وكذلك اليائسة المسترابة ولا عدة لغيرها.

واليأس من المحيض، منه مريب كما يرتاب فيه أنه لبلوغها إلى سن اليأس أم لمرض، سواء أكان للشك في كونها هاشمية أم سواها، أو الشك في قدر عمرها أم ماذا، ومنه غير مريب كالواصلة إلى سن اليأس فلا عدة لها، أو التي هي في سن من تحيض ولا تحيض، فعدة الأولى والأخيرة هي ثلاثة أشهر.

﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: مهما كانت الضابطة في العدة للمدخول بهن غير اليائسات، الأقراء أو الأشهر، فأولات الأحمال والمتوفى عنهن أزواجهن خارجات عن هذه الضابطة، فالحاملات يتربصن حتى يضعن حملهن، والمتعزيات يتربصن أربعة أشهر وعشراً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١] إذاً فما هو أجل الحاملات المتعزيات؟.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

أقول: إن بين الآيتين بالنسبة لهن تجاوب الجمع بين الأجلين، فبينهما عموم من وجه، تتصادقان وتجتمعان في الحاملات المتوفى عنهن أزواجهن، فآية الحاملات تشملهن والمطلقات، وآية الوفاة تشمل الحاملات وغير الحاملات، فالآيتان - إذاً - تحملان لمورد الجمع أجلين، أحدهما للحمل والآخر للوفاة، فهما إذاً يتداخلان والغاية أبعد الأجلين، من وضع الحمل والأربعة وعشراً، فليس هنا لأجل الوضع مجال التعجيل، إلا التأجيل إلى أجل الوفاة لوجود السببين.

ثم لا أجل للحاملات المطلقات إلا وضع الحمل، ولا للمتوفى عنهن أزواجهن غير الحاملات إلا أجلهن الخاص ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1]، كما توحي بهما الآيتان، إذ ليس في كلٍّ إلا أجل واحد، إلا إذا اجتمعا فتداخل الأجلان.

فمهما أوحت آية الحاملات باختصاص الأجل بوضعه، وآية الوفاة باختصاصه بالأربعة وعشراً، فإنما الاختصاص هنا وهناك إذا لم يوجد إلا سببه الخاص، ففيما اجتمع السببان فالآيتان تتجاوبان في جمع الأجلين المسببين.

ثم إن أولات الأحمال تعمُّ كل حمل، في أيٍّ من أشهر الحمل، وأيّاً كان الحمل وإن كان مضغة[2] أو نطفة مستقرة، كما يعمُّ الوضع المعتاد وسواه من إجهاض، جنيناً كاملاً أو سواه وإلى نطفة تنطف، عامدة في الوضع أم سواها.

فلا رجعة إلى أولات الأحمال المطلقات بعد الوضع وإن كان بعد هنيئة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٢) الكافي بإسناده إلى عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن الحبلى إذا طلقها فوضعت سقطاً تم أو لم يتم أو وضعته مضغة؟ قال: كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تم أو لم يتم فقد انقضت عدتها وإن كان مضغة.

من الطلاق، إذ لا أجل لهن إلا الوضع، كما لا يجوز الزواج للحاملات المتوفى عنهن أزواجهن إلا بعد الأربعة وعشراً، فإنها الأجل الثابت بشأن الوفاة، إلا أن يضعن بعدها فبعده[١].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾: مهما كان عسراً في ظاهر الحال والبداية - ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٢] -: يسراً في ضميره، ويسراً في فلاحه ونجاحه، ويسراً في عاجله وآجله.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾:

فتقوى الله في كبائر الحسنات والسيئات، تكفير لصغائرهما، وإعظام للأجر: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٣].

فهذا مربع الوعد الإلهي الحنون لمن اتقى: عاش حياته التقوى - أن: يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويجعل له من أمره يسراً، ويُعظم له أجراً، أركان أربعة تنتجها التقوى في بناية الحياة، فيا لتقوى الله موقعاً عظيماً، وفي باب الطلاق، إذ يدق عليها دقاً متواصلاً هنا، ثم لا نجد في سواه هكذا... فيض يغري، وعرض يثير، تيسيراً للعسير، وتكفيراً للسيئات مع أجر كبير، سبحان الرؤوف الرحيم، الخبير البصير.

ثم ومن التقوى المأمور بها الإسكان من حيث سكنى الوُجد والإنفاق:

---

(١) القمي بإسناده إلى حماد عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام عن المرأة الحبلى يموت زوجها فتضع وتزوج قبل أن يمضي لها أربعة أشهر وعشر، فقال: إن كان دخل بها فرق بينهما ثم لم تحل له أبداً واعتدت ما بقي عليها من الأول واستقبلت عدة أخرى من الأخير ثلاثة قروء، وإن لم يكن دخل بها فرق بينهما واعتدت بما بقي عليها من الأول وهو خاطب من الخطاب.

(٢) سورة الشرح، الآية: ٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣١.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أُخْرَىٰ . . .﴾:

«هن» هنا الرجعيات كما في مسبقة الآيات، فالإسكان هنا كصيغة أخرى عن الإبقاء في بيوت الزوجية هناك كما كن قبل الطلاق، رجاء الرجوع، فـ ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ تصريحة بوجوب إسكانهن في بيت الزوجية، فلا يشمل - إذاً - المعتدات البائنات، فلا يجب بل لا يجوز إسكانهن فيه لانقطاع علقة الزوجية، فهل يجوز إسكان الغريبة في سكناك؟!.

إذاً فلا إسكان، ولا نفقة كذلك، للبائنات المعتدات كغير المعتدات سواء، وكما اتفقت بذلك الروايات عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته الكرام عليهم السلام والمخالفة منها تردُّ إلى قائلها، أو تؤوَّل، أو تضرب عرض الحائط، وأحرى بالضرب الأقاويل التي تقرر أن للبائنة غير الحاملة حق السكنى[1].

والإسكان لمن كانت في بيت الزوجية هو استمرارها فيه، ولمن أخرج عنها هو إرجاعها إليه، ولمن لم يكن لها سكنى الزوجية، كالتي كانت في بيت أهلها، أنه لها تهيئة السكنى، ولمن كانت في بيت بحساب الزوج، وهو في بيت آخر، أن ينقلها إلى بيته، فصيغة الإسكان - إذاً - أشمل من ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ . . . وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وأخص منها كذلك، إذ تدل على وجوب كونها معه قدر الإمكان حالة العدة الرجعية، مهما كان الوجوب قبلها مطلق السكنى.

ثم الإسكان - أياً كان - واجبة الوُجد ﴿مِّن حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾: مكاناً تسكنون فيه، حسب المكنة والمكانة، على الموسر قدره وعلى المعسر

(١) كما في آيات الأحكام للجصاص: اتفق الجميع من فقهاء الأمصار وأهل العراق ومالك والشافعي على وجوب السكنى للمبتوتة.

قدره ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في الإسكان من حيث الفسحة والمستوى، ومن حيث النفقة والعشرة، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فيلجأن للخروج، مضارة مقصودة لغاية التضييق، وأما غير المقصودة، لقصوره أو قتور المال، فلا جناح فيها، فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ النساء: رجعيات وبائنات ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أياً كان الحمل وفي أيّ من أشهر الحمل، حملاً منكم، فالحاملة من زنا قبل الطلاق أو بعده، ليس وضعُها أجلَها، فلا تستحق الإنفاق لأجل الحمل حتى الوضع، وإنما لحدّ ختام الأقراء أو الأشهر ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إنفاقاً للحمل في البائنات، وله وللعدة في الرجعيات.

فهناك الإسكان من حيث سكنى الأزواج خصهن بالرجعيات، وهنا الإنفاق لأجل الحمل عمَّهن والبائنات، وعدم ذكر الإسكان هنا مع الإنفاق رغم ذكره هناك، كذلك يشهد للعموم، فالحاملات الرجعيات لهن سكنى الزوجية، والإنفاق، إذ تشملهن آية الإسكان والإنفاق، والحاملات البائنات لهن الإنفاق الشامل لسكنى غير الزوجية، فلهن السكنى والنفقة حتى يضعن حملهن.

فذكر الإنفاق هنا لا يدل على عدم وجوبه للرجعيات غير الحاملات، إذ دلَّت عليه ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ...﴾ وإنما يدل على وجوبه للحاملات البائنات، ولم يدل عليه دليل من ذي قبل، وإنه الإنفاق، لا الإسكان لهن من حيث سكنى الأزواج، وإن ضمّ مطلق السكنى، وإنه إنفاق قد يزيد على إنفاق الرجعية غير الحاملة، كما إذا وضعت بعد الأقراء، أو ينقص إن وضعت قبلها، مهما اتفق الوضع في ختام الأقراء أحياناً، ففيه زيادة البيان التشريعي أن حقها يختلف عن غير الحامل.

فليس ذكر الإنفاق هنا لمجرد التأكيد، رغم ما قيل، وإنما لأنه يشمل

السابق من جهة، ويخص اللاحق من أخرى، فلا الإنفاق يدل على الإسكان من حيث سكنى الأزواج، ولا أن هكذا سكنى يدل على الإنفاق للحاملة البائنة.

فحاصل المقصود من الآيات، أن البائنات غير الحاملات ليس لهن شيءٌ من النفقة والسكنى(١) إلا مهورهن في غير المفتديات بها، وللحاملات منهن الإنفاق الشامل للسكنى المنفصلة حتى يضعن حملهن(٢)، وللمعتدات الرجعيات الإسكان من حيث سكنى الأزواج، وبأحرى الإنفاق، وكما تؤيد ذلك كلّه الروايات.

ومن ثم إذا وضعن حملهن جنيناً كاملاً حيّاً، يأتي دور الإرضاع، وهي أحق به ولها حق الأجر، وهما مأموران بالحفاظ على صالح الرضيع:

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦)﴾:

فلهن حق الإرضاع وأُجرة الرضاعة مع حق النفقة - لأنهما من نفقة

---

(١) روى الشعبي قال: دخلت على فاطمة بنت قيس بالمدينة فسألتها عن قضاء رسول الله ﷺ فقالت: طلقني زوجي البتة فخاصمته إلى رسول الله ﷺ في السكنى والنفقة فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة وأمرني أن أعتد في بيت ابن أم مكتوم.
وروى الزهري عن عبد الله أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عمر وابن حفص بن المغيرة المخزومي، وأنه خرج مع علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن حين أمره رسول الله ﷺ على اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها، فأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: والله ما لك من نفقة، فأتت النبي ﷺ فذكرت له ﷺ قولهما، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملاً، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها فقالت: أين أنتقل يا رسول الله؟ فقال ﷺ: عند ابن أم مكتوم - وكان أعمى - تضع ثيابها عنده ولا يراها، فلم تزل هناك حتى مضت عدتها، فأنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد.
وفي وسائل الشيعة ١٥: ٢٣١ باب وجوب نفقة المطلقة رجعياً وسكناها وعدم وجوب ذلك للمطلقة بائناً إذا لم تكن حاملاً، فيه عشرة أحاديث.

(٢) المصدر ص ٢٣٠ باب وجوب نفقة المطلقة الحبلى حتى تضع، فيه خمسة أحاديث.

الولد التي هي على والده - وليس له استئجار غيرها إلا إذا رضيت، أو غلّت الأجرة عن مثلها ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، وأما إذا رضيت بالمثل أو دونه فليس له أن يحول رضيعها عنها، إلا لضرورة موجبة أو مرجحة، وإن وجد مَن تأخذ أقل من المثل أو ما دونه، وهذا من الائتمار بمعروف، فمن المنكر التعاسر والتناكر والمضارة بحق الرضيع وأمه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فالآيتان تتحدثان عن حقوق الحامل والرضيع، وتتجاوبان في المطلقة: رجعية وبائنة، وإن عمَّت الثانية غيرهما أيضاً، فعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، ومن الرزق السكنى، وعليه حق الإرضاع طلبن أم لا، إلا إذا وهبْنَه، وللرضيع حق الرضاعة من أمه إلا إذا عجزت أو تعاسر الوالد: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ فإنه أمر بصيغة الإخبار وهي آكد: حقوق ثلاثة للوالدين والرضيع، لكلٍّ نصيبه حسب العدل والحكمة، ولا يجوز أن يُستغل الولد للمضارّة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ مضارة بينهما أو بينهم بسبب الولد.

فلا فصال للرضيع عن أُمه إلا بتراضٍ وتشاور، دون مضارة ومعاسرة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ وأما أن يستبد أحدهما بالفصال فلا، ولا أن يتراضيا دون تشاور، ولا تشاور دون تراض، وإنما وصال في الرضاعة أو فصال عنها على ضوء تشاور عن تراض وائتمار

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

بمعروف، وهو أن يتكلف كلٌّ منهما بالأمر وقبوله بمعروف لصالح هذا الرضيع.

هذا منتهى الرعاية للمرضعة والرضيع في شريعتنا الغراء، وأن يأتمر الوالدان ويتشاورا في شأنه بالمعروف، ورائدهما مصلحته، فإنه أمانة الله عندهما، فلا يكن الفشل في حياتهما نكبة على هذا الصغير البريء، فعلى ضوء المياسرة بحقه تكفل حياته، وأما إذا تعاسرا فالطفل مكفول الحقوق بصورة أُخرى: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾، والتعاسر يكون من الوالدين، تعسير الوالد في الأجرة، وتعسير الوالدة في الرضاعة، أو تكثير الأجرة عليها، أو تعنتها في الأجرة، إذاً فإلى مرضعة أخرى، كيلا يضيع الطفل في جو التعاسر والتقاصر، فإن لم يقبل ثدي مرضعة أخرى تُجبَر الأم بإرضاعه بأجرة المثل، ويُجبَر الأب بهكذا استرضاع، فإن لم يقدر فكما يستطيع، وأما الأم فلا مفرّ لها ولا خلاص - عند الضرورة - عن الإرضاع، فإن مصلحة الحفاظ على حياة الرضيع وسلامته فوق المصالح البسيطة المتخيلة بين الوالدين، كل ذلك فيما إذا لم يغن لبن غير المرضعة، وإلا فلا إكراه على الأم، إلا حقاً واجباً لها، وعليها، شرط أن يصلها حق الرضاعة.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾:

إن واجب الإنفاق للحامل والمرضعة، وللرضاعة، ليس إلا على قدر المكنة من الرزق الواسع والمقدور عليه، فلا تكليف فوق الوسع والطاعة، وإنما قدر ما آتى الله، فلو كان معسراً سيجعل الله له يسراً إن اتقى في الإنفاق الواجب عليه: يسراً محتوماً في الآخرة ومرجوّاً في الدنيا.

فليس للزوج أن يقتُر وله سعة، ولا للزوجة التعنُّت وزوجها فقير قتير، وإنما ائتمار بمعروف: وصالاً في الرضاع، أو فصالاً عن تراضٍ وتشاور فيه

لترضع له أُخرى، دون أي استبداد وتأُمّر عليه أو تساخط وتباغض فيه، فكما كان فصالهما كوصالهما بمعروف، فليكن كذلك وصال الرضيع وفصاله، لأنه منهما وأحرى بالرعاية.

ثم الإنفاق المستطاع لا يخص البيئة العائلية، فإنه واجب في كل البيئات إنفاقاً في سبيل الله: وهي سبيل مصلحة الإنسان جماعات وفرادى، وكما يفسره الرسول ﷺ بهذا الشمول[1].

هنا، وفي ختام الأوامر والنواهي حول الطلاق ومخلفاته، لا نجد أنقاضاً من البيت المتهدم، ولا غبارا يملأ النفوس فيخنقها، ولا قلاقل تثير الاضطراب، فما حصل هنا ليس إلا تفريق الجسدين والبيتين ليس إلا، لو روعيت أحكام الطلاق، فكافة الوساوس والهواجس الدافعة إلى الظلم والضيم أُزيلت بهذه الحِكَم الرصينة، والعلاجات المتينة، إذ مسح على ذلك كله بيد الرفق، والتجمُّل، ونسم عليها من رحمة الرحمن الرحيم.

إن حواجز القانون الجاف الجارف الزمني ليست بالتي تحجز الإنسان الشره الطموع عن طيشه، وإنما الحواجز التي تتعامل مع القلوب والضمائر هي القادرة على تحقيق هذا العدل الحنون، إذ تستجيش حاسة التقوى والخوف من الله المطلع على السرائر.

إن الزوجين يتفارقان جسدياً في ظل هذه الأحكام وفي قلوبهما بذور للودِّ لم تمت، وجذور لإنماء العلاقات قد تنبت ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرًا﴾.

ومن ثم يكرر الوعيد على المتخلفين، والوعد للمتقين، بما يجعلنا نعرف أن باب الطلاق من أهم الأبواب في حقوق الإنسان رعاية وحائطة.

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٣٧ - أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ كان له مائة أوقية بعشر أواق، وجاء رجل كان له مائة دينار بعشرة دنانير، وجاء رجل له عشرة دنانير بدينار، فقال النبي ﷺ: أنتم في الأجر سواء، كل واحد منكم جاء بعشر ماله، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ...﴾ [الطلاق: ٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾:

القرية هي المجتمع، وهي المجتمعون فيه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾[1] ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2] فالمؤمن والمسؤول هما المجتمعون، أنفسهم، دون حاجة إلى تجوز بتقدير «أهل» وإن كانت تستعمل في محل الاجتماع أيضاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾[3] ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[4].

والعتو هو النشوز والترفع والاستكبار عن الطاعة، كأن لا دواء له ولا

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

رجـــوع ولا عـــلاج إلا ارتـــتـــاج: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(١).

فالعاتون كلهم يحاسبون حساباً شديداً لا يبقي ولا يذر، ويعذبون عذاباً نكراً: دهاءً صعباً لا يُعرف، وهذا العذاب النكر ليس إلا ذوق العذاب المتوقع لهم ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ رغم أنه مستأصلهم، فكيف يكون - إذاً - أصل العذاب؟:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾:

عذاباً معدّاً لهم في الأخرى، بعدما ذاقوا وبال أمرهم بذوق العذاب النكر في الأولى، فأين حساب من حساب؟ وأين عذاب من عذاب! فأولو الألباب: الذين لهم ألباب العقول المتحللة عن القشور، المؤمنون بالله وما أنزله ومن أرسله، عليهم أن يتقوا العذاب النكر الشديد، باتقاء حرمات الله، و﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾: عظيماً يذكركم عن غفلتكم، وينبهكم عن غفوتكم:

﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾:

قد أنزل الله إليكم ذكراً مجسداً في شخص الرسول ﷺ، لأنه يحمل الذكر: القرآن، وهو - بأقواله وتصرفاته وأعماله وأخلاقه وأحواله - إنه ذكر: يذكرنا الله، وأخلاق الله، وأحكام الله، فتقوى الله بحياته المجيدة كلها.

ومهما كان الرسول ﷺ ذكراً، ترى أنه نازل من السماء؟ ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الجواب أن الله ليس في السماء حتى يكون النازل منه نازلاً من

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٤.

السماء، مهما كان البعض من رحماته المادية نازلة منها، وإنما الرسالة الإلهية بما أنها من الله لا سواه، وأن الله ينزلها عن مكانتها العليا لحدٍّ يفهمها المكلفون - أياً كانوا - لذلك تعتبر نازلة من الله، وكما القرآن ذكر نازل منه ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[(١)]: فالقرآن لدى الله في العلم الأم عند الله، عليٌّ عن نيل الأفهام، حكيم عن هذه التفاصيل والإيضاحات، فهو هناك ليس قرآناً يُقرأ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[(٢)] فالله أنزله عن علوّه وحكمته وجعله مقرواً معقولاً.

كذلك الرسالة المحمدية ليست إلا القرآن، فما كلم رسول الله ﷺ أحداً قط بكنه عقله، وما عاشر وواجه أحداً بعلوّه، وإنما كسائر البشر، موضحاً لهم رسالات ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.

فالرسول مهما كان بقالبه أرضياً، فهو بقلبه سماوي إلهي يصدر عن وحي، وهو الذكر النازل، لا جبريل وإن كان هو أيضاً ذكراً، ولكنه ليس نازلاً إلينا، ولا يتلو آيات الله، علينا، وإنما إلى الرسول وعليه، والنص ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

ذكر نزل عن غموضه ورموزه، لحدٍّ يسمعه ويقرأه ويراه ويفهمه إنسان الأرض، وكما يعرفه ملائكة السماء، معروف في السماوات والأرض.

﴿ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾ لا خافيات ولا مخفيات، إنما مبينات لما يتطلب البيان، لكيلا يكون لله على الناس حجة بعد الرسل ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ فهناك ظلمات راسبة فيهم رغم إيمانهم، فالرسول يخرجهم بتلاوة الآيات - وهي اتبّاعها وإتباعها

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣.

- يخرجهم من ظلمات العقائد والأوهام، وظلمات الشكوك والأفهام، وظلمات الأقوال والأعمال، إلى النور، وهو صراط الله المستقيم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يناسب مبدأ الإيمان، وهو فعل كبائر الصالحات وترك كبائر المحرمات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: مصيره إلى الجنة ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فهل يوجد رزق أحسن وأوفر من الجنة؟.

هنا نقف أمام هذه التحذيرات والترغيبات بعد آيات الطلاق، ما هي الصلة بين أخذ القرى العاتية وبينها؟ فنجد أنها توحي بكون الطلاق ليس أمر الفرد فقط، إنما هو أمر الأمة المسلمة، عليهم رعاية حكم الله فيه، وكما ابتدأت السورة بخطاب الرسول مع المؤمنين، فالعتوُّ عن أمر الله في الطلاق، لا يُسأل عنه المطلق العاتي فحسب، فقد تؤاخذ بها قرية: مجتمع، يقع فيه العتو، فيؤخذ به، لماذا سكتوا عما يتوجب عليهم من التوجيه والنهي؟! ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا...﴾.

وأخيراً يذكرنا بطرف عظيم شاسع من ربوبيته تعالى لكي نعرف جانباً من سطوته وعظمته:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾:

آية عديمة النظير في الإيحاء إلى عدد الأرضين وحالتها المادية والمعنوية، عبر المماثلة بين ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وبين جنس الأرض: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فما هذه المماثلة بينهما؟ وما هو الأمر المتنزل بينهن؟

الممثل هنا ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وهي طباق بعضها فوق بعض، وأوسع من بعض قضية التداخل الدائري بينها، وهي شداد وطرائق، أدناها سماء الأنجم التي فيها أرضنا، وأعلاها دون سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وهي كلها مرفوعة بعمد لا ترونها، وهي في توسع دائم، كما عرفت من آياتها.

ومن أظهر المماثلات بين الأرض والسماوات العدد السبع، أنها سبع منفصلات كما السماوات، أرضنا هذه وست أُخرى أمثالها[١]، وأخرى في طباقها، فلتكن الأرضون السبع بعضها فوق بعض طباقاً، وهي تشمل حدود الفواصل بينها: إن كلاً من هذه السبع في سماء غير الأخرى[٢]، وكما توحي بها وتفصلها الآيات من «فصلت»: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[٣] فالأرض هنا جنسها ومادتها التي قسمت سبعاً، وكما السماء هنا غازها ودخانها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: المادةَ الأرضية والدخانَ السماوي ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ فلتكن كلٌّ من الأرضين السبع في كلٍّ من السماوات السبع، ومماثلة ثالثة في سعتها، فكما أن كل سماء فوقانية أوسع مما تحتها قضية التداخل الدائري، فلتكن كل أرض فوقانية أوسع مما تحتها وإن لم يكن ذلك التداخل ولم

---

(١) وتدل عليها أحاديث مستفيضة من أشملها ما رواه القمي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث.. هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة - وإلى الأرض والسماء السابقة -.

وهذه الفوقية للأرضين بعضها على بعض لا تنافي التعبير بكون الأرض الثانية - مثلاً - تحت أرضنا هذه كما رواه في التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام: إن هذه الأرض بمن فيها ومن عليها عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي وهاتان ومن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي - حتى انتهى إلى السابقة وتلا الآية..

أقول: فمن الصحيح القول: إن الأرض الثانية تحتنا وإنها فوقنا، لأن أرضنا في مركز العالم وحولها السماء الدنيا بما فيها من الأرض الثانية وسواها، فمن بعض الجهات هذه الأرضون تحتنا ومن بعضها فوقنا قضية كروية الأرض، فالأرض الثانية مثلاً كائنة في جهة من جهات السماء المحيطة بأرضنا، ولأن أرضنا تتحرك وضعية وانتقالية فقد تقع الأرض الثانية تحتنا وقد تقع فوقنا، وفيما إذا لم تكن الحركة هكذا تقتضي ذلك فإن الأرض الثانية تحت البعض من سكنة أرضنا وفوق البعض منهم لأنها كروية، إذا فلا منافاة بين أحاديث الفوق والتحت.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

يمكن، ورابعة أنها في توسع دائم كما ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[١] وكما الأحاديث أيضاً تؤيد هذه المماثلات المستوحاة من الآيات.

وقد يقال إن الأرض لا تعني إلا الكوكب والنجم أياً كان، كما السماء لا تعني إلا الجو المحيط بالكرات، فليس لعدد السبع هنا وهناك مفهوم محدد، وإنما يشير إلى الكثرة، فمن الهُراء والهذيان: أن الكواكب سبعة، والأجواء المحيطة بها سبعة، رغم أنها بليارات!.

ولكنه تفسير خاطئ للأرضين والسماوات، فإن الآيات التسع في تعداد السماوات تحصرها في سبع، وهي بصدد استعراض أعدادها، وآية المماثلة تحصر جنس أرضنا هذه - أيضاً - بسبع، فمن أهذى وأهرأ ممن ينسب إلى كلام الله هكذا تعبير جاهل غالط: إنه يعبر عن البليارات بالسبع، محدداً لها به؟!

كلا: فلا السماوات حسب القرآن هي مطلق الأجواء المحيطة بالكرات لكي تتعدد بعدادها، ولا الأرضون المماثلة لها، فالسماء الأولى والأدنى من سبع القرآن هي سماء الأنجم، كل الأنجم المرئية بالعيون المسلحة وسواها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾[٢] ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[٣] وكرتنا الأرضية من كواكبها ومصابيحها الصغار، ومن ثم فكل السماوات والأرضين، على حد تفسير هؤلاء المتقولين، كلها في السماء الأولى من سبع القرآن!.

ثم الأرضون السبع هي سبع كرات متماثلة مع بعض تماثلاً تاماً لا يوجد في غيرها من الكرات مهما كانت بليارات، وأكبر منها بمليارات المرات، توحيها «ومن الأرض»: فالأرض هي أرضنا المعروفة، المشار

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٦.
(٣) سورة الملك، الآية: ٥.

إليها بلام العهد، و«من» تعرفنا: أن بينها وبين الست الباقية مجانسة ومماثلة ليست في سواها من الكرات، مهما كانت أرضنا زَبدة منها زُبدة كما يروى عن الرسول ﷺ (١).

فآية المماثلة ترمي إلى مماثلتين اثنتين: مماثلة الأرضين السبع مع بعض ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ومماثلتها مع السماوات السبع ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ عرفنا الثانية منهما شيئاً ما فما هي الأولى؟.

.. إنها متماثلة في المادة المخلوقة منها وسواها كما السماوات: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾(٢).

فالمادة الأرضية هنا تخلق في يومين من التفجرة الأولى في المادة الأمّ «الماء» وتتكامل في أربعة أيام، ثم هي مع مادة الأم السماوية «الدخان» تقتسم إلى سبع، كل منها في كل من السبع السماوات، فالأخوة بين هذه الأرضين السبع عريقة منذ البدء، كما الأخوة بين السماوات السبع بأنجمها، مهما كانت الأم الأولى قبل تفجرها واحدة هي «الماء»(٣).

فللست الباقية مياه وجبال وأشجار وحيوان وإنسان كما لأرضنا هذه نستوحيها من بركاتها وأقواتها، إذ تقتضي من يستفيد منها من دابة، وكما تصرح بها ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ

(١) بحار الأنوار ٦: ٢٣ ج ١٠ عنه ﷺ وهذا من أوضح الأدلة على المجانسة بينها.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٩-١٢.

(٣) نبحث عن المادة الأم (الماء) في سورة هود الآية ٧: وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء راجع (ستاركان) من الصفحة ١٣ - أيضاً.

﴿جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[(١)] : أن في السماوات دواب كما في الأرض، ومنها ذوو العقول بدليل «هم» في «جمعهم» فإنها لذوي العقول، وكما توحي به هنا ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾: أمر الله تكويناً وتشريعاً، فلا بدّ لذوي العقول من تشريع، وعلّه شريعة أرضنا هذه، تحكم على الست الباقية أيضاً[(٢)] ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

أجل: إن الشرائع الإلهية الخمس تحكم على كافة العقلاء المكلفين أياً كانوا في هذه الأرض أم سواها، مهما اختلفت حالاتهم ومتطلباتهم، فإنما تحكم شريعة الله على كل كما يحتاج ويتطلب منه، وفقاً لبيئته الروحية والمادية.

أجل: إنه ليست السماء خلواً من الشرائع والمتشرعين، ومن المدن والمتمدنين كما يروى عن الرسول الأمين قوله عن ليلة المعراج: «يا علي! إن الله أشهدك معي سبع مواطن - إلى أن قال - في المواطن الثاني أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء... فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها، فلم أر شيئاً من ذلك إلا وقد رأيته كما رأيته»[(٣)]. ويروى عن علي أمير

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٣٨ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: ١٢] قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وابراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى.

أقول: لا يعني من المماثلة التعدد، وإنما مماثلة الشريعة والأنبياء هم أنبياء أرضنا تحكم شرائعهم على سائر المكلفين أياً كانوا، ويدل عليه الرضوي عليه السلام: تفسير القمي بإسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث في الآية: فأما صاحب الأمر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين.

(٣) بحار الأنوار ٦: ٥١٧ عن السراير بإسناده عن بريدة الأسلمي عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

المؤمنين عليه السلام: «لهذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود مربوط من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتان وخمسون سنة»(١).

ولسنا ممن يحصر هذه المدن وهؤلاء العقلاء بالأرضين السبع، وإنما نقول منها الأرضون السبع، المتماثلة فيما لها مادياً ومعنوياً، يعبدون الله كما نعبده ويسجدون له كما نسجد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾(٢).

فالأرضون السبع هي من جملة مساكن الدواب والعقلاء المتمدنين والمتشرعين يتنزل أمر الله تكويناً وتشريعاً بينهن وبين سماواتها: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ دون اختصاص للأمرين بكرتنا الأرضية، مهما كانت هي المحور الرئيسي للرسالات الإلهية كما تدل عليه الآيات التي تجعل الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم محور الرسالات كلها، وهنا أحاديث حول الأرضين الست الباقية، في قياسها بالنسبة إلى بعض سعة وضيقاً، لا نصدق منها إلا أصل الاختلاف بينها طباقاً كما في السماوات، وفي فواصلها، ولا نقبل منها ما يخالف الحس وحجة الكتاب، التي تجعل السماء الأولى سماء الأنجم، فأين خمسمائة عام ومليارات الأعوام التي تفصل بين البعض من مجراتها، فضلاً عما فوقها من سماوات، وإلى غير ذلك مما لا يصدق إلا ما يصرح به

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٥ القمي عن الصادق عليه السلام عنه عليه السلام.. وهنا أحاديث كثيرة عن الرسول والأئمة من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تدلنا على وجود العقلاء المكلفين المتمدنين في السماوات كما استوحيناه من الآيات.

مثل ما رواه في البحار ٦: ٥٠٧ عن الصادق عليه السلام يقول: إن جبرائيل احتمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أن قال - ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكروبيون ثم صعد بي إلى السماء السابعة فأبصرت فيها خلقاً وملائكة.

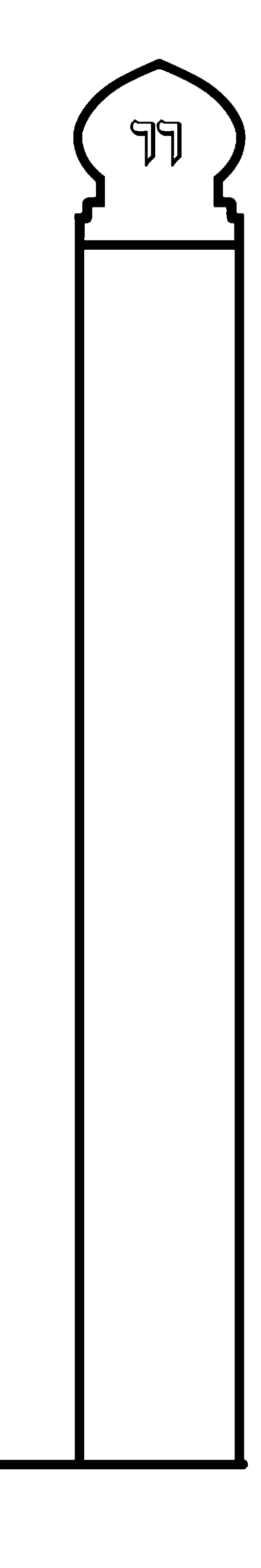
(٢) سورة النحل، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

أو يوحيه القرآن، وقد نحتمل صدق البعض مما لا ينافي القرآن.

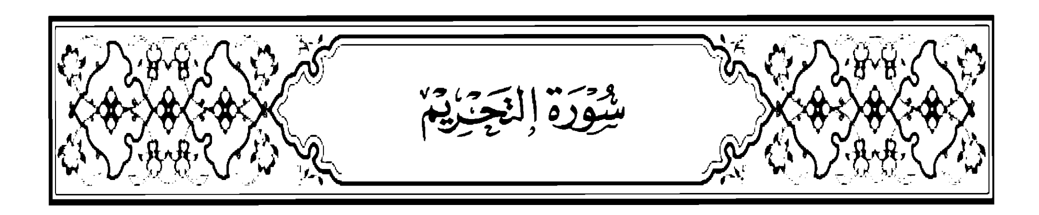
والبشرية حتى الآن على جهدها الكبير وتحملها العسير الكثير الكثير، ما وصلت لحد العلم أن وراءَ أرضنا هذه حياة كحياتنا، أو حياة حيوانية أو نباتية فضلاً عن الإنسانية، والقرآن النازل قبل أربعة عشر قرناً يخبرنا بكل هذه الحقائق وكما تكفلت آية واحدة في «الشورى» لإثبات وجود حياة نباتية وحيوانية وإنسانية متمدنة في السماوات كما في الأرض، وأن الله سوف يجمع بين البعض من دواب الأرض والسماء: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾(١). هذه التي لم تعدو محطة الخيال والآمال حتى الآن! سبحان الحنان المنان: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.



(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.



سُورَة التَّحرِيم



مدنية – وآياتها اثنتا عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

صفحة من الحياة البيتية للنبي ﷺ تفتحها هذه السورة في مفتتحها، أنه كيف كان يحافظ على كرامة النبوّة، لحدّ تحريم بعض ما أحلّ الله له لكيلا يقع في مآزق المظاهرات المهرجة المحتالة النسائية فيخفّ من كيانه الرسالي، وأن الله تعالى يُرجعه إلى حلِّ ما حرّمه على نفسه ويكفيه شر المظاهرات من نسائه.

إنه لم يكن التحريم هنا تشريعاً منه عاماً ينافي ما أحلّه الله، وهو رسول

الله لا يصدر إلا عن الله! وإنما تحريم عمليٌ بالحلف على ترك شيء من الحلال الخاص له، مغبة مرضاة أزواجه، فراراً عن مظاهرتهن عليه، لكيلا يكدِّرن جوّ بيت النبوة السامية، فقد عمل واجبه حسب حالته الحاضرة، حتى آمنه الله بالوحي وكفاه ما يهابه ورجعه إلى الحلِّ وأن يكفِّر عن يمينه وقد فعل.

أجل تحريم عملي بطريقة الشرع وبدافع شرعي[1]، فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ دون «الرسول» يوحي أنه لم يكن تحريماً رسالياً، إنما كنبي رفيع المنزلة، يحرم حفاظاً على نبوته ورفعته، وإيحاء ثان يؤيده ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، فالتحريم أيضاً كان على نفسه دون الآخرين، وثالث ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ إذ يحصر التحريم اندفاعاً عن الأزواج، ودفاعاً عن كيانه إذ هددنه بالمظاهرة عليه وندد بهن الله بالعذاب والطلاق ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ...﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ...﴾ فقد حرم على نفسه لذة نسائية محللة له خاصة[2] ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ بما حلف على تركها ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ...﴾.

وكما ورد في مستفيض الأخبار أنه ﷺ تزوج بامرأة ووطئها سراً عن بعض نسائه، فلما عرفن هددنه بالمظاهرة عليه فحلف على ترك وطئها.. ترى أليس واجبه ﷺ إذ ذاك أن يحلف بالله على ترك ما أحله الله وأباحه عليه، فراراً عما حرّمه الله من انهتاك حرمته، وانفتاك كرامته! قبل أن يأتيه الأمان بالوحي - كما أتى - بالضمان عن بأسهن، وأن يحلِّ يمينه ويرجع إلى الحلّ.

---

(١) كما في بعض الآيات ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] فإن الرضاعة لموسى من غير أمها ما كانت محرمة في شريعة الله، ولا على موسى إذ كان رضيعاً لم يبلغ بعد.. وإنما التحريم واقعياً بمعنى الحرمان العملي، فقد قدر الله تعالى لموسى أن يتمنع عن سائر المرضعات، وألقى في قلب فرعون أن يختار أمه دون معرفته.

(٢) إذ أحل الله له أكثر من أربع نسوة، وقد كانت عنده حينئذ أكثر من أربع فتزوج غيرهن عليهن.

فخلاف ما يزعمه غير المتأنقين، هذه الآيات ليست تنديداً بالنبي ﷺ، وإنما هي تهديد بنسائه المظاهرات، إكراماً له زائداً على غيره، ولكي يحل من أسر التحريم الشرعي بالحلف عند المحظور، بإزالة موضوعه وهو الخوف عن مواصلة الحلال، والحكم بحرمة الإخافة على نسائه المظاهرات، معالجة لطيفة طيبة لمشكلة بيتية للنبي ﷺ ندرس فيها بوجه عام أيضاً، أن خلق المشاكل في ممارسة الحلال محرّم في شريعة الله، وإن كان الحلال مما يبغضه الطرف المقابل، كأن تتزوج بزوجة على زوجتك، فمهما كان صعباً عليها، فحرام عليها خلق المشاكل لإلجاء الزوج على ترك الحلال، عملياً أو بالحلف أو الطلاق، اللهم إلا ألا يعدل ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1] فتنهاه فيمن تنهاه عن منكر الظلم وإن كان انتهاؤه بالطلاق، أو أية وسيلة محللة أخرى.

وكما ترى أن الله يلقي حبل هذه المشكلة على عواتق النساء، فيكفيه شرّهن ويهددهن بالطلاق، خلاف ما رغبنه تماماً أن يطلق أو يفارق الجديدة دونهن.

وفيما إذا سئلنا: لماذا هذه الكثرة من النساء، يتزوج بهن النبي ﷺ حتى يقع في أمثال هذه المشاكل فيحتاج إلى حل إلهي؟!

فالجواب: أن زواجات النبي ﷺ كانت - على الأكثر - سياسية تقتضيها بيئته الرسالية، وأنا لا أحاول نفي عنصر الجاذبية والجمال عن حياة النبي ﷺ فإنها ليست موضع اتهام عليه حتى ندفعه عنه، لأنه إنسان له شهوة الإنسان، وله جاذبية الجنس كسائر الإنسان، إلا أنه يوحى إليه، قالَب بشري يديره قلب وروح الوحي كما يدير سائر الأرواح.

وإنما أقول: إن النبي ﷺ كان يتخطى أمثال هذه الجاذبيات النفسانية

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

والشهوانية المحللة إلى الجاذبية الإلهية، فكان يعيش كبشر، وكل تصرفاته بمرضاة الله، حتى زواجاته التي كانت كلها بأمر من الله، وكما في تزويجه بامرأة زيد دعيِّه، لكي ينقض حكماً جاهلياً يحرم حلائل الأدعياء ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

صحيح أنه ﷺ تزوج بقرابة ثلاث عشرة نسوة، ولكن تعالَ معي لنرى ظروفه التي كانت تتطلب هذه الزواجات، ومَن هن هؤلاء الأزواج؟.

نرى أن أول أزواجه ﷺ خديجة بنت خويلد ﵂ عرفت رجلين قبله وهي فوق الأربعين وهو ابن خمسة وعشرين، وهذا بخمس عشرة سنة قبل رسالته، أتُرى لجمالها وصغرها؟ كلا! إنما لإيمانها وكفاءتها وزمالتها للرسالة المستقبلة التي آمنت بها قبل غيرها! وكانت منها - فيمن ولدت - فاطمة ﵍ قرينة خليفته الأول، وأم الأئمة النقباء ﵈ . . . فماتت خديجة قبل الهجرة بثلاث.

فلما ماتت تزوج ﷺ سودة بنت زمعة، ولم تكن شابة ولا جميلة، وإنما أرملة للسكران ابن عمرو، وكان من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة، فلما توفي تزوجها رسول الله ﷺ لكي لا يؤثر فيها ترمّلها، وأنها فقدت زوجها وليس لها من كفيل، كلا! إن كفيلك رسول الله ﷺ!.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر وهي بِكر، ولم يتزوج بكراً سواها، وكانت معه - إلى أن توفي - تسع سنوات وخمسة أشهر، تزوجها لعلل سياسية.

ثم تزوج حفصة بنت عمر، وهي ثيب، بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا، تزوجها بنفس العلل، وأن يصلح مرفوضة، فيصلح أباها أيضاً.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة، وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وقد قتل يوم بدر، أو عبد الله بن جحش المستشهد يوم أُحد، تزوج بها ليشجع المقاتلين للحرب فلا يعتبروا أهلهم هدراً إن قُتلوا، فالنبي ﷺ بشخصه الكريم كفيلهن كرامة وكرماً.

وكذلك تزوج أم سلمة، وقد قُتل زوجها أبو سلمة في أُحد، فتزوجها النبي ﷺ وضمَّ إليه عيالها من أبي سلمة، ولأنها كانت مؤمنة طاهرة.

وتزوج زينب بنت جحش - كما أسلفنا - لمهمة تحليل حلائل الأدعياء، ولو كان القصد من زواجها شهوة الجنس والجمال فحسب، فلماذا زوّجها زيداً، وكانت منذ البدء راغبة فيه ﷺ وهي بنت عمته ﷺ وكانت رافضة لزيد وهي غريبة عنه؟.

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، إذ قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق فوقعت هي في أسهم الثابت بن قيس فكاتبته على نفسها فأتت رسول الله ﷺ قائلة: جئتك أستعينك على كتابتي، فقضى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها برضاها ورغبتها، محرراً في هذا الزواج إياها عمن لا ترغب إليه وهي راغبة إليه ﷺ.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة مسلمة في الحبشة، فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها، فخطبها النبي ﷺ ترغيباً وتثبيتاً لها في إيمانها.

ثم تزوج بصفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير. ثم بميمونة بنت الحارث بن حزن، وكانت قبله ﷺ عند أبي رهم بن عبد العزى.

وهكذا نرى أن لكلٍّ من زواجاته ﷺ سبباً، وهن - فيمن عدا زينب وجويرية وعائشة - لم يكنّ شابات ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال أو مال، ولهذه الثلاث أيضاً - على جمالهن - أسباب تتخطى جاذبية الجنس

والجمال، إلى جاذبية الحق والكمال، وتطبيق شرعة الله حنوناً عطوفاً ورحمة للعالمين.

ثم هنا - في آيات التحريم - نجده ﷺ يتزوج بمارية القبطية(١)، مما يدفع عائشة وحفصة إلى المظاهرة عليه والمشاغبة معه، وعلّه كان عليه التزويج بها لكيلا يُزعم أن زواج الجواري على الدائمات من المحرمات، ثم حرمها على نفسه عند المظاهرة، ثم أحلّها الله عليه بإزالة السبب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾:

خطاب في صيغة العتاب وليس به، وإنما يتساءله: لماذا يُحرمْ نفسه عما أحل الله له؟ ثم يذكر سببين لهذا التحريم: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، والثاني هو الخوف عن مظاهرتهن كما يتبين من بقية الآيات، ولكي نعرف أنه ﷺ ما فعل محظوراً في الشريعة يبادر بالغفران ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ وبالرحمة البالغة ﴿رَّحِيمٞ﴾، فلو كان إثماً لم يغفر إلا بالتوبة وليست هنا، وعلّ الغفر هنا هو الستر على ما كان يخشاه منهن، والغفر على الحرمة الحاصلة باليمين إذ فرض له تحلّته:

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾:

والتحلة المفروضة ليست هي التحلل عن مطلق الأيمان بالكفارة، فإنه

(١) كما في مستفيض الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام منها ما رواه القمي في تفسيره عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: اطلعت عائشة وحفصة على النبي ﷺ وهو مع مارية، فقال ﷺ: والله ما أقربها، فأمره الله أن يكفر عن يمينه.
وفي حديث: كان يوم حفصة فاستأذنت رسول الله ﷺ أن لي إلى أبي حاجة فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية، وكان قد أهداها له المقوقس، فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فأتت حفصة فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا! أدخلت أمتك في بيتي ثم وقعت عليها في يومي وفي فراشي! فقال ﷺ: أليس هي جاريتي، قد أحل الله ذلك لي، اسكتي... ثم حرمه على نفسه بالحلف اتقاء شرها...

حرام لكونه حنثاً لما فرض، وإنما هي التحلل عما حرّم باليمين دون مبرر واقعي، وإن كان له مبرر حسب ما يراه الحالف، وتحلة يمين النبي ﷺ كانت بأداء الكفارة، فالتحلل عما حرم على نفسه.

فمخالفة اليمين كيفما كان تقتضي الكفارة، سواء أكان الحنث واجباً كما هنا، أم حراماً كما في الأيمان الموافقة لواقع المرجوحية، كما يحلف على ترك الحرام أو المكروه أو المباح المرجوح لضرر أو مثله، ووجوب الحنث أو جوازه هناك دليل عدم انعقاد اليمين في الواقع، وإنما الكفارة للحفاظ على كرامة اليمين.

ولقد حلف النبي ﷺ على ترك مارية لمرضاة أزواجه وخوف مظاهرتهن، فيما رآه النبي ﷺ قبل تأمين الله وتضمينه الحفاظ عليه، فلما زال سبب الخوف، وأن مرضاة الأزواج لا تبرر تحريم الحلال، ولا ينعقد الحلف عليه، حينذاك فرضت عليه ﷺ تحلة يمينه هذا وقد أحلّ.

وهذا فرض للحالف وليس عليه ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا ما تقتضيه ولاية الله علينا: أنه يحبنا ويتولى أمورنا، فلذلك يفك أسرنا عن أمثال هذه الأيمان، ويبدل عسرنا باليسر ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

من هنا نعرف أن تحريم ما أحله الله لا يبرره شيء، إلا أن يحرم بعنوان طارىء يدخله فيما حرّمه الله، إذاً فليس منا شيء من تحليل ولا تحريم، وحتى فيما إذا نحلف على ترك شيء أو فعله فلزامه رجحان الفعل أو الترك واقعاً، وإلا تحلّل بكفارة كما في تحريم النبي مارية القبطية.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾:

الإسرار هنا كان منه ﷺ إلى حفصة، والإنباء كان منها إلى عائشة،

وهما - بالإجماع -[١] صاحبتا هذه المعركة الضارية ضد الرسول ﷺ لماذا نكح مارية القبطية؟

لقد أسر النبي ﷺ - بعد قصة مارية - إلى حفصة حديثاً: ألا تنبئي به أحداً، ولكنها نبأت به عائشة، زميلتها في المظاهرة، وأظهر الله نبيه على إنبائها، عندئذٍ عرّف النبي وأطلع حفصة بعض الحديث إشارة إلى جانب منه، وأعرض عن بعضه ترفعاً عن السرد الطويل وتجملاً عن الإطالة في التفصيل، علّه ولأن البعض الآخر كان جديراً بالإعراض، فلما نبأها بالبعض الأول قالت حائرة: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ترى ما هذا الحديث السرّي، الذي تأذى النبي بإفشائه؟ هل إنه وقوعه على مارية؟ وليس حديثاً متبعضاً لكي يعرِّف بعضه ويعرض عن بعض! ولم يكن حديثاً مستجداً لحفصة حتى يسر به إليها، و«حديثاً» - بعد قصة النكاح والتحريم والتحليل - يوحي بأنه حديث جديد!

أو أنه تحريمه مارية على نفسه؟ فكذلك الأمر! إضافة إلى كونه بشارة لأزواجه تتطلب الإعلان، لا الإسرار!

أو أنه تبشيره إياها بخلافة أبيها وأبي بكر؟ فكذلك الأمر! فإنها بشارة لها، فإن كانت حقاً فلماذا الإسرار، وإن كانت باطلاً فحاشا النبي عن الباطل، إضافة إلى أن «حديثاً» لزامه هنا العلاقة بقصة مارية، وأن إفشاءه يخلق مظاهرة الامرأتين ﴿. . . وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تهديداً بعد الإفشاء!

والقول الفصل هنا أن «حديثاً» هذا، حديث متبعض ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ يستحق الإسرار حفاظاً عن كرامة النبي، التي تمس منها بمظاهرتهما، وله علاقة عريقة بالقضايا النسائية تحرضهن على المظاهرة، فما هو إذاً؟

---

(١) وممن يروى عنه ذلك عمر بن الخطاب - أخرجه عبد الرزاق وابن سعد وأحمد والعدني وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن حيان وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس عن عمر. . (الدر المنثور ٦: ٢٤٣).

علّه أو منه قصة مارية، وأنه حرمها على نفسه، أسرّ المجموع إلى حفصة، إبقاءً للسر في البعض الأول، وإسراراً لما حلف في الثاني، وكان الثاني ضماناً لعدم إفشاء القصة في أولاها، فلما نبأت عائشة بهما - مما أبدى فيها الغيرة النسائية فأخذتا في التظاهر عليه - ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ لكي يسد باب الشرِّ منذ البدء لكيلا يبلغ إلى الشره ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ وعلّه قصة الحلف ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أصل القصة، حياءً منه، واتقاء من تدهور الوضع لو كرر التصريح به ﴿قَالَتْ﴾ متحيرة ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؟ إذ كان الحديث بعدُ بينهما، ولا يعقل أن تنبئه ﷺ زميلتُها في المظاهرة، أتفشيلاً للمخطط الذي تتقصّدان؟! ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ولكي تعلما أن الله معه، ويخبره بالمؤامرات والمكايدات المحبوكة وراء الأستار، فتكسرا من ثورتهما، وتقلَّا من فورتهما ضده ﷺ.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تثبت أنهما عملتا أمراً يسخط الله في إيذاء رسول الله، أما حفصة فقد أطالت لسانها عليه ﷺ وجاسرت بما لا يجوز، وأذاعت سره ﷺ وأما عائشة فقد زاملتها في المعركة النسائية الطائشة عليه، وعلّ منها إذاعة هذا السر لبقية النساء وأموراً مثلها، وأصبحتا تنويان المظاهرة عليه، أن ترأسا مسيرة ضارية مفصحة من كتلة النساء على رسول الله ﷺ وهذه مما تمس من كرامة النبوة أن ينبع فوار الثورة عليه من عقر داره، ولهذا وذاك كان حلفه على ترك مارية كيلا تعقبه وتلاحقه هذه العقبات.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: مالت قلوبكما عن الحق والاستقامة حيث آذيتما النبي ﷺ والقلب الصاغي المقلوب بحاجة إلى توبة، وهذا بالنسبة لقلب

الروح المستكن في قلب الجسم، فطالما القلب يصغو أو ينجرف روحياً فهو لا يخرج عن نياطه ولا يزول عن مناطه قالبياً.

وهنا ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ لامرأتين اثنتين، دون «قلباكما» لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع، كما وأنهما جمع لغوياً: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾(١) والمقصود قطع يمينهما.. هذا وإن كان يجوز العبارة عنهما بالتثنية أيضاً، وعلّ هنا نكتة زائدة هي ضم قلوب سائر نسائه الصاغيات معهما إليهما، ولأنهما أساس المظاهرة ورأس المشكلة، ضمت قلوب الهامشات إلى هاتين المتنين، كما وأن توبتهما إلى الله توبة لهن جمعاء إذ يسمعن لهما.

فأنتما بين حالتين لا ثالث لهما: التوبة إلى الله لإصلاح القلوب الصاغية المائلة عن الله، وهذا طريق الجنة، أو المظاهرة على الله فإلى النار:

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾:

حملة عنيفة هائلة بعدما مضى، ندرك منها عمق الحادث ومدى أثره في قلب الرسول ﷺ وضرره عليه، وشرره على كرامته، لحدّ يعلن الله تعالى فيها موالاته له ﷺ في هذه المعركة الضارية، ومعه ويأمره جبريل وصالح المؤمنين والملائكة، ما لا نجد مثلها في أية معركة أبداً.

أمظاهرة على الرسول الأقدس الطاهر ﷺ، ناشئة من بيته عن زوجتيه؟ لأنه قارب حليلة من حلائله، دون أن يقارف خطيئة! فهذا إيذاء للنبي ﷺ ولحدّ الكفر ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦١.

وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(١) كيف لا! وإيذاء المؤمنين إثم مبين فضلاً عن الرسول ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(٢) (٣).

وفيما إذا سئلنا: كيف كان بإمكان الامرأتين المظاهرة على الرسول ﷺ ولم تكن لهما مُسكة إلا قصة مارية المحللة له ﷺ؟

فالجواب: أنهما تشاورتا فاختلفتا من ورائها فاتكة الإفك المشهورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ...﴾(٤).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٣) الدر المنثور ٦: ٢٤٣ - أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه... دخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ قالت: ما لي ولك يا بن الخطاب! فدخلت على حفصة فقلت لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ!... إلى أن قال: والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها.

(٤) سورة النور، الآيات: ١١-٢٤.

فقد روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن ممن جاء بالإفك عائشة وحفصة مع عصبتهما، أفكتا على مارية أُم إبراهيم أنها جاءت به من ابن جريح، ففضحتا بعدما تثبَّت علي عليه السلام بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوجده خنثى لا ذكر ولا أُنثى[١]

---

(١) رواه القمي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، وعن عبد الله بن بكير عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى ابن بابويه بإسناده عن علي عليه السلام، ومن أجمع وأشمل ما روي ما يسنده الحسين بن حمدان الخصيبي إلى الإمام الرضا عليه السلام أنه قال لمن بحضرته من شيعته: هل علمتم ما فريت به مارية القبطية وما دعى عليها في ولادتها إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالوا: يا سيدنا أنت أعلم فخبرنا، فقال: إن مارية أهداها المقوقس إلى جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتخطى بها من دون أصحابه، وكان معها خادم ممسوح يقال له جريح وحسن إسلامهما وإيمانهما، ثم ملكت مارية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحسدها بعض أزواجه فأقبلت عائشة وحفصة تشكيان إلى أبويهما ميل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مارية وإيثاره إياها عليهما حتى سولت لهما ولأبويهما أنفسهم بأن يقذفوا مارية بأنها حملت بإبراهيم من جريح وهم لا يظنون أن جريحاً خادم، فأقبل أبواهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في مسجده فجلسا بين يديه ثم قالا: يا رسول الله، إن جريحاً لا يحل لنا ولا يسعنا أن نكتمك من أمره وما يظهر من خيانته شيئاً وواقعه بك، فقال: ماذا تقولان؟ قالا: يا رسول الله، يأتي من مارية الفاحشة العظمى وإن حملها من جريح وليس هو خادم، فاربد وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتلون ثم قال: ويحكما ما تقولان؟ قالا: يا رسول الله إنا خلفنا جريحاً ومارية في مشربتها - يعنيان حجرتها - وهو يفاكهها ويلاعبها ويروم منها ما يروم الرجل من النساء، فابعث إلى جريح فإنك تجده على هذه الحال، فانفذ فيه حكم الله، فانثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي عليه السلام ثم قال: يا أبا الحسن، قم يا أخي ومعك ذو الفقار حتى تمضي إلى مشربة مارية، فإن صادفتها وجريحاً كما يصفان فاخمدهما بسيفك ضرباً، فقام علي عليه السلام واتشح بسيفه وأخذه تحت ثيابه، فلما ولى من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انثنى إليه فقال: يا رسول الله، أكون فيما أمرتني كالسكة المحمية في العهن؟ والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فديتك يا علي، بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فأقبل علي عليه السلام وسيفه في يده حتى تسور من فوق مشربة مارية وهي في جوف المشربة جالسة وجريح معها يؤدبها بآداب الملوك ويقول لها: عظمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولبيه وكرميه... ونحو هذا الكلام، حتى التفت جريح إلى أمير المؤمنين عليه السلام وسيفه مشهور في يده، ففزع جريح إلى نخلة في المشربة فصعد إلى رأسها، فنزل أمير المؤمنين عليه السلام إلى المشربة وكشفت الريح عن أثواب جريح فإذا هو خادم ممسوح، فقال له: انزل يا جريح! فقال: يا أمير المؤمنين، آمنا على نفسي؟ فقال: آمنا على نفسك، فنزل جريح فأخذ بيده وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأوقفه بين يديه، فقال له: يا رسول الله، إن جريحا خادم ممسوح، فولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: جل لهما نفسك لعنهما الله يا جريح =

ويُروى أيضاً غير ذلك[١] وعلّهما معاً معنيان في آية الإفك، مهما اختصت آية المظاهرة بما افتعلت الامرأتان على أم إبراهيم.

هنالك الله يهددهما عن مظاهرتهما كتلك الفادحة الفاضحة القادحة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ كولاية أصيلة ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ كحامل للوحي، ومنه إنباؤه ﷺ بكشف السر ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كعلي عليه السلام إذ تثبّت في أمر ابن جريح فأثبت براءته، كما الله كشف عنه حتى أبرز كونه ممسوحاً فتبرأ من الإفك ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿ظَهِيرٌ﴾ له، بطاقة موحدة تجعلهم كأنهم واحد «ظهير». وفي تقديم صالح المؤمنين على الملائكة الذين هم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إيحاء إلى أفضليته، فليكن هو نبياً أو مثيله، دون المؤمنين الذين هم دون الملائكة قطعاً لعصمتهم دونهم، فليكن علياً عليه السلام وكما تضافرت به الأحاديث أيضاً[٢].

= حتى يتبين كذبهما وخزيهما وجرأتهما على الله وعلى رسوله، فكشف أثوابه فإذا هو خادم ممسوح، فأسقطا بين يدي رسول الله ﷺ وقالا: يا رسول الله التوبة...

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل: كان رسول الله ﷺ أمر بقتل القبطي (يعني جريح) وقد علم أن عائشة كذبت عليه أو لم يعلم، وإنما دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي عليه السلام؟ فقال عليه السلام: بل كان والله علم، ولو كانت عزيمة من رسول الله ﷺ ما انصرف علي عليه السلام حتى يقتله، ولكن إنما فعل النبي ﷺ لترجع (عائشة) عن ذنبها، فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

(١) كما في الدر المنثور أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزاة بني المصطلق من خزاعة، ولا منافاة بين النقلين كما قلنا.

(٢) تضافرت أحاديث الفريقين أن علياً عليه السلام هو صالح المؤمنين، ولأنه المصداق الأوحدي من صلاح الإيمان، وله دور في صد هذه المظاهرة عن رسول الله ﷺ كما سبق، ففي الدر المنثور ٦: ٢٤٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: (وصالح المؤمنين) هو علي بن أبي طالب.

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميسى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] هو علي بن أبي طالب. وأخرج مثله البخاري في صحيحه.

أقول: هذا من باب التطبيق على أفضل المصاديق وطالما كان له عليه السلام دور في الذنب عن حرمة الرسول ﷺ.

إن تلكم المؤامرة والمظاهرة النسائية برئاسة عائشة وحفصة بلغت لحدٍّ حملت الرسول ﷺ على طلاقهن، ولم يطلق بما عالجه الله تعالى من المشكلة:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾:

وهذه هي الحملة الأخيرة هنا، تهددهن بالطلاق، وتوحي كأنهن لسنَ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، مهما كنّ أبكاراً أو ثيبات، فإن المظاهرة على الرسول ﷺ هكذا لا تناسب أياً من هذه الصفات، اللهم إلا أن يتُبنَ إلى الله.

وكما نعلم، إنما ترجع أصول هذه الحملات والتنديدات والشكاوات إلى زعيمتي المظاهرة: عائشة وحفصة، أن لو شاء الله خلصه عنكن، وبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات... ولا يقول: خيراً منكن في الإسلام و... وإنما «مسلمات مؤمنات...» مما يوحي أن الخير في المبدلات بهن هو أصل هذه الصفات.

فزوجية المرأة للنبي ليست كرامة إلا مع التقوى فلها ضعف ما لغيرها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١)، وأما مع الطغوى فعليها ضعف العذاب ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٢).

وهذه الصفات هي خير ما تتواجد في النساء، فلو كانت هناك خير منها لذكرت، ولا سيما للرسول المصطفى الذي يحق أن تصطفى له خير النساء.

فالإسلام هو التسليم للحق أياً كان ولو على نفسك، ومنه التسليم

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٠.

لحكم الله في حلية تعدُّد النساء.. والإيمان هو الاطمئنان بالله والأمان إلى الله.. والقنوت هو الطاعة والخضوع، والتوبة هي الرجوع عما يقارف من خطيئة، والسياحة هي التأمل والتدبر في مبدعات الخلقة بصراً وبصيرة، وهن مع هذه الصفات بين أبكار وثيبات كما هن.

إذاً فطلاقكن ليس إلا طلاق نساء عاديات من أبكار وثيبات، فتبديلكن بطيبات راقيات لهن ما لهن من الجواذب النسائية وزيادات خُلقية ومعنوية، فلمَ هذه المظاهرات النكراء ضد الرسول الطاهر الأمين؟!.

ولكي يرغم الرسول ﷺ أنوف المظاهرات اعتزل عنهن تسعة وعشرين يوماً، ظل فيها عند مارية القبطية، تأديباً لهن، وتطهيراً لها عما نُسب إليها، فظُن أنه طلقهن ولمّا، حتى طمأنه الله بما مضى وخلص دور التأديب والتأنيب فرجع إليهن.



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّـٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَـٰنِتِينَ ۝١٢﴾

وكما لا يجدي نساءَ النبي ﷺ كونهن نساءَه إلا أن يكنَّ قانتات عابدات صابرات مجاهدات، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يَقِه وأهليه ناراً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾:

إن وقاية الإيمان لا تكفي كعقيدة، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان، لا للمؤمن نفسه فحسب، وإن وجب كمبدأ ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فللأهلين أيضاً ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ لأنه مكفل بهم كما بنفسه، وإن كان الأهلون أيضاً يؤمرون بوقاية أنفسهم، فإنهم مكلفون، إلا أن نقصهم وقصورهم في تكفلهم أنفسهم هنا يجبر بوقاية وقيادة حكيمة ممن يأهلهم ويرعاهم فـ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

والوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية والعملية[١] للأنفس والأهلين، أن «تأمروهم بما يحبه الله وتنهوهم عما يكره الله»[٢]، فأبواب الجهاد والدفاع والموعظة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي كلها تعني الوقاية الجماعية، وكما الأمة مأمورة بالوقايات الفردية، سواء.

ثم الأهلون لا تختص بالزوجة والأولاد للزوج والوالدين، إنه يشمل كل مقود لقائده، وكل مسوس لسائسه، من الجو العائلي، إلى الأقربين، إلى العائلة أجمع، وإلى الزعامة الدينية والزمنية سواء.

﴿قُوٓاْ . . . نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فالوقود هو الزناد والصَّلاء، والناس الوَقود لهذه النار الزناد هم أصول الكفر من النسناس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[٣] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٤٤ - عن علي عليه السلام في الآية، قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

(٢) أخرجه في الدر المنثور ٦: ٢٤٤ - عن زيد بن أسلم قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فقالوا: كيف نقي أهلنا ناراً؟ قال: . . . وفي الكافي مثله عن الإمام الصادق عليه السلام مع زيادة: لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي ويقول: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١] كما ويوحي بذلك قرن الحجارة بالنار، وهي الأحجار التي يعبدونها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[٢] حجارة معبودة وأُخرى غيرها يعرِّفها الرسول ﷺ[٣].

وأما الناس المؤمنون المقصرون عقيدة أو عملاً، فهم إنما تمسُّهم نار هؤلاء الكفار على قدر تخلفهم، ثم تشملهم رحمة الغفار ويخرجون أخيراً من النار.

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ على الكفار، شداد في تعذيبهم بالنار، لا يخففون عنهم ولا يرحمون، لأنهم هكذا يؤمرون، عذاباً فوق عذاب:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهم غلاظ شداد في تنفيذ أوامر الله هناك بحق المجرمين، دون مسايرة ولا مهادنة.

فيا لها من نار متسعِّرة بغضب الله، الناس فيها كالحجارة سواء، وقوداً واتقاداً، وطالما قد تمسُّ المؤمنين غير الواقين أنفسهم وأهليهم ناراً ثم يرحمون، لكنها للكافرين الوَقود عذاب الخلود:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾:

إنهم لا ينفعهم الاعتذار، بل: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٤] فممَّ يعتذرون؟ هل من أعمالهم النجسة التي أصبحت لزام ذواتهم؟ وليس جزاؤهم إلا أعمالهم! ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: في صور الأعمال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٣) في الدر المنثور ٦: ٢٤٤ عنه ﷺ إن الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه، وإن مع كل إنسان منهم حجراً أو شيطاناً، والله أعلم.

(٤) سورة المرسلات، الآية: ٣٦.

وأصوات الأقوال، والانحرافات النفسية التي تتجلى لهم فيفضحون، وفي حقائقها التي تبرز لهم فهم بها يعذبون: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١].

هذا - ولكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح، ويوم الدين بما يكفِّر له، فإن كبائر الحسنات والسيئات فعلاً وتركاً تعذره عن صغائرها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾:

إن التوبة النصوح هي البالغة في النصح، أن يناصح فيها التائبُ نفسَه، ويبذل مجهوده في إخلاص الندم، إزالة لآثار العصيان الغابر، والعزم على تركه في المستقبل والحاضر، فإن التوبة وهي الرجوع إلى الله عن حجاب الذنب، إنه درجات، كما أن المعاصي دركات، فأفضل درجات التوبة هي النصوح: الناصحة للقلب المخلِّصة له من رواسب المعاصي وعكارها، الحاضّة للعمل الصالح بعدها، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العَود:

«أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[٢] «وأن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل»[٣]،

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٤٥ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، ما التوبة النصوح؟ قال: ... وأخرج مثله ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب عنه ﷺ: هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً.

وفي معناه ما في نور الثقلين ٥ : ٣٧٤ عن الكافي عن أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية، قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

(٣) نور الثقلين عن معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ...

وتُرى «أينا لم يعد..؟» ولكن «.. الله يحب من عباده المفتن التوّاب»[(١)]، فأدنى النصوح في التوبة هكذا تصميم، وأعلاه التطبيق.

وفي هذه التوبة الحاسمة تكفير للسيئات كلها ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: ما تقدم منها وما تأخر، ما عشتم التوبة النصوح، إضافة إلى تكفير الكبائر التي تبتم عنها توبة نصوحاً، وإلى منعها حصول السيئات من بعد.

وتُرى كيف تكفر السيئات، وقد كتبها كتبة الأعمال ويكتبونها، وقد سجلت في مختلف السجلات الإلهية من أعضائك وفضائك وأرضك ومكانك وزمانك؟: إنه تعالى «ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس عليه شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[(٢)].

وهذه التوبة من أنجح الوقايات عن النار بعد وقاية التقوى، تكفر السيئات وتدخل الجنات ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ إضافة إلى سائر المكفِّرات المكررات طيّات آياتها.

﴿... يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هذه المكرمة الإلهية للمؤمنين الواقين أنفسهم وأهليهم ناراً، التائبين توبة نصوحاً، إنها تكون ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ...﴾: أن يسوّي بينهم وسواهم، ويا له من تكريم عظيم أن يضمهم إلى نبيه فيجعلهما

(١) فيه عن القمي عنه عليه السلام في الآية بعد التفسير المسبق قلت: وأينا لم يعد؟ فقال:...

(٢) فيه عن الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي...

في صف واحد في المكرمة يوم الخزي، لأنهم ﴿ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾: إيمانهم من إيمانه، فالمعية الإيمانية توحي بدرجات عالية من إيمان، مهما كان المؤمنون معه درجات، فإن الله يضمُّ التائبين إليه إذ كانوا من حزبه معه، مهما قصُروا أو قصَّروا، ما كان حياتهم - كمبدأ - إيمانية تائبة آئبة.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ... نُورُهُمْ﴾ الخاص بهم بسعيهم ﴿يَسْعَىٰ﴾ لا - نورٌ - فنورهم ليس ظاهرياً منفصلاً عنهم حتى يمكن الاقتباس منه، وإلا لم يختص بما بين الأيدي والأيمان: نوراً ضنيناً لا يشمل! ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا...﴾[١] فهو النور الذي حصله المؤمن من ورائه: حياته الدنيا، وهو لزام لأهله لا يعدوه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٢].

إنه برهان ونور إلهي: ﴿... قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٣] وهو الإيمان الناتج عن نور البرهان ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٤] وهو العمل الصالح الذي ينتجه الإيمان، ومن ثم هو نور الفرقان وتأييد الرحمن الناتج عن مثلث النور ﴿إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٥].

ومربع النور - هذا - يتوحّد فيصبح نوراً واحداً يسعى بين الأيدي والأيمان، فقسم العمل الصالح والإيمان والفرقان سوف يكون على الأيمان، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، وقسم الهداية يكون بين الأيدي، ومنه الهداة إلى الله من النبيين والأئمة، أو أنهما يكونان فيهما كما توحي له

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

وحدة النور[1]، فالنور المربع بالأيمان يعده للحساب الحاضر، وهو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل، فهناك للمؤمن حساب ثم ثواب، كما للكافر حساب ومن ثم عذاب، فإنه يؤتى كتابه بشماله أو وراءَ ظهره، إذ كان يسعى في شماله «شهواته» ووراء ظهره «دنياه»، طالما سعيُ المؤمن في يمينه «إيمانه» وبين يديه «آخرته» فإنها إشارات لمختلف المساعي والغايات، دون الجهات الظاهرية.

وأما الشمال ووراء الظهر فهما لغير المؤمنين إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وهذا النور الساعي بين الأيدي والأيمان ينير لهم سبيلهم إلى الجنة، وهم يستزيدون غير التام من أقسامه، فالهداية الإلهية تامة لا تحتاج إلى الإتمام، وإنما مثلث النور غير التام يتطلب التمام:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه هي الشفاعة الأخيرة التي قد تُشفع بشفاعة الشافعين المأذونين، بعد شفاعة الوقاية والتوبة النصوح، وبعد ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات، فيصبح المؤمن نوراً خالصاً فينضم إلى نور الأنوار: محمد وآله الطاهرين الأبرار.

فهنالك يُلهم المؤمن ذلك الدعاء، حين يُلجم غيره عن كل دعوة ودعاء، وذلك الإلهام علامة الاستجابة، وإلا فلماذا السماح به؟ وأنه من إكرامه، كما أن في رده خزيه، فالغفر عن نقصان الإيمان وما يتطلبه الإيمان، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه وعن يمينه، مهما كان نور الهداية تاماً لا يحتاج إلى الإتمام.

---

(١) نور الثقلين عن القمي بإسناده إلى صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية، قال: يسعى أئمة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنة (٥: ٣٧٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾:

فإن المنافق والكافر نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى الحياة سليمة أمينة.

إن جهاد المنافقين والكفار - وهو بذل الجهد في إصلاح الأمر - هو من مخلفات الوقاية للأنفس والأهلين، فالواجب على المؤمنين حماية المَحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار، فلا تترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار، ولا من داخل كما المنافقون، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما، دفاعاً في المنافقين، وحرباً في الكفار، فالكافر يُحمل إما على الإسلام الإقرار، أو الجزية أو الحرب، فإلى دار البوار، والمنافق يُحمل على الإيمان أو دفع الشر، فإن حارب حورب، دون جزية ولا حرب بدائية بغية الإقرار، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ بما يدفع شرهم ويخمد نارهم. وقد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر، لأنه عدوّ من داخل، فخطورته أكثر، وكما أن عذابه أحياناً أشد وأوفر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] - ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وأخيراً مثال واقعي للمؤمنين يُطمئنهم في الإيمان، وللكافرين يخيِّب آمالهم:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتي النبي المتظاهرتين عليه[١]، وعلى كل من له صلة النسب أو السبب، أم أية صلة من الصلات بأولياء الله، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح وامرأة لوط مثلٌ للكفار، و﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يعني بها التحتية في المنزلة، لقيامه عليها، وغلبته على أمرها الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وكما يقال: فلان الجندي تحت يدي فلان الأمير، إذا كان من شحنة عمله، أو متصرفاً على أمره، ثم المرأة - إضافة إلى ذلك - تحت الرجل بحكم الله في كل ما تتطلبه الزوجية، ومنها عمل الجنس واتباع أوامر الزوج لصالحها وصالح العائلة وصالح الأمة، وهذه التحتية التكوينية والتشريعية تقتضي تلون المرأة تبلوّن صلاح الزوج كما في نوح ولوط، ولكنهما خانتاهما، رغم كونهما عبدين صالحين، وفي ذكر الوصفين بدل الاكتفاء بإشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة، وأن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة، ما لم تصلح هي نفسها.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ترى ما هي الخيانة التي ارتكبتاها فارتبكتا فيها هنا وفي الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة، والقدر المفهوم هنا منها الخيانة في أمانات الزوجية، وقد أوحت إلى مثلث منها ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ وهي وجوب كونهما تحت زوجيهما في متطلبات الزوجية دون نشوز عنها، حافظتين لأماناتها وأسرارها ومصالحها، وأن تتصبغا بصلاح العبودية، ائتماراً بأمر الوقاية للأهلين ﴿. . . وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست إذاً نشوزاً في الأمور البيتية العادية فحسب، وإنما التي تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته، ومنها

(١) تفسير البرهان - شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: مثل ضربه الله سبحانه لعائشة وحفصة أن تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفشتا سره.

ثالث ثلاثة: ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية، ومنها كشف السرِّ، وكما يُروى في امرأة لوط «أنها كانت تخرج فتصفِّر، فإذا سمعوا الصفير جاؤوا»[(١)] يعني قومه، كما وأن امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين، وتقول إنه لمجنون مع القائلين.

ومن الأولى نستطيع أن نحمِّلهما كل شيء إلا فاحشة الزنا، وكما يروى عن الرسول ﷺ «ما بغت امرأة نبي قط»[(٢)]، فبهذا الثالوث المنحوس، ولا سيما أقنوم الكفر، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان:

﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾: فلا تعني من الله إلا تقوى الله، دون أواصر القربى مع أولياء الله، فقد دخلتا النار (في البرزخ) وستدخلانها يوم القيامة، مع الداخلين، دون ميزة ولا كرامة، إنما مهانتين كسائر المهانين إليها، والقائل مجهول «وقيل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾[(٣)].

وهكذا يكون دوماً دور الكفر والخيانة الكافرة، أن لا يبررها ولا يغني عنها من الله شيء، مهما كانت القرابات والأنساب والاتصالات لهم بالصالحين، كضابطة عامة لا تشذ، فالنجسة الأخلاق والنحسة، لا يطهرها بيت النبوَّة، إلا قدر ما تأخذ من طهارتها، كما وأن الطاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر والفرعنة، بل وبالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة:

---

(١) نور الثقلين ٥: ٣٧٦ في علل الشرائع عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: كيف كان يعلم قوم لوط أنه قد جاء لوطاً رجال؟ قال: كانت امرأته...

(٢) الدر المنثور - أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي ﷺ...

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٠.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾:

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أُم المسيح، لا لسبق زمني فحسب، بل ولكي يدلنا أن أمومة المسيح وأخوة هارون وبنوة عمران لا تغني عنها شيئاً، وإنما هي تقوى الله تغني، فامرأة فرعون متحللة نسبياً وسببياً عن كل ذلك، ولكنها بتقواها في جوِّ الطغوى تستحلُّ مكانة علياً، لحدِّ تقدُّمها في الذكر على مريم عليها السلام.

أظنها الامرأة الوحيدة، في مملكة عريضة، عند أعظم ملوك الأرض وأقواهم وأطغاهم، في قصر عديم النظير، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه، فهي في هذه الأوساط الكافرة، تحت ضغط الملك والحاشية والبلاط، وضغط المجتمع السامّ، في خضمِّ هذه الظلمات الطاغية... إنها وحدها ترفضها كلها وتعتبرها سجناً وشرّاً ونحساً تستعيذ بالله منها.

تطلب من الله تعالى أن يبني لها بيد الألوهية بيتاً في الجنة يعوضها به عن قصرها، وأن ينجيها من شرِّ الطاغية (فرعون) وهي ألصق الناس به! ومن عمله، وهي تعيش تحت رحمته! ومن آله وأتباعه: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾!

وإنها لنموذج عالٍ في الاستعلاء على عَرَض الحياة وزَهرتها في أجمل صورة وأزهرها، والتجرُّد لله من كافة الجواذب المتخلفة، والهواتف المضللة، والمعوقات القوية، ولتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾: فـ﴿رَبِّ﴾ توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هذه الورطة المهلكة، و﴿ٱبْنِ لِي﴾ رفض لكل عامر ملائكي وسواه إلى معمار الكون أن يبني لها بيتاً بمشيئته دون وسائط، و﴿عِندَكَ﴾ لا تعني عندية مكانية فإنه تعالى ليس له مكان، إنما عندية المكانة

أن يبني بيتها في أرفع مكان وأعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء!

ثم تطلب النجاة المثلث من: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ الجاهل ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ الباطل و﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الباطلين الجاهلين.

ومتى تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية إلى حزبه؟ فكيف طلبت أولاً أقرب الأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش إلى جوار رحمة الله، أن يقبضها الله إليه، وقد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني، ومنها أنه «وتدَ لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلَّتها الملائكة، فرفعت رأسها إلى السماء فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ - إلى - ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته[1].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾:

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، يردد ذكر مريم عليها السلام أربع وثلاثين مرة، تكريماً لها، وذوداً عن كرامتها التي مُسَّت بتُهمَ اليهود، وتدليلاً على أن المسيح عليه السلام وُلد دون أب «عيسى ابن مريم» مما لم تجتمع في غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة عليها السلام، فإن الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها، وليسا من الفضائل الهامة للمرأة، وإنما إبراز معجزة إلهية ودفع تهمة التصقت بها عبر هذه المعجزة: «حَملها دون زوج يُعرف».

هذا، ولكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا وفي آية أخرى في عداد

(١) الدر المنثور ٦: ٢٤٦ - أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب والتابعين.

فضائلها، ويفرَّع عليه نفخ الروح فيه، كما هنا، وفيها كما في الأخرى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[1] مع أن حفظه لا يختص بها، وأنه من أوَّليات واجبات الإيمان؟ ثم تُرى، ما هو المنفوخ فيها وفي فرجها؟ وماذا حملت في هذا النفخ؟ أروح المسيح، أم هي مع جسمه، أم نطفة الرجولية مع الروح، أم ماذا؟..

فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[2] ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[3]؟ ولدفع اختلاق النصارى لها عشيقاً خطيباً هو يوسف النجار، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا وذاك وإن كانا من الدوافع لذكره، ولكن لا يتفرع على إحصان الفرج - هذا - أن ينفخ فيه من روح الله!.

أو ولأنها كانت معرَّضة للحملة الجنسية، لجمالها، وأنها نذرت لخدمة البيت فكانت فيه ليل نهار، ولكنها غلبت على مختلف النوازع والعراقيل قانتة مجاهدة رافضة للجنس حرامه وحلاله، ولأنه ينافي وحريتها في خدمة البيت، وقد نذرت أُمها ما في بطنها محرراً: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ... وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾[4]: تقبَّلها ربها مريم كما سميت وهي: الغالبة، وتقبُّل إعاذتها وذرِّيتها من الشيطان الرجيم، فهي إذاً غالبة معوَّذة من الشيطان عند الله، ونابتة نباتاً حسناً عند الله، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهي في عنفوانها، وهي بمعرض مختلف الرجال في بيت الله ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحساناً عالياً لها

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٢٨.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

من الله المنّان ومن أحسنه أن نفخ في محل الإحصان روحاً منه، فقد جمع إلى الدافعين الأولين لذكر الإحصان هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصبحت أُم السيد المسيح عليه السلام، ثم وعلى حدِّ المروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوف تكون من أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة[1].

ثم وماذا حملت؟ فطالما الآية الأخرى ﴿... فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أجملت عن مدخل الحمل، فآيتنا ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ تصريحة أن مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذاً ﴿فَرْجَهَا﴾ لا هي نفسها، ولا جيبها، رغم ما حاوله جمع، فإنه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها، لا جيبها، والروح نفخت في فرجها، لا فرج جيبها!

فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروحٍ من الله نتعرف إلى كيان هذه الروح وهذا اللقاح، أن ناب لقاحَ الرجل دون رجلٍ، فلم يكن حملها المسيح بمقاربة كالعادة، بل بالنفخ والإلقاء الإلهيين في فرجها، فإن المسيح هو الروح والكلمة الملقاة إلى مريم ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[2] فالروح نفخت من المجرى التناسلي، مما يدلُّ على كونها جسماً مّا، وعلَّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة، فبالإلقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق الرحم فتزاوجت مع النطفة الأنوثية، فأصبحتا جنيناً، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية في الجوهر وأنها مخلوقة،

---

(١) الدر المنثور ٦: ٢٤٩ - أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.
أقول: وهذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه صلى الله عليه وآله وسلم إذ لا تحتاج إلى زواج جديد.

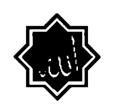
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

وإضافتها إلى الله ﴿رُوحَنَا﴾ تشريفية تشرفها وتفضلها على كثير من الأرواح، وليست جنسية تعني أنها جزء من الله أو من روحه، وكما الروح المنفوخة في آدم تملك هذه النسبة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(١) مما يفضل روح آدم على غيره، وكذلك المنفوخة في بني آدم كلهم: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(٢).

فأرواح بني آدم تمتاز عن غيرهم من ذوي الأرواح كما هنا، وأرواح المؤمنين منهم تمتاز على سواهم (٥٨: ٢٢) وأرواح النبيين على سواهم (٤٠: ١٥) والمسيح على غيره (٤: ١٧١) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (٤٢: ٥٢)، فالإضافة إلى الله فيها كلها تشريفية لا تعني أنها بعض من ذات الله! وسبحان الله!.

وقد نوافيكم بتفصيل هذا الحمل المبارك في طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم عليها السلام.

ثم الآية تبيّن بعد فضيلة الإحصان، تصديقها بكلمات ربها وكتبه، وأنها كانت من القانتين: المطيعين، وتذكير الضمير في ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ دون «القانتات» تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عدة وعدة، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال، رجولة في قنوطها وبطولة في تصديقها.



(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٩.